وليد النجار
الى
السقوط
رواية

إن حوادث وأبطال هـــذه الرواية ، جميعاً ، من نسج الخيال .. وإن أي تشابه ، قريباً كان أو بعيداً ،مع أي إنسان ، حياً كان أو ميتاً ، لهو من محض الصدفة ..

المؤلف

وليد حجار

إسماعيل العربي

السقوط إلى أعلى

رواية

جميـع الحقوق محفوظة للمؤلف

١٩٧٣

« أحتقر آراءكم .. أراها كما يُرى في
إناء زجاجي .. أربع أو خمس سمكات
حمر .. تقوم ، دائماً بنفس الحركات ..
وتظفر ،أبداً بنفس الاكتشافات .. »

بول فاليري

في العالم ألوف الملايين من البشر . . لكل من هؤلاء قصة . . وقصة فراس واحدة من ملايين القصص ، لماذا أرويها ؟ . لماذا يروى أي إنسان قصة ؟ . .

سيقال « إنها قصة أفراد . . » ، . . « أفراد من طبقة تحتضر » .

الكون كلٌ ، وعوالم ، وذرات . . وعالمنا مجتمعات ، وطبقات ، وأفراد .

أثمة وجود دون تناقض ؟ . . وهل من تناقض دون طرفين ، وجود كل منهما شرط لوجود الآخر ؟ . .

فللذين يرون المجتمع طبقات ، أقول . . إن وجود طبقة تحتضر ، شرط لوجود طبقة تحيا . . ومعرفة طرف معادلة ، شرط لفهم طرفها الآخر . .

متى تبتدىء قصتي هذه ؟ . . متى تبتدىء أية قصة ؟ . .

أحين يسترعي انتباهي حدث ما ، فأنطلق منه لألاحق ماتعاقب عليه من نتائج ؟ . . ماهي الأسباب التي تجمعت ليتم هذا الحدث ؟ وما هي العوامل التي تراكمت لتوفر شروطه ؟ . .

هل هنالك بدء لأي حدث ؟ . . هل الأحداث سوى تاريخ تحول انتباهنا نحوها ؟ . . من الذي يستطيع أن يختار نقطة من الزمان ، ليقف إزاءها ، ويقول . . هنا تبتدىء قصتي ، أو أية قصة كانت ؟ . .

ومع هذا ، أراني مرغماً على اختيار مثل هذه النقطة . .

متى أبتدىء ؟ . . أحين وصلتني رسالة من فراس تستعجلني لزيارته ؟ . . وقوله . . « . . ألا تود أن ترى صديقك قبل أن يغوص في أعماق المجهول ؟ . . تعال إذن . . أسرع ! . . »

أحين أسرعت إليه ، وإلى دمشق ؟ . .

القسم الأوّل

الفصل الأول

دخلت عبر دمشق عالماً كنت أظنه أسطورة ..

لكل باب وجهان . . وجه للمارة ، ووجه لمن دخل عبر الباب ، ثم استدار ليرى وجهه الآخر . . أما أنا ، فدخلت دمشق مستنيراً بشعل يحمله غيري ، يحمله إنسان لاينتظر المتلكئين ! بت أخاف إذا التفت لأرى وجهه الخلفي ، أن يسبقني المشعل ، فأفقد النور ، وأضل الطريق .

فراس كان دليلي ، وفي الدليل يفترض التجرد . . لكن هذه القصة كانت عالم فراس وكان هو بالذات مرشدي إلى خباياه ، فأين تنتهي الحقيقة ، ويبتدىء الخيال ؟ ..

كنا في الماضي كأوثق مايكون عليه صديقان من ارتباط .. لكن واحدنا لم يسع بأكثر مما تسمح له الظروف للقاء الآخر . . أما وقد قضيت شهوراً في دمشق ، رافقت فيها أولى مراحل قصة فراس ، باتت هذه الزيارة فاتحة اتصال دائم بيننا ، تابعت فيها أحداثها التي أروي بأخلص ما استطعت .

لم أجد جهداً كبيراً في جمع حوادث ما أكتبه .. كان فراس يطلعني باستمرار على مايجري له برسائل ، رحت أنسقها ، وأستخلص الأحداث من خلالها . وعندما كان يستعصي علي فهم بعض الملابسات ، كنت أسعى للقائه لأستطلع ماخفي عني من دقائقها . لكن اهتمامي بهذا العالم الجديد سرعان ما ازداد ، حتى وجدت نفسي أنساق في أروقته كالمسحور . أحبه وأعجب به تارة ، وأكرهه تارة أخرى .

واقع لزج ، أشعرني مراراً أني على وشك الاختناق .

أنا لا أقصد بهذا القول عالم الأسطورة والوقائع المثيرة .. بل غرابة في بنيان هذا الشرق لم أفهمها ، أكاد أقول .. ازدواج في شخصيته . لعلني أستبق الأحداث حين أذكر حواراً دار بيني وبين فراس ، لكنه حوار قصير ، وقصتي طويلة فلا بأس أن أذكره الآن ..

قال لي ..

« إن شئت أسميتها علة .. وإن شئت أسميتها واقعاً ؟ .. دعني أشرح لك .. لئن صح قول « لايبنتز » بأن اللغة خير مرآة للنفس الإنسانيـة ، فالعلة تكمن في أن لدى الشرق اليوم نفسين .. تحاكي الواحدة منهما لغته الفصحى ، بكل ما في هذه اللغـة من عظمة وبطولة .. وتجاري نفسه الأخرى لغته العامية بما في هذه العامية من هزالة وضحالة وفكر محدود ! .. ولئن صح قول فلاسفة قرننا بأن فكر الإنسان ولغته مرتبطان إلى حد أنهما يشكلان وحدة تامة لاتتجزأ ، بحيث يستحيل على المرء أن يفكر بغير ماتسمح له لغته ، .. لئن صح هذا القول ، ولا شك عندي أنه صحيح ، فهل هنالك أغرب من الشرقي ، لايفكر سوى بلغته الفصحى ، لغـة السيف ، في عصر الذرة والآلة ، لغة الشعر ، في عصر الفلسفة السيمنتيكية ، لغة المبالغة ، في عصر الذرة والاقتصاد ؟ .. وما أتفه الشرقي الذي لايعرف ولا يفكر سوى بلغته العامية !! » ..

— إذن .. الشرقي الذي لايتكلم سوى لغته العربية ، ضائع بين أحلامه الفصحى ، وواقعه العامي ؟ ! ..

— بالضبط . .

— أليس هنالك من حل وسط ؟ ..

— الحل ليس في يدي الأفراد ! .. سيأتي الحل حين يجد العرب وسيلة للتعبير ، ومن خلالها ، منطلقاً في التفكير ، لايحمل في طيـاته أصداء معتقدات ومفاهيم أخلاقية ، وذكريات أمجاد لاتمت لواقعهم الحقيقي بأية صلة ! .. لكن هـذا حديث يطول .. مالك ولمشا كلنا المعقدة ؟ ! ..

كنت في طريقي إلى مطار « أورلي » ، مرحاً لأن نداء فراس هيأ لي العذر لمغادرة بلدي باريس ، سعيداً بالتطلع إلى قضاء عطلتي الصيفية معه .

لم أكن أدري يومها أنني كنت أبحث عن شيء بذاته في صديقي .. وأن مرجع قلقي تجاهه كان عدم وضوح ما أسعى إليه ..

كان الشرق أحجية تشغل من نفسي حيزاً كبيراً ، من الطبيعي أن يتجسد القسم الأكبر منه بفراس وغيره ممن عرفتهم فيه . تجول في رأسي تساؤلات عدة ، ماذا وراءهم ؟.. كيف يعيشون ؟.. ماذا يحركهم .. وإلى أين ؟.. رحت أنظر إلى من عرفت من الشرقيين باحثاً عن الأجوبة ، أسئلة ، ظننت أنني كنت أطرحها بوضوح وموضوعية متجردة .

جلست في الطائرة أعيد قراءة رسالته .. « قبل أن أغوص في أعماق المجهول » .. أي مجهول تراه يعني ؟.. ألا نهاية للمفاجآت في حياته ؟.. لكن شوقاً إليه استبد بي ، فرحت أضحك في سري ، وأستعيد ذكريات الطفل فيه .

ثم تهت في أفكاري ..

نظرت من نافذتي الصغيرة .. خواطر لا قياد لها .. الأرض تزحف ببطء ممل ..

غريب هذا الهدوء !.. ألم أترك تحتي طرقاً واسعة تتسابق على أسفلتها ألوف البشر نحو مدن تعج بملايين الناس ، يقتتلون في سبيل الشهرة أو الرزق أو الاحتكار ؟.. أليست هذه الخطوط الواهية التي لا أكاد أميزها هي تلك الطرق التي يقتتل عليها الناس ؟ ..

أليست هذه البقع الداكنة ، البعيدة ، الصامتة ، مدناً تتناطح فيها ملايين الأهواء والآمال ؟..

وهذه البقع القاتمة الساكنة ، التي تنقشع عنها بُسُط السحب البيض ... أليست غابات ، لو اقتربت منها ، لوجدتها تطفح بالحياة والتآكل والموت ؟..

أين أنا من كل هذا الآن ؟.. أين حشرجة عجلات الطائرة على مدرج كاد يلتهمها

قبل أن تقلع ؟.. ودبيب المخلوقات ؟.. ونظراتها ؟.. وأنفاسها ؟.. أين الطرق والمدن ، والغابات ، والجبال ، والوديان ؟..

كيف تساوت كلها إذ علوت ؟.. ثم بهتت حين ابتعدت ، ثم ضاعت !.. ضاعت ؟.. هل ضاعت ؟..

أسدلت ستار نافذتي الصغيرة متعجباً ، وأغمضت عيني مستسلماً لهدهدة المحركات.. عالمي الآن فقاعة معدنية تنساب في أحشاء الأثير !.. فقاعة معدنية !..

والعالم الآخر ؟.. أين هو ؟.. ذكرى ؟.. معرفة ؟..

وما هي معرفتي هذه ؟.. ذاكرة ؟.. أثر شحنة كهربائية على إحدى ألوف ملايين الخلايا التي في دماغي ؟..

ألهذا يؤول وجود الأرض ؟.. إلى شحنة كهربائية ؟.. إلى وجود في وجودي ؟.. ابتسمت في سري ، هزئت متعجباً ، أهكذا كان يفكر « بركلي » ؟..

لاحت في مخيلتي صورة فراس . ليته كان معي لأحدثه عمّا يجول في ذهني . كنت في طريقي إليه ، هل غير الزمان من طباعه ؟.. لا أظن ذلك .. الناس في تطور ، وفراس يشعر أنه قد وصل ..

وصل ؟.. إلى أين ؟.. إلى ماذا ؟..

من أي معدن هو خيط « أريان » الذي يهتدي به ؟ .. وبضوء أي منطق تراه يستنير ؟.. هل يتيه في عالم الخواطر مثلي ؟.. يطرح على نفسه أسئلة لا يجد أجوبة لها ؟..

لابد أن هنالك حلولاً كثيرة تستعصي عليه ، فالتناقضات حيث سرنا ، ومعرفة أسرار الوجود لم تُعطَ لأحد .. لكن فراساً لا يقف موقفي من هذه الأمور ، ولا يطرح على نفسه الأسئلة !..

الناس إما عارفون بالشيء ، أو جاهلون به .. أما هو .. فلكم أوقعني في حيرة بما أفهم منه ..

ماذا أقول .. أيعرف فراس ما يجهل ؟.. أيجهل واعياً ما يعرفه .. إنه يرفض أصلاً هذا

المنطق أو مثل هذا التصنيف .. ألم يقل لي مراراً : « سيأتي ذلك اليوم الذي فيه ستسقط منطق أرسطو من زادك .. »

نقلت المكبرات صوت قائد الطائرة .. « نحن نحلق الآن فوق قبرص .. سنهبط في دمشق بعد نصف ساعة » .. دمشق !.. أتيت دمشق لأول مرة منذ عامين ، حللت إذ ذاك ضيفاً على صديقي ، وقضيت في صحبته أشهراً عدة ..

ما أحزن الذكريات التي تركتها تلك الزيارة في نفسي ..

قيل لي إن في دمشق دمشقيين تعكس حياتهم وتصرفاتهم خضرة بساتينهم ، ودماثة الجداول التي تمر في بيوتهم .. فتشت عنهم فلم أجدهم ، بحثت عن بقاياهم حتى ملني البحث .. أين هم ؟.. ترى ماذا حل بهم ؟..

كرهت الشرق لفرط شغفي به !.. لاريب أنها مرحلة يجتازها .. أو سأجتازها أنا .. تخلف سيتخطاه .. أو نقمة ، سأنساها !.. لكن الفرق شاسع بين كاتب غربي مثلي ، يدوّن الأحكام على أوراقه ، وبين إنسان يعيش هذا الواقع عن كثب ، ويتعذب من تناقضاته !..

ما أسهل على نفس الإنسان ألا تعرف سوى عالمها فتعيش قانعة به ، غير مدركة لنقصه وعيوبه .. وما أكثر هؤلاء القانعين في تلك المدينة ..

حتمية تاريخية يمر بها الشرق .. لابد وأن لها من آخر ..

قد يحزن الإنسان على جمهور متأخر يطبل ويزمر لفنانين وأدباء باهتين .. جمهور ينصب على نفسه حكاماً من طينته .. حلقة تكاد تكون مفرغة ، يؤذي المتأخرون فيها بعضهم .. يأسف لها الإنسان ، لكنه لايبكي !.. إنها دراما ، وليست بتراجيديا !..

إن مايبكي في الأمر ، أن المأساة بأوسع معانيها ، هي مكان الفنان الحق ، وموقفه من هذه الجماعة ، ثم مصيره على أيديها ..

ماذا أقول .. لو أن العالم بأجمعه كان على نسبة واحدة من التخلف ، لسهل الحل أمام الفنان الواعي ، ولكان صمته ، أو موته في بعض الأحيان ، حلاً لأسبقيته !.. لكن ،

والعالم كما هو عليه من اختلاف في درجات الحضارة ، فما أقسى أن يولد لجماعة متخلفة إنسان سباق حق ، ليجد أن لامكان له على أرض يحبها ! .. فنـــان تتنازعه نداءات حضارات أخرى ، فيسد أذنيه ، يمزقه الإغراء أمام غناء حوريات البحر ، بينما قومه ، خلافاً لقوم « أوليس » يجرّحونه ، ويدفعونه إلى بتر جذوره واللجوء إلى غير قومه ، وغير أرضه ..

جال في ذهني قول آخر لصديقي ..

– يقول « هولدرلين » : « يمكن للإنسان أن يسقط إما إلى الأعلى أو إلى الأسفل » .. فما أقسى على الفنان أن يرى جهل قومه يدفعه لأن يسقط إلى فوق !! ..

لم أكن أتصور قط بأن زيارتي تلك ستنتهي بزواج صديقي .

أذكر يوماً جلسنا فيه في إحدى مقاهي باريس ، وإذ كنت أحرضه على الزواج من فتاة إفرنسية أحبَّها ، قال لي متهكما بلهجة المعلم ، وكأنه يقرأ في كتاب : « الزواج مؤسسة أوجدها المجتمع للحفاظ على الملكية الفردية .. إن أول إنسان قال « هـــذه أرضي » وأراد أن يرث أبناؤه عنه ما ملكه ، كان عليه بالطبع أن يضمن صحة ماينسب إليه من بنـين .. فامتلك في بادىء الأمر المرأة ، فإذا ماتطور المجتمع ، وتطورت بالتالي ملكيته للمرأة ، تحولت إلى مانسميه اليوم « زواجاً » ، ثم أوجدت كل بيئة نظاماً ، أو عقداً لهذه المؤسسة يتوافق مع ظروفها الخاصة .. »

ما الذي حدا به إلى الزواج إذن ؟.. يرفض الزواج من فتاة أحبها وأحبته ، ثم يعقد لنفسه على فتاة شرقية لايكاد يعرفها ..

ألأنها شرقية ؟.. أين الشرق وأين ماتحمله هذه الكلمة من حضارة وصور ، مما هو عليه الشرق اليوم ؟..

صحيح أن فراساً هو الآخر ولد في الشرق .. لكن ظروفه شاءت ألا يتشرب منه سوى عبير صنوبره ودفء تربته الحمراء .. تلقف من الغرب ثقافته ، فغدا نبتة برية صلبة الساق قوية ، تفوح للشرق منها حضارة الغرب ، بمنطقه وتنسيقه ، وإن تحركت في الغرب تبوح بشذى شرقي ، وثقة بأصالة تاريخ يعود إلى آلاف السنين .

صعقت حين أراني من اختارها شريكة لحياته ..

كان واضحاً أنها تكبره ، قصيرة القامة بدينة ، ولئن كانت حرارة الكبت تضفي على عينيها بريق الجنس ، فقد كانت ذات بشرة داكنة غير متجانسة ، معقوفة الأنف ، طويلته ، إذا ضحكت تكشفت شفتاها عن أسنان ظهر التآكل على أطراف بعضها .

ماذا أعجبه فيها ؟.. أهي ضحكتها المحببة ؟.. أهو بريق عينيها ؟..

كيف عمي عن تعقيدها ؟..

كان واضحاً أن قبحها يعذبها ، يزيد من تعقيد نفسها أنها من أسرة جبلية همها الأوحد كان تقليد مظاهر المدنية عند أهل العاصمة ..

لم أحاول التعامي أو اللجوء إلى المجاملة ، ولعلني لم أكن قادراً على إخفاء امتعاضي ..

بادرته فصارحته عن دهشتي ، وإذ به يضحك ببساطة ، ويقول ..

ــ والمضحك في الأمر إدعاؤها أنها ، إن لم تكن آية في الجمال ، فإنها على الأقل من الجميلات !..

ضحك طويلا ثم تابع ..

ــ لعل كبرياءها يحرضها على هذا القول .. لكن ، لاعليك ، فإن أول شيء سوف نقوم به بعد الزواج هو إجراء عملية لأنفها وأسنانها .. أما البدانة ، فإن نظاماً صارماً للطعام يكفي لأن يجعلها من عداد الرشيقات .. سوف ترى التحول !..

ــ وهل يزيل مبضع الجراح مركبات النقص التي تتولد عند العانس كلما طالعها وجهها في المرآة ورأت فيه سبب كبتها ؟.. إن أقسُ يافراس ، فما هدفي من ذلك سوى أن أستثير عقلك ، علك تتدارك الشر قبل وقوعه !.. لست أدري ما الذي تراه في هذه الفتاة .. إن عالمك غير عالمها .. وشتان ما بين مفاهيمك الغربية ومفاهيمها !.. لا أخالك جاداً لو اعتقدت أن قشرة المدنية الصدئة التي تحيط بها نفسها ستصمد طويلا أمام ما يعتمل وراءها من أمية في التفكير !.. هل تحسب أن سحر ماتراه في وجهها من خفر وعفة شرقيين ، ذلك السحر الذي افتقدته في فتاتك الغربية ، سيلازمها طويلا بعد الزواج ؟..

ــ أتظن أني غربي ؟!
لم أدر بما أجيبه .. سألته بعد تريث ..
ــ هل تحبها ؟.. أهذا هو السبب ؟!
ــ لست أدري ..

وبين هدير المحركات ، وفوق بساط لامتناه من زرقة البحر ، عادت إلى مخيلتي مقاطع من رسائل فراس بعد زواجه ،ظهرت في ذهني كأنها السحب المتباعدة التي كانت تخترقها الطائرة بومضة عين ..
« .. شهوة عارمة .. »
« .. شبق مخيف .. »
« .. ليتني استمعت إلى نصحك .. »
« .. جدار من الكبت انهار في ليلة ، وتدفق ماترا كم وراءه خلال سبعة وعشرين عاماً من الحرمان .. »
« .. تناقض هائل في شخصيتها .. »
« .. سيل جارف من أبغض أنواع الغيرة ، يتطاير فوقه رذاذ من أنقى المشاعر وأخلصها .. »
ثم اتخذت رسائله حيال هذا الموضوع طابع الحذر ، تلاه شيء من البرود ..حتى غدا ، وهو الذي لم يمض على زواجه سوى أربعة عشر شهراً ، إذا تحدث عن زوجته ، تحدث عنها وكأنها واقعة ليتها لم تقع ! .. أما وأنها وقعت ، فمن الأفضل أن يتركها وشأنها !..

ومن نافذة الطائرة ، بدأت بقعة بعيدة رمادية تتسع وتكبر ، تفتحت النقاط بها عن مربعات .. والمربعات عن سقوف أبنية كبيوت الدمى .. وإذا بالمكعبات تغور جوانبها بالعمق .. وتظهر نقاط سوداء على سقوفها وبين أخاديدها تتحول إلى رؤوس بشر تمر كالبرق الخاطف أمام النافذة ... وإذا بخيط كالدخان الواهي ينبسط فجأة ويتسع كحائط جبار ، يكشر سطحه الأملس عن أنياب تنهش عجلات الطائرة، فتجعر هذه وترتعد جوانبها مرة ثم مرتين ، وفي المرة الثالثة تنزلق مستسلمة إلى قدرها، كمن أعيتها المقاومة فاستكانت .

هرع فراس لاستقبالي ، فابتسمت ، وانتابتني غصة شوق للقائه ..

أقبل يضمني إلى صدره بقامتـــه الفارعة وساعديه القويتين ، كأن أعواماً مرت منذ لقائنا الأخير. انهال علي يسألني لهفاً عن أبسط أموري ، إلى أن غصصت بمحبتي له ، وأحسست وأنا أنظر إلى عينيه الضاحكتين أنه بودي أن أشيح النظر عنهما ..

سألته ونحن في السيارة ننتظر السائق الذي انهمك في نقل حقائبي إليها . .

ــ لماذا طلبت مني أن أهبط في دمشق بدلاً من بيروت ؟..

ــ كي نبتعـد ولو لمدة وجـــيزة عـن صخب تلك المدينـة ، وبلهجـة هادئة أضاف .. وقذارتها . .

ــ لكنك تقيم في بيروت ..

ــ نعم ، ولي هنا في دمشق ملجأ .. أسترجع قواي فيه ! . .

قذارة بيروت ؟! .. لابد أنه يمزح ، إذ عادت إلى مخيلتي صور من قذارة المطار الذي كنا على وشك أن نبرحه . لابد أنه كان يقصد قذارة أخرى . .

كنت أعـلم أن دمشق هـي مسقط رأس فراس . . وأن لها في نفسه ما للطفـل من عطف أمه ، لذا فضلت ألا أناقشه فيما أراه .. لكني تعجبت لبلد تضع للعالم أمثاله، وتضع في الوقت ذاته أمثـال ذلك الرجل الذي شاهدته في المطار ينفـــخ قـذى أنفه بأصابـع يديه ، ثم يمسح أصابعه الملوثة على الحائط !..

و كأن ذلك المشهد لم يكن كافياً، إذ مررنا بسوق يعجّ بالذباب،ويطفح بالروائح الكريهة ، ثم اقتحمنا طريقنا بين بيوت مبنيـــة من التراب والتبن ، تعيش فيهـا ، كالحشرات ، نساء لايخرجن إلى النور إلا ملتحفات أكياسهن السوداء ، ناقـلات فيهـا البلادة والجهل عبر الأجيال ! . .

أهذه دمشق التي يحبها فراس ؟ .. أهذا البلد الذي يسترجع فيه قواه ؟ . .

غابت السوق ، خرجنا إلى الشوارع النظيفة ، إلى الجداول السبعة المحاذية لمدخل المدينة الفسيـح.. أحسست بصلابة قاسيون وقدمه .. دخلنا دار فراس التي لا أبواب داخلية لهـا ، فوجدت نفسي أتنقل مرة أخرى في ذلك البهو الأوربي الفسيـح ، وبين نماذج من التحف الفنية ، بين الشعر والموسيقى وأحدث الآثار الأدبية العالمية .

أربأ بنفسي أن يكون لانطباعاتي نفس منطلق « أندريه جيد » حين يصف ذباب الجزائر وفتيتها !.. وأكره أن يكون لإعجابي به مايذكر بإعجاب « جيد » بعثمان أو بذكائه الفطري !.. لست بصدد مساجلة بين مدنية وأخرى ، ولا كوني غربياً يحتم علي أن أرى العالم من منظار « روديارد كبلنغ » . . شرق أو غرب ، وعلى جميع من في هذا العالم أن يقع في هذا الحيز أو ذاك . .

لكن ، ماذا في عالمي أنا ؟ . . لقد أسقطتُ من زادي أشكال التصنيف . . أحسست بخطرها فقذفتها الواحد تلو الآخر كمن يلقي بمتاعه إلى البحر خوفاً من غرق القارب . . كانت قضية حياة أو موت . . ونجوت ! .. كان للحياة أجل المعاني حين كان الموت محدقاً بي ، أما وقد زال الخطر ، فما معنى أن ينساب القارب ؟ . .

لكن هل كنت لأطرح هذا السؤال لو أنني نجوت فعلاً . . أم خُيّل إلي أنني نجوت ، قبل أن ألقي بجميع أمتعتي البالية ؟ . .

* * *

الفصل الثاني

ـ أما زلت تذكر كيف كان لقاؤنا الأول ؟ . .

كان فراس يقود سيارته في نزهة هادئة في ضواحي دمشق الوارفة ، ضحك،وقال دون أن ينظر إلي . .

ـ أذكر كيف كنت تتفحصني في بهو الأوبرا الزجاجي !.. وأضاف مازحاً .. هل يمكن للمرء أن ينسى تلك النظرات ؟ . .

أجبته على الفور . .

ـ تستغرب نظراتي ؟! . . كيف لا أتفحصك ، حين أراك في لباسك الأسود الأنيق بالأوبرا ، ثم أذكر أني شاهدتك في اليوم ذاته بزي بحّار ، تعلو أذنك لفافة دخان، بينما تعزف ألحان باريس القديمة على أرغن يدوي أمام مقاهي الحي اللاتيني ؟! .. بحقك كيف تود ألا أتفحصك ؟ !!. .

قهقه في مرح ..

ـ وهل تذكر الفتاة التي كانت معي ؟ . .

ـ لا .. لم تلفت الفتاة انتباهي في بادىء الأمر ، ولكنني حين عدت إلى المقهى، في اليوم التالي ، لأتحقق من أمرك ، رأيتكما تقتربان ، حتى إذا ابتدأت بالعزف ، تحينتُ فرصة اقترابها مني ، وسألتها عن هوية الرسام الذي كانت تعرض رسومه للبيع ..

ـ رسوم بالحبر الصيني ؟..

ـ نعم ، رسوم جيدة ، موضوعها شاب يشبهك ، في زي بحار ، له لحية ، ولفافة على أذنه ، متكىء على شجرة ، يعزف على أرغن «بارباري» !.. صورتك بالذات !..

ـ وبماذا أجابتك الفتاة ؟ . .

ـ أذكر أنها قالت بلهجة مسرحية طريفة . . « إن الرسام ياسيدي ، هو هذا الموضوع الذي تراه على الرسم . . » ثم نظرت إليك : « هو هذا الأباشي الذي تراه متكئاً على الشجرة » ، ومدت ذراعها بحركة مسرحيـــة نحوك ، ثم قالت . . « هو مكسيم ! . . مكسيمنا الشهير » ! . . « وأنت ، ماذا فعلت آنذاك هل تذكر ؟ . .

ـ لا . . ماذا فعلت ؟ . .

ـ كنت تنظر إلينا . . وإذ أشارت الفتاة إليك بذراعها ، حركت قبعة البحار التي على رأسك إلى الأمام ، حتى كادت تغطي عينيك ، وقمتَ بانحناءة مسرحية فيها كثير من التهكم والمزاح ! . .

عاد فراس إلى القهقهة . . ثم أعقب بشيء من الشرود . .

ـ بودي لو أعرف ماذا حل بهذه الفتاة . . كانت جميلة طموح ، من أصل إسباني ، واسمها « بيبيتا » أو هكذا كانت تقول ! . . ولها صديقة جميلة كانت تغني في « التابو » ، دارت الأيام ، فإذا بصديقتها تصبح « جولييت جريكو » الشهيرة ! . . أما هي فقد غابت أخبارها عن الحي ، لا أحد يدري إلى ما آلت ! . .

سكت فراس . . طـــارت ذكرياتي إلى حي « السان جرمان » ، وكيف ابتعتُ عدداً من تلك الرسوم التي كانت تحملها الفتاة ، طالباً منها أن تعرفـــني إلى « مكسيم » . . إلى فراس . .

مكسيم . . اسم اتخذه فراس لنفسه في باريس . . أتراها نزوة من نزواته ؟ . . أم هرباً لاشعورياً من كل رباط بحاضر أو بماض أو بمستقبل ؟ . .

أذكر أني سألت يوماً صديقاً له عن رأيه فيه فأجاب : فراس إمـــا مجنون ، أو إنسان على درجة عالية من الذكاء ، يلهو ويهزأ من الجميع . .

نظرت إليه ، وإذا به يمعن النظر إلي . .

ـ هل عدت إلى البحث والتدقيق ؟ . .

ابتسمت ، لعل مظهري كان قد اتخذ طابع الجدية المضحكة ! . . أشعلت لفافة وسألته مغيّراً مجرى الحديث . .

ــ وماذا تنوي أن تفعل الآن ؟. . ألا تحدثني عن هذا المجهول الذي أنــذرتني أنك ستغوص في أعماقه؟ . . ألا تفكر أبداً بالرجوع إلى باريس ؟. .

ــ سأذهب إلى الشرق . .

ــ ألست في الشرق ؟. .

ــ مزيداً من الشرق !. .

ــ أي شرق تعني ؟. .

ــ إلى الصحراء والرمال . . إلى الخيام والخيل والبدو الرّحل!!. .

ومد يده كمن يشير إلى أفق بعيد . .

ــ أجاد أنت ؟. .

ــ طبعاً !. .

ــ وماذا ستفعل هناك ؟. .

ــ هيّىء نفسك لهذه المفاجأة !. . سأقوم بإدارة مشفى أو شركة إسمنت !. .

لم أستطع أن أخفي عجبي وحيرتي . .

ــ وماذا تعرف عن إدارة المشــافي أو شركات الإسمنت ؟ . . ماعــلاقتك بهذه الأمور ؟. .

ضحك طويلاً . . أوقف سيارته في مكان هادىء ، ثم قال وهو يشعل لفافة شرع يدخنها بهدوء . .

ــ أتذكر الأمير هلال ؟. . سفير بلاده في باريس ؟. .

ــ أذكر أنك حدثتني عنه في الماضي . . وعن مرحكما حتى الصباح حين كنت تريه مجاهل باريس !. .

ــ بالضبط !. .

وتابع وهو لايزال يبتسم . .

ــ إن لزوجة هذا الأمير أختاً تدعى ميساء، هي صديقة زوجــتي ، والسبب في قراري هذا . .

تنبه فجأة إلى أمر ، فاستدار نحوي بحماسة طفولية ظاهرة . .

ـ يجب أن أحدثك عن لقائي الأول بها .. ألديك مانع ؟..

ـ طبعاً لا !..

صمت فترة،ثم قال ..

ـ لم أكن أدري بصداقتها لزوجتي إلا منذ حين .. كنت قد مللت التعرف إلى صديقات زوجتي .. مللت زينتهن الموحدة .. وعقولهن الفارغة .. وتعليقاتهن المتشابهة. « كم أنت محظوظ بزواجك يافراس » .. « قلما اجتمعت العفة والتحرر في امرأة مثلما اجتمعت في زوجتك».. « سيدة صالون من الدرجة الأولى » .. وما أن كانت تسنح لبعضهن فرصة التحدث إلي على انفراد ، حتى كن يشرن إلى قبحها بأقوال مثل .. « لقد أحسنت الاختيار يافراس .. فالجمال ليس كل شيء ! .. » « إن زوجتك ست بيت . . وفي هذا مايعوضها عن جميع ماقد ينقصها من الأمور الأخرى . . » فلما أصرت زوجتي على أن أتعرف بيساء .. « صديقتها ميساء » .. « أخت زوجة الأمير هلال » هيأت نفسي لأسوأ الاحتمالات .. وأيقنت أن هذه الصديقة ستفوق جميع من سبقنها في فن إطراء زوجتي والمبالغة في وصف مزاياها ! ..

سكت قليلا ثم تابع ..

ـ دهشتُ لما رأيتها .. أقبلت أصافحها بصمت وأناأنظر إلى شعرها الذهبي المتهدل على كتفيها .. وأعجب بنظراتها الذكية المتفحصة !..

مازالت تعلو شفتيها ابتسامة رسمت لحظة دخلتْ ، وإذا بها تقول بعد تردد ..

ـ .. وأنا كذلك !..

أجبتها دهشاً ..

ـ ماذا « كذلك » ؟..

ـ أنا الأخرى لم أكن أتوقع أن تكون على هذا الشكل !..

فاجأني تعليقها ، فقلت..

ـ يالك من مفاجأة سارة !..

لكنها أردفت وكأنها لم تسمع ماقلت ..
ـ ربما .. ومن طينة واحدة كذلك !..
ـ ربما !..

وإزاء الصمت الذي تلا حديثه وجدتني أسأله ..
ـ ولكن ماعلاقة هذا بأمر عملك الذي حدثتني عنه ؟..
ـ كل العلاقة .. إذ نشأت منـذ ذلك اليوم صداقة بيننا لاعلاقة لزوجتي بهـا . . حاولت ميساء من خلالها على حد قولها أن تخرجني من قوقعتي . . أو « أن تدخل إلى عالمي نفحة إنسانية » .. لابد أنها كانت تراني جاف الطباع !..

حدثته ميساء عن أشياء كثيرة كان يجهلها عن الشرق . . حدثته عن عالم أختهـــا قطر الندى، زوجة الأمير هلال.. عن الخيل ، والصحراء ، وأمراء الرمال ، وأميراته ، حتى أحيت في نفسه شوقاً إلى تلك البقاع .

لم يكن فراس قد التقى بأختها قطر الندى زوجة الأمير هلال بعد ، ولم يكن قد مضى زمن طويل على معرفته ميساء ، لذلك لم يطلع زوجته ولا ميساء على معرفته السابقة بالأمير.. لعله أرادها دعابة في بادىء الأمر..أما وقد أنس في نفسه ميلاً جاداً للذهاب إلى الشرق .. حدث ميساء، وقرر إزاء اقتراحها أن تسأل صهرها الأمير هـلال ، عن فرص العمل في بلاده ، أن يكتم أمر معرفته السابقة بهلال، تاركا للأمير الخيار في الكشف عن هذه المعرفة .

وتابـع فراس ..
ـ تحيَّنت ميساء فرصة مرور الأمير في بلدها وحدثته بالأمر ، فأبدى اهتماماً دون أن يشعرها هو الآخر أنه على معرفة بي .. حتى ظننت في البدء أنه سهـا عن معرفتي ، لكن سرعان ما أيقنت عكس ذلك ، لا أخال إلا وأن له هدفاً بعيداً ستكشفه الأيام ! ..
ـ أهو الذي مكنك من هذا العمل ؟..
ـ إنه يملك كلا من شركة الأسمنت والمشفى !.. سيان عنده أن أكون على رأس هذه أو ذاك !..

حرت فيما أقول، وسألته متردداً ..

ــ وقطر الندى ؟.. أما رأيتها بعد ؟..

ــ لا .. سأذهب لزيارتها عما قريب ..

ــ ومتى تذهب ؟..

ــ خلال أسبوع أو أسبوعين ..

* * *

الفصل الثالث

لن أنسى أثر آخر حديث دار بيننا قبل عودتي إلى أوروبا بأيام . .

لقد تحريت الإخلاص في سرد وقائع هذه القصة ، لذلك أرى لزاماً علي أن أذكر تفاصيل ذلك الحوار ، لا سعياً وراء إعطاء قصتي هذه أبعاداً هي ليست في حاجة إليها ، بل لأن هذا الحوار قد دار بالفعل ، لأنه آنذاك كان يعكس منطلق فراس ، ولأنه قد يلقي بعض النور على مواقف مقبلة .

جلسنا في تلك الليلة أمام نار الموقدة الكبيرة في داره .. جلست أنظر إلى النار ، تتوهج وتتلاشى ألسنة لهب الأخشاب الكبيرة فيها ، كومضات فكر .. أو تأجج عاطفة .. كزوال حياة .. أو اندثار حضارة .. نار ، لعلي لو جلست إليها وحيداً ، لما رأيت فيها سوى سقط شظاياها .. لكن الليل .. وألحان «غرانادوس» ،روح إسبانيا تتدفق من أوتار قيثارة فراس .. إنسانان لاتجمعهما ظروفهما سوى لأيام قلائل كل عدة سنين .. « التين والزيتون .. وطور سينين .. وهذا البلد الأمين » ..

ما الذي يضفي على الليل والنار سحره ؟ أكوني جالساً إلى فراس ؟.. إلى إنسان يبادلني المحبة ؟ .. هل السحر في محبتنا المتبادلة ؟ . . هل السحر في وجوده أمامي ، أم في محبتي له ؟..

أتاني قول « روسو » .. « لايعرف الرجل الاجتماعي أن يحيا سوى من خلال آراء الآخرين » .. « لايستخلص الشعور بوجوده سوى من أحكام الآخرين » ..

كدت أغرق مرة أخرى في عالم أجهد أن أقيد المعرفة فيه بالمحبة ، حين نبهني صوت فراس ..

ـ أراك لم تسألني بعد عن أخبار زوجتي ؟..

ـ أعدتني من رحلة طويلة كدت أبتدئها ! ..

وددت لو أعفى من هذا الحديث، وبالرغم مني سمعت نفسي أجيبه ، وأنا أتابع النظر إلى النار ..

ـ كنت أنتظر أن تفاتحني أنت بذلك !..

أجابني بصوت خفيض ..

ـ لطالما حدثتك عنه في سري.. ولطالما أجبتك بعد حوار طويل .. أنه بالرغم مما صارت إليه حالتنا من تباعد .. فأنا لست نادماً على شيء ! ..

ـ ألست تحاول أن تخفي مرارة الفشل ؟..

ـ فشلي ؟ .. فيم ؟ ..

سألني ذلك بلهجة فاجأني فيها صدق دهشته ..

أجبته حائراً ..

ـ فشلك بزواجك .. وهل نسيت مانحن بصدده ؟! ..

ضحك ..

ـ .. وهل يمكن أن ينجح زواج ؟ .. أتعرف أنت « زوجين ناجحين »؟!..

ـ دعك من التهكم ، ولا تقل بأنك كنت تتوقع ماصرتما إليه من جفاء .. راض به !! ..

ـ لا ، بالطبع .. ولكني مازلت أجهل ماالذي يتوجب علي ، أن آسف له !..

ـ عجيب !.. ألا تأسف على مايمكن أن تكونا عليه من وفاق ؟ .. ألا تأسف على مايفتقده زواجكما من انسجام ؟ ..

غيَّر موضع القيثارة في حضنه ،وقال بهزء ..

ـ أتقول لي هذا ، وأنت أول من رأى التفاوت الشاسع بيننا ؟ . . هل كنت تتمنى لي حقاً أن أصل إلى ماتسميه « انسجاماً » مع من كان على شاكلة زوجتي من التعقيد النفسي ؟ .. وأي حل وسط يمكنني أن أصل إليه ، لايكون على حساب عالمي ومفاهيمي التي تقرها وتحترمها أنت ؟ ..

لم أجبه ، وبعد صمت طويل ،عاد كل منا إلى النار والسكون .. سألته جاداً ..

ـ لماذا تزوجت ؟ ..

أجابني مبتسما ..

ـ عن عبث .. ثم تابع بلهجة هادئة .. دون قصد العبث !..

نظرت إليه ملياً ، أستحثه الكف عن مراوغتي ..

ـ لئن اهتديت يافراس إلى طريقة في السير تجنبك التعثر ،وأنت تمشي بين الصخور !. . تجنبك التخدش ، وأنت تلهو بالشوك !.. لماذالم تدخل زوجتك في حسابك ؟.. ألم تظلمها حين أقدمت على الزواج منها ؟..

ـ بمعنى آخر ، تود أن تقول لي بأن زوجتي إن شقيت من جراء تخبّط زواجنا ، فأنا المسؤول في ذلك..

ـ مسؤول ، بقدر وعيك للأمور . . ألم تقل أنك كنت على علم بأمكانياتها المحدودة ؟ ..

ـ أتريد جواباً جدياً على سؤالك ؟..

ـ بالطبع ..

ـ حسنا ! ..

كانت ألسنة اللهب قد اختفت ،وتداعت مقاومة الجذوع ، فتهاوت كتلا متحفزة من الجمر ، تكوّمت متراصة ، كمن يتأهب لمقاومة طويلة ..

قال فراس ..

ـ لنأخذمثلا .. إنساناً يمزق مخطوطاًنادراً..أو آخر يدفع إناء أثرياً ،فينهارالإناء وتتهشم أجزاؤه ..ألا تتساءل،لماذا يقال فلان « مزّق » المخطوط؟..أو لماذا يقال فلان « هشّم » الإناء ؟ .. وفي الحالتين نوقع باللوم على الفاعل ، دون التعرض في حكمنا إلى سرعة عطب ما وقع عليه الفعل ؟..

لمح فراس تساؤلاً في عيني ..

ـ سوف أشرح لك ما أعنيه ! ..

وتابع بهدوء ..

ـ لو أن سيلًا جرف المخطوط..أو ريحاً أتت على الإناء لما أوقعناباللوم على طرف

دون آخر ، بل لتبادر لنا القول « ليت المخطوط كان في حرز أمين » .. « ولو أن الإناء كان من رخام ، لما استطاعت الريح أن تزحزحه من مكانه » ، ولما نسبنا للفاعل من الواقعة إلا قسماً من نتيجتها ، ولبات واضحاً في إدراكنا أن لسرعة عطب الشيء قسطاً كبيراً من المسؤولية في إبادته !..

ــ لكن هذه ريح .. طاقة طبيعية لاتعي ماتفعل .. وذاك إنسان واع يدرك قيمة المخطوط وسرعة عطبه .. بل يعلم مسبقاً نتيجة حركة يديه ! ..

ــ وهل الإنسان سوى طاقة طبيعيــة هائلة ؟ .. إن عالمك عالم قيم، تطغى فيه قيمة « النتيجة » على « مسببات النتيجة » ! .. فالنتائج عندك تسبق الأحــكام، بحيث يصعب عليك الفصل بين السبب والنتيجة !..

ــ حسنا .. هب أني قبلت أن سرعة عطب المخطوط تتضمن أحد أسباب تلفه .. ألا ترى معي أن على اليد التي مزقته مسؤولية أخرى ، بل المسؤولية الكبرى ؟! .. إنها البادئة بالحركة ! .. ولولا يد ممزقــة ، لعاش المخطوط ، رغم سرعة عطبه ، مئات السنين ؟ ..

ضحك فراس ..

ــ كأنك تقول لي « البادىء بالشر أظلم » ! .. لا ياصديقي، إنك في حكمك هذا مازلت متأثراً بأسفك على قيمة المخطوط .. وقد يكون في غــير هذه الحالات أسف آخر على شيء عزيز آخر !.. أنا لا أرى سوى العبث في يد تمزّق ،والعبث في أثر يمزّق !.. هل أعطيك مثلا يريحك من وطأة التأثر المسبق « بالنتيجة » ؟ .. مارأيك في إنسان يقذف أبا الهول بالحصى ؟..

ــ هذا شيء آخر !!

ــ لماذا تراه شيئاً آخــر ؟ .. ألأنّ الحصى لاتؤذي أبا الهول ؟.. ألم يثبت لديك أنّك تتطلع سلفاً إلى النتيجة لتبني حكمك على الفعل ؟!.. ألم تر كيف أنك تصفح عن قصد الإيذاء ، حين تعرف سلفاً أنه لن يسفر عن ضرر ، علماً بأن قصد الإيــذاء واحد ، سواء أوصل صاحبه إلى هدفه أم لا ؟ . .

ــ ولكن .. كيف أنجو من السخط على هذه اليد الواعية التي تبيد أثراً جميلاً؟!!..

وتعرف سلفاً أنها ستبيده ؟ ! .. إن الإنسان يافراس قادر على الاختيار !.. كيف أصفح عن اختياره للسوء !؟ ..

ــ حقاً ؟ .. أليس في حكمك هذا إجحاف على الإنسان ؟ .. أتظن حقاً أن الإنسان قادر على فهم ذاته ، وفهم الدوافع المسيرة له ، فتحمله النتائج المتأتية عن أفعاله ؟ ..

ــ لم لا ؟..

ــ وكيف يختار الإنسان ، وهو مسيَّر بـ « لاشعور » لا علم له به ، ولا حيلة له في السيطرة على زمامه ؟..

وتابع متهكماً ..

ــ أم هل تعتقد أن لدى الإنسان مقدرة أخرى ؟ !..

ــ لا بد أن للإنسان مقدرة أخرى ! . .

ــ أتعتقد أن مقدرته هذه ،صفة مطلقة ،جاءته من قدرةميتافيزيقية،أم هي وليدة حياته ومجتمعه ؟ ..

ــ أنا لا أومن بغير الإنسان ! ..

ــ أليس من الخطأ ، إذن ،أن تتطلب من مقدرة ، أو من عقل ، أنبتته بيئة، ثم صهرته بيئات وحضارات ، أن يتجرد ، ليحكم ، بحدس مستقل ، مسبق ، لا وجود له ، على قيم أفعاله ؟..

ــ بل يمكنه أن يتجرد ! . . نسبياً ! . . على الأقل ..

ضحك فراس طويلاً ..

ــ وهذا بالضبط ما أردت أن أصل إليه ! ..

ــ ماهو ؟ ..

ــ نسبية التجرد ! . . نسبية الإدراك ! . . هل في النسبية غير العبث ؟ ! ..

ــ والوعي يافراس ؟ . . أين الوعي ؟ ! .. مالك تتيه بي في نقاش تخرج منه إلى نتيجة لا يمكن لي أن أقبلها ؟ !.. هل الأعمى الذي يقع في حفرة مثل الذي يراها قبل أن يقع فيها ؟ ! . .

ــ ما أغرب الإنسان ، يخلق الكلمات ، ويجسدها ، ثم يعود ويأتمر بما توحيه له

هذه الكلمات ، كأن للكلمات وجوداً وعوالم خاصة بها ! . . حقاً إن حدود لغة الإنسان هي حدود عالمه ! . .

صمتنا طويلاً .. أخذت أحدق بالنار ، بينما راح ذهني يدور في حلقات لا آخر لها .. وفي النهاية ، سمعت فراساً يقول ..

ـ ليس في الخير سوى الحركة .. ولا في الشر سوى الحركة .. ولم يكن للظالم خيار في طريقه ، ولا للعادل فضل فيما يظن أنه مخير في انتهاجه من طرق !..

صعب علي أن أقبل بمنطقه .. رحت أنظر إليه وأستعيد ماقاله في ذهني .. سألته بتريث ..

ـ ماذا يستنتج من كل هذا ؟.. أن الظالم ليس مسؤولاً عن ظلمه .. وأن ليس للعادل فضل ؟.. ثم ، أن ليس للعدالة معنى آخر سوى الحركة ؟!..

ـ بالضبط !!.. ليس سوى أمر طبيعي للظالم أن يظلم .. وللضحية أن تتعذب .. وللعدالة أن تقتص من المذنبين !.. الكون لا نهاية من القوى الطبيعية ، قوى تتفاعل إلى مالانهاية ، ليس للفرد فيها استقلال ، أو أدنى مقدرة على تغيير أو تعديل هذه التفاعلات !.. إن ما يبدو لنا على أنه أعمال فردية ، طفرات فذة ، تبدو ذات مغزى ، أو ذات تأثير كبير على ما تحيط بها من تفاعلات ، ماهو في الواقع إلا نتيجة لتفاعلات مسبقة ، أكبر وأعم من هذا الفرد الذي تركزت فيه ، والذي هو فيها ليس سوى الأداة !.. ولا أقصد بهذه التفاعلات والقوى سوى قوى الطبيعة العمياء نفسها .. لانهاية من المعادلات العلمية .. قصورنا العلمي ، لايدفع سوى القاصرين منا لردها إلى مراجع فوق طبيعية !..

ـ أبهذه السهولة تقبل الظلم ؟!..

ـ وبهذه السهولة أقبل الثورة على الظلم !!..

ـ وبهذا المنطق تذهب إلى الشرق ؟..

ـ وبهذا المد أعيش !.. فهل الخيار لي لو سعيت إلى تركه ؟ !..

ـ الويل إذن لمن ستحتك بهم !!..

ضحك طويلاً ..

ـ أتظنّني ذلك الوحش الكاسر ،لتخاف على الآخرين مني ؟ . .

ـ لو كنت ذلك الوحش ، لبان خطرك ، ولسهل الخلاص منك !.. إن خطرك يكمن في أنك إنسان يظن أنه دون تعقيد!..

لم تمضِ أيام حتى كنت في طريقي عائداً إلى باريس ، وكان فراس في طريقه إلى بلاد قطر الندى، لزيارة الأميرة في قصرها،قبل سفره إلى الشرق لاستلام عمله الجديد .

* * *

الفصل الرابع

في القصر .. أو هكذا كان يسميه من يؤمه .. استقبلت قطر الندى، زوجة الأمير هلال ، فراساً وزوجته . .

القصر فوق رابية تطل على العاصمة .. وفي قصة فراس عواصم كثر .. الجميل منها والقبيح ، الشرقي منها والغربي ،أما هذه العاصمة بالذات ،فغريب أمرها ، هي العاصمة والدولة في الوقت ذاته ، ولنقل شبه عاصمة لشبه دولة !.. وما كانت لتصبح هكذا لو لم يكن أفرادها أشباه رعايا ، أشباه مثقفين ، أشباه جهلة ، أشباه متفككين !..

قوم يجهلون واقعهم ، يبحثون عن وجه لهم بين أنقاض تاريخ طويل ، ويرون في الأطر التي يختارونها لوجوههم أوسمة يفاخرون بها ، وهويات يتبنونها !..

والأميرة قطر الندى شبه أميرة في شبه قصر !..

أما قطر الندى المرأة .. فصوت أبح أخاذ.. عينان يقظتان في جسد ممتلىء فارع، وأعصاب ثائرة تحدّ عبثاً من هدير أنوثتها الجارف ..

لم تكن قطر الندى أجمل أخواتها أو أذكاهن ..

فالكبرى كانت تفوقها علماً وحضور بديهة ، اختارت الثقافة رحالة أسرجت بها طموحها وانطلقت لاتلوى على شيء !..سعى أحد الأمراء إلى الزواج بها ، فازدرته ، وآثرت عليه رجلاً من بيئتها . . لم تكن تصبو إلى المال أو مايشترى بالمال من سؤدد ، لطالما تمنى والدها أن يكون بكره ذكراً ليرث السلطة من بعده . . لعلها في أعماقها كانت تود لو تكون ذلك الذكر لتصل إلى مايصل اليه الذكور من أمرة .

وكما لايمكن للمكين أن يعتليا عرشاً واحداً ، ورغم ماالميساء من بأس في مضمار الثقافة ، لذلك لم تنازع أختها الكبرى مااختارته لنفسها من حدود ، فاختارت السحر ميدانا لها ، واعتمدت الدلال سلاحاً ، جهزت له في ذلك عينيها الزرقاوين، وخصلات شعرها الأشقر !..

وبين أختين تكبرانها ،اعتلت كل منها قمة أقسمت ألا تزيح عنها قيـد أنملة ، وجدت قطر الندى نفسها تكاد أن تكون خاوية الوفاض مما يمكن لها أن تعتز به !.. فلا هي ، رغم جمالها ، من الجمال بما يتيح لها أن تفاخر ميساء ، ولا هي رغم ثقافتها ، من الاطلاع وقوة الحجة بما يسمح لها أن تناهض أختها الكبرى .

طفولة غير سعيدة بين أب عملاق ظالم ، وأم جاهلة ، وأختين متشامختين ! فلماذا لاتقبل بهلال كمنقذ لها من سأمها ؟!.. وهل يمكن لغير أمير شاب ثري أن يرفـع من شأنها ويوصلها إلى ماتشتهيه من عزة وبأس ؟!..

هلال إنسان مذنب لايعرف ذنبه . . هو ابن سلطان ، وأخ سلطان في عالم كان والده فيه أول سلاطينه !..

ولد بين جدران قلعـة كبيرة من طين . . وشب على الرمال بـين قوم سعيد منهم من لبس حذاء . . حتى إذا أغدقت الطبيعة من ثروتها على والده الشيء الهائل ، ناب أمه ، وهي المحظية الأولى لدى السلطان ، من الثراء الشيء الوفير ..

ماذنب هلال سوى أن ثراءه أتاح له أن ينتقل من القرون الوسطى إلى القرن العشرين بطائرة خاصة؟!..

يبعث قطر الندى إلى الأمير هلال لقاء حلي ،وقصر ،ووعد منه بدعم أهداف عائلتها السياسية بما له من نفوذ مالي واسع ..

أجمع القوم على أنها «زيجة» ولا أروع..وكي لاتتهم عائلتها بتضحيتها من أجل المال ، راح جميع أفرادها يسعون إلى المجالس ويتحينون الفرص كي يؤكدوا بأن هلالاً ،خلافاً لإخوته الثمانين ، رجل مثقف ،يتكلم الانكليزية ،ويقضي معظم أيامـه في أوروبا !.. أما عن حياته الخاصة ، فقـد حاروا كيف يؤكدون للناس بأنه لايقتني من الجواري سوى عدد يسير ، وأنه سيعتقهن حالما يتم زواجه بقطر الندى !.. أما عن ابنـه الذي تجاوز عمره الخمس سنوات ،فأكدوا للجميـع بأنه ليس من« زوجة شرعية » سابقة،بل من جارية نكرة لايذكر أحد اسمها !..

زفت قطر الندى إلى هلال في حفل يزخر بالبذخ والمال والبلادة !..

قلدت العروس بالماس والذهب ، وحصل جميع من كان حاضراً زفافها على الهدايا

المتوقعة !.. وما أن سأل قاضي الشرع عن قيمة المتأخر ، حتى استل هـلال من جيبه دفتر شيكاته ،ووقع على ورقة منه أعطاها إلى قطر الندى ، طالباً منها أن تملأها بالمبلغ الذي ترتئيه !..

كانت هـذه مفاجأة فغرت لها أفواه الجميع !.. أهذا تحد ؟ حب جنوني ؟!.. أم هي طريقة الأمراء في احتقار المال ؟!..

أعطت قطر الندى الشيك إلى عميد العائلة ،وبعد تشاور بسيط ، نهض هذا وأعاد الشيك للأمير قائلا إن العائلة لم « تبع » قطر الندى لهلال ، بل قدمتها «هدية» له !..

لم يهزأ أحد من هذه الحادثة !.. ولم ير الحاضرون فيها سوى النبل في العائلتين !..

قالوا . . « حقا . . لاتولد العظمة إلا من ارتباط العظماء » ! ..

لم تمض أيام على هذا الحدث الكبير ، حتى حصل عميد العائلة المذكور على ستين ألف دولار من أحد المصارف ، كفله بدفعها هلال !.. ولم تمض عدة أيام حتى دُفع هذا المبلغ نقداً إلى أحد الزعماء السياسيين كي يدرج اسم العميد في قائمته الانتخابية الرابحة !..

وبعد زيارة قصيرة لبلاد هلال ، تعرفت قطر الندى أثناءها إلى والدة زوجها،وإلى حشد لا آخر له من الأمراء والأميرات ، اختارت الغرب لتمضية شهر العسل .. ففي الغرب أبهى الملابس ، وأثمن المجوهرات وأروعها .. وللغرب اسم آخر للقبها الجديد ، اسم له وقع أطرب في نفسها ومعنى أجل ..

ألم تقض الليالي الطويلة وهي تردد في خلدها أنها ستصبح أميرة ، « أميرة » .. « أميرة » ، ومن يدري ، لئن أحكمت دورها في الغرب فلسوف يوجه اليها الكلام مسبوقاً بـ .. «ياصاحبة السمو الملكي» ! .. VOTRE ALTESSE ROYALE أجل..

وستجري عملية جراحية لأنفها ككل ذوات الشأن !.. وبذلك ستصبح أجمل أميرات الشرق إطلاقاً !!.. إذ من منهن تضاهيها جمالاً ؟.. لئن كان عند بعضهن مسحة من جمال ، فمن منهن تصل إلى مستوى إصبع قدمها الصغيرة بالثقافة والمدنية وإتقان العادات الغربية ؟.. وعلاوة على هذا! .. فمن منهن لها مجد أبيها الراحل ؟!..

وخطر في الغرب زوجان سعيدان .. هلال فخور بعروسه الجميلة ، أكبر مجوهراته ، « جوهرته المتحركة » ، وقطر الندى كالدمية ترفل بعزة زوجها وسؤدده ، وتمني النفس بتحقيق آمال طفولتها العظام !..

وكان لها ما أرادت !..

غدت فجأة .. « صاحبة السمو الملكي » .. أميرة ، بالإفرنسية ، والإنكليزية ، والإيطالية ،وأينما تنقلت ، وحيثما حلت ، ينحني أمامها الجميع ، وتلثم يدها الرجالات والسفراء !!..

نزلت أسواق العواصم الكبرى تنهش من مفتخراتها مالذ لنهمها وطاب ، حتى غدا متاعها الشخصي يزيد على الخمسين حقيبة ، تنقلها معها حيثما ذهبت !..

كان للمال والبذخ أثر آخر على نفسها ، إذ سرعان ماتعودت الأمر والنهي ،وبات كلامها العادي مليئاً بالتعالي وعدم المبالاة !..

تحولت أحلام العظمة إلى دم يرف في عروقها ، وتضخمت حبابة التيه التي بدأت بها رحلتها ، فأصبحت فقاعة كبرى علت إلى رأسهـــا وطفت ، حتى بات ذلك الرأس الجميل ، وكأنه مجبر على العوم فوق كتفيها الأبيضين ، غير عابىء بما قد يقف في طريقه ، كأنما بات من المستحيل عليه أن يطأطىء لأحد !..

مرت شهور ، وضاق هلال ذرعاً بهذا التحول الذي طرأ عليها .

أشعرها بضيقه مراراً ، فلم تكترث .. لمّح إلى إسرافها ، فأصمت أذنيها !.. ألم تتزوجه لأنه أمير ثري ؟..

ماقيمة ماتبتاعه بالنسبة لثروته الطائلة ؟.. ألا يملك مئات الملايين ؟!.. وهل للفتاة أكثر من شهر عسل واحد في حياتها ؟..

فإن لم تشبع رغبتها بالشراء الآن،فمتى تشبعها ؟!.. أحين تشيخ ،والزينة حينئذ لن تليق بها ؟!..

خيل اليها أنها أحبته حين كان يحب نزواتها !..

كانت تعود إلى الفندق مسرعة ، تنتظر السعاة بلهفة لتريه ما ابتاعته . كان حبها يزداد له بازدياد عدد الطرود ، وبازدياد ماتسمعه من استحسان كلما فتحت طرداً جديداً أمامه ، وكلما سمعته يردد .. « جميل » .. « جميل » !..

مالها اليوم تغص من نظراته !..

مالحبها ينقص كلما تابعت فتح الطرود وأحست بامتعاضه وازدرائه لما تبتاعه من ثياب ؟!..

كان هلال في حرج من أن يفاتحها صراحة بأمر إسرافها ، وكأنما أدركت حرجه هذا ، فاستغلته ، لتتابع ماسارت عليه !..

ولما جاء يوم عيل فيه صبره ، وبخها ، فلم تذعن ، بل أحست أنها تخوض معركتها الأولى معه ، وأن لابد لها من أن تنتصر ، أو على الأقل ، أن تفهمه منذ البدء أنها ليست ممن يستسلمن بسهولة !..

ناهضته حتى جف حلقها ، وما تعود هلال أن يناقش بل أن يطاع ، فلما أعيته الحيلة في ترويضها ، أطلق غضبه ، وزجرها بشدة ، فما كان منها إلا أن أجابته بمثل مازجرها به !..

شحب وجهه ..

ـ اخرسي أيتها القذرة !.. سأقتلك إن أعدت الكرة !!!

أدركت أنها تجاوزت حداً لم تعد تدري كيف تتراجع عنه ..

قالت مترددة ، جاهدة أن تبدو كمن لم تفقد ثقتها بنفسها ..

ـ حسناً !.. لاتعد إلى مثل هذا الكلام ..

انفجرت من صدر هلال صيحة مروعة ..

ـ أحذرك !.. أحذرك أن تنسي بعد اليوم أنك لست أكثر من امرأة !.. أحذرك أن تنسي من أنت أو تنسي أنك تخاطبين أميراً .. وابن ملك !..

مادت الأرض تحت قدميها .

أدركت فجأة ، كصفعة تتلقاها على وجهها ، أن بإمكانها أن تترفع عن جميع أهل الأرض من دونه !..

لئن أصبحت أميرة فذلك بفضل زواجها منه ، وإن نعمت بالثراء ، فليس ماتنعم به سوى فتات من بقايا مائدته !..

أحست فجأة بأنها تتمنى لو يزاح هـذا الإنسان من الوجود .. تمنت لو يموت ، إذ بإدراكها لمكانته ، أدركت أن كلمة واحدة منه تستطيع أن تحطم ما ابتنته لنفسها من عظمة ، وأنه الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يقوم بذلك .. إشارة منه .. وتعود إلى العدم !..

طغى بعد تلك الحادثة على نفس كل من الزوجين شعور بالكراهية نحو الآخر .. حل بينهما جفاء ظنّا أنه سيلازمهما إلى الأبد ..

تحاشى كل منهما الآخر ، لكنهما لم يوفقا إلى ذلك وهما يؤمان الفنادق في الغرب .. أسابيع .. سرعان ما اتضح لهما بعدها أن الجرح الذي تركه ذلك الخلاف لم يكن من العمق كما تراءى لهما في بادىء الأمر !.. لعلهما كانا في طريقهما إلى تناسي تلك المشاحنة لو لم يتدخل القدر ليحفر بينهما هوة لم تكن في حسبان أحد !..

لم يكن زواج قطر الندى لوحة بذخ فحسب ، بل عرف الزوجان حسد الحاسدين ودسائسهم ، وتدخل لدى الطرفين من الوشاة من أنذر كل منهما بمساوىء الآخر ، وأطلعه على خفايا حياته الخاصة قبل الزواج .

وكان من بين هؤلاء من أكّد لهلال أن قطر الندى ليست بالبراءة التي تدعيها ، بل أن لها ماضياً حافلا بالمعجبين ، وأنها واظبت على لقاء آخر هؤلاء حتى يوم زفافها !..

أهمل هلال ما استطاع من هذه الأقاويل ، أنسته ساعات السعادة الأولى غيرته وظنونه ، لكنّ برود قطر الندى نحوه جاء يحرك الظنون في رأسه !..

تحركت في خاطره صور كان يرى فيها قطر الندى تقبّل رجلًا لايعرفه ، يراه مطبقاً على شفاهها بينما هي مستسلمة له ، فيصمت لفترات طويلة ، ويعتريه شعور بارد كالموت .. يكاد لفرط امتعاضه ، يود لو تموت أمامه على الفور !..

وكأن ذلك الشجار جاء ليحرك النار تحت الرماد ، إذ عاودته تلك الخيالات، وتلظى بسعيرها من جديد ، حتى أيقن أن برود زوجته نزوع عنه ،وحنين منها إلى ذلك الماضي ..

وكأن القدر أراد أن يشفي غليله من غرور قطر الندى، إذ لم تمض أسابيع على ذلك الشجار حتى وصلت إلى هلال رسالة تكشف أن لزوجته رسائل غرامية في حوزة أحدهم، وأنه على استعداد للتنازل عنها لقاء مبلغ كبير من المال !.. وكي لايشك الأمير بأن هنالك حيلة في الأمر ، ضمّن الكاتب مغلفه عينة من تلك الرسائل !..

وعلى متن يخته الكبير الذي ابتاعه بمناسبة شهر العسل ، جلس هلال وقطر الندى يرشفان القهوة ، وينظران إلى شواطىء فرنسا بوجوم .

الشمس تميل إلى الغروب .. والقوارب السريعة تمخر البحر ، تحاذي اليخت ، ثم تلف حوله نائرة رذاذ الموج عالياً ، بينما أصحابها يمرحون ويهتفون إلى أهل اليخت مداعبين .. فترفع قطر الندى يدها بتعب ، وترد التحية ملوحة لهم ببطء ، بينما تنظر خلسة نحو هلال بقلب واجف يحس أن جميع هموم الأرض لاتوازي ذرة من ثقل التوجس الذي تعانيه ..

هلال ينظر إلى الرسالة ، ثم إلى الأفق ثم يعود إلى قطر الندى ..

يشرد وهو ينظر إلى الفتية اللاهين ، يود لو أن هذه الرسالة لم تصله !.. لو أن الأمر ليس إلا حلماً مزعجاً !..

يحس بملمس الرسالة بين أصابعه ، فيعود إلى الواقع ، يحدق في زوجته ، يحار بما يشعر نحوها .. يحار في كيفية مقتها !..

أراد أن يسألها .. لماذا لم تطلعه على هذه العلاقة !.. لماذا ؟.. أحس بعقم سؤاله ، هبْ أنها أطلعته ، فما الذي كان سيتغير في الأمر ؟!.. أليس في سؤاله هذا رغبة منه في أن يصفح عنها ؟!..

أحسّ أن لاجدوى من هذا السؤال .. ورغم ذلك ، سألها ، كان لابد له من أن يسألها ..

ـ لماذا لم تخبريني بأمره من قبل ؟..

أراح سؤاله هـذا شيئاً مما في نفسها .. كأن قبضة مشدودة على عنقهـا بدأت تتراخى . لم تجبه .. أحست ببارقة نور في مكان ما من هذا الظلام .. شيء مافي نفسها أكد لها بأنها على وشك الخروج من هذا التيه .. لزمت الصمت ..

ـ أجيبي !!.. ما لك تصمتين ؟..

قالت بتعال مصطنع ..

ـ أخبرك بأمر مَن ؟..

وكأن تجاهلها جاء يتوج الحقد بالإثارة !.. إذ امتقع وجـه هلال فجأة .. تريث قليلاً ، ثم انفجر صائحاً ..

ـ بأمر ذلك الكلب الذي أحببته ..!.

أطلق ثورة مكبوتة أحست من خلالها أنها أساءت تقدير الأمور ، فأطبق توجسها عليها من جديد ، وزاد عليه سخط شديد على نفسها ..

حاولت تدارك الأمر ، فتمالكت نفسها ..

ـ لم أحب أحداً قبل الزواج !!..

قال بتهكم ظاهر وهو يكاد يهمس ..

ـ .. تودين إقناعي بأنك تحبينني ؟..

ضاقت من سخريته ،فأجابته ..

ـ لك أن تظن ماتشاء !..

ثم أكملت بحذر ..

ـ ألا تعتقد أني أحبك ياهلال ؟..

ـ كنت غبياً حين ظننت ذلك !.. أما الآن ، فلم أعد أدري هل أنت أحببت الأمير ، أم صاحب الملايين ؟..

أثارها قوله ، فأجابته بنزق ..

ـ وهل تزوجتني معدمة ، من قارعة الطريق لأحب فيك دراهمك ؟..

ضحك بمرارة ..

ــ أحببت الأمير إذن !! .. ولا تحاولي إقناعي بأنك لست مغرورة بلقبك الجديد !!..

لسعها صدق ملاحظته ، فانتفضت في مقعدها !..

ــ غروري بلقبي الجديد ؟.. لقد كنت أكثر من أميرة في بلادي قبل زواجي منك !!..

امتقع وجه هلال .. أحس بأن الكيل قد طفح ، فأفرغ مرارته من غيرة عمياء ، وسأم لما ضج بما سمعه منها من مدح لوالدها ، ومغالاة في وصف ظرف قومها وبلادها ..

صاح بملء صوته ..

ــ أكثر من أميرة ؟!.. وفي بلادك أنت ؟!.. أتعتزين بتسمية رقعة المواخير هذه « بلادك » ؟!.. أتعتزين بوالد ينعته نصف قومك بالكذب والنفاق ، ويعلم النصف الآخر أنه مابنى قصره إلا مما سرقه من أموال الناس ؟!..

هبط الدم من وجهها ، نظرت إليه والسم يقطر من عينيها ..

ــ لك أن تقول ماشئت عن قومي !.. لك أن تنعتنا بما تشاء !.. ولكننا رغم ذلك نأكل بالشوكة والسكين .. ولا تمسح رجالنا لحاها بالدهن الذي يقطر من أيديها !..

ومن خلال غيظها وثورتها على الإهانة !.. أحست برعب بارد يتسرب إلى نفسها من نظراته !..

أتاها صوته هادئاً مصمماً ..

ــ حسناً !!.. يحسن ألا تعودي معي إلى بلادي بعد اليوم !.. الأفضل لك أن تبقي بين قومك الذين يأكلون بالشوكة والسكين !!..

صمتت .. غاب صوتها .. أين اختفى كبرياؤها أمام هذا التهديد ؟..

لماذا لاتستطيع أن تقتلع من أحشائها كرهاً تقذف به في وجهه الذي بدا لها وكأنه أقبح ما خلق الله من وجوه !..

ماالذي كبل لسانها بحيث لم تستطع أن تصيح بملء قواها ما كانت تشعر به ..

نعم إنها لاتريد العودة معه ، ولم تود أصلا هـــذا الزواج .. إن نزهة في سيارة ذاك الذي أحبته ، ورأسها على كتفه ، كانت خيراً من كل ماحصلت عليه !!..

ما الذي يمنعهـا عن الكلام ؟.. ما الذي أخرسها ؟!.. أخوفهـا على فقدان ما حصلت عليه من مجوهرات ومال ، وما حققتـــه من أحلام وجاه ؟.. هل حب البذخ جرثوم تسرب إلى دمها ؟.. أم كان هذا الجرثوم كامناً في نفسها أصلا ؟!..

ويحها .. أسرطان خبيث هو المال والجاه ؟!..

لاذت بالصمت بينما أخذ العرق يتصبب من جبينها ..

نهض هلال وألقى بأوامره إلى القبطان بالعودة إلى المرفأ ..

ومن « نيس » ، عاد الزوجان إلى المشرق . ومن بلاد قطر الندى ، عاد هـلال إلى وطنه ، تاركا قطر الندى في قصرها حاملا في شهرها الرابع ، وفي الشهر التاسع ، أنجبت ولداً أسمته فراساً ..

* * *

قطر الندى التي أطلت على فراس وزوجته من باب قصرها الكبير ، امرأة ،تخفي في طيات ابتسامتها النضرة أنوثة أذلها زوجهـا الغائب !.. إنسانة ، يزيد من مذلتهـا أن زوجها أوكل إلى حاجب من بلاده جميع أمور قصرها المالية ، تاركاً إياها فارغـة اليدين في قصر يقوم على خدمته ستة عشر خادماً ، وفي مرآبه ست سيارات لاتملك فيه من المال ما يكفي لملء خزانات وقودها !..

ضاقت بوحدتها ، فاستدعت أختهـا ميساء لتقيم معها ، ولم تكن هذه بأسعد حالاً منها .. ميساء هي الأخرى كانت تعيش في قصر والدها الذي مات قبـل أن يـــتم بناءه .. قصر فارغ كالغار الهائل ، يصفر الهواء برخامه وبغرفه الثلاثـين الخاوية من أي أثاث ، لاتشغل مع أمها الشحيحة فيه سوى أربعا من غرف إحدى ملحقاته ، جهزتها بما كان لديها من أثاث قديم !..

وقفت قطر الندى ، بصحبة ميساء ، تستقبل زائريهـا .. وما أن دخلوا القصر واستقروا في أحد مجالسه المطل على البحر البعيد حتى سألها فراس عن زوجها ..

أجابته ،ضاحكة مستغربة ..

ــ هلال ؟.. لست أدري !.. لعله في بلاده .. أو في أوروبا !..

فما كان منه إلا أن سألها متعجباً ..

ــ وأنت ؟.. أراغبة بهذا الأمر ؟..

دهشت لسؤاله ، وبانت حيرة بريئة على وجهها ..

ــ لا أظن .. أو لربما !.. لكن ، ماذا بوسعي أن أفعل ؟..

أجابها ببساطة أذهلتها ..

ــ أشياء كثيرة ياسيدتي .. أشياء كثيرة ..

ضحكت ، تورد وجهها ، ثم وجهت الكلام إلى زوجته ..

ــ زوجك خطر يا سيدتي.. خطر جداً !..

ما كان من هذه إلا أن أجابتها بدلال مصطنع ..

ــ لذا تزوجت به ياعزيزتي !..

كان الجميع يتكلمون بالفرنسية .. وللغة الفرنسية وقع لايمكن إلا وأن يضفي على المتكلمين بها ، وعلى سمرهم ، جوّاً من الرقة ، غريباً عن أجواء المتكلمين باللغة العربية ..

لم يقف أحد من الحاضرين ليتساءل ، أكانت تلك جلسة تعارف عابرة ، أم لقاء بعيد المدى ، هيأه القدر .. وما لامس حدس أحدهم ماقد تؤول إليه مصائرهم ،نتيجة لما دار بينهم من أخذ ورد في تلك الليلة !..

مرت الساعات الطويلة في حوار وأحاديث غريبة !..

وقف الشرق الضائع ، في قطر الندى وميساء ، يعاتب الغرب ، في نفس فراس وعقله !..

انهالت الفتاتان عليه بأسئلة حول واقعها ، فجرها ملل ينبع من ذاتيهما ، سببه عجزهما عن الثورة على ذلك الواقع ، فراح فراس يصيغ لأسئلتهن الأجوبة ، بمنطق غربي ، تهاوت إزاءه الحجب وزال التحفظ !..

خلقت أجوبته تساؤلات ، وأثارت حاوله أشلاء خفر في نفس الأختين مالبثت أن تبعثرت دون ندم !..

تضاربت وجهات منطق ، ثم استقرت بهدوء على بساط من ذكاء .. وكم تبودلت نظرات تحد ، سرعان ما استحالت إلى ابتسامات تفاهم ووفاق !..

نُسفت قواعد الأخلاق التقليدية ، الشرقية منها والغربية ، وما أوهى ما كان قد تراكم منها في نفوس الحاضرات .. فتهن ، عاريات ، في مساحات مجهولة حالكة الظلمة ، كرهن فيها النور الكاشف ، وخفن التعثر في منزلقاتها إن آثرن سُتر الظلام ..

مرت فترات صمت طويلة أمسك فراس بعدها قيثارة كانت في ذلك البهو الكبير ، واستل من أوتارها ذكريات عذبة حالمة من ماضيه ..

غاص كل من الحاضرين في قوقعة أناه ، إلا من لحظات كان ينظر فيها الواحد منهم نحو الآخر ، فيراه حينا ، ثم يهرع عائداً إلى تلك العوالم الجديدة التي خلقها مادار بينهم من حوار ، فينسى الآخرين ، ويغيب وراء حجب أحلامه الجريئة ..

* * *

القسم الثاني

الفصل الأول

لئن كان للشرق أبواب عدة يمكن للمرء الدخول إليه منها ، فإن حلم فراس كان أن يدخل الشرق من باب سحره وأساطيره !.. ولعله كان يحلم بقافلة يرأسها على صهوة جواد أدهم ، يدخل بها الصحارى ، فيتهادى على جنبه السيف ،ويخف ومن ورائه البرقع والهودج !..

أما والحال كما كان عليه الشرق يومئذ ، فمن دونه كانت تقف سمة الدخول كالحائط !.. وحين أتت ، كتب على جواز سفر فراس بموجبها .. « فراس الهلال » كما لو كان الأمير هلال سيده ومولاه !..

أحس بانقباض منذ وطأت قدماه أرض الطائرة !..

مسافرون يتدافعون ، ويدوسون بقايا ما سقط من خضار كانت في سلة أحدهم !..

صياحهم وهم يتسابقون إلى مقاعد خضراء مكسوة بالنايلون الدبق !..

حر شديد بلغ حداً لا يطاق بعد إقلاع الطائرة !..

هواء ساخن يند عن مراوح كهربائية ، علقت فوق النوافذ تنشر رائحة سمك زنخ يحمله أحد المسافرين !..

جيوب هوائية لانهاية لها ، وهدير عال ، يزيد من وطأته ارتجاج ما اهترأ من أجزاء الطائرة الداخلية !..

وكأن كل هذا لا يكفي ، إذ أفلت من قفص أحدهم ديك شرس تراكض البعض للقبض عليه ، فراح يجوب أنحاء الطائرة ، معتمداً في القفز أكتاف المسافرين ورؤوسهم !..

أخيراً .. وبعد ساعات طويلة .. حطت الطائرة .. فخرج فراس وهو يكاد يقفز منها هربا نحو الهواء الطلق !..

هبط مسرعاً درجات السلم،ثم وقف يتلفت حوله آملا أن يرى شيئاً يستريح نظره إليه ،وإذ به ،خلا طائرة وكوخاً،يقف وكأنه وسط أرجاء العدم ، ينظر إلى السماءوقد اختلطت بالأرض!.. فما من أفق أو شجر أو صخر أو أي عود جاف يميّز به الأبعاد!..

أشير إليه وإلى المسافرين بالدخول إلى الكوخ .. وإذا به ، بعد أن فتح الباب ، يقف مذهولا أمام جميع مانقلته الطائرة من حقائب مبعثرة على الأرض أمامه ، بحيث استحال عليه الدخول ، وعلى بقية المسافرين من بعده ، دون أن يدوس على تلك الحقائب !..

وبين سقف الكوخ وأرضه ، ومن منتصف الحائط قبالته ، فوجىء برف حجري تربع عليه رجل وكأنه اعتلى ذلك الرف على سلم قبل أن يتدفق سيل الحقائب على أرض الكوخ فيغمر أرجاءه .

استبطأ الرجل فراساً فصاح به ..

ـ ماذا بك ياأخ تقدم !.. أين حوائجك ؟..

تقدم فراس فوق الحقائب ، باحثاً أمامه وبين أقدامه عن حقائبه ، فلمّا وجدها أشار إليها للرجل القابع على ذلك الرف ..

مد الرجل عصا دقيقة طويلة كان يحملها ، وطرق بها ظهر الحقائب المشار إليها !..

ـ افتح !..

ما كاد يفتح حقائبه وينظر ثانية إلى الرجل ، حتى رآه ينهال برأس عصاه على ثيابه ، ينكشها ، يقلب عاليها سافلها ، فلما لم يجد فيها مايثير اهتمامه ، صاح ..

ـ أليس معك مسكرات ؟..

كانت ثورة فراس قد بدأت تغلي في صدره ، فأجابه بامتعاض ..

ـ لا !.. ألم تتحقق من ذلك بنفسك ؟!..

ـ وما هذا الذي تحت إبطك ؟..

قال ذلك مشيراً إلى قيثارة كان يتأبطها فراس ..

ــ قيثارتي ..

ــ قيثارتك ؟.. ماهذه .. « قيثارتك » !.. افتح لأرى ؟!..

وإذ نزع فراس عن قيثارته الثوب ، ومد بها إلى ذلك الرجل ، غص في أعماقه إذ رآه يضرب أضلاع القيثارة بعصاه ؟..

فصاح به ..

ــ هيه !.. ماذا تفعل ؟!..

أجاب الرجل بهزة رأس كمن وقف على ذنب ما ..

ــ ها !.. ها !!.. هذا عود !!.. لماذا لم تقل منذ البداية إن معك عوداً ؟.. أليس في داخله شيء ؟..

وراح كالقرد ينظر من فتحة القيثارة إلى جوفها ، ويهزها ذات اليمين وذات اليسار ، ليتأكد من خلوها ، ولما فرغ من بحثه ، وضع القيثارة إلى جانبه ، وقال ..

ــ باستطاعتك أن تذهب الآن ..

ــ وقيثارتي ألا تعيدها إلي ؟..

رفع الرجل حاجبيه الكثيفين متعجباً ..

ــ أعيدها إليك ؟.. ألا يكفي أنني لم أحطمها أمامك ؟..

ثم أخذ القيثارة من جانبه وهم بأن ينهال عليها بالعصا !!..

صعق فراس !! غصت حنجرته كأن أحداً أمسك به يريد قتله !..

ــ لا .. أرجوك ما الذي تراه في قيثارتي كيما تحطمها ؟.. وأي قانون أخالف بحيازتها ؟..

ضرب الرجل كفيه على بعض مستغربا ، وصاح ..

ــ أي قانون ؟!.. ألا تعلم أن العود من أعمال الشيطان الرجيم ؟.. ألا تدري أن النغم رجس .. وأنه من أعمال الشياطين ؟..

وبقيت القيثارة عند ذلك الرجل المتربع على الرف ، الذي يمسك بيده عصا طويلة ..

وفجأة انقطعت أخبار فراس !..

وبعد أشهر طويلة أقلقني صمته فيها ، عادت رسائله تصلني متقطعة متباعدة قصيرة .. رسائل مشحونة بعاطفة غريبة .. عاطفة محمومة ..

هل كره ذلك العالم ؟.. هل أحبه ؟..

أحسست وكأن معجزة عادت به إلى الوراء مئات السنين .. عادت به إلى عالم لاعلاقة لقرننا به .. فأحس فعلاً وكأنه جزء منه .. فراح يعيشه ، متأثراً به ، متألماً لما يراه ، يدّون مشاهداته في رسائل بدت لي وكأنها كتابات يوجهها لأناس لايعرفهم ، ولا أمل له في لقائهم ..

« .. في وسط الصحراء .. في وسط ألوف السنين من صمت عميق يؤنسه خرير جدول آمن ، في واحة وديعة وارفة ، تمخض الجهل عن شيطان نبش في الأرض ثروة فأقام الدنيا وأقعدها .. لطخها من عرقه قذارة ، ومن دمه عاراً ، ومن زبده فسقاً وكذباً ومجوناً !! .. » ..

« .. في وسط الصحراء ، وعلى مرمى خرير ذلك الجدول الآمن ، يُقبض على إنسان جاع فسرق ، ولا يقبض على غيره من سارقي الملايين ، فتربط ذراعه بوتر دقيق ، ويسلخ الجلد عن المعصم ، حتى إذا بان العظم الباهت الزرقة ، تلوى اليد ، وتفصل عن المعصم ، ثم تغمس الذراع المبتورة بالزيت الحامي حتى ينقطع الدم ، ويلقى باليد المقطوعة لمن يود اللعب بها من الأولاد ، وقد يكون ثمن الزيت أكثر مما سرقه ذلك الإنسان من مال ! .. »

« .. في وسط الصحراء ، وعلى مسمع « ويلاه .. ويلاه » من صوت أمه الثكلى ، يلكز بطرف السيف من حُكم عليه بالقتل ، حتى إذا استمطت رقبته ، يهال عليها بالسيف ، مرة ، أو مرات ، فإذا تدحرج الرأس على الأرض ، رفعه الجلاد من شعره ، وتركه بين كتفي الجثة المعلقة على خشبة !.. »

« .. وفي وسط الصحراء .. وعلى مرمى خرير نفس الجدول الآمن .. وعلى مسمع نحيب امرأة أحبت أن ترى النور مرة قبل أن تموت ، يربط العاشق في كيس ويقذف به من مئذنة ، وقد لاتكون المئذنة من العلو بما يكفي لقتله فيعاد ، قذفه ، ويعاد قذفه ، حتى تتكسر عظامه ، ويسلم الروح .. » ..

لابد أن فراساً عاش في تلك الصحراء لحظات لا يستطيع المرء أن يكتب عنها !.. ماذا وجد ؟ .. بم أحس ؟..

لم يعودني الكتابة بهذه اللهجة الملتزمة، وحتى حين كان يحاول التجرد، كانت رسائله تبدو لي وكأنها مقتطفة من كتاب أسطوري ..

« .. مات السلطان وترك وسط الصحراء قطعة من خيال فنان عاش منذ آلاف السنين ... قلعة من طين ولد فيها حكام أمة بأسرها .. أبناء أربع زوجات ومئة وثمانين أمة ..»

« مات السلطان !.. وكما أفلت في البدء الشر من علبة « باندورا » كذلك أفلت أولاد السلطان وبناته من هذه القلعة يعيثون في الأرض فساداً .. »

« واليوم ، وعلى بضعة أميال من هذه القلعة الخرساء يقف مسكن آخر .. فيه إنسان لا يضاجع إلا الأبكار !.. فلما ضاق ذرعاً بكثرة البنين ، إذ لكل امرأة تضع منه ولداً دار وميزانية وحاجب وسيارة تليق بمقام الأمير الصغير ، استدعى إلى القصر طبيباً لم يوكل إليه سوى مهمة إجهاض نساء حريمه !.. »

« وكما يحيط الذباب بالجثة المتفسخة ، تحيط بهذا القصر قصور أصغر منه شأناً وأقل مالاً ونساء وعبيداً .. لكن الدم الفاسق نفسه يجري في عروق الجميع » ..

كم تمنيت زيارته في تلك الصحارى لأرى بعيني ما رآه !..

كنت أعرف ، تفسير منطقه للظلم .. لذلك ، وددت لو أرى وجهه وهو يشاهد اليد التي تُبتر ، وأن أحس بضربات قلبه وهو يرى الرأس التي تتدحرج على الأرض!!.. لكن شهوراً طويلة مضت قبل أن أراه .. شهوراً لابد هدأت ثورته بعدها ، وعاد إليه اتزان محاكمته ..

سألته عن رسائله هذه ، فأحسست منذ أن تطرقت إلى هذا الموضوع أنني لن أستطيع أن أستعيد في نفسه ما أحس به في تلك اللحظات ، وأيقنت أن قصتي ستظل خالية مما اعتمل في نفسه أثناء تلك الفترة من شعور ..

كنا في شرفة داري في جنيف ننتظر وصول شلة الأصدقاء ..

سألته حائراً ..

ـ كيف استطعت العيش في بيئة تحيا هذه المفاهيم ؟..

أجابني ضاحكاً ..

ـ كنت كالسائح في بلاد العجائب !..

ـ وانفعالاتك تجاه ذلك الجحيم ، كيف كانت ؟.. هل تعودته ؟..

ـ وكيف أتعوده ؟.. لا .. رحت أرى عن كثب كيف كانت حال تلك البلاد بين القرن العاشر أو الثالث عشر .. وكيف تمر القرون ، وهي على حالها من التأخر !!..

ـ ألم تحاول يوماً أن تزرع بذور التساؤل في نفوس من احتككت بهم ؟..

ـ لايساورني الشك في أنني لو احتككت بالشعب لوجدت في نفسه الأرض الطيبة الخصبة للشك والتساؤل .. لكن ظروفي أجبرتني على مخالطة طبقة معينة !..

ـ وأنا أسألك عن هذه الطبقة بالذات !..

ابتسم ..

ـ هذه الطبقة ؟.. حسناً ، سأعطيك أمثلة عن مفاهيمها !.. أنت تعلم ماذا يعني أن يكون إنسان ما « سفيراً » لدولته .. إن أية دولة تحترم نفسها لاتختار سفراءها إلا من خيرة أبنائها معدناً ، وقالباً ، وثقافة ، ليقوم بتمثيلها خير قيام ، فهي بالتالي تجلّهم ، وتمنحهم من الاحترام ما هو حق لهم .. هل تعلم كيف ينظر سلاطين تلك البلاد إلى سفرائهم ؟..

ـ كيف ؟..

ـ نظرتهم إلى الخدم !.. فالسفير خادم ، يتكلم لغة أجنبية ، ويقبض راتباً لينوب عن أسياده بقول كلمة « نعم » أو كلمة « لا » ، وليكون واقفاً في المطارات في استقبال أبنائهم وإخوانهم حين يمل هؤلاء حر بلادهم !.. والطبيب ياصديقي .. هل هنالك اليوم من لايحترم الطبيب ويجل فيه علمه ؟.. الطبيب في نظر السلاطين وأبنائهم إنسان أوصله فقره ، أو حبه للمال ، إلى درك يجعله يقتل من عمره السنين الطوال كي يقال له بالنهاية

ــ « تعال يا هذا » .. « افقأ هذه الدملة في مقعدي ، وخـــذ أجرك كذا » أو .. « اشف هذا التفسخ بين أصابع قدمي ، وخذ أجرك كذا » ..

صحت به ..

ــ كفى يافراس ، كفى !.. أليس بين هذه الطبقة من يدرك أن في الطب أكثر من حب المال ؟.. أفلم تحدثهم عما يفعل الطب لإنقاذ البشرية من ويلاتها ، وما يقـوم به الأطباء من اكتشافات في هذا السبيل ؟..

أجابني على الفور ..

ــ بلى .. حدثتهم عن هــذا وأكثر !.. أتعـلم ما كان جواب أحدهم ؟.. فكّر بجوابه قليلاً إذا سمحت !.. قال .. أنت تتحدث عن الطب يافراس ،ولا تحدثني عن الأطباء !.. شأنك بذلك شأن من يتحدث عن العلم ، وينسى ما أنتجـه العلمـــاء من قنابل ذرية ودمار !.. كم تعتقد مخلصاً يافراس أن من بين من يدرس الطب من يضـع أمام عينيه ، كهـــدف أول ، إنقاذ الإنسانية .. ها ؟! وكم تعتقد أن هنالك من بين عشرات ألوف الأطباء اليوم من لم يقدم على هذا العلم إلا لأنه مهنة رابحة ؟.. ومن لايسعى في الدرجة الأولى إلى رفع أجره ، ولزيادة ثروته ؟ .. ها !.. وهل تعتقد أن الأطباء الذين يقطعون ألوف الأميال ليـأتوا إلى بلادنا ، رغم حرها وصعوبة العيش فيها ، يأتون محبة بنا وبالإنسانية ؟ .. أم حباً بمالنا وثرواتنا ؟!.. إن حب المـــال يافراس هو أول مانشعر به فيمن يتقربون إلينا .. أكانوا بذلك أطبـاء أم سفراء أم صحفيين أم سياسيين !!.. لماذا لاترى الشر إلا فينا نحن حين نشتري الضمائر؟.. ولا ترى الخسة فيمن يعرضون ضمائرهم في سوق النخاسة ؟!..

أطرقت طويلا .. ثم سألت فراساً ..

ــ وبماذا أجبته ؟..

ــ أجبته بمثل الصمت الطويل الذي أجبتني به أنت !.. أجبته بأن استمعت إليه ينهي حديثه فيقول ...

« ... إن عالمكم يافراس قائم على المال مثل عالمنا بالضبط .. فلمَ تقشعر أبدانكم

إذ ترونا نستغل المال إلى آخر الحدود ؟.. وما الفارق في أن ُتقتل الضحية برصاصة واحدة أو بست رصاصات !؟.. نعم إن للغربيين حنكة تنقصنا ، ودراية تعوزنا في فن البيع والشراء !.. نحن نبتاع ، بأساليبنا البدائية دور الصحافة ، فتثورون علينا لأننا لانعرف كيف نتستر بذلك !.. مالكم تسكتون عن الغرب حين يبتاع حكام دول ، بل دولاً بأسرها باسم المبادىء ؟.. يبتاع الثقافة ، ويبتاع الدين ، يسخرهما ليضمن أسواقاً لمنتجاته ؟.. نحن نبتاع عبدين أو ثلاثةفتضج بنا الدنيا !.. والغرب؟!.. ألم تزر يوماً مناجم الفحم في أوروبا ؟.. ألم تر كيف يولد الطفل ، ويشب ، ويموت ، في المنجم ؟!.. ألا يبتاع أصحاب المعامل مئات الألوف من العمال ، ليستنزفوا من عرقهم ربحاً ، ومن دمائهم سيطرة وجاهاً ؟! ولن أحاول أن أبرر لك مشكلة النساء عندنا .. ولكن ، هل تظن يافراس أن حال الغرب في هذا المضمار أصلح بكثير ؟.. نحن لدينا المال ،والجرأة .. ولا نخاف القول بأننا نبتاع جسد الأمة لسنين طويلة !.. ماذا يفعل الغربي ؟.. وما هي الدعارة عنده ؟.. أليست الدعارة استعباداً مؤقتاً ؟.. أليست هي مشكلة المال لديه ، حين تراه لايستطيع شراء الجسد ، فيستأجر بالدعارة من النساء مايتيح له ماله ، لساعات قلائل ؟ » !!..

أطرقنا في صمت طويل .. أحسست بقشعريرة من هواء البحيرة البارد ..

قمنا إلى حاجز الشرفة ننظر إلى المياه الساكنة وأنوار جنيف قبل أن ندخل الدار، ولما لم أجد ما أقوله ، سألت ..

ــ كيف كانت علاقتك بأميرك ؟..

ــ كان في أوروبا حين وصلت .. ذلك من حسن حظي .. إذ لولا تلك الأشهر التي انقضت قبل وصوله .. لما سنحت لي الفرصة ..

تردد ثم أعاد ..

ــ سنحت لي الفرصة ..

.. أبطأ في كلامه ، ثم خلد إلى الصمت ..

عجبت من تلكئه ، ثم صمته ، فألححت ..

ــ فرصة ماذا ؟ .. أهنالك ماتخفيه عني ؟..

ضحك من سؤالي ..

ـــ أبدا .. أؤكد لك !..

ثم وجم وقال ..

ـــ لست أدري ماهي بالضبط .. إنها الرمال .. والشمس .. والشعور بالوحدة المطلقة .. شعور بامتدادات لا نهاية لها ..

صمت طويلاً ، ثم تابع بصوت عميق أدركت من خلجاته أنه يعي أكثر مما يتفوه به ..

ـــ .. الصمت .. الصمت الذي يخيل إليك أنك تسمع فيه ضوء الشمس .. الخيال الأسود الذي تراه من بعيد ، تسأل عنه ، فيقال لك إنه أعرابي آت على أقدامه من مئات الأميال ، متجه إلى مكان لايزال يبعد عنه مئات الأميال !.. يسير نحو هدفه ، كأحدى قوى الطبيعة ، لايرى ماحوله ، وكأنه في غيبوبة لايصحو منها قبل وصوله إلى هدفه !.. إنها الشمس !.. لاتعرفونها في الغرب .. ولا يعرفها سوى من يعيش في تلك الصحارى .. الشمس ، واللانهاية !.. إن ما يعرفه الإنسان هناك لايعرفه أي إنسان آخر ..

ـــ .. ماذا تعني ؟..

ـــ .. لست أدري !.. يطغى على الإنسان شعور بأنه أكبر مما هو عليه .. بأنه ليس إنساناً فقط ، بل أمراً مهماً كبيراً ، على الكون أن يتمهل أمامه ، ويستمع إلى مالديه من قول !.. ندّ ، لقوى الطبيعة إن شئت !.. حدث ، لولاه لما كان للكون معنى !.. يشعر بإحساس غريب .. يطغى عليه شعور بالاتصال مع الكون .. اتصال لاصوفية فيه !.. اتصال فيه شراسة ، وتحد ، وحقد !!..

عاد إلى الصمت .. ثم تبسم وتابع ..

ـــ .. وكان على هلال أن يعود .. وكان على هذا الحلم أن ينقطع !..

أطرقت طويلاً .. ثم سألته ..

ـــ وهل عدتما إلى سابق عهدكما في السمر واللهو ؟..

ـــ .. وأكثر !.. فليس هنالك غير جمع يسير من إخوته الأمراء ، كان يجتمع

بهم .. فما أن يدور الشراب ، حتى تدور الرؤوس .. ويتفنّنون في ابتكار اللهو والتسلية !..

— وبماذا كانوا يتسلّون في ذلك البلد النائي ؟!..

هزّ فراس رأسه ..

— بماذا ؟.. وهل هنالك سوى المقامرة والجنس ؟..

— الجنس ؟.. وهل هذا متوفر ؟..

— .. بكل أشكاله .. وجميع طرقه .. لتلك الطبقة على الأقل !!..

* * *

الفصل الثاني

جلست أم هلال في قصرها تنتظر قدوم ابنها صبيحة وصوله من رحلة شهر العسل..

كانت محظية السلطان الأولى وأقربهن إليه ..
مات هذا تاركاً لها ثروة هائلة .. وعهد إليها خلفه بأمور قصر أبيه الراحل .. فأتمرها على القلعة ، قصر والده القديم ، وعلى جميع ماخلّفه والده من محظيّات ..
عالم من النساء !..
مئتان وستون امرأة ، يقوم على خدمتهن مالا يقل عن ستمئة وخمسين جارية ، ولا يسمح من الرجال بالدخول عليهن إلا لأبنائهن من الأمراء ، وللمخصيّين من العبيد وحجّاب القصر !..

اتكأت أم هلال على أريكتها تنتظر وصول ابنها ، وتنظر بعين الرضا إلى ما آل إليه مصيرها ..
صحيح أنها فقدت من سلطتها الشيء الكثير بعد موت من لم تكن تدانيها بالحظوة لديه أي امرأة على وجه الأرض ، لكن تلك كانت حظوة انتزعتها عنوة من غيرها من المحظيات.. ومن يدري.. لعلّ القدر كان يمهد الطريق لغيرها من النساء لتحل مكانها .. لاشك أنها اليوم أحسن حالاً ممّا كانت عليه بالأمس .. فمكانتها اليوم ، وإن ضمرت ، فهي على الأقل ثابتة !..

وصل هلال القصر ، وتسارعت الجواري تتسابقن إلى والدته ، تزفّن خبر قدومه .. فهلال ليس البكر لسيدة القصر وحسب ، ولم يكن أحبّ الأمراء إلى قلب أبيه الراحل فقط ، بل هو شاب طويل القامة ، عريض المنكبين ، بهي الطلعة ..

نهضت أم هلال تجمع أطراف ثوبها الطويل ، ورفلت به نحو ابنها ضاحكة مرحبة .. وبعد أن تبادلا القبل على الجبين ، ثم عبارات الترحيب ، جلسا إلى ما هو أهم ..

أحس هلال بما يجيش في خاطر أمه ، فوجم ، ولزم الصمت ، حتى سمعها تقول ..

ــ ما كنت آمل يابنيّ أن يؤول زواجك إلى هذا المصير !..

وإزاء صمت ابنها ، تابعت متأسفة ..

ــ .. وتشمت بنا الناس .. ويسخر منّا من أنذرنا بمثل هذه النهاية ..

ولمّا لم يجبها هلال ، ألحّت ..

ــ قل يابنيّ .. ماذا حدث بينكما ؟.. أخبرني !..

ــ لاشيء يا أمّي .. ركبَت رأسها .. فضقت من غرورها !..

سارعت أمه بالإجابة ..

ـ ألم تحثّها أنت على الترفع .. وتحرضها على الأنفة ؟!.. ألا تذكر كيف كنت قبل الزواج تعلمها كيف تتعالى على أترابها .. وتقول لها .. « أنت لست الآن أميرة فحسب .. بل أنت أكثر من ذلك .. أنت زوجة الأمير هلال » ..

ابتسم بامتعاض ..

ــ صحيح يا أمي .. أردتها خُيلاء على الآخرين .. لا عليّ أنا !..

وبعد برهة صمت ، عقبت الأم قائلة ..

ــ وتتركها وحيدة في بلادها ؟..

ــ أردت ذلك قصاصاً لها !..

قاطعته متأففة ..

ــ أي قصاص هذا ؟!.. تركتها بين أهلها وصحبها !.. في قصر أجمل من قصرك هنا ، ولها من الخدم أكثر مما لك هنا .. والسيارات ؟ .. ألم تتركها لها ؟.. خمس أو ست سيارات !.. وتدعو هذا قصاصاً ؟.. رحم الله أباك الذي كان إن رفعنا الصوت أذاقنا لسع السوط ، أو زج بنا في المخدع خمسة عشر يوماً دون أن يسمح لنا بالكلام مع أحد !..

ــ لكني لم أترك في جيبها قرشاً واحداً يا أمي !.. أوكلت إلى عبدي « سرور » الصرف على الطعام ، ودفع رواتب الخدم !!..

صمتت الأم فترة من الزمن .. ثم قالت بشيء من الأسى ..

ــ لقد أهنتها يابني .. ولن تنسى لك ذلك !..

ثم نفضت عنها نبوة الأسى وتابعت ..

ـ ثم ماهذا القصاص؟.. ألم تفطن ياولدي إلى أن هنالك من سيقول إن قطر الندى هي التي رفضت العودة معك إلى بلدك !.. أيرضيك أن يقال إنها تعالت عليك ، ولم تقبل العيش معك هنا ، مؤثرة على ذلك بلدها المتحضر ؟..

فتحت أمه له باباً لم يكن يفطن إليه ..

ولأول مرة ، خلال ذلك الحديث ، نظر هلال إليها نظرة الطفل إلى أمه التي تعرف كل شيء .. وسألها في براءة ..

ـ لم أفطن إلى ذلك يا أمي .. ماذا أفعل الآن ؟..

هزت الأم رأسها ، وقالت وهي تتابع هزات رأسها ..

ـ حسناً .. افعل كما سأقول !.. إن سألك إخوتك عنها ، فقل إنها بقيت في بلادها ريثما تنهي فحوصاً طبية بسبب حملها!.. وأبرق إليها اليوم ، اطلب منها الحضور بأسرع وقت ممكن، ثم اطلب سروراً على الهاتف ليؤمن لها مايلزمها للسفر ، وأوعز إليه أن يسر لها بأنه علم مني أنك ماعدت تطيق البعاد عنها !..

أحس هلال وكأن صخرة قد أزيحت عن صدره !.. هاهي أمه تنصحه ، بل تكاد تأمره ، بأن يفعل ما كان يود في قرارته القيام به !.. وومض في ذهنه خاطر ابتسم له في سره !.. خاطر يقول له « لو ساءت الأمور بينكما من جديد ، فإن في استطاعتك دوماً أن تنحي باللوم على أمك » !..

ضحك مستبشراً ، وقال ..

ـ أنا فدى نعليك يا أمي .. لن أفعل سوى ما أمرتني به !..

نظر هلال ملياً إلى أمه .. أمعن النظر في تقاطيع وجهها الجميل ، في نضارة عنقها وجمال كتفيها ، انزلق ناظراه إلى صدرها ، فسارع وأبعدهما عنه ، وإذ نظر إلى أصابعها البيض الرشيقة ، عادت به الذكرى إلى أيام طفولته ، أيام كان لايستسلم إلى النوم إلا إذا لفّه ساعداها اللذان يحملان هاتين اليدين الجميلتين .

سألها برفق ..

ـ هل تشكين من شيء يا أمي ؟.. أهنالك مايؤرق راحتك ؟..

تبسمت الأم .. وكانت تحدث ابنها وهي تهز جذعها إلى الأمام والوراء هزات

طفيفة .. قالت بشرود ..

ـ وما الذي يمكن أن يؤرقني .. ولي ولد بمثل شبابك ...

وبعد فترة تابعت بصوت بعيد ..

ـ لقد ابتاع السلطان لأم جوهر عقداً بعشرين ألف دينار ..

قاطعها هلال ..

ـ وماذا في ذلك !.. إن عندك من الحلي مالا تحلم أم جوهر بحيازته !..

ـ أعرف ذلك ..

وتابع بشيء من الحدة ..

ـ يجب قطع ألسنة هؤلاء الذين يأتونك بمثل هذه الأخبار !.. جواري السوء !! ما الغرابة في أن يغدق السلطان على محظيته المفضلة ؟!.. إن قصد من يخبرونك بمثل هذه الأمور هو النيل منك !.. هو إثارة حقدك على أم جوهر ، وتذكيرك بما فقدته بوفاة أبي !.. يودون لك التعاسة ، غيرة منك ومما لديك !..

وبنفس الصوت البعيد تابعت وكأنها لم تسمعه ..

ـ أحقاً أن سريرها من الذهب الخالص ؟..

وكأن أم هلال دخلت في عالم لاتعرفه غير النساء ، فمن إحساسه أنه طفل يكلم والدته ، شعر هلال فجأة بأنه بات رجلا غريباً في حريم والده ، منافساً له فيه ، فوقف مخفياً ضيقه بابتسامة لطيفة ، واستأذن أمه بالانصراف ،فأذنت له ، وعاد من حيث أتى تتراكض وراءه الجواري .. فاذا التفت إلى الوراء ،اختبأن وراء الستائر العريضة والأبواب ، وأخفين أفواههن بأيديهن ، ليحجبن ضحكات قصيرة حادة ..

* * *

عادت قطر الندى إلى بـــلاد زوجها مثقلة بما ابتاعته في الغرب من متاع ، وما جمعته من تقاليد بلادها التي تعج بسلع ومفاهيم من العالم أجمع ، والتي أول قواعد الذوق فيها ألاّ يكون هذا الذوق محلياً ..

عادت مثقلة برهبة من العيش في بلد على هامش العالم ، متوجسة من حسد كانت قد سعت إلى بثه عمداً في نفوس نسائه !..

لقد ولّت النشوة الأولى ، نشوة النصر التي أفعمت بها نفسها طوال ذلك الحفل

الذي أقيم ليجمعها لأول مرة مع قريناتها من الأميرات !.. كان لظهورها في الحفل ، بجمالها الغض ، وبياض بشرتها ، وقع كهبوط ملاك أبيض على غابة استوائية داكنة !.. حقَّرت بصدرها المتشوّف الخالي من الحلي ، وببساطة ثوبها الهفهاف ، صراخ ألوان ثياب غريماتها ، وما رصعنها به من ماس ولؤلؤ وياقوت !..

ولكي لايستدل من ذلك أنها لم تدخل سباق المجوهرات عن عجز في ذلك الحفل ، لذلك، سارعت بعد أسابيع، وأحيت في حدائق القصر أجمل حفل عرفته عاصمة زوجها .. متعمدة هذه المرة ، أن ترصع نفسها بأجمل ما ابتاعته من حلي في الغرب!.. وكانت منافساتها قد أتين مقتصدات بتبرجهن ، مقتديات بطريقة زينتها في الحفل الأول .. فغلبن على أمرهن،مرة أخرى ، حين بدت بينهن كالقمر الساطع في ليل بهيم !..

عادت قطر الندى إلى بيئة كانت قد غالت في مزاحمتها .. فلا عجب إن لم تبالغ هذه البيئة في حسن استقبالها !.. لم تشأ أن تقر بأن هذه باتت بيئتها الجديدة، فعوملت بالمثل ، ولم ينقض زمن بسيط ، حتى غدا من الواضح أنها لن تكون لهذه البيئة إلا كجسم غريب . .

كان لوجود فراس وزوجته على مقربة منها، في منفاها، خير الأثر على نفسها في بادىء الأمر .. وسرعان ما غدت لاتأنس سوى لصحبتها ، فاستعاضت بصداقتها الوطيدة عن محاولة تضيق ما اتسع من هوة بينها وبين أقرباء زوجها ونسائهم . . فازداد القيل والقال عن تصرفاتها ، وما تعودت قطر الندى أن تسكت عن تجريح ، فكانت مهاترات ، ثم شجار ، زاد من تعقيده أن زوجها كان ينحاز لأنسبائه من دونها ، فغدا التوتر طبيعة ثانية لها ، وباتت جميع تصرفاتها تتصف بالحدة ، ونظراتها بالوجوم والشرود الدائمين . .

تندر الأيام التي لاتأتي فيها قطر الندى دار فراس .. كان موعدها الصباح . . يستيقظ فيه فراس متأخراً فيرى زوجته جالسة إليها تضاحكها ، وتجاذبها أطراف حديث نسائي ... فما أن تتغيب زوجته لعمل منزلي ، حتى يتجهم وجهها ، وتسر إلى فراس بكل ماتمنعها كبرياؤها من اطلاع زوجته عليه !..

تولدت بينها، خلال أشهر قليلة ،ألفة باتت من خلالها تحدثه عن الكبير والصغير من

مشاكلها الخاصة ، حتى لم يبق بينهما موضوع يصعب الخوض فيه .. ولعل خيبة كل منهما بزواجه سارعت في دعم هذا التفاهم .. فباتت جلسات بث الهموم هذه جزءاً من حياتهما ، وإن لم أقل إنهما كانت جلسات سعيدة ، فإنها أصبحت ضرورة لحياتهما اليومية ، يتبادلان فيها النصائح أو الهزر ..

إلى أن قال لها فراس يوماً وهو في غمرة الضحك ..

ــ لم يبق لي ياقطر من سعادة الزواج إلا اليسير مما يمكن للزوج أن يجده معزوجته في الفراش !..

وكانت هي الأخرى مسترسلة في الضحك ، فإذا بها تجيبه بمزيج من الضحك والأسى ، وقد قطبت حاجبيها ..

ــ هذه السعادة ، على قلّتها ، لم أعرفها قط مع هلال !..

وإذ تحاشى كل منهما النظر إلى الآخر برهة وجيزة ، لاحت طويلة ، التقت فجأة نظراتهما ، تسائل بعضها عما لاتزال تخفيه ...

وبادرها فراس بجدية ..

ــ أحقاً ماتقولين ؟..

كان للهفة صوته أثر البلسم على نفسها ..

ــ أقسم لك يافراس أنني ماعرفت يوماً متعة الجنس مع هلال !.. كنت أصبر على هذه المشقة في بادىء الأمر غير قادرة على الشكوى !.. بل كنت أصطنع الغبطة ، كي لايكتشف أمري !... لكن سرعان ماساوره الشك ..

ــ وبعد ؟..

تنهدت ، وتابعت وهي تكاد تبكي ..

ــ بات يحدجني بنظرات لا أفهمها !.. يصمت ساعات ، ثم يسألني ،مصطنعاً عدم الاكتراث ، عن الذين يعجبونني من ممثلي السينما ، كان يود أن يعرف ماذا يعجبني في الرجل ، فأحار في إيجاد ممثل يعرفه ويشبهه في الوقت ذاته كي يرضى !..

صمتت فترة ، كأنها تسترجع الحوادث ..

ــ وكأن أجوبتي لم تنطل عليه فكف عن طرح مثل هذه الأسئلة .. وصار يتعمّد أن نأوي إلى الفراش سوية أكثر مما اعتدنا !.. كأن برودي آلمه ، فأراد أن

يقتصّ لنفسه بإيلامي !...

احمرت عيناها ،حتى لم تعد تقوى على كبح دموعها ، فانهمرت غزيرة دافئة ..

ـ كنت بادىء الأمر أشعر بالضيق والحرج .. ثم صرت أشعر بآلام أخذت بالازدياد حتى بلغت حداً لايطاق !!.. إلى أن جاء يوم أشعل النور علينا فجأة ، وفاجأني وأنا أعض على ظاهر يدي ، كي لا أصيح ، ودموعي تنهال من عيني !!...

جزع فراس لأمر لم يدرِ كنهه !.. أقلقه هذا الشعور ، فراح يبعده عنه بضيق ونزق ..

مرت فترة قبل أن يسألها ..

ـ ألم تستشيري طبيباً ياقطر ؟.. هناك أخصائيون في مثل هذا الموضوع ..

كانت قد مدت يدها إلى حقيبتها تبحث عن أقلام زينتها ، ثم راحت ترسم جفنيها.. تمهلت ريثما مسحت دموعها ، وأجابت بمرارة ..

ـ لم يعد بي حاجة لاستشارة الأطباء !.. إذ لم تمض بضعة أيام على الحادثة ،حتى أتت هلالاً تلك الرسالة المشؤومة ، وكان بيننا ذلك الشجار الذي تعرفه !..

* * *

الفصل الثالث

وجاء يوم خروج السلطان إلى « البَر » مع إخوته وأولاده والمقربات من محظيات هؤلاء .. «والخروج إلى البر» رحلة إلى البادية لا يقرر مدتها سوى لهو السلطان وانشراحه ، رحلة فيها الصيد والمتعة وزوال الكلفة ، والرجوع إلى ما كانت عليه الحياة في تلك البلاد منذ مئات السنين ...

لست أدري كيف كان يُعدّ في الماضي لمثل هذه الرحلات ، بل لا أظن أصلاً أن أحداً كان يقوم بمثلها ، إذ لم تكن هنالك قصور في تلك الأزمان ليجنح ساكنوها عنها طلباً للهواء الطلق، وهرباً من الكلفة ... لعلها لم تكن في الأصل سوى رحلات للصيد، طوّرها السلطان الراحل ، فآلت إلى ماهي عليه اليوم من مجال للتباري والتبجح بما يعدّ لها الأمراء من وسائل اللهو والراحة ...

خلاصة القول ، جاء موعد الرحيل ، فتحركت سيارة السلطان ، يتبعها سيل من سيارات الأمراء ، بينها ماطليت أجزاؤها بالذهب ، وتتبع هذه ناقلات أعدت بالهواء المكيف ، ومن ورائها ، شاحنات تحمل المؤونة ، وأخرى تحمل المتاع والخيل!..

ما إن وصل الركب إلى الواحة المقصودة ، حتى ضربت مئات الخيام الرائعة ونثرت بينها ، على الرمال ، المئات من بديع الطنافس الفارسية ،والصينية ، طبقات فوق طبقات ،ثم أسرجت أجمل مايمكن أن تقع عليه العين من خيل عربية أصيلة ،فانطلق من الفرسان عليها الذين أرادوا صيد الغزال ، متنكبين بنادق منقوشة بالذهب .. واعتلى صهواتها من خرجوا لصيد الدرّج ، حاملين صقورهم المدربة على أذرعتهم المكسوة بالجلد ، تتدلى من خواصرهم سيوفهم المرصعة بالأحجار الكريمة ...

لست أدري من أية طينة جبل رجال ذلك العالم ونساؤه !.. ولا ادري مايحركهم أو كيف يشعر هؤلاء الذين يعيشون تلك الأجواء بواقعهم ، إنما أعلم أمراً أكيداً ، وهو أن مضرب هلال لم يكن بعيداً عن مضرب أخيه السلطان ، وإن هلالاً ، رغم

عشرات العيون المحدقات به ، تباطأ بعد خروج أخيه للصيد ، حتى رأى محظيته « أم جوهر » تطل من مضربها مكشوفة الوجه !..

كانت هذه أول مرة يلتقيان بها ، وجها لوجه !..

أعلم علم اليقين أن هلالاً حدجها بنظرة سائلة ، ردتها إليه ، بغفلة عن رهطها ، بمثل ما أتته تلك النظرة من لهفة وإصرار !..

وأعلم أن هلالا كرر رشق النظرات ، وأن أم جوهر كررت ردها بدلال وتحد، حتى اعتلى هلال فرسه ، وانطلق نحوها !..

أخبّ فرسه نحو مضرب أخيه ، وإذ باتت على بعد أمتار منه ، جمحت ،فتطاير رهط أم جوهر عنها !.. إلا هي !.. وقفت ثابتة في وجهه ، تكاد تتلقى حوافر الفرس على صدرها !..

مال هلال نحوها ، كمن يود إصلاح سرجه ، ثم همس لها وهو يطير بفرسه من أمامها .. « هذه الليلة .. وراء الكثيب ... » !!...

وفي ذلك الليل ، ورغم السيوف والبنادق المتأهبة ، ورغم احتمال الموت بالرجم ، خرجت أم جوهر متسترة مع وصيفتها إلى البادية ، وتاهت على الرمال الدافئة ، ووراء عديد الكثبان ، حتى وجدها هلال !..

وعلى بعد أمتار من وصيفتها الحارسة ، وعلى مشهد منها ، ذاب الاثنان دون أن ينبث أحدهما بكلمة ، كعاشقين ملوّعين ،وطوى ذلك الليل ماتبادلاه من نار ووجد .

* * *

طريف أن تجتمع الظروف لإنسان لتضع أمامه وقائع وخفايا مايدور في وسط هو أبعد مايكون عنه !.. يُقحم في البدء فيه لمجرد أنه على علم بهذه الأمور ، ثم تجبره هذه المعرفة ، شيئاً فشيئاً ، على التدخل به والتخطيط له ، إلى أن يصبح في النهاية جزءاً لايتجزأ عنه !..

فراس أول من أطلع على غرام هلال وأم جوهر !..

فوصيفتها سعاد هي إحدى قريبات زوجته ، كانت تزورهم في دارهم باستمرار ، فلما عادت من البر مثقلة بما ائتمنت عليه ،تواقة إلى أن تسر به لأحد ، خافت أن تفاتح

قريبتها ليقينها بأن هذه ستنقل الخبر لامحالة إلى قطر الندى !.. فما كان منها إلا أن انتحت بفراس جانباً ، وأسرّت إليه بكل ماجرى،بعد أن جعلته يقسم أغلظ الأيمان ألا يطلع أحداً !..

ولا عجب في أن لاتحتفظ سعاد بمثل هذا الأمر لنفسهـــا . فهي عانس تخطت السابعة والأربعين ، تكره عائلتها ، لأن هذه رفضت مدّيد العون إليها وقت الحاجة، فاضطرتها إلى كسب رزقها بيدها .. ورغم أنها سعدت في بادىء الأمر حين سنحت لها الفرصة بالعمل كوصيفة لأم جوهر ، إلا أنها أحست بالحرج منذ وصلت قريبتها إلى تلك البلاد ، إذ كانت زوجة فراس صديقة للأميرات،ولم تكن سعاد سوى وصيفة !.. فلا غرابة إذن أن تجد سعاد لذة في سرد قصة خيانة هلال ، وفي ذلك تشفٍ بقطر الندى، ومن خلاله ،تشف بعالمها الذي تتباهى قريبتها بمخالطته !..

سألها فراس متعجباً ..
– كيف وقعتِ على أمر هذه الحادثة ؟..
ضحكت ..
– وهل هنالك حركة أو سكنة تقوم بها أم جوهر دون أن تطلعني عليها ؟!..
قالت ذلك ممعنة بالتفاخر ، كأن في علاقة أم جوهر بهلال نصراً شخصياً لها على قطر الندى ، أو كأنها هي التي ذابت على الرمال بين أحضان هلال في تلك الليلة !..

* * *

عادت قطر الندى من البر وهي تعلم في قرارتها أن أمراً أفقدها هـــلالاً !.. أحست بأن لها غريمة لاتعرفها ، فباتت لاتستعرض في حديثها مع فراس سوى الدلائل التي تزيد في إدانة هلال ، والقرائن التي غدا لا هم لها سوى جمعهـا لاكتشاف هوية غريمتها !..

ويصدف أن تجتمع المرأتان في دار فراس ، فلا تلبث قطر الندى أن تذهب،حتى توافيه سعاد ، لهفة بآخر التطورات ، أو يسبق مجيء سعاد قدوم قطر الندى ، فيخفي فراس حزنه وحرجه على صديقته ، ويحار في كيفية نصحها وإزالة شكوكهـا . . . إلى أن كان يوم أطلعته فيه سعاد ، وهي تـكاد ترتجف من شدة الانفعال ، أن هلالاً

بات يدخل حريم أخيه متخفياً ، وأنها قامت بنفسها بحراسة الباب على خلواتها !..

صعق فراس لما سمعه !.. لقد تعود سماع الأشياء الكثيرة ، من مغامرات الأمراء ، وملاحقة الأميرات للوسماء من شباب العاصمة ، لكن ، أن يغزو هلال أخاه السلطان .. في عقر داره !.. وأن لاينشد من مئات نساء حريم أخيه غير محظيته الأولى !.. فهذا تجرؤ يقارب الجنون !!..

سأل سعاد ..

ــ هل جنَّت أم جوهر ياسعاد ؟.. ألا تهاب السلطان ؟.. ألا تخاف أن يفتضح أمرها ؟... ألا يكفيها ما حولها من عبيد ؟... ماذا تجد في هلال حتى تركب جميع هذه المخاطر لمضاجعته ؟..

مالت سعاد برأسها إلى الوراء مقهقهة ..

ــ أم جوهر أفريقية الأصل ياعزيزي ... تحب كل ماهو ضخم وأبيض !!.. هلال ذو قامة فارعة !.. وعينان سوداوان كبيرتان !.. وفم كبير ! . . ويدان كبيرتان !..

ثم تابعت وهي تمسح دموع الضحك من عينيها ..

ــ ... وكل مافيه كبير !!..

هدأ ضحكها وقالت ..

ــ ثم إن السلطان لاهٍ عنها بأمور أخرى !..

سخر فراس في نفسه من قولها ، فقال ..

ــ ألا تخاف إذن أن تعلم قطر الندى بالأمر فتخبر السلطان بذلك !..

ابتسمت سعاد بهزء وتحد !..

ــ أم جوهر تخاف قطر الندى ؟!.. ثق أن قطر الندى لو علمت بالأمر فإنها لن تجرؤ على تحريك ساكن !.. ألم تخبرك ،وهي التي لاتخفي شيئاً عنك، أنها هي الأخرى لم تضع وقتها سدى في البر ؟.. ألم تطلعك على الذي بينها وبين « هداف » شقيق هلال من أمه وأبيه ؟..

لا ، لم تخبره قطر الندى بذلك .. وتقلص في أحشائه إحساس غريب !..

أيمكن أن يكون ذلك صحيحاً ؟..

لو كانت قضية مزاح لأطلعته عليها !... لماذا لم تخبره إذن ؟.. أيمكن أن تكون جادة بذلك ؟..

كره اضطرابه ، وأزعجه أن مشاكل قطر الندى قد بدأت تستثير أوتاراً حساسة في نفسه .. لماذا يهتم بالأمر ؟.. وما علاقته هو بها ؟.. ماعلاقته بهؤلاء الأشخاص جميعاً !!؟..

جاءه صوت سعاد ملحاً ..

ـ هه .. فراس !.. هل تدري أن السلطان كاد يلتقي به وجهاً لوجه في أحد أروقة القصر ؟..

ـ بمن ؟..

ـ بهلال !!..

فغر فاه فراس ، واتسعت عيناه من الدهشة ، طمأنته سعاد ..

ـ لاتضطرب ياعزيزي ، فالسلطان أولاً ضعيف النظر .. لايصل بصره لأبعد من متر واحد !.. ثم .. مالك تنسى ؟.. ألم أذكر لك أنه مشغول بقضية أخرى تقضّ مضجعه ؟.. لقد ضبط شاباً كان يدخل إلى الحريم ، وبعد الضرب والاستجواب ، أقر بأنه على علاقة باثنتين من نسائه !..

ـ وكيف يدخل الشاب القصر ، ويتخطى حراسه وحراس الحريم ، رغم بنادقهم وسيوفهم ؟..

ـ كان يدخل بسيارة إحداهن في وضح النهار ، متخفياً بزي امرأة ، فيقضي الليل في مخدعها ، ثم يخرج في صباح اليوم التالي بنفس الزي ، في سيارة الأخرى !..

ـ وماذا كانت ردة فعل السلطان ؟.. هل قتلهم ؟..

عادت سعاد إلى الضحك ..

ـ السلطان رؤوف يافراس ، ولم يعرف عنه يوماً أنه أمر بقطع رأس أحد !!.. لا ، لقد اكتفى بجلد المرأتين ، بعد جز شعرهما ، ثم ألقى بهما في سجن القصر ...

ـ والشاب ؟..

ـ نقل بعد اعترافه على الفور إلى سيارة ، أوغلت به مئات الأميال في قلب البادية ، ثم عادت ، تاركة إياه تحت لظى شمسها المحرقة ، دون قوت أو ماء ، ليلقي هناك العقاب الذي تختاره له السماء !!..

بهت فراس !.. لم يستطع إلا أن يسائل نفسه عن واقع ذلك الشاب ، وما دفع به إلى مثل هذا الجنون !..

تذكر أم جوهر ، فعاد يسأل سعاداً ..

ـ لاريب أن أم جوهر علمت بهذا الأمر !.. ألم تنذرها تلك الحادثة بما قد ينوبها من جراء ما تفعل ؟..

ـ جميع من في القصر على علم بما جرى !..

تنهدت .. ثم تابعت . .

ـ أم جوهر ساهية .. تقض مضجعها غيرة تنهش كبدها !..

دارت رأس فراس لما سمع ..

ـ غيرة ؟.. وممن تغار ؟.. ألم تقولي إنها غارقة في حب هلال ؟..

ـ غيرتها من إحدى جواريه !!.. جارية قديمة أعتقها وأهداها لـ « مبروك » عبده ومربيه .. فهام مبروك حباً بها .. فتزوجها ! يظهر أن هلالاً استعاد ذكرى ساعات حلوة قضاها معها ، فطلب استعادتها من مبروك !.. لكن هذا رفض أن يعيدها إلى سيده !.. وإزاء هذا الرفض ، أبعده هلال في مهمة ، عاد منها مبكراً ، وإذ دخل داره على غير انتظار ، وجد زوجته عارية بين ذراعي أميره وربيبه !!..

ـ وبعد ..؟!

ـ أصابت مبروك نوبة من الصياح والعويل أزعجت هلالاً ، فلما عجز عن تهدئته ، لم يجد طريقة غير مسدسه لإسكاته به .. فقتله !!..

ـ لابد أن غيظاً كبيراً قد اجتاحه ليطلق الرصاص على من رباه !!..

ـ بل لم ينتبه الغضب قط . . هلال لايمكن له أن يغضب من أحد عبيده !.. قلت لك ..إنه أراد « إسكاته » فقط !.. وكان المسدس قربه .. فاستعمله !!..

صمت فراس طويلا ..

ـ هل علم السلطان بهذا الخبر ؟..

ـ السلطان هو الذي أخبر أم جوهر بهذه الحادثة !..

ـ بالطبع .. برر الاثنان موقف هلال !..

ـ وهل عندك في ذلك شك ؟!..

كنت جالساً إلى فراس في إحدى حدائق باريس العامة أستمع إليه يحدثني عن هذه الأمور .. نظرت حولي وكانت قد مرت دقائق على سكوتي ، رأيت معظم الناس يتنزهون أزواجاً ..

وعلى مقعد غير بعيد عنا غاب فتى وفتاة معاً في قبلة طويلة ، أمسك الفتى بعدها يد الفتاة ، وراح يلامسها بشفتيه ظهراً وراحة ..

قلت له ، وكأني أحدث نفسي ..

ـ هل غاب حتى الحب عن تلك البـلاد ؟.. ألم يبقِ المال في ذلك العالم غير الجنس ؟..

ـ وهل الحب غير الشهوة ؟..

ـ لست جاداً في هذا يافراس !..

ـ لم لا ؟.. الحب كلمة خلقها الكتّاب والشعراء ، نتغنى بها وكأنها شيء قائم بذاته ، في حين أنها ليست سوى كلمة ، يفهمها كل منا على طريقته !.. لو حذفنا شعر شكسبير من « روميو وجولييت » فماذا يبقى غير الجنس ؟.. وكيف كان روميو في ظنك يمضي الليل في سرير جولييت من غير قنديل ؟..

كانت لفراس طريقة في عرض آرائه تثير الحماسية أحياناً .. وكنت أغفرها له ، لعلمي بأنها لاتتعدى كونها طريقتـه في الكلام ، وأنه في الواقع لايقصد سوى الجد من فحوى كلامه ..

أجبته مصراً ..

ـ قد يكون هنالك حتى بين جسدين عاريين متلاصقين أمر آخر غير الجنس يافراس !..

أجابني على الفور ..

ـ ليس هنالك سوى التشوق للوصال ، أو الراحة بين عمليتين !..

أمسك غصنا ملقى على الأرض شغل به يديه ، ثم قال بهدوء ..

ـ الحب شهوة .. والشهوة حب !.. وإن شئت ، فالشهوة حب قصير ، والحب شهوة طويلة الأمد ، يزيد من تأججها حرمان سابق !!.. اسمع يا صديقي !.. نحن نعيش مفاهيم أخلاقية شاء « أرسطو » أن تكون لنا فيها «روح » وأن يكون لنا فيها « جسد »!.. ولئن حلا ،من بعد موسى، لرجالات روما ، أن تلعن مايحتاج إليه الجسد وأن تنسب إلى الروح كل ماهي غير قادرة على فهمه ، دون أن تقف لحظة لتجد تعريفاً علمياً لما تسميه « الروح » ، والذي من دونها تنهار جميع مفاهيمها . أقول ، لئن شاءت الظروف أن ينشأ عن ذلك تيه ضاع فيه الأدب الرومانسي ، أطلق كلمة « جنس » على مايتطلبه هذا الجسد ، وأطلق كلمة « حب » على مايظن أن الروح تتطلبه .. ولئن شاء الجهل أن يوجد حتى هذا اليوم من لايزال يجتر هذه المفاهيم، فأنا لا أري عند الإنسان كيانا قائماً بذاته لما يلقّب « بالجسد » ، ولا كياناً منفصلاً لما يلقّب « بالروح » !.. لذلك لا أجد في كلمتي « جنس » و « حب » سوى كلمتين فارغتين لمدلول أكيد واحد ، يعكسه كيان واحد ..!

قال ذلك بنفس واحد ، ثم ضحك ،وأعقب ..

ـ مارأيك بهذه المحاضرة القصيرة ؟!..

ثم أخذ يداعب هرة مرت أمامه ، فقلت ..

ـ هل أفهم من توحيدك هذا طريقة غير مباشرة لنفي وجود مانسميه بالروح ؟!..

ـ تقول.. « نفي وجود » الشيء ، كأن لهذا الشيء وجوداً أحاول أن أنفيه !.. هل أثبتّ أنت وجود ماتسميه بالروح قبل أن تتهمني بمحاولة نفي وجودها ؟..

ثم تابع متمهلا ..

ـ الروح كلمة ،أوجدها الإنسان قبل أن يدرك مايكمن من علم وراء حركته !.. لما رأى ميتاً أمامه،قال .. « هذا إنسان فارقته الروح » .. وكان بإمكانه أن يقول .. « فارقته الحركة » !.. المشكلة ليست في أن أنفي أنا وجود الروح.. بل أن تُعرّف أنت ماتتكلم عنه ، وتبرهن على وجوده ، قبل أن تستند إليه في الحديث !..

ــ هب أنني سلمت معك بما تقول !.. أليس باستطاعة غيري أن يقول لك بأن هذه الحركة التي فقدها الجسد هي ، إن شئت ، مايقصد بكلمة « الروح » ؟!..

ــ لا ياصاحبي !.. إن للروح في ذهن البشرية معنى آخر غير هذا !.. فهي في مخيلتهم شيء له وجود بحد ذاته ، ولا يقبل كمرجع له سوى قـــدرة ميتافيزيقية فوق إدراك البشر !.. أما الحركة ، فليست سوى ظاهرة ميكانيكية تنشأ عن تناقضات علمية معينة !.. الحركة في الطبيعة ، هي حالة في غنى عن مرجع منفصل ، في غنى عن مسبب مباشر ، مبعثها حالة التناقض نفسها ، الكامنـــة في وجودها ذاته ، وأهم مافي الأمر ، أن حالة التناقض هذه أمر علمي أعمى ، غير واع لوجوده ، وبالتالي ليست له ذيول أو معان أخلاقية !..

رحت أتابع النظر إليه وهو يداعب الهرة .. فحرت في أمر هذا الإنسان الذي لاتبدي تصرفاته سوى العبث والطفولة ، وإحساساته سوى أعمق المشاركة الإنسانية ، حتى إذا احتككت بأفكاره ، لم تجد فيها سوى البرود والعدم !..

أقبل الظلام ، وبدأ العشاق والأصدقاء والعابثون ينفض كل منهم إلى ليله ، وكأن القطة التي قفزت إلى حضن فراس باحثة عن الدفء فيه دفعت بي لأن أحاول ، للمرة الأخيرة ، أن أستخلص من آرائه ومضاً دافئاً أنا الآخر ..

قلت ..

ــ لئن كانت الحياة تلك الحركة العلمية الصماء التي تتحدث عنها .. فما الذي أحزنك في قصة قتل مبروك ؟.. وما الذي أثارك في قضية القتل هذه .. أليس قتل إنسان لإنسان آخر مجرد إيقاف لحركته على حد تعبيرك ؟!..

أنزل فراس القطة إلى الأرض بهدوء ، وأجاب ..

ــ للحياة عندك مفهوم مغاير لمفهومها عندي .. إنها عندي ليست سوى ظـــاهرة تفاعلات .. فهي ، في حد ذاتها ، لامعنى لها على الإطلاق ، كأي ظاهرة أخرى ، مثل احتراق شمعة ، أو نمو شجرة ، أو اهتزاز غصن .. والفارق الوحيد بين هذه الظواهر هو أن الإنسان يعيها ، وغيره من المخلوقات ، يحياها ، دون وعي ما !.. لا .. إن

ما أثارني في حادثة مبروك ليس القتل ، ولا موت مبروك ، فوجود مبروك أو عدمه لايعنيني في شيء على الإطلاق !.. إن ما أثارني هو أن عملية القتل هذه ، تجربة تمت على يد إنسان دون أن يشعر ، وهو يقوم بها ، أنه أقدم على شيء مهم !!..

قاطعته متفائلا ..

ـ إذن أنت تجد أن القتل عمل مكروه .. جريمة !!..

ـ من الوجهة الاجتماعية ، طبعاً !.. إذ لو أباح الجميع لأنفسهم حرية القتل لما بقي هناك مجتمع ، ولتعرضت حياتي أنا للخطر !..

تعجبت لهذا التحفظ بجوابه وسألته ..

ـ وهل هنالك من وجهات نظر أخرى حول هذا الموضوع ؟..

ـ هنالك الصعيد الفردي ، أو الصعيد النفسي إن شئت !..

ـ وماذا وجدت في قتل مبروك على هذه الطريقة ؟..

ـ وجدت في هلال إنساناً خالياً من العقد !..

* * *

الفصل الرابع

خلت قطر الندى بزوجة فراس وبعض الصديقات في غرفة خاصة يتلهين بأحاديث يقهقهن لها فتصل أصداء ضحكهن إلى الشرفة حيث جلس فراس ينتظر وصول هلال ويلهي نفسه بمداعبة الأمير الصغير ، سميه ..

وقف على حافة الشرفة ينظر أمامه إلى امتداد لا آخر له ، يعب هواء عليلاً بدا له غريباً عن الصحراء ، يتقبل لفحات شمس دافئة ، نسيت قسوتها المعتادة ..

ـ أليس الربيع غريب الجمال في هذه البلاد ؟..

نظر خلفه ليرى محدثته مقبلة نحوه ضاحكة ..

أجابها مبتسماً ..

ـ أحس بقلقه !.. مثل غريب حل على قوم باحثاً عن أصدقاء له بينهم ، فلما لم يجدهم ، خجل من الإسراع في الرحيل ، فقبل الضيافة على مضض ..

ضحكت قطر ..

ـ أما أنا .. فيذكرني بالرجل الذي طال بحثي عنه .. كأنه قربي ، أحس بأنفاسه دون أن أراه أو أستطيع لمسه ..

تنبه فراس إلى أنها أتت وحيدة ، فسألها ..

ـ أين صحبك ؟..

ـ ذهبن في نزهة قصيرة .. آثرت أن أجلس إلى الشمس في هذه الأثناء .. ثم .. هنالك مفاجأة أريد أن أطلعك عليها !..

تريثت ، ثم قالت ..

ـ إن ميساء قادمة لزيارتي .. وستصل بعد أيام قلائل !..

بوغت فراس ..

ـ ولما لم تطلعيني على ذلك من قبل ؟.. حقاً .. إنها لمفاجأة !..

سُرَّت لسرور فراس .. فتابعت وهي تطفح بهجة ..

ـ وستكون الأميرة « درة » في استقبالها !!..

ـ ابنة السلطان ؟!

ـ بذاتها !..

ـ وما علاقة « درة » بها حتى تكون في استقبالها ؟..

ـ رأتها في الحفل الذي أقيم لي هنا قبل شهر العسل ..وأعجبت بها أيما إعجاب !..

ـ وما رأي ميساء بها ؟

ـ أعجبت باستقلال تصرفاتها ، ومحاولتها الخروج على نظم وتقاليد عائلتها الحاكمة !..

سر فراس لنبأ قدوم ميساء .. وراح، وهو مغمض العينين ،يستقبل لفحات الشمس الدافئة على وجهه ، ويسترجع ماجمعه في ذهنه من صور وتساؤلات حولها ..

هل كانت تحيط نفسها عمداً بجوها الغامض ، أم إن هذا السحر كان جزءاً من شخصيتها ؟..

وتواردت الصور ..

تذكر عدم المبالاة الذي تلقت به نبأ خلاف أختها مع هلال .. وقارنه بالصدمة التي اعترتها حين علمت بخلاف أختها الكبرى مع زوجها السياسي الطموح !..

لعلها كانت تعد نفسها لزواج مماثل لزواج أختها الكبرى،وترى فيه مثلا يقتدى..

صدمت لهذا النبأ !.. لم تفهم كيف يمكن أن يتصدع بسهولة زواج من كان على مستوى ذكائها وثقافتها !.. ولا كيف وصل الشجار بينهما إلى استعمال الأيدي، حتى خرجت أختها هائمة على وجهها في طرقات القاهرة !..

النسيم البارد يدغدغ وجوه الجالسين إلى الشمس في الشرفة ، بينما رائحة القهوة تفوح من مكان ما .. وقطر الندى تدمدم لحن أغنية شرقية بصوت خافت ...

كانت ميساء تحب شابا من بلدها ، لاميزة له سوى أنه وسيم ، فما أن طُرحت مشكلة الزواج على بساط حياتها ، حتى أهملته ، باحثة عن شاب مثقف من عائلة تليق

بعاتلتها . كانت في ذلك الحين تجتاز الطور الذي مرت به أختها الكبرى في محـــاولة تطبيق ثقافتها المخضرمة على واقعها المشتت . حارت إذ رأت زواج أختيهـا يوشك على الانهيار ، وتعبت إذ لم تجد لنفسها مخرجاً ، ولا لمشكلاتها حلا !.. خافت أن تمر أعوام شبابها وتجد التجاعيد الطريق إلى وجهها قبل أن تجد الزوج المناسب ..

وجاءت أخبار قطر الندى السيئة لتضع النقاط على الحروف .. لئن تساوى فشل الأختين على الصعيد النفسي ، فإن قطر النـدى على الأقل تنعم بالثراء ، بينما أختهـــا الكبرى لاتملك شروى نقير !..

صحيح أن هلالاً قد ضيق الخناق على قطر ، ومنع عنها المال . . لكن ، حتى لو انتهى الأمر بينهما إلى الطلاق، ألن تخرج قطر الندى من هذه التجربة وقد ربحت قصراً تساوي قيمته مئات الألوف .. علاوة عما لديها من ماس وذهب ؟..

ماذا سيبقى لأختها الكبرى ، لو تم طلاقهـــا ، سوى ذكريات زواج تعيس ، وخيبة ذريعة ؟..

قطع صوت قطر الندى عليه أفكاره ..

ـ إن درة هي الوحيدة من بين الأميرات التي لم تجاهرني العداء !..

سألها ، وكأنه لم يسمع قولها . .

ـ هل أنت التي بعثت في طلب ميساء ؟..

أجابته في حزن وحزم ..

ـ نعم .. لم أعد أطيق مجابهة الحياة هنا بمفردي !.. هلال يحترم ميساء ، ويكنّ لها مودة خاصة ، فلعلها تستطيع التأثير عليه وإعادته إلى صوابه !..

قاطعها متعجباً ..

ـ لابد أنك تمزحين !.. أي صواب هذا ياقطر ؟.. ألم تعترفي لي مراراً أن كبرياءك وطبعك الحاد هما من أهم العوامل التي خلقت هذا التنافر بينكما ؟..

أفلتت منها ضحكتها المحببة ..

ـ ماذا تريد .. أنت تعلم في الوقت نفسه ، أنني لا أستطيع أن أغـــير من طباعي !..

وتساءل فراس .. أهي حقاً لاتستطيع ذلك ؟.. أم أنها حاولت ، ولم تجد محاولتها نفعاً ، فآثرت أن تحفظ كبرياءها أمام أصدقائها بمثل هذه الأقوال ؟..

انقضت أيام تشاغلت فيها قطر الندى بالتجهيز لوصول أختهـــا ..

تعددت زيارات « درة » لها ، كأنها لم تشأ أن يقال فيما بعد أن الصداقة لاتربطها إلا بميساء فقط !..

ازداد الحديث عن ميساء ، حتى سرى شعور بأن لقدومها معنى، ولوصولها في ذلك الموعد هدف ..

جاء من يسأل فراساً يوماً عن صحة مايقال بأن ميساء على صلة بأمير من غيرهذه البلاد !.. فعجب لذلك ، لعلمه أن المطلعين على هذه الصلة قلائل ، وأن ميساء ،رغم صداقتهما ، لم تطلعه عليها إلا بعد مقدمات طويلة ورجاء حار بأن لاينوه عنها لأحد!..

ترى من الذي أذاع الخبر ؟..

أيمكن أن تكون ميساء هي التي طيرته ليسبقها إلى العاصمة ؟..

لئن كان ذلك صحيحاً .. فماذا تهدف من وراء ذلك ؟..

سرعان ما أتى اليوم الموعود ، وتحرك المستقبلون نحو المطار .

ما إن حطت الطائرة حتى تقدمت السيارات نحوها لتتلقف ميساء التي بدت على السلم ، وشعرها الذهبي الطويل يتطاير مع الهواء ، كأسطورة نسجهـا خيال الغرب من أغصان أدغاله ، فتاهت ،وحطت على هذه الرمال المحرقة ، لتحدثها عن سحر الشمال!..

عاد الركب أدراجه .. وقبل أن تتفرق جموع المستقبلين، نظـــر فراس للمرة الأخيرة ،عبر مرآة السيارة، إلى « درة » التي كانت تطوق ميساء بذراعها ، وصفعه ماجمع بين بياض بشرة هذه ،وسمرة تلك ، بين بريق شعر هذه ،وفحمة سواد تلك،وما قرّب بين جسد ميساء الصغير الغض، ومنكبي درة العريضين وقامتها المشوقة القاسية!.

تمنى في سره لو أن درة تزيح ذراعها تلك الطويلة التي طوقت به كتفي صديقتها !.. وبدت له تلك الذراع كأداة لقدر لن يترفق بأحد !..

استأثرت درة بالأختين ..

مضت أيام دون أن يراهما ، فخيم على حياته سكون غريب .. ازداد يقينه بأن هنالك مايدبر في الخفاء ، ثم مالبث أن تيقن أنه كان محقـــاً في توجسه ، إذ جاءت إليه ميساء وقطر الندى يوماً ، وهما على عجلة من أمرهما ، تدعوانه إلى مرافقتهما في رحلة إلى المدينة الثانية في تلك البلاد ، قالتا إن الأميرة درة دعتهما إليها ..

كانت درة في سيارتها تصيح لهما بالإسراع .. فراحتا تستحثانه على القبول .
عجب لهذه الدعوة المفاجأة .. وامتعض لوقوفهما أمام الباب ..
ـ مالكما لاتدخلان الدار ؟!..
ـ ألا ترى كيف تصيح وتؤشر لنا بالإسراع ؟!..
تمالك فراس نفسه ، وأجاب ..
ـ وماذا نفعل في تلك المدينة ؟..
ـ نلهو .. ونتفسح !..
ـ وما شأني أنا معكم في بلد لا أعرف فيه أحداً ؟.. لابد وأنكم ستستقلون إحدى طائرات السلطان الخاصة .. كيف سأبدو في ركب من الأميرات وصحبهن ، في طائرة ليس فيها أحد من الرجال غيري ؟..
ـ لاعليك يافراس .. بل إن هذه الرحلة لايمكن أن تتم دونك ! .. فهـــلال لم يسمح لنا بالسفر وحيدات .. إنه يأتمنك ويثق بك .. فما أن قلنا له إننا سنطلب منك ومن زوجتك الذهاب معنا حتى وافق !..
تردد طويلاً .. وفي النهاية لم يجد حلاً إزاء إلحاحهما غير القبول ..
ـ ومتى سيكون السفر ؟..
ـ بعد غد ...

أتى بعد الغد ، وجلس فراس في الطائرة ينظر إلى هرج ومرج لم يتوقعه ..
سمع درة ، وقد تناولت كأسين أو ثلاثاً من المسكرات ، تبعثر النكات الجنسية يميناً ويساراً !.. تفرغ زجاجات العطر على رؤوس من حولها ، ثم تهدد من تتذمر منهن بخنجر استلته من حزامها ، فتقهقه ضاحكة لنظرات الرعب على وجوههن ، حتى تكاد تقع على الأرض !!..

لم يفهم نظراتها الحمر الوخازة !..

تملكه عجب شديد .. ولولا يقينه بأنها ليست جد مولعة بالرجال ، لظن أن بعض هذه النكات المليئة بالمعاني كان موجهاً إليه !..

وتلا ذلك تنقل في المدينة بين بيوت لم يكن فراس يدري عن أصحابها شيئاً..

اضطر إلى مرافقة صديقتيه ودرة لبعض المقابلات بجو من الكتمان لم يفهم له معنى ! ..

أخافه هذا التكتم والغموض !.. ولما استفحل الأمر ، حين وصل إلى مسامعه أن هنالك من يراقب جميع حركاتهم وسكناتهم ، خاف أن يجري السيل من تحت أقدامه ، أو أن تصل أخبارهم إلى مسامع هلال أو السلطان ، فتبرم من ذلك الوضع ، وأصر على أن يحاط علماً بما يدور حوله ، أو أن يسمح له بالعودة إلى العاصمة في أقرب وقت !..

ترددت ميساء ، لكن قطر الندى آثرت أن توضح له ماخفي عليه . فما أن خرجت ميساء إلى نزهة مع درة حتى كاشفته بأن درة تسعى إلى زواج ميساء من الأمير « البدر »، أحب إخوتها إليها ، وأقربهم إلى أبيهم السلطان !..

ذهل في البدء لما سمع ..

ــ وأميرها الآخر ؟.. علاقة سنين !..

ضحكت قطر ، وقالت ..

ــ وما شأني أنا .. لعلها نسيته !..

استرجع هدوءه وسألها ..

ــ لو كان هذا هو كل مافي الأمر ... فعلام التكتم والتستر ..؟

ــ لأن هلالا وبعضاً من إخوته على خلاف مع أخيهم السلطان !.. يقال إن هنالك بوادر حركة تمرد ضده في العائلة الحاكمة ، وإن السلطان يتهم أخاه هلالا علنا بتدبيرها ، لذلك، لايمكن أن يوافق هلال على زواج ميساء من ابن أخيه البدر ، وهو على حال الخصام هذا مع أخيه السلطان !..

ــ وماذا سيفعل لو علم بما يجري هنا ، ودري بما تقومين به مع درة من تهيئة الأمور

لهذا الزواج ؟..ضحكت دون أن تخفي وجلا تراءى في عينيها ..

ـ لو علم بذلك لكانت الطامة الكبرى ، ولصبّ جام غضبه على رأسي !!..

ـ ويحك ياقطر !.. مالك ومثل هذه المحاذير ترمين نفسك وقدرك فيها..؟ أتعجبين بعد هذا من هلال إن استشاط غضباً منك ؟.. مالك تسعين وراء أمور لاناقــة لك فيها ولا جمل ؟... أمور تعلمين أنها تسيء إلى زوجك ؟..

بدت على وجهها دهشة مصطنعة ..

ـ إنها أختي يافراس !!.. وهل من أخت لاتود لأختها زوجاً يحميها ويرعاها ؟.. أفلا ترى كيف تسعى درة ، بدافع الصداقة ، وراء سعادة ميساء ؟.. فكيف تطلب مني ، أنا أختها ، ألا أحرك ساكناً في هذا السبيل ؟!!.

نظر إليها بتمعن ..

ـ هل أنت حقاً غير عارفة بما تسعى إليه درة من وراء هذا الزواج ؟!.. ألا تدرين أن درة إنما تسعى لإبقاء ميساء في هــذا البلد !!.. ألا تدرين أنها لاتحلم سوى بسعادة نفسها ؟!..

تباطأت قطر الندى ..

ـ ربما كان هذا صحيحاً !.. لكن هذا شأنها ، وما ضير ميساء من ذلك ؟.. ليس هناك أيسر عليها من وضع الحدود ، بينها وبين درة ، بعد الزواج !.. أنت تعلم أن ميساء أكثر من قادرة على ذلك !!..

ـ لنفترض أنها قادرة فعلا على ذلك ،وأنها لاتأبه بأذى قد يحيقه بها آنئذ غضب درة ، وخيبة أملها .. فمالك ياقطر تسعين وراء قدر لميساء ، طالما تململت أنت منه ؟.. هل أنت على هذه السعادة الكبرى مع هلال في هذه البيئة كي تشجعي ميساء على زواج مماثل لزواجك ؟..

كان فراس يناقش قطر الندى ظانا أن الأمور لازالت في بدايتها !..

كيف كان له أن يدري بأن ميساء إنما جاءت لتتم هذه الخطوة ، لا لكي تبدأها !..

وكيف كان له أن يعلم،وهو على صداقته المبكرة معها ، بقدرتها الهائلة على التخطيط للأحداث بجلد ومثابرة وتصميم على بلوغ أهدافها ، غير عابئة بما قد يقف دون أربها ، إنساناً كان مايعيقها أو مبدأ ؟..

كيف يمكن لأي إنسان ينظر إلى عينيها الوادعتين،وابتسامتها الحلوة المشرقة، أن يتنسم رائحة ذلك الذكاء اللامع المشوب بالمكر ، وراء مثل هذا القناع الغض الجميل ؟!..

* * *

الفصل الخامس

نظرت ميساء إلى مرآتها منذ سنوات ، وكانت في حيرة من أمر زواجها ، فرأت وجهاً جميلاً تتقد فيه عيناها اللتان لم يسبر غورهما إنسان بعد ، واللتان تفتحتا منذ حداثتها على آفاق وأحلام ، لئن كان بعدها عن الواقع يخيفها أحياناً ، فإن هذه الأحلام كانت أنيسة وحدتها ورفيقة وسادتها حتى يومها هذا !..

أن تصبح يوماً أميرة ، كان أمراً أدرجته على فهرس آمالها ، وتوسمت فيه غاية المجد في الماضي !.. لكن ، هاهي أختها تُزف إلى أمير ، ورغم أن أحداً لم يدر آنذاك ما سيصير إليه هذا الزواج من خلل ، فميساء أدركت ، منذ اللحظة الأولى ، أن الإمارة التي كانت تنشدها لا يمكن أن يحققها لها أمثال هلال !.. فجدائلها الذهبية ، لم تنم لتذبل تحت وطأة شمس الصحراء المحرقة !.. وثقافتها ، لم تجهد أيامها في إتمامها ، لترميها فوق الرمال المحرقة !..

وخبا لمعان اللقب في ذهنها فجأة ، ليفسح المجال لبريق لقب آخر ، أسطع منه وأعظم !..

لماذا لا تصبح ميساء ملكة ؟!..

أمجنونة هي ؟.. لا !.. ما أتفه الناس !..

« ألا تبدأ الرحلة إلى الصين بخطوة » ؟..

« ألا تبدأ كل الرحلات ، طويلة كانت أم قصيرة ، بخطوة » ؟..

« لماذا يخاف الناس التعب سلفاً ، فلا يضعون نصب أعينهم سوى القريب من الأهداف » ؟..

« ومن يبلغ المجد سوى الذي يجرؤ على سلوك طريقه » ؟ ..

نظرت إلى مرآتها ملياً ..

ومسائلتها ، كما في الأسطورة .. « من أجمل مني من فتيات الشرق ، ومن منهن أهيف » ؟..

أجابتها عيناها الزرقاوان المطلتان من المرآة .. « لا أحد » !..

سألت مرآتها .. « ومن لها أنسب من عائلتي مقاماً ، وأكرم عزة » ؟..

فأجابتها العينان المبتسمتان .. « لا أحد » !..

أخذت المرآة بيدها الأخرى ، ورنت إليها .. « ومن أحقّ مني ، من دون فتيات الشرق ، بالملك ، وأجدر » ؟..

ومرة أخرى ، أجابت المرآة « لا أحد » !..

ومن دول الشرق جميعاً ، أعدّت ميساء لائحة للدول التي يحكمها ملك .. ومن هؤلاء الملوك ، انتقت من لهم أولياء عهد فقط !..

ومن أولياء عهد الشرق جميعاً ، انتقت من لم يتزوج منهم بعد !..

ومن بين اثنين من هؤلاء ، قارنت بين شهرة هذا وذاك ، وبين ما يُعرف عن ثقافة هذا وذاك ، وقع اختيارها على أحدهما ، واسمه « حسان » ، علمت أن كبرى شقيقاته تتم دراستها في باريس ، فأزمعت السفر إليها بأقرب وقت !..

لم يكن تنفيذ هذا القرار بالأمر الهين ، إذ كان عليها لذلك أن تحصل على موافقة والدة بليدة يرشح البخل من أذيالها !..

حشدت لمساعدتها على إقناع والدتها جميع الأهل والأصدقاء .. ولما لم يُجدِ هذا ، توعدت وهددت بارتكاب أبشع المعاصي وأشنعها ، ثم بدأت بتنفيذ وعيدها فعلا ، فما أن شعرت والدتها بذلك ، وأحست أن الفضيحة باتت على الأبواب ، حتى لان عنادها وقبلت بتخصيص ما يلزم لها من مال للدراسة !..

ولم تمض أسابيع قليلة ، حتى كانت ميساء في باريس ، ملتحقة بأحد معاهد الفنون ، تسكن نفس دار الطالبات التي تؤمها نائلة ، أخت الأمير حسان ! .. ولم يكن صعباً عليها أن تثير اهتمام نائلة ، تلك الفتاة التي كانت رغم قوة شكيمتها وتحررها تعاني من وحدة قاتلة ، سببها نقص في أنوثتها ، وفيض من تصرفات تحاكي تصرفات الرجال !..

سرعان ما نشأت بين الفتاتين علاقة تسارعت الأميرة في الانزلاق إليها !..

لعل نائلة أدركت خطورة ما هي مقبلة عليه ، لذلك أحجمت عن كل ما يمكن أن يكشف لميساء عن كنه شعورها نحوها !..

لعلها أحست بأن ميساء ، رغم تسامحها الظاهري ، لم تكن تميل في قرارتها إلى مثل هذه العلاقات ، فزاد ذلك من حذرها !..

لكن ، سرعان ماغلبتها الدهشة حين بدأت تستشم من ميساء تصرفات تشجعها على المزيد من الاندفاع إلى مثل هذه المغامرة !.. تصرفات ، بدت كمن تقول لنائلة .. « لك أن تشعري نحوي بما تشائين .. لكن هذا لايلزمني نحوك بأي التزام » !..

تألمت نائلة بصمت ، أحست أن هذه الشقراء اللعوب تريد أن تعبث بقلبها !.. لماذا ؟ .. أي هدف تنشده ؟!..

ما كان على نائلة أن تذكر نفسها بأنها ابنة أعرق حكام أمتها قاطبة !.. فكل مافيها يصرخ بالأنفة وعراقة المنبت !.. فلا غرابة إنجاء حزنها صامتاً كالصخر ، وإن سالت دموعها على وسادتها ، بين ليلة وأخرى ، باردة كالثلج ..

وكان يوم ثار الشرق فيه لإهانة صدرت عن دولة مستعمرة لحقت بوالد نائلة ..

فكانت هذه ، لميساء فرصة عرفت كيف تستغلها خير استغلال !..

حرضت على الفور جميع الطلبة الشرقيين على الخروج بتظاهرة سياسية احتجاجاً على هذه الإهانة ، ومناصرة للباي الوطني !..

وقبيل الموعد المقرر ، أعلمت عدداً من الصحفيين الفرنسيين عن موعد خروجها .. فهرعوا ليلتقطوا صوراً لـ « ابنة الزعيم الشرقي » تترأس جمهرة الشباب ، حاملة على صدرها صورة الباي الوطني !..

كان لتلك المظاهرة الوقع المطلوب في النفوس ، ونشرت صحف باريس هذه الصور على صفحاتها الأولى !!..

وفي المساء ، أقبلت نائلة نحوها والسرور يفعم قلبها ..

ـ لقد تأثر والدي جداً حين علم بخبر التظاهرةياميساء !.. أخـــبرني بذلك على الهاتف اليوم !.. كان بوده لو يشكر لك بنفسه مشقة ما قمت به !.. و.. أتعلمين أنه كان يعرف والدك المرحوم ؟..

ترقبت ميساء أن تكمل نائلة حديثها ، لكن هذه جلست تطالع إحدى المجلات..

حنقت ميساء !.. أحست أن على الناس أن يهرعوا حشوداً إليها، لتهنئتها على ما قامت به ! .. أرادت من نائلة ، ولو كلمة واحدة ، عن هـذا الذي أتت باريس من أجله ، وقامت بهذه التظاهرة ليسمع باسمها !.. فما لأخته هذه لاتنبس عنه ببنت شفة ؟!.. وترقبت أشياء وأشياء من نائلة ، مالها في كل مرة تراوغها ، لتفلت منها ، أو تسبقها ، فتقطع عليها الطريق بحيلة ما !..

ترى هل أدركت نائلة حقيقة ما تسعى إليه ؟..

هل شعرت بحدسها وحنكتها بما يجول في خاطرها ؟..

لكن ، كيف يمكن ذلك وهي لم تتلفظ يوماً باسم حسان أمامها ؟..

لعل صمتها بالذات ، وتجاهلها لحسان ، همـا اللذان جعلا نائلة تفطن إلى أن هنالك سراً في الأمر !..

أحست بأن عليها أن تقوم بشيء ما !..

كان عليها أن تحاول قطف ثمار صداقتها في هذه اللحظة بالذات ..

جمعت شجاعتها ، وسألت نائلة بكل ما أوتيت من عدم مبالاة ..

ـ ألا يأتي أحد من إخوتك لزيارتك ؟ ..

أجابتها نائلة ، دون أن ترفع ناظريها عما تقرؤه ..

ـ بل سيأتي أخواي معاً .. غداً في الساعة العاشرة صباحاً ..

ـ ... !..

لن يعلم أحد كيف مر الليل على ميساء !..

لن يعلم أحد ما دار في مخيلتها ، وما هيأته للغد من ألوف الردود والأوضاع والنظرات !..

غداً سيأتي !..غداً ستراه بلحمه ودمه، وستعلم غداً بحدسها ما إذا كانت ستتربع يوماً على عرش أم لا !!..

لم تستيقظ ميساء كأية فتاة أخرى في هذه الحال منذ أولى ساعات الفجر ، لتذرع الغرفة جيئة وذهاباً !..

نامت ملء جفنيها ، ثم قامت قبيل الموعد ، بعد أن أراحت بشرة وجهها ، فأتمت زينتها ، وجلست تنتظر تتابع الأحداث ..

لم تكن نائلة قد أوضحت لها ما إذا كانت ستقوم بتعريفها على إخويها أم لا ..

لا بأس ، هنالك مئات الطرق لرؤيتها .. سيضطران للمرور أمام غرفتها، كي يصلا إلى غرفة نائلة .. أو سينتظران نائلة في البهو ..

لا بأس ، على الحالين متسع طويل من الوقت لتتدبر أمورها ..

ماذا ؟ .. لئن أحوجها الأمر فبإمكانها أن تصرخ مستنجدة ، مدعية حلول بلاء ما عليها !..

لا عليها !.. لاعليها !..

نظرت إلى ساعتها .. لم يفت على موعد قدومهما سوى القليل !.. سوى عشر دقائق !..

الوقت يمر ! .. سوى ساعة .. لا .. لن تقوم بالخطوة الأولى بعد !.. لن تتعجل الأمور ! .. هنالك متسع من الوقت ..

وفجأة قرع بابها !..

وقفت .. لم تهرع إلى الباب ، بل أصلحت ثوبها .. تمهلت قليلا .. نظرت إلى وجهها في المرآة..لامست خصلات شعرها .. بللت شفتيها بلسانها ،وزمتها إلى الأمام، ثم اتجهت نحو الباب ففتحته ..

نظرت خلف نائلة ،فرأت شابين .. أحدهما يحمل بيديه باقة هائلة من الورود الحمر !..

لابد أنه ولي العهد ! ومن خلفه ، وقف شاب طويل .. أخوه الأصغر ..

بدا ولي العهد أقصر مما تصورته وأقبح ! .. لكن عينيه !.. أدركت من اللحظة الأولى أن في عينيه بريق ذكاء غير اعتيادي !.. أما أخوه .. فطويل ممشوق ، أسمر ! يالله .. ليته ولي العهد !..

قالت نائلة مشيرة إلى أخيها ..

– أخي حسان ، ولي العهد .. وهذا أخي الأصغر مراد ..

قاطعها ولي العهد ..

– جئنا نشكرك يا آنسة .. أرجو ألا نكون قد أعقناك عن عمل ما ؟..

أجابته على الفور ..

– على العكس !.. على العكس !.. ما أجمل هذه الورود !!.. كنت على وشك الخروج إلى نزهة في الحديقة المقابلة ..

ضحك ولي العهد مازحاً ..

– في « اللوكسمبورغ » ؟.. إذن لابد أنك على موعد مع رفيق لك !..

نفت ميساء بدلال ..

– رفيق لي ؟.. ليس عندي رفيق !.. أخرجُ دوماً إلى النزهة وحدي ..

تبسم الأمير ..

– فتاه لهـــا مالك من الجمال .. تخرج وحدها في باريس ؟.. بئس الشبان !!..

ضحكت ميساء ..

– بل بئس نفسي التي لم تجد بعد شابا يثير اهتمامها !.. بأس الشرق ، وما علّمنا من تحفظ !..

– لامانع لديك إذن أن نخرج سوية للنزهة ؟..

– بل ليس أحب على نفسي من أن أكون برفقة شابـــين مثلكما . . من ملتي وبلادي !..

قاطعها ولي العهد مبتسما ..

– هل وصلت حدود قوميتك المتدفقة إلى بلادنا ؟..

– بلادكم ؟.. ألم تكن في غابر الأيام بـلادي !.. نحن عائلة واحدة .. متشعبة الأطراف ..! أليس جميلاً أن تلملم العائلة أطرافها ؟!..

ـ يتوقف ذلك على من سيكون رب العائلة !..

ضحك الجميع وهم يخرجون من بهو البناء ويتجهون نحو السيارة الملكية ..

وجه ولي العهد أمره إلى السائق ..

ـ أوصلني إلى الفندق أولاً ، ثم إلى حيث يأمرك الأمير مراد !..

ماذا ؟!.. سيذهب حسان عنها ؟!..

أحست ميساء بأحشائها تهبط إلى قاع جسدها ، تمالكت نفسها ، وسألته بشيء من الحيرة لم تستطع إخفاءها ..

ـ ظننت أننا سنكون معاً !..

ـ ليس مايسعدني أكثر من ذلك .. لكن .. لدي ارتباط سابق ..

وبادرت نائلة للهمس في أذنها ..

ـ إنه حب قديم ..فتاة لايزال على حبها منذ خمس سنوات !.. حب ، لاأقوى.. ولا أمتن !..

أحست ميساء بالوهن يجري في عروقها !..

تقول ميساء .. أو هكذا قالت لفراس على الأقل ، إنها بدأت تسترعي انتباه الأمير مراد منذ أن نظر إليها ملياً ، وهي ملقية برأسها على مقعد السيارة ، مغمضة العينين ، وجدائلها الذهبية تتاوى فوق محمله النبيذي !..

واليوم ، وبعد أن اكتشف من دهائها ما اكتشف ، بات فراس لايدري هل كان ذلك الرأس الجميل ، في تلك النزهة ، يتقبل حقاً اهتماماً عفويا من مراد ، أم إنه كان يجهز خطة جديدة للإيقاع به !.. خطة حاكها وهو في غمرة أنينه من فشله في الحصول على التاج !!..

وسيان لدى القدر أكان الأمر هذا أم ذاك !..

فميساء لم تترك مراداً في ذلك اليوم إلا وهي على موعد معه في لقاء آخر !..

موعد .. تلته مواعيد !..

ومواعيد تلتها رسائل، وثقت عرى علاقة مبهمة بين أمير عابث ، من سلالة مالكة

يرجع تاريخ أول من حكم منها إلى مئات السنين ، وفتاة دفنت أعز آمالها حين فقدت عرش أخيه .. فتعلقت بأذياله هو ، كغريق يتعلق بآخر قارب للنجاة !..

* * *

أنهت ميساء دراستها ، ولم يتقدم مراد طالباً يدها للزواج !.. عادت إلى وطنها دون أن تظفر حتى بوعد بالخطوبة !.. لقد اختارت أن تسلك مع مراد طريق الحب الأعمى عن كل نتيجة مسبقة !.. فمراد من النوع الذي لايؤخذ بغير طريق قلبه .. فأعطته قلبها ، أو هكذا ادعت أمامه ، دون أن تطالبه بشيء مقابل ذلك !.. فأخذت بلعبتها ... ووجدت نفسها بعيدة عنه في وطنها ، مربوطة به ، غير قادرة على أن تستحثه للزواج منها .

أكثرت من رسائلها إليه ، ثم قللت ، ولم يغير ذلك شيئاً حتى في مواعيد رسائله إليها !..

كانت كتبه تصلها مرة كل ثلاثة أسابيع ، سواء أأغرقته برسائلها أم توقفت عن الكتابة !..

حارت من أمرها وتعثرت ..

ماذا ينوي بشأنها ؟!.. ماذا يعني موقفه هذا ؟!.. لو أنه لايهتم بها لما راسلها على الإطلاق ..!..

لعله لايريد الزواج بها إلا حين يروق له ذلك !.. ولا يمكن أن يعني هذا سوى الانتظار سنوات أخرى ريثما يمل اللهو ، أو حين يجبره والده على الركون إلى الحياة العائلية !..

ماذا يمكنها أن تفعل ؟..

أتنتظره ، وقد بلغت التاسعة والعشرين من عمرها ؟..

لقد أخفت عن مراد أنها تكبره بثلاث سنوات !.. فهل يمكنها الانتظار سنين أخرى !؟..

لئن أقصرت نفسها على ذلك ، فهل تصمد بشرتها أمام هذا الانتظار؟!..

لا .. وألف لا !!..

عليها أن تفتح جبهة أخرى .. عليها أن تسعى لتهيئة زوج آخـــر !.. من الذي يضمن لها أن مراداً سيظل على عهده بعد سنين !..

أسرّت لقطر الندى عن مخاوفها ، وكانت هذه تستعد للسفر إلى بلاد هلال قبل أن تبتدىء رحلة شهر العسل ..

سرت قطر الندى لفكرة ومضت في رأسها ..

ـ تعالي معنا !.. سنمكث في العاصمة أسبوعاً على أكثر تقدير !.. وسيتاح لك التعرف إلى جميع أفراد العائلة المالكة هناك .. مارأيك ؟!..

لمعت عينا ميساء .. يالها من مناسبة !..

ستظهر أمام هؤلاء الأمراء لا كطالبة زواج ، بل كقريبة لهم ، كسائحة أتت من الغرب لتتفقد أمورهم من عليائها !!.. نسيبة لأقوى إخوتهم !..

وفي الحفل الذي ضم معظم الأسرة المالكة ..

ومن بين جموع المعجبين الذين توافدوا للإحاطة بها ..

لم يسترع انتباه ميساء سوى عينين سوداوين جائعتين ..

عينا درة .. ابنة السلطان ، وأشرس بناته !..

ستفتح لها هاتان العينان الأبواب ..

ستجدان لها الطعم الذي تنشدة كي تستدرج مراداً .. وإن ثابر هذا على إهمالها ، فلن ترحمها ، حتى توصلاها إلى أمنع أفراد أسرتها .. إلى البدر .. أقوى أبناء السلطان وأحبهم إلى نفسه !..

ألم تتناقل الشائعات بأن السلطان يسعى إلى توليته الملك من بعده ؟..

* * *

ضج هلال لما وقع عليه من أمر درة وميساء ، فنسي قطر الندى أو تناساها .. حتى إذا خفت وطأة المفاجأة عليه ، رزح تحت وطأة ضيق شديد من قدر تعود أن يلعب به فإذا بهذا القدر يلقي عليه فجأة بزوجة تدبر المكائد ضده ، وبأخت لها ... أخت لها ، آه لو استطاع أن يعلم ماهو هدف ميساء وراء ما أثارته من عكر في مستنقع الطـــين هذا !.. كان الجميع آمنين في مياهه الراكدة ، تأكل الأسماك صغارهـــا ، وتأكل

الضفادع ماتبقي لها الأسماك من حشرات وديدان ... فما لهذه الفتاة تثير ما أثارته ، حتى غدت الأنداد ، في ظلمة العكر ، ينهش بعضها بعضاً ؟..

حار هلال في أمره !.. فلا هو قادر على الوقوف في وجه هـــذا الزواج ، ولا باستطاعته قبول الهزيمة !..

بات يقضي الليل مع صحبه وخلانه ، لايعود إلى قصره إلا مع الفجر ، وإن صادف قطر الندى أثناء النهار ، كال لها من القدح والذم مالم يعد باستطاعتهاهي الأخرى أن تحتمله !..

خاطر واحد كان ينسيه هذه الهزيمة ، وهو أن هذا الزواج سيتيح له فرصة التخلص من قطر الندى إلى الأبد !!.. إذ من الذي يهـــدد سعادته الآن مع أم جوهر سوى تساؤلات قطر الندى وعيونها ؟!.. لاريب أنهـــا استمالت حتى فراس ليعمل إلى جانبها !..

وحارت قطر الندى ، هي الأخرى ..

أسقط في يدها حين وجدت نفسها فجأة وحيدة ، بين أخت في لهو عنها، تجهز لزفافها المقبل ، وزوج لم يعد يعيرها غير الإهمال والذم !..

قررت أن تطلب منه السماح لها بالعودة إلى بلادها ، آملة أن يستثيره طلبها ، فتجره إلى عتاب ، أو شجار ، أو إلى أي شيء يقطع هذا الصمت المقيت ..

ما كان من هلال سوى أن أجابها بأنها حرة .. تفعل ماتشاء بنفسها !..

جاءت في اليوم التالي تخبر فراساً .. فحزن لأمرها أيما حزن !.. حاول تعزيتها، لكنه لم يستطع إلا أن ينوه أثناء الحديث بأنه قد سبق وحذرها من هذه العاقبة ..

ما إن قال لها ذلك ، وكانت تنظر إلى الأرض حزينة ، حتى ارتفع بصرها إليه، وإذا بالمرارة تختفي وتحل محلها ابتسامة نصر !..

قالت وشفتاها ترتعدان تحفزاً ..

ــ أتظنني بلهاء يافراس ؟.. أنت تعلم أن لهلال خليلة !.. ولا أقصد بذلك أية

خليلة !.. فهذا أمر لا يهمني في شيء !.. بل هناك امرأة يحبها ، ولا يود أن يقرب من النساء غيرها !!.. وأنت تعلم أن ماوصلنا إليه من خصام يستحيل الوئام بعده !..أفلم يخطر ببالك ، رغم كل هذا ، أن هلالاً إزاء هذا الوضع قد يفكر بالطلاق ؟!..

بهت فراس للتحول الذي طرأ عليها ، وأجاب ..

ــ بلى هذا ممكن !..

ــ إذاً فاعلم ياصديقي أن درة ذهبت إلى السلطان بإيعاز مني ، وأخبرته بالحرف الواحد أن هلالاً مزمع على طلاقي ،حالما يتم زواج ابنه من أختي !!.. وأنه قد أضمر ذلك انتقاماً مني ، لا لشيء سوى أنني انحزتُ إلى جانب مشيئة السلطان بهذا الزواج،وأنني بذلك سأذهب ضحية لابنه !!.. هل تعلم بماذا أجابها السلطان ؟!..

لم يحر فراس جوابا ، فتابعت ..

ــ قال لها إنه سيفهم هلالاً بأنه علم بهذا التهديد .. وأنه لن يسمح بطلاقي طالما أنه السلطان ، وعلى قيد الحياة !!..

ثم تابعت وكأنها تحدث نفسها ..

ــ سأعود إلي بلادي الآن ... صحيح ..لن تكون لي أموال هلال !.. لكنه ، لن يقبع بعد الآن فوق رأسي ، كسيف ديموكليس ، يهددني بالطلاق متى شاء !!..

أما درة !..

درة ذات القلب الذي لم تهب عليه يوماً مثل هذه الرياح العاتية !.. فقامت تنثر اللون البنفسجي ، لون ميساء المفضل ، في جميع أرجاء قصرها !..

أفردت لها في ذلك القصر جناحاً كاملاً أعادت زينته بأثاث بنفسجي طلبتـــه من الغرب خصيصاً بما يتناسب وذوق ميساء !..

أما ميساء .. فجلست على شرفة القصر ، غير بعيدة عن هلال الذي كان يداعب طفله .. جلست تلف خصلات شعرها على قلم أمسكته لتكتب رسالة مستعجلة إلى الأمير مراد !..

كتبت ميساء لمراد تذكره بالأيام الجميلة التي أمضياها معاً في باريس ..

« لن تذكر له بأنها كانت تعلم آنذاك بليالي الصخب التي كان يقضيها معرفيقات الهوى !.. وأنها كانت تتجاهل هذه الأمور لتصل إلى ماتصبو إليه » !..

حدثته عما رأته فيه من فيض الرجولة ، ماستظل تذكره ماعاشت ،وعن ذلك اليوم الذي حدثها فيه عن الزواج ..

.. « هل تذكر له أنها لن تنسى بأنه لم يشأ تعيين موعدٍ لخطوبة رسمية ؟.. وأن حجته في ذلك كانت أنه شاب مازال غضاً ، يود أن يقتات من اللهو قسطاً وافياً قبل أن يقدم على الزواج ؟.. »

« هل تشرح له مرارتها آنذاك ، وكيف أنها لم تجرؤ ، كفتاة مهذبة ، أن تسأله مايتوجب عليها أن تفعله أثناء انتظارها له ريثما يشبع من لهوه ؟!.. وكيف أخفت عنه أنها تكبره بأعوام ، فالسنون قد تزيده خبرة ، بينما من المؤكد أنها لن تزيدها فتنة ولا جمالاً ؟!.. » .. « لا لن تذكر له كل هذا » ..

« حسبها أنها ستحدثه عن رجحان عقلها ، وبُعد تفكيرها ،حين قبلت أن تنتظره مهما كانت شروط ذلك الانتظار قاسية » !..

كتبت له عن حبها الذي لم يخبُ ، رغم طول الانتظار ..

حدثته عن السنوات الثلاث التي ما كان لديها سبب للعيش خلالها سوى انتظار رسائله ..

أسهبت في شرح ماعانته من ألم إذ حرَّمت عمداً على نفسها السفر إلى الغرب كي لايظن أنها تسعى للقائه ، أو أنها ترمي من وراء ذلك إلى تعجيل الزواج ..

.. « لم تخبره عن عديد المشاجرات التي قامت بينها وبين والدتها ، دون جدوى ، لتحصل منها على تكاليف رحلة قصيرة إلى الغرب ، علها تلقاه فيها ، فتحاول أن تستخلص منه موعداً للخطوبة » !..

ادعت أنها كتمت علاقتها به عن عائلتها ،وأنها تعذبت إزاء الضغط عليها للقبول بمن رشحوا للزواج بها مرار ، وكلهم ذوو عزة وجاه .. ثم حدثته عما بدأ أهل بلدها يلوثون سمعتها به من شائعات أصبحت تسبقها إلى حيث تذهب ، مدارها حبها له، وعلاقتها به !..

.. « لم تخبره أنها هي التي أثارت تلك الشائعات » !..

أخبرته أن عائلتها إزاء هذه الأقاويل المشينة نهضت للدفاع عن كرامتها ،فوضعتها أمام أحد حلين .. إما أن تقطع علاقتها به ، بصورة رسمية ، وعلى صفحات الجرائد.. أو تقبل بأول طالب زواج بها !.. ثم أرفقت رسالتها بنبأ اقتطعته من صحيفة ، يشير إلى مشروع زواج قد يتم بينها وبين أمير من أقرباء الأمير هلال !.. ثم أنهت رسالتها بقولها ، بأنها إزاء هذه الأحداث ، تنتظر قراره النهائي لتبني مصيرها عليه !!..

وبعد أيام ، عادت الأختان إلى وطنها ... الأولى ، مؤثرة أن تُهمل في قصرها، وفي بلادها ، على أن تهمل في الصحراء وبين البراري .. والثانية ، لاتدري إلى أي اتجاه ستقلع بها الطائرة في المرة المقبلة !.. نحو المشرق أم المغرب ؟..

أما درة ..

درة التي جمعت في هذا الزواج بين أحب رجل وأحب فتاة إلى قلبها ..

درة التي لم تعد تدري ماإذا كانت ستسعد بهذا الزواج أم أنه سيوردها الجحيم !..

درة هذه ... لم يعد لها من شاغل سوى الإعداد لهذا الزواج ، والتفنن بماستغدقه على ميساء من هدايا !..

استدعت فراساً ، وأطلعته على أن الاتفاق قد تم على أن يلحق البدر بميساء بعد ثلاثة أسابيع ليطلب يدها رسمياً من عائلتها . وطلبت منه أن يغتنم هذه الفرصة فيلحق بميساء إلى بلادها ليشتم منها نوع الهدية التي تفضلها كي تفاجئها بها يوم الزفاف !..

كانت درة على علم بمدى صداقة فراس بقطر الندى وميساء .. وعلى علم كذلك بسهراته المستديمة مع الأمير هلال ... كانت تظنه في بادىء الأمر إلى جانب هلال ، لايسعى لدى الأختين إلا لصالح أميره ... فما أن أكدت لها ميساء أن قطر الندى هي التي تحرضه على البقاء مع هلال في هذه السهرات ، ليقف ما أمكنه على ماخفي عنها من علاقات هلال ، حتى رضيت درة عنه ، وقربته منها ، فصارت تستشيره ، هي الأخرى ، بما استعصى عليها من أمور ..

سألته عما يشاع من قضية مراد وميساء ..

كانت تجلس بعصبية .. تفرد ساقيها كالذكور ، تلفها ، تتربع على مقعدها العالي ولفافة التبغ دوماً بين شفتيها ، والكأس لايكاد يفارقها في مثل هذه الأحاديث !..

ـ ليس لي غيرك يافراس ، أفصح له عما يعتريني من تشاؤم ، كلما أفكر بأن ميساء الآن وحيدة في بلادها ، عرضة لجميع من يود التأثير عليها في أمر هذا الزواج !..

تبسم فراس في سره .. « ميساء عرضة للتأثير » !..

أجابها بعطف ..

ـ إنها أيام ، طال عمرك .. ولن يلبث الأمير البدر بعدها أن يوافيها .. ويتم الزواج بخير ..

تبرمت ، قلقة ..

ـ لكن لمراد هذا أختاً ، اسمها نائلة ، سمعتُ أخبارها مراراً !.. يقال إنها كانت شغوفاً بميساء !.. لاريب أنها ستحاول أن تؤلبها عن أخي البدر !..

عاد إلى الضحك في سره .. ميساء إذن حائرة بين فتاتين، أميرتين، تتجاذبانها ، تود كل أن تزفها إلى أخيها !..

سألها بتروٍ ..

ـ وكيف تستطيع ذلك ، طال عمرك ؟.. أتظنين ميساء طفلة ؟..

ضحكت درة !.. رشفت من كأسها جرعة ، ونظرت إلى الأعلى ..

ـ ذكية يافراس .. لكنها طفلة !.. لو رأيتها بين ذراعي البدر القويتين لفهمت ما أقول !!.. كانت نزهة من أجمل ماعرفت ، قبل سفرها بأيام .. كنت إلى جانبها في السيارة ، على تلك الطريق التي لايمر بها أحد !..

وراحت تصف له كيف احتضنها البدر ، وكيف قبلها بنهم ، مصورة له شفاه البدر الغليظة وهي تطيف على شفاه ميساء الرقيقة اللامعة !..

اشتطت في وصف يد البدر السمراء الكبيرة، وهي تمسك بعنق ميساء الجميل ، بينما يده الأخرى تداعب صدرها الناهد !..

رشفت من كأسها الجرعة تلو الجرعة حتى حار فراس أكان بودها لو تكون مكان البدر في تلك النزهة ، أم مكان ميساء !..

سهت عن وجود فراس ..
غاصت في صمت وهي تلعق طرف الكأس بشبق ..
لم يقو فراس إلا وأن يخرجها من صمتها عمداً !..
سألها بنزق ..
ـ وهل قرر الأمير البدر نوع هدية العرس ؟..
أفاقت من سكونها .. وقالت ساهمة ..
ـ أخي رجل !.. والرجال لاتهتم بنوع الهدايا ، أو لونها !.. المهم أنه سيشتري لها ماتعادل قيمته المليون .. ألا تعتقد أن ذلك يكفي ؟..
ـ بل هو جد كاف !..
ـ حسناً ... ومتى ستذهب يافراس ؟..
ـ كيف أذهب ، طال عمرك ، دون إذن من هلال ؟.. هل نسيت أنني مدير لشركة له ؟..
ـ سأتدبر الأمر إذاً مع هلال ...أما أنت ، فجهز نفسك كي تسافر بعد غد!.. واحرص يافراس على ألا يدخل عليها أحد من قوم مراد !.. هذا طلبي الوحيد إليك ، فنفذه ، إن كانت لي في قلبك مودة !.. وكلمني هاتفياً كل يوم ، دون أن تخبر ميساء بذلك ، وأعلمني بما يجري هناك !..

وكان فراس في شوق إلى الأشجار ، والأعشاب ، والماء العذب ..
كان أكثر مايكون شوقاً إلى القيثارة ، وأجواء الموسيقى التي حُرم منها ..
قبل عرض درة عليه بالسفر دون تردد .. وأقبل على أمتعته يحزمها وكأنه مقبل على ترك تلك البلاد إلى غير ما رجعة ..
وإذ سطع في مخيلته بريق الحضارة التي صمم أن يعود إليها ، وجاشت في نفسه أهواء وحنين إلى لهو أنسته إياه تلك البقعة من العالم ، لم يستطع إلا أن يعود بمخيلته ،

دون مرارة ،إلى ذلك الرجل ذي العصا الطويلة ، القابع على رف ناتىء من الحائط .. آملًا أن يكون قد أعطى القيثارة إلى أحد من أبنائه ..

اتجه بمخيلته نحو ذلك الفتى..

رآه جالساً وسط الصحراء ...

وسط ألوف السنين من صمت عميق ...

يؤنس بأوتاره خرير الجدول الآمن ، يؤنسه بصوت غير أصوات الأنين ...

صوت أوتار قيثارة ، تاه بها القدر ، فحط بها على حضنه الدافىء ..لتداعبها أصابعه الغضة السمراء ..

* * *

لقسم الثالث

الفصل الأول

خفق قلب فراس وهو يحلق فوق البحر وأشجار الصنوبر .. لكن الحنين سرعان ما خبا ، وحل محله الأسف !..

فما من مرة حط فيها في مطار تلك العاصمة إلا وطالعته فيه مشاهد أثارت اشمئزازه!..

فمن صفاقة مراقبي الأمن ، إلى تسلط الحمالين والحاجة المرتزقة ، إلى شجار ، تلاه على مدخل المدينة حادث اصطدام ، نشبت عنه معركة بين ركاب السيارتين المصطدمتين ، استعملت فيه الأكف والأوائل الحديدية ..

حوادث ، اعتادها أهل المدينة ، تطالع الغريب أينما ذهب ، فيرى تلك المدينة وكأن قدرها رماها بلعنة !..

غريبة هذه المدينة ..

بها تباع الوظائف وتشترى الأصوات أمام الجميع ، تجري المزاودات والمقايضات عليها علناً ، دون أن يخجل البائع أو الشاري !..

أما النقاد والمثقفون ، فهم يعارضون ، أو لا يعـــارضون ، بنسبة ما يدفع لهم من رشوات ..

هنالك أفراد قـــلائل شذوا عن هذه القاعدة .. لكن جـلود معظمهم غلظت ، وتبلد إحساسهم .. يقولون : « نعم هذا شر .. لكن بلدنا قائم على هذا الوضـع .. مالنا ولهذه الأمور ؟ .. علينـا من أنفسنا » .. فغـدوا كمن يدعي العفة والشرف ، ويقطن مختاراً سوق النساء !..

توغل فراس في المرتفعـات ، مبتعداً عن المدينـة ، فابتعدت صورتها بالتدريج عن مخيلته ..

غمره عبير الصنوبر الدافىء ، ولفحه نقاء من هواء الجبال أزاح بالتدريج عن صدره ثقل جو العاصمة ،ودبق رطوبتها اللزج ..

عادت إلى ناظريه ربا تلك البلاد وأديمها الرائع ، فأحيت في كوامن نفسه حباً عميقاً لفئة من سكانها ، فئة ما زالت على صفائها .. تزرع في جبالها التوت ، وفي بساتينها الكرمة والزيتون والتين ..

وعلى باب القصر ، أطل الخادم النوبي بقفطانه الأبيض ، وزناره الأحمر ، وتبسم لفراس مرحباً ..

ـ صاحبتا السمو الملكي في الداخل .. بانتظاركم ياسيدي ..

ردد فراس في ذهنه ماسمعه .. « صاحبتا السمو » .. ثم ضحك لنفسه !..

وإذا استقر بهم المجلس ، وحدث صديقتيه عمـا جرى له مع الأميرة درة ، بعد سفرهما ، بادرته قطر الندى بالسؤال ..

ـ ما رأيك يافراس ؟.. لو أن أمر انتقاء زوج لميساء يرجع إليك ، فأي الأميرين تختار لها ، البدر ، أم مراداً ؟..

أجابها ، بلهجة شبه مسرحية ..

ـ في البدر وصف لحامل الاسم .. ومراد ؟.. أليس « مراداً » مجرد مراد ؟..

ثم تابع بلهجة جادة ..

ـ إن اختياري لايمكن إلا وأن يتوقف على ما تود ميساء من زوجها .. ومع هذا ، يخيل إلي أن البدر متيم بحبك ياميساء ، ينتظر لهفا اللحظة التي سوف يجمعكما بهـا الزواج .. أما مراد .. فزواجك منـه قد يكون أتمّ وأرقى من حيث الشكل.. لكن هيهات .. أين مراد منك ومنا الآن ؟..

ـ إنه أقرب مما تظن يافراس !..

وبثقة وتحد ، فيها الكثير من الطفولة، أخرجت من جيبها غلافاً مطوياً ،وتابعت ..

ـ وصلتني من مراد البارحة رسالة يطلب مني فيها ألا أتسرع في قراري .. لقد أصرّ علي أن أتمهل !..

ـ وهل تفكرين جدياً بهذه الرسالة ؟..

أجابته بغنج وتحدٍ ، منحّية عينيها اللامعتين عن نظراته ..

ـ ولمَ ؟..

صعد الدم إلى وجه فراس ، وقال ، كابتا صيحة كادت تنطلق منه ..

ـ ووعدك للبدر ؟.. ودرة ؟.. والسلطان ؟..

تمهلت ميساء ، ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها ..

ـ أليست مصلحتي في هذا الأمر أولى من كل مصلحة ؟..

نظر فراس إلى قطر الندى التي كانت تتابع الحديث مبتسمة ..

ـ وأنت يافطر .. أين تقفين من هذا الأمر ؟..

وكأن قطر الندى، في غمرة القلق الذي يعتريها ،كانت تبحث عن عصا صلبة تحاول أن ترتكز عليها ، فأجابته بهدوء ..

ـ إن أمر بقائي مع هلال على كف عفريت !.. أنت تعلم أنه يتحين الفرص لتركي نهائياً ، لاسيا بعد أن وطد علاقته بأم جوهر ! لقد جاءت خطوبة البدر لميساء ضربة لآماله ، وعقبة لنواياه ، فبات لايجرؤ على طلاقي ، خوفاً من أن يفسر السلطان هذا الأمر على أنه انتقام مني لما قمت به من سعي وراء خطبة ميساء بابنه البدر.. لذلك أراني الآن في مأمن من اندفاعه وراء نزواته !..

قاطعها فراس ..

ـ لكن .. هبي أن ميساء نكثت وعدها للبدر ،وقررت متابعة انتظارها للأمير مراد ، ألن تنقلب بذلك قوة مركزك إلى ضعف ؟.. ألن يحلّ هذا النكث بالعهد القيد عن يدي هلال ، فيسهل طلاقك ؟..

ضحكت قطر الندى بعصبية . .

ـ ما أسلم سريرتك يافراس .. وأطيب نواياك !.. هل نسيت ما باستطاعة رأس المرأة الصغير أن يحيكه للدفاع عن نفسها ؟.. لئن عدلت ميساء عن زواجها من البدر ، فسألجأ إلى خطة جديدة !.. سأرسل من يقول للسلطان بأن عدول أختي هذا ، ماجرى إلا نتيجة لتهديد هلال لي بالطلاق فيما لو تم زواجها من البدر !.. سأرسل من يؤكد

للسلطان بأن هلالاً أذاقني من المرارة والتهديد ألواناً ، حتى لم تجد ميساء بداً ، إزاء عذابي ، من أن تعدل عن سعادتها مع البدر ، مؤثرة الزواج بمراد ، لا حباً به ، بل إذعاناً لمشيئة هلال في إذلال السلطان وعائلته ..

أجابها فراس ..

ـ قد يبرر هذا التفسير عدول ميساء عن الزواج بالبدر، لكن.. ما الذي سيمنع هلالا حينئذ من طلاقك ؟.. تقولين إنه لايجرؤ الآن على ذلك خوفاً من أخيه السلطان .. أما حين تعدل ميساء عن ابنه البدر ، ألا ترين أنه سيجد نفسه حراً في طلاقك ؟..

تبسمت بخبث ..

ـ سأقول للسلطان بأن هلالاً علم أنني قررت فضح مكائده وكشفها للسلطان ، فهو لذلك قرر طلاقي !.. بل سأقول له بأنه هددني بالطلاق إن أنا بحت للسلطان بمكائده .. ورغم هذا ، فإنني آثرت، إخلاصاً مني للسلطان ، أن أعلمه بكل شيء ، رغم جميع تهديدات هلال ، مضحية في ذلك بسعادتي !..

وأنهت ميساء الحديث عن قطر الندى قائلة ..

ـ وبذلك لن يجرؤ ، حتى في حال عدولي عن الزواج بالبدر ، على طلاق قطر الندى، خوفاً من أن يُثبت للسلطان بذلك صحة الاتهامات ، فيُعرض نفسه لانتقامه وبطشه !..

صمت فراس طويلا .. تزاحمت في رأسه صور لما سيحدث في بلاد هلال لو عدلت ميساء عن البدر .. وتدافعت الانطباعات .. وإذ تبادرت صورة درة إلى مخيلته ، قال ..

ـ ودرة ياميساء ؟!.. درة التي فرشت لك الأرض أزهاراً .. والتي أرسلتني آلاف الأميال من أجل شراء هدية لك .. ماذا أقول لدرة فيما لو عدلتِ عن الزواج بالبدر ؟.. بل ماذا سيحل بها ؟!..

ـ بإمكانك أن تصطنع الجهل التام حول هذا الموضوع !..

ـ وهل يعقل أن تصدق درة هذا ، وهي على علم بمدى الصداقة التي تربطني بكما ..

أو هل يعقل أن لا يستدعيني هلال ليستوضح مني جلية أمر هذه الشبكة التي سيجد أنه بات فجأة أسيرها ؟..

وبعد شيء من التردد ، قالت ميساء ..

ــ فعلاً .. لعل الحل المنطقي الوحيد هو ألا تعود إلى تلك البلاد في هذه الظروف .. لاسيا وأن درة قد تحاول إلحاق الأذى بك ، انتقاماً مني ، فيما لو عدلت فعلاً عن هذا الزواج ..

وتغلب على فراس شعور بعدم الاطمئنان ... أحس وهو ينظر إلى ما اتقد في عيني قطر الندى وميساء ، وكأن القطار الذي كان قد استقله مع هاتين الفتاتين قد غير اتجاهه دون إنذار ، وأدرك حرج موقفه إذ رأى هذه النزهة معهما قد تحولت إلى رحلة طويلة معقدة ..

أحكمت ميساء تدبير الخطة التي بدأتها ... أوعزت إلى عدد من المحررين في بلادها بحشو صحفهم بأخبار خطوبتها التي تقرر أن تتم قريباً ، وعممت لدى الجميع تفاصيل غرام البدر المفاجىء بها ، وزجره لأم أولاده الخمسة كشرط لقبولها الزواج منه ... وصيغت القصة من أولها بقالب التزاحم بين أميرين ، غلبت فيه رجولة الأكثر شرقية منهما ، حضارة الآخر ... فآلت للأمير البدر جميع صفات الإقدام ، والمبادرة ، والكرم ، بينما تُركت للأمير مراد صورة التخاذل ، والتردد ، والطيش !..

كان لمقالات الصحف هذه ، ولأحاديث الناس ، خير وقع على نفس السلطان ونفوس أبنائه جميعاً ..

وصل البدر قبل موعد الخطوبة الرسمي بثلاثة أيام ، محملاً بما يهظ ثمنه من الماس والياقوت والزمرد والذهب !.. وأبرقت درة ، معلنة لميساء وصحبها ، بأنها حصلت من والدها السلطان على إذن خاص لحضور هذه الخطوبة شخصياً ، وبذلك تكون أول أميرة في تاريخ بلادها الحديث تقوم بمثل هذه الخطوبة الجريئة ، ويسمح لها بمغادرة البلاد !!..

مرة من مئات المرات ، استقل فراس سيارته متجهاً نحو قصر قطر الندى ..

مر في طريقه إليه بقصر آخر ، قصر والد الأختين المهجور .. مَثَلٍ آخر لما يخطط له الإنسان من آمال وأحلام كبيرة ، فيقصم القـــدر ظهور أصحابها ، وتبقى شاهداً صلباً مخيفاً لما كان يعتلج في نفوسهم من تبجح وغرور !..

وعلى الرابية الخضراء المشرفة على المدينة التائهة .. وفي فناء قصر قطر الندى الذي لم يتعود أن يرى فيه غير الحارس المسن .. رأى فراس قوماً سمر الوجوه ، قصار القامة ، لايعرفهم !..

تعجب إذ رآهم يعجلون الخطا ، خارجين من القصر ، ليستقلوا سياراتهم العديدة التي كانت في انتظارهم ..

كانت ميساء شاحبة اللون ..

وقطر الندى مرتبكة المظهر ..

كانتا تلقيان بأوامرهما ، بصدد أمور تافهة ، بعصبية ظاهرة ..

ألقت ميساء إليه بنظرة تائهة ، وقالت بصوت متعب ..

ــ لقد جئت في الوقت المناسب يافراس .. تعال .. ادخل !..

انتاب فراس شعور بخطر مقبل ..

ــ لماذا ؟.. هل هنالك من جديد ؟..

علت على فم ميساء ابتسامة امرأة وضعت طفلاً بعد إجهاد أيام مديدة ..

ــ ألا تهنئني ، وبذلك تكون أول المهنئين ؟!..

ــ أهنئك ؟.. بماذا ياميساء ؟!..

وبصوت لاهث ، تابعت ..

ــ لقد أتممت عقد زواجي على مراد .. وقعت العقد منذ دقائق !..

فغر فراس فمه دهشة !!.. سألها وهو لايصدق ماسمعه ..

ــ الأمير مراد ؟.. شقيق حسان ، ولي العهد ؟!..

ــ نعم !!..

وسقطت ميساء في مقعدها ملقية رأسها إلى الوراء كعادتها حين تود أن تغيب عن العالم المحيط بها .. وتلقف المقعد ذراعيها اللتين أسندتها عليه بارتخاء ..

غرق الجميع في صمت ، كان لصوت رقاص الساعة فيه ، ونقر أصابع ميساء المتوتر ، وقع قنبلة مؤقتة توشك على الانفجار !..

نظر فراس إلى أصابعها المرتجفة فلاحظ خاتماً ذا حجر ماسي كبير ...

رفع رأسه إلى السقف متلهياً .. وقال بصوت ، جهد في إخفاء نبرة امتعاضه ..

ـ هل أخبرت البدر وصحبه بفسخ الخطوبة ؟..

أدركت ميساء مايجول في خاطره ..

ـ لا .. لم أقم بذلك بعد .. علي أن أتدبر طريقة لإعادة الهدايا التي قدمها لي البدر ..

قالت ذلك ، ونظرت إلى الحجر الماسي الذي كان ينظر إليه فراس ..

ـ ألا يجدر أن تفعلي ذلك في أقرب وقت ممكن ؟.. وتتحاشى ما لا يحسن عقباه ؟!..

وكأن ماقامت به في ذلك اليوم كان قد استنزف كل قواها .. فحاولت أن تبعد عنها شبح فسخ خطوبتها على البدر ..

أجابته في شيء من العصبية ..

ـ مالا يحسن عقبى أي شيء يافراس ؟!.. مابالك تهول الأمور ؟!..

كان فراس ينظر إلى الأفق البعيد من النافذة الواسعة التي أمامه ، فأجابها بهدوء ، دون أن ينظر إليها ..

ـ الأمور من الهول بما يكفي ، دون أن أزيد من هولها أنا !.. ألا تجدين غرابة في أنك في هذه اللحظة مخطوبة رسمياً للأمير البدر ، وزوجة الأمير مراد الشرعية ؟.. لعل ماقمت به هو مجرد توقيع على عقد .. لكنك أصبحت ، بهذا العقد ، الزوجة الشرعية لأمير عقد زواجه عليك بالوكالة ، وما زال على بعد آلاف الأميال منك !.. في حين أنك على مقربة من أمير آخر ، رجل متيم بك ، تركك البارحة مساء خطيبة رسمية له ، محملة بهداياه ، يتوقع أن تشاركيه حياته بعد ثلاثة أيام !..

ـ حسناً !.. حسناً !.. سوف أقوم بإعلام البدر الآن ..

قالت ميساء ذلك دون أن تفتح عينيها و كأنها تخضع لقدر غريب سيطر عليها ..

لقد تم زواجها منذ لحظات .. زواج كانت تحلم به، وتخطط له منذ سنوات !.. وها هو قد تم على شكل لم يخطر لها ببال !!..

تم عقد زواجها .. دون وجود زوج !..

أشخاص لا تعرفهم ولا يعرفونها،أبرموا عقداً معها ،و كأنهم ممثلو أحدى الشركات الأجنبية ، قاموا ببيعها بناء ما ، أو قاموا بشرائه منها !..

ومع هذا ، فقد كان لوجودهم أثناء إبرام العقد وقع غير سيء على نفسها ، فهم على الأقل يمثلون مراداً ، أميرها ذا الثقافة الغربية !..

أليس في إتمام العقد بواسطة السفراء صيغة أكثر تمدنا من إبرامه بالطريقة المعتادة، بواسطة قاضي الشرع ؟!.. أما كان الجميع يتكلمون بالإفرنسية ؟!..

لكنهم ذهبوا الآن !.. ذهبوا جميعاً !.. دفعة واحـــدة !.. وهي الآن وحدها !!..

لقد تم زواجها بأن أدرج اسمها بحذاء « اسم » إنسان ، .. رغم أنها مازالت حيث هي ، بين أختها وفراس !!..

غريب هذا التطور الذي لم تكن تتوقعه .. والذي لم تحسب له أي حساب !..

لقد جاء السفير يعلمها بأن الأمير مراد أرسل يأمره أن يحول دون زواجها بالبدر بأي ثمن !.. وكلفه ، إذا اقتضى الأمر ، أن يعقد زواجه عليهابالوكالة !.. فمن أين لها أن تترك هذه الفرصة تمر دون أن تنتهزها ؟..

ألم تحرق في هذه الخطوة مرحلتين في الوقت ذاته ؟..

ألم تكن تخاف أن يقـدم مراد على « خطبتها » فقط ، ويترك زمناً طويـلاً يمر قبل أن يطلب منها أن تزف إليه ؟..

إن أية خطبة عرضة للفسخ !.. فمن يضمن لها أن خطبتها لمراد كانت ستسفر عن زواج ؟..

إنها الآن « زوجة » مراد ، في نظر الشريعة ، والقانون !..

أما مراد .. فأين هو الان ؟..

لاعليها !.. ستعرف كيف تأتي به إليها !.. ستعرف كيف تتدبر الأمر !.. لقد حققت أكبر انتصار لها في حياتها !.. خلقت قصة البدر من أجل هدف واحد!.. خلقتها لتحريض مراد على الزواج منها .. وهاهي خطتها تكلل بالنجاح !!..

صحيح أنها كادت أن تصبح زوجة البدر لو تأخر مراد .. لكن .. لا !..

تناست أنها كانت ستقبل راضية بمصيرها مع البدر !.. وكررت على نفسها القول، وهي في غمرة موجة غامرة من الثقة بالنفس، بأنها كانت ،منذ البدء، واثقة من أن مراداً سوف يتحرك لطلبها في آخر لحظة، وأنه ما كان ليتركها تتزوج من أحد غيره !..

* * *

الفصل الثاني

كان لإعلان نبأ زواج ميساء على الأمير مراد وقع الصاعقة على نفس السلطان وعائلته ، ووقع الفضيحة على قوم ميساء .. « الأميرة الجديدة » !..

لم البدر شتات كرامته المهدورة ، وهداياه ، وعاد مع صحبه إلى بلاده ، ليتلو على مسامع أخته تفاصيل الواقعة .. فثارت ثائرة درة وجن جنونها !!..

وقفت في بادىء الأمر ترتجف من الغيظ ، ووجهها يقطر سماً !!..

ثم مالبثت أن انتابتها حالة مروعة من الجنون المفاجىء ، اتجهت فيهـا نحو كل ماتستطيع أن ترفعه بيديها ، فأقبلت عليه تقلبه أو تحطمه !..

أسقط في يد البدر !.. وقف عاجزاً ، فاغراً فاه ، لايجد لما انتاب أخته تدبيراً..

انقلب بطش جنونها على نفسها ، إذ سرعان مابدأت تضرب وجهها ، وتمـزق شعرها بكل ما أوتيت من قوة ، ثم انقلب صراخهـا إلى عويل خرج من قاع أحشائها !..

أخذت تزعق « ويلك ياميساء !.. ».. « ويلك ياميساء » !..

وردت جدران دارها الفسيح زعيقها .. « ويلك ياميساء » !..

« ويلك ياميساء » !!..

حاول البدر مع أهل الدار أن يهدئوا من روعها .. فلم يفلحوا !..

أفلتت منهم كالذئبة الضارية ، تتطاير أذيال ثوبها الممزقة من ورائها ، واتجهت نحو الجناح الذي كانت قد أعدته لميساء ، فأغلقته على نفسها !.. ولساعات طوال ، لم يعد يسمع في القصر سوى نحيبها المجروح ... وأناتها الطويلة .. وبين الفينة والفينة ، كلام مبهم ، لايفهم منه سوى .. « ميساء » .. « ميساء » .. يتلوه الشهيق ، والبـكاء ، ثم العويل !!..

لم يكن البدر ملماً بجميع ملابسات ماقامت به ميساء .. لذلك لم ينقل إلى درة ، حين أخبرها بالأمر ،سوى أن ميساء عدلت عن الزواج به ، مؤثرة مراداً عليه .. ولما لم تجبه درة بغير النحيب ، ضاق صدره بما رآه من جنونها ، فانصرف ..

أمضت درة يومين في سجنها البنفسجي ، خرجت منه بعدهما هزيلة شاحبة !..

كان أول ماطلبته ، موافاتها بجميع مانشرته الصحف من أخبار هذه القضية !.. فما أن قرأت في بعضها نبأ « خطوبة » ميساء ، وفي بعضها الآخر أنباء عن « زواجها المقبل » ، واستنتجت من ذلك أن مراداً لم يزف إلى ميساء بعد ، ثم أضافت إلى ذلك إجماع هذه الصحف على أن مراداً مازال في بلاده ، وأن الظروف لم تجمعه بميساء منذ سنتين ، حتى دار في رأسها أن بارقة الأمل لم تنطفىء بعد !.. وأنها لم تخسر المعركة !!..

انقضّت على الهاتف طالبة ميساء !.. وإذ تقاعست هذه عن محادثتها ، مدعية المرض الشديد ، انهالت على قطر الندى بالأسئلة والاستجوابات عن أختها .. وتعالى صوت هذه على الهاتف ، منتحلة الأسى والحزن الشديد ..

ـ ماذا كان بإمكاننا أن نفعل يادرة ؟.. لقد ضحّت ميساء بحبها للبدر ، وبسعادتها ، إذعاناً لمشيئة هلال !..

وتصيح درة متحدية ..

ـ كيف تذعن لمشيئة هلال ؟.. وهلال .. أهو أبوها أو أخوها لتتأثر بما يقول ؟!..

وتتقطع الكلمات .. وتنفر العروق من عنق قطر الندى وهي تحاول أن تحفظ لصوتها طابع الصدق عبر آلاف الأميال ..

ـ لقد هددها يادرة !!.. وتصيح مؤكدة « نعم هددها » !!.. هددها دون علم مني بأنه سيطلقني إن لم ترفض الزواج بالبدر ..

فتقطع درة المكالمة ، ويتساءل الجميع عمّا سيكون جواب هلال لها حين ستواجهه بما علمته ؟..

وتعود درة في اليوم التالي لتتابع الحديث ..

ـ لقد أقسم لي هلال أنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل ياقطر !..

وتجيبها هذه ..

ـ وهل يعقل أن يعترف لك هلال بالأمر ؟..

ـ المهم إذاً أن خطته انكشفت ياقطر !.. قولي لميساء أن تعدل عن خطوبتها لمراد .. إذ أن هلالاً لن يجرؤ على طلاقك بعد اليوم !..

وتعيد قطر الندى محاولة الإفلات من شبكة درة ..

ـ إن ميساء تقول بأن هلالاً كاذب .. وأنه يلعب على الحبلين !..

وتعود درة لقطع المكالمة ، ويعود صوتها بعد أيام قاطعاً بالقول ..

ـ لاحبلان ولا ثلاثة حبال بعد اليوم ياقطر !.. لقد أقسم هلال أمام السلطان بأنه لم يوقع أبداً بمثل هذا التهديد على ميساء !.. قولي لها أن تأتي إلينا ، لتمثل بين يدي السلطان ، فليس غير كلمتها من دليل على كذب هلال !.. وضمان لمستقبلك ياقطر !.. هـلال اليوم يصطنع الغضب لما قامت به ميساء ، ويتوعد بأنه سينتقم للسلطان .. إنه لن يتوانى عن طلاقك الآن مدعياً أنها غضبة منه لإهانة عائلتنا !!.. قولي لميساء إن تحضر حالاً ، وتكشف بذلك للجميع عن كذب هلال !!..

وتحار قطر الندى كيف تفلت من حصار درة ؟!..

ـ كيف تحضر وهي في مثل حالتها الصحية يا درة ؟!..

وكأن قطر الندى أحست بالشك يتسرب إلى كلمات درة حين أجابتها هذه قائلة ..

ـ وكيف يثبت كذب هلال إن لم تجيء؟..

فإذا بها تجد نفسها مضطرة لأن تختلق مهربا فتقول ..

ـ لدينا البرهان القاطع على تهديده لها يادرة .. سوف أخبرك عنه مساء غد !..

أعادت قطر الندى السماعة إلى مكانها ، وتمتمت لميساء ولفراس اللذين كانا يساعدانها في الرد على درة ..

ـ ليس هناك أمكر منها امرأة على وجه البسيطة ..

ضحكت ميساء ..

ـ إلا نحن ..

ضحك الجميع ، إلا قطر الندى ، تساءلت ، وهي مازالت تحت وطأة المكالمة الهاتفية ..

ــ ترى هل تصدق درة حقاً مانقوله لها ؟..

وتابعت شاردة..

ــ إنها الآن تنوه لي عن الطلاق .. تهددني بصورة غير مباشرة !..

أجابها فراس ..

ــ بإمكانك أن تكيلي لها الصاع صاعين ..

تلهفت قطر الندى ..

ــ وكيف ذلك !..

أجابها مبتسما ..

ــ لماذا لاتخبرين هلالاً بأنك كنت المحرضة الأولى لميساء على العدول عن زواجها بالبدر !.. وأنك مافعلت ذلك إلا إرضاء له ، لعلمك بأنه قد عارض فكرة هذ الزواج منذ البدء !.. فتكون ميساء بذلك قد حققت أمنيتها ، دون أن تدفعي أنت الثمن ، وتكسبين أنت رضاء زوجك من جديد !..

قفزت هذه من مقعدها مهللة ..

ــ يالها من فكرة رائعة !..

أثنت ميساء بابتسامة ماكرة ، وهمست ..

ــ يالها من مؤامرة محبكة التفاصيل !..

تذكر فراس المكالمة الهاتفية ، فسأل قطر الندى ..

ــ ذكرتِ لدرة شيئاً عن حيازتك على الدليل القاطع لتهديد هلال لميساء . . فما هو هذا الدليل ؟..

وإذ بتفاؤل الأختين يفتر فجأة .. وتمتمت قطر الندى ..

ــ حقاً !.. ماهو هذا الدليل ؟.. لقد اضطررت لادعاء ذلك هرباً من شباكها.. من أين لنا بهذا البرهان القاطع ؟.. علينا أن نظهره قبل مساء الغد !..

وبعد تفكير طويل ، قالت ميساء شبه يائسة ..

ــ لن يشفي غليل درة سوى رسالة بخط هلال .. رسالة يهددني فيها بطلاق قطر الندى فيما لو أقبلت على الزواج من ابن أخيه البدر !!..

تريث فراس قليلاً ، ثم قال ..

ــ وهل تفي مثل هذه الرسالة حقاً بالغرض ؟..

أجابته ميساء ..

ــ طبعاً .. ثم جلست في مقعدها ، وأضافت بعزم .. هاتي ياقطر رسائل هلال لك لأحاول تقليد خطه بالرسالة المطلوبة !..

وقهقهت فرحة لفكرة طرأت لها ، فتابعت ..

ــ ولماذا لانقص من رسائل هلال كلمات بالمعنى المطلوب ، نجمعها على ورقة بيضاء، ونبعث لدرة صورة شمسية عنها ، فلا تظهر في هذه الصورة الا الكلمات المقصودة وكأنها كتبت فعلاً بيد هلال ؟..

شده فراس للفكرة !.. لم يستطع سوى النظر إلى ميساء ، وكأنه ينظر إلى مخلوق آخر ، من عالم آخر !..

أُتي برسائل هلال .. واقتُطعت منها مئات الكلمات والتعابير المتفرقة ..

اقتطعت منها جملاً بكاملها ، أحرف الجر ، أدوات الجزم ، والنصب الخ .. ثم حُضّر نص واف بتهديد هلال لميساء ، حشرت بينه عبارات تسيء إلى عائلة السلطان والبدر، عبارات لها طابع كلام هلال !..

صيغت هذه الكلمات جملاً ، وجمعت بأسطر متوالية ، لصقت على ورقة بيضاء ، وتولت ميساء بنفسها أخذ صورة شمسية لها عند أحد الأخصائيين في المدينة !!..

ما إن عادت وطرحت بين أيديهم ثمرة مجهودهم ، حتى سرت قشعريرة في أجسامهم لما رأوا أمامهم من إدانة دامغة لهــــلال !!.. وأخفى كل منهم خوفه عن الآخر ، إذ تصور ماقد يقوم به السلطان للانتقام من هلال ، فيما لو أوصلت درة هذه الرسالة إليه !.

★ ★ ★

درة التي جلست تنتظر هلالاً في بهو قصرها ، متسلحة بالدليل القاطع على خيانته ، غير تلك التي بكت منذ أيام ، وسرت مع الريح أخبار فاجعتها إلى جميع أنحاء بلادها !!..

درة ، التي جمعت أشلاء قلب مزقته أظافر بنفسجية اللون ، جلست تبلع دموعها في صمت أشم، كاللبوة الجريحة ، تنتظر وصول الإنسان الذي أوقع الدهر على كاهله وحده وزر ماعبثت به أيدي فتاتين لامباليتين على بعد ألوف الأميال !!..

وصل هلال يخطر بقامته المديدة ، وبما ولد فيه من نبل المظهر ، وما فطم عليه من اعتزاز وثقة بالنفس .. وصل !.. أو قل حط !!.. كنسر شامخ ، ضاق ذرعاً بعبث أطفال يرشقونه بالحصى ..فقرر أن يصل في هذا اللقاء إلى نهاية لهذه المهزلة، ونهاية لما يكال إليه من اتهامات !!..

وقفت درة إذ رأته مقبلاً من بعيد ..فكانت على مثل قامته طولاً، وانتصابا !!..

مشت نحوه ، فكان لخطاها الثابتة نفس شدة الوقع ، ورنين الصدى !!..

وبين جدران سمعت منذ أيام عويل المرأة الثكلى .. قامت معركة بين مخلوقين من فصيلة واحدة .. لم يعد فيها ذكر ولا أنثى !!..

معركة ، دامت ساعات طوال ..خرج الاثنان منها كأنهما مثخنان بالجراح ، مضرجين بالدم !!..

ما أن برح هلال قصرها، حتى أقفلت درة المسجلة التي كانت قد أعدتها ، قبل وصول غريمها ، وأخفت رأسها اللاقط للصوت في باقة من الزهور !! ..

لعلها كانت تعلم في قرارة نفسها أن ميساء خرجت مختارة ، لا مجبرة من حياتها، وأنها خرجت إلى غير رجعة !.. لكن إحساساً لا شعورياً كان يحرضها للوصول إلى نتيجة تثبت أن يداً ظالمة اختطفت ميساء منها ، وأن حبها كان سيثمر لولا يد أثيمة لعبت ضدها في الخفاء !..أرادت مجرماً ، غير ميساء ، تنسب إليه فجيعتها ، فكان لها في هلال ذلك الغريم !..

ومن ذلك الشريط الذي احتوى على مالا حصر له من فضائح، ونيل ، وشتم ، ووعيد، وتجريح بكل من كانت له صلة بهذه القضية ، أعادت درة تسجيل ما اختص قطر

الندى وحدها ، وحمّلته إليها مع مبعوثتها الخاصة ، مظهرة لها بذلك ما ورد في هـذا التسجيل من برهان قاطع على أن هلالاً ينوي طلاقها لا محالة !.. آملة بذلك أن تعمل قطر الندى بدورها على النيل منه والانتقام !!..

أما ما بقي من الشريط ، فاحتفظت به ، لتشهره أمام السلطان متى أرادت !.. وتجهز على هلال في الوقت المناسب !..

* * *

في قصرها .. وعلى أرض غرفة نومها الفسيحة المكسوة بالطنافس الوردية اللون .. جلست قطر الندى ، مسندة رأسها براحتي يديها ، تستمع إلى صوت زوجها على شريط التسجيل الذي بعثت به درّة إليها ..

كم عدد المرات التي استمعت بها إلى ذلك الشريط ؟ .. عشرة .. عشرون ؟..

نسيت عدد المرات التي أعادت على مسامعها قوله فيه « نعم أحببتها في الماضي !.. لكن هـذا شيء انتهى !.. نويت أن أطلقها منـذ كنا في أوروبا !.. لكني تمهلت عندما أخبرتني أنها حامل » ..

« نعم أحببتها » .. « نعم أحببتها » .. « نعم أحببتها » ..

لقد أحبها في يوم من الأيام !.. أحبها كرجل !!..

طاف في ذهنها خاطر أذهلها !!.. هلال إذن رجل !.. هلال ليس سوى رجل !!.. هو ليس ذلك المتعنت القاسي !.. ولا ذلك الأمير المتعجرف الذي كانت تراه !! .. لقد أحبها كامرأة !.. أحبها كما يحب أي رجل ، أية امرأة أخرى !!..

لئن ولد هلال أميراً ، فالإمارة كانت صفة من صفاته ، لا ذنباً عليه أن يكفّر عنه !!.. ولئن كانت الإمارة صفـة تخيف بعض الناس ، أو تثير إعجاب بعضهم الآخر ، فهي لم تكن بالنسبة له سوى شيء ولد معه ، كما تولد مع الطفل أطرافه ، فتعوّد استخدامها ، كما يتعود الطفل استخدام جميـع ما ولد معه من أعضاء وأطراف !..

ترى هل أحبته ؟.. هل أحبـته في يوم من الأيام كرجل ؟!.. من أين لها أن تدري ، وهي حتى قبل أن تراه ، لم تسمع باسمه إلا مقروناً بلقبه ! ! . .

لطالما ساءلت نفسها هذا السؤال إلى مابعد الزواج ، حين كانت تراه في ثيـاب النوم .. ثم في ظلام الليل . .وهو يحتضنها ! . .

كيف كان لها أن تزيح الوعي عن إحساسات جسدها ، لتدرك في تلك اللحظات معنى أن يذوب جسدها في جسد آخر ؟..

كان ينعتها بالبرود والجفاف ..

ألم تحاول جاهدة أن تشعر بالدفء معه ، دون جدوى ؟..

لماذا كانت تطفح بذلك الدفء مع ذاك الذي أحبته في طفولتها ؟.. ثم تخونها أنوثتها ، حين تود أن تكون كأبسط النساء ، لزوج ، إن لم تكن متدلهة في حبه ، فهي على الأقل لم تضمر له الكراهية قط ، بل على العكس ، كانت كثيراً ما تجده وسيما !..

قضي الأمر ، وفاتها قطار هلال إلى الأبد !..

لئن بهر عينيها الثراء ولقب الإمارة ، وأعجزها في البداية أن ترى في طالب يدها صفة الرجل ، فهي اليوم ترى فيه ، بعد أن قرر الرحيل عنها ، جميع صفاته الحقيقية !..

أبدلت قطر الندى ذلك الشريط بشريط آخر ..

ومع الناي الحزين ، أحست وكأن حباً جديداً حزيناً تفطر في صدرها ، فراح قلبها ينبض مع أنغام أغنية شرقية والهة ، يكرر فيها الصوت ، بعد الآهات الطوال ..

« أنت الذي بدأ الملامة والظنون » !..

وفاجأها في تلك اللحظة دخول فراس وميساء عليها ..

تعجبت ميساء ..

ـ لقد تركناك وأنت تستمعين إلى شريط درة .. ما هذا التغيير المفاجىء ؟..

لم تحر قطر جواباً .. ظلت على إطراقها ، حتى إذا اقتربا منها ، رفعت رأسها إليهما ، فشاهدا بقايا دموع انهمرت على خديها ..

وجلت ميساء ، وسألها فراس بهدوء ..

ـ ماذا دهاك ياقطر ؟.. ألم تتعودي فكرة بُعدك عن هلال بعد ؟.. لم يخيل لي يوماً بأنك قد أحببته !..

ورفعت إليه قطر الندى عينين مخضبتين ، أحس لأول مرة بمدى مايمكن أن يكون لهما عليه من تأثير ..

ـ أريد منك مساعدتي في أمر يافراس !..

ـ وهل يساورك شك في أنني قد أبخل عليك في أي شيء تطلبينه ؟..

ـ إذن فاسمع !.. أريد منك أن تساعدني على قتل هلال !!..

الفصل الثالث

مرت أسابيع طويلة، طار فراس بعدها إلى الغرب .. طار متعللاً بسبب بسيط ، هارباً من جو ضاق بشدة تعقيده ، مبتعداً عن زوجة ، بدأ اهتمامه الزائد بصديقتها يثير في نفسها قلقاً جديداً أقض مضجعها ، وأثار في حياته الغبار والهموم !..

عاد فراس إلى باريس عودة المهاجر إلى وطنه ..

عاد يتفقد باعة اعتاد رؤيتهم، وألف وجوههم، يبحث عن أصدقاء طال غيابه عنهم .

مشى في أزقة أحبها وأحبته .. عرفها وعرفته .. وراح يحاول استعادة طمأنينة داخلية ، أقلقه أنه بدأ يفتقدها ..

وبعيد ظهيرة أحد أيام شتاء باريس القاسية ، جلسنا في أحد مقاهي الحي اللاتيني المكتظة بالناس ، نرتشف النبيذ الأحمر الساخن ، ونستعيد ذكرى صداقات مضت ، وأيام خلت ..

سألت متردداً ، كمن يطرق باب دار لايريد أن يوقظ أهلها ..

ــ هل حاولت أن تتصل بصديقتك « لويز » ؟..

ــ لا ..

ــ لا أخالك أحجمت عن ذلك إخلاصاً لزوجتك !..

ابتسم .. ثم تجهم بعض الشيء ..

ــ إني في الواقع حائر في أمر زوجتي وزواجي !.. لقد كرهت الحياة إلى جانبها ، كرهت اندلاع غيرتها أمام كل من تشاء الظروف أن يكون له احتكاك بي !.. كرهت قذارة لسانها !.. لقد مررنا بأزمات كنت أشعر في قرارة نفسي أن الطلاق خير منفرج لها !..

ــ ولماذا لم تقم بذلك ؟..

أجاب ، والمرارة في صوته ..

ـ لا أتذكر ياصديقي ما قاله « نيتشة » عن المرأة ودموعها ؟.. لعلك لاتذكر ذلك .. أما أنا فلقد أدركت معنى أن تلقي المرأة بجسدها العاري على عتبة الباب .. وتستصرخك أن تدوس فوق صدرها بحذائك القاسي إن كنت تود أن تترك الدار !!..

سألته متردداً ، حزيناً ..

ـ وهل لاتزال مشاكلكما قائمة ؟..

ـ إنها اليوم تعذب نفسها لسبب جديد !.. غيرة تقتلها من صداقتنا المشتركة بقطر الندى وميساء !.. لاتنام من الليل إلا ساعات قلائل ، تنتحب وتشهق ، لاعنة الأقدار التي خلقتها قبيحة ، ذات أنف مدبب ، بينما أعطت لقطر الندى وميساء ما أعطتها من جمال !..

ـ وهل حاولت قطع هذه الصداقة ، أو تعكيرها ؟..

ـ لا .. بل على العكس !.. لقد حرت حقاً في فهمها .. فهي ، رغم غيرتها ، إما أنها تثق ثقة عمياء ببراءة صداقتنا ،أو أنها تحاول ، بدافع لاشعوري من كبريائها، ألا تشكك فعلاً بهذه الصداقة ، كي لاتنهار ثقتها بنفسها كلياً !..

كان دخان اللفائف قد تلبد في جو المقهى ..

خرجنا نبحث عن الهواء الطلق ، مبتعدين عن ضجيج أثاره فتية وفتيات ، أداروا الحاكي ، وبدؤوا الرقص والتلوي على إيقاع تأوهات ملحة انبعثت منه ..

سرعان مالفحنا البرد ..

دخلنا نطلب الدفء في مقهى صغير على طريق جانبية هادئة ، وما إن هدأنا إلى إحدى زواياه ، حتى فوجئت بفراس يقول لي ..

ـ أتدري بأن قطر الندى طلبت مني مساعدتها في قتل زوجها ؟..

نظرت إليه حائراً .. لابد أن وجهي أنبأه أنني لم أدرك معنى ماسمعت ..

أعاد ما قاله مرة أخرى ، فسألته ..

ـ وهل كانت جادة ؟..

ـ لست أدري !.. كانت تبدو لي تارة كأن لاهم لها سوى تنفيذ هذا الأمر ، وتارةأخرى ، تحدثني عنه ، وهي تتفحصني ، و كأنها تود أن تستشف من أعماقي حقيقة موقفي منه .. أو من أمر آخر لا أفهمه تماماً ..

شعرت و كأنه كان يتحاشى ترديد كلمة « القتل » .. فسألته مقاطعاً ، لأضع النقاط على الحروف ..

ـ موقفك من أي أمر ؟.. أمن القتل ؟..

ـ نعم ، من القتل !.. كان ينتابني شعور غامض ، وهي تحدثني عنه ، بأنها إنما كانت تسعى في حديثها هذا إلى كشف خفايا شعور أحدنا نحو الآخر .. كان القتل يتردد على لسانها ببساطة مذهلة !.. بساطة إنسان تعوده ، حتى غدا عنده موضوعاً غير ذي بال .. أو بساطة إنسان لايعي معنى ما يقول ، ولا يمكن له أن يفكر جدياً بالقيام بأمر كهذا ..

ـ وبالطبع .. ليست قطر تلك القاتلة المحترفة !..

ـ ولا تلك الساذجة التي لاتعي ما تقول !.. كانت تتحدث عن القتل و كأنها تعرفه .. ثم تطور الحديث بشكل تفقد الجريمة فيه ، بعد هنيهة ، صفة الهدف ، وتصبح وسيلة للقاء غير طبيعي بين إنسانين غريبي الأطوار !..

أثارتني غرابة ماتطرق إليه ، فسألته ..

ـ وهل تعني شيئاً آخر غير لقاء هذين الشخصين بعد قتل الإنسان الذي يفصل بينهما ؟..

ـ تماماً .. كان يعتريني شعور بأن قصدها من الحديث عن الجريمة كان شيئاً آخر غير هدف الانتقام ، أو إزاحة عائق من طريقها بقتله .. كنت أشعر أنها تسعى إلى هدف لايمكنها أن تصل اليه إلا بالتحدث عن قتل إنسان آخر !.. هدف يمكنها أن تصل إليه بمجرد الحديث عن القتل !!..

وبعد شرود ، تابع بصوت بعيد ..

ـ يخيل إلي أنها كانت تجد في الحديث عن القتل صلاة إلى قوى خفية كامنة في

نفسها ، وأنها كانت تسعى ، واعية لذلك أو لا ، وراء من يشاركها تلك الصلاة .. وكأن في هذه المشاركة رباطاً سحرياً أسود ، يجمعها عنوة بهذا الإنسان ..

تاه فراس برهة أخرى .. ثم تابع هامساً ..

ــ كأن الحديث عن القتل سرير أرادت أن نركن إليه كلانا !..

كان في لهجته ما أشعرني بأنه لن يزيدني إيضاحاً لو أصررت على فهمه ..

فسألته ، موجهاً الحديث نحو مدار آخر ..

ــ هل كانت ميساء على علم بما يجري بينكما ؟..

كانت تستمع إلينا ، وتشترك أحياناً ، نصف مازحة ، في تدبير التفاصيل اللازمة لتنفيذ القتل ، فتقترح أساليب ، قرأت عنها ، أو شاهدتها بأفلام السينما ..

صمت فراس قليلاً ، ثم تابع ..

ــ كنت أظن أن قطر الندى وميساء متفقتان ، من حيث الجوهر على الأقل ، حول جميع ماتقومان به أو تسعيان وراءه من آمال .. كانت وحدة الهدف تطغى على الصورة التي لهما في مخيلتي ، فتضمها في إطار واحد ، لتلقي الأحداث عليهما كمية واحدة من الظل والنور ، حتى غلب علي الظن بأن هذه اللوحة قد تفقد تماسكها لو مسحت عنها صورة إحدى هاتين الشخصيتين ، فبتُّ أرى فيها ، وجهين مختلفين لإنسان واحد ..

ــ ألم يكن الأمر كذلك ؟..

ــ قلما كانت الظروف تسنح لي بأن أرى الاختلاف الشاسع بين طبيعتيهما .. ذلك أنّ وحدة الهدف هذه كانت قد بدأت فعلاً في محو الفوارق الباطنية بينهما .. حتى جاء يوم .. أذكر أن ميساء عادت فيه من نزهة في سيارتها ، دخلت البهو الذي كنا فيه مرحة ، طربة لأمر جرى لها في المدينة ، وإذ طالعتها أختها ، وكانت قابعة في ثياب النوم ، تستمع إلى أغنية ، وتكرر سماع مقطع منها يقول « لن أعود إليك » .. قالت لها ، وكأنها تود مباغتتها « ومن الذي يطلب منك العودة إليه ياقطر ؟.. » !..

.. « .. بهتنا من قولها هذا !.. وكأن مسحة السخرية التي أفلتت من ميساء مع هذا القول فاجأت ، أول مافاجأت ، ميساء نفسها !.. »

« أدركت ميساء ، من الألم الذي ارتسم على وجه أختها ، مدى قسوة قولها .. فحاولت تدارك الموقف ، لكن دافعاً خفياً آخر أرغمها على المتابعة .. « تدعين محاولة هجر إنسان .. وتدعين أنك تحبينه .. ثم تدعين في الوقت ذاته أنك تودين التخلص منه بقتله !.. جميعها ادعاءات .. ماهدف هذه الأدوار التي تمثلينها ؟!.. » !! »

« لعلها لم تعن ماقالته ، بدت وكأن الكلمات أفلتت منها لسبب لا تعرفه ، فأدارت ظهرها مرتبكة ، وشرعت تنظر من النافذة إلى الأفق البعيد .. » !!

سألت فراساً بتلهف ..

ــ وماذا كان من أمر أختها ؟..

ــ لم يعط لإنسان أن يصف مدى الحزن ، والعجب ، والقسوة ، التي ارتسمت على وجهها وهي تنظر إلى ميساء التى أدارت لها ظهرها !.. فما كان مني إلا أن قلت وأنا أكاد أضمها إلى صدري .. « إن ميساء ياقطر وجلة عليك .. تراك تغرقين نفسك في أسف على ماض لاطائل وراءه .. لعلها قست عليك بالكلام ، لكنها لاتضمر لك سوى الخير ، وأنت تعرفين ذلك !.. » فأتاني صوت قطر عميقاً متهدجاً « أعلم ذلك يافراس .. آمل ألا تؤول الأيام بميساء إلى ما انتهيت إليه اليوم » .. حاولتُ أن أشد من عزمها ، واصفاً لها الجانب المشرق من حياتها ، وإذا بميساء تقاطعني بصوت علا عليه صوت الموسيقى ، فلم تسمعه قطر الندى .. قالت بحزم وبرود « أنا لست قطر الندى ، يافراس ، كي أنتهي إلى مثل هذا المصير !.. » !!

وكأن القدر أراد أن يقلم أظافر غاواء ميساء ، فجابهها بمشكلة لم تكن في حسبانها ! لم يأت مراد في طلبها !..

ظلت رسائله تأتيها بانتظام دون أن تذكر شيئاً عن موعد قدومه ، وعادت ميساء بعد أشهر من الرسائل المفعمة بالحب إلى لهجة التململ والتساؤل عن مصيرها !..

أحست برعدة إذ جال في ذهنها أن القدر ربما يخبىء لها ضربة أكبر من التي أصابت أختها !.. فهذه زفت إلى زوجها كما تزف أية عروس ، وحملت منه ، فإن كانت هي الآن على وشك الطلاق ، فكل هذه أمور تدور بفلك الزواج الطبيعي !.. أما هي .. فكيف تفسر ماحدث لها ؟..

ُعقد صك زواجها على رجل لم تره منذ سنتين !..

أمير ، لكثرة تجواله ، قلـــما تعرف أين تكتب له .. وهاهي الآن أسيرة هذا العقد !..

زوجة لرجل مضى على زواجها منه بالوكالة ثلاثة أشهر دون أن يأتي لزيارتها .. فلا هي حرة لتبحث عن غيره .. ولا تملك إمكانية اللحاق به !.. وإنهـــا إن تمكنت من ذلك ، فإن كرامتها لاتسمح لها بأن تجري وراءه بهذا الشكل المهين ..

لماذا عقد قرانه عليها وأهملها بهذا الشكل ؟..

أكان ذلك انتقاماً منه لتلك المزاودة التي طرحت نفسها على بساطها حـــين استدرجت البدر لخطبتها ؟.. أهو انتقامه منها ، حين نالت منه ، ولا كت موقفه الصحف ، فاتهمته بالتخاذل والجمود ؟!..

لهوت عن فراس بالجو الذي نقلني إليه ..

كنت أنظر إليه ، جالساً أمامي ، وأراه في مخيلتي ، حائراً بين ثلاث نساء ، لو أمعن النظر إليهن لما وجد فيهن سوى وجوه مختلفة للمرأة في بلاده !..

ميساء ، يحركها طموحها ، وتستخدم للوصول إلى أهدافها كل ما أوتيت مما أعطته الطبيعة للمرأة من صبر وحنكة في استغلال أنوثتها !..

وقطر الندى ، تجري وراء قدر يخططه لها جمالها وأنوثتها الطاغية ، لاتذكر أن لها عقلاً ، فتلجأ إليه ، إلا بعد استفحال المصيبة وفوات الأوان على استدراكها !..

أما زوجته ، فامرأة عادية باهتة ، دونما جمال تفخر به ، أو عقل تلجأ إليه ، تتوهم أنه لاتنقصها سوى ثياب قطر النـدى وحليها كي تصبح على جمالها.. وتتقفى آثار ميساء بالكلام والتصرفات ، ظانة بذلك أنها ستبلغ هي الأخرى ، مابلغته ميساء من علو في الشأن ، والسيطرة على من يدور في فلكها !!..

نظرت إلى صديقي ملياً ، وعجبت في خاطري ممّا تشكله النسوة في أذهانهـن من

صور له !.. تراه كل بمنظارها الخاص ، مختلفاً عما تراه الأخرى ، بمقــدار الحيز الذي يشغله من عالمها .

فإن كانت ميساء لاترى فيه سوى الذكاء ، وفي صداقته المطية السائغـة لتحقيق مآربها .. فإن قطر الندى كانت ترى منه هذه الأشياء نفسها ، مضافاً إليها أن فراساً رجل ، وأنوثتها لاتستطيـع أن تمر على ذلك مر الكرام !..

أما زوجته ، فجهلها أخافها من ذكائه ، وزادت عقدها وكبتها الجنسي من تعقيد نظرتها له ، فباتت لاتراه إلا من خلال هذا المنظار .. إنساناً معقــداً شبقاً .. يود لو يضاجع جميـع من يحتك بهن !..

جال في خاطري وأنا أنظر إلى صديقي ، وأحاول فهمه وتفسير تصرفاتـه ، أني أنا الآخر أستعمل منظاري الخاص ومفاهيمي الخاصة .. من هو فراس ؟!..

قد يزيد إدراكي أو ينقص ، قد تزداد نظرتي شمولاً لخفايا الإنسان أو قد تنقص، لكنها دائماً وأبداً ستظل نظرتي الخاصة !.. أليس في كونهـــا نظرتي الخاصة نقص لكمال مدلولها ؟..

لم أشأ أن أزج فراساً في نقاش أحسست أنه بعيـد عن جوه ، وإني لو فعلت ، ألن يجيبني بأن الخطأ لايقع في تعـــدد وجهات النظر بل يكمن في بحثي أنا عن كمال المعرفة ؟!..

ألن يضحك مني ويقول : الكمال « مفهوم » لاواقع له ؟!..

هل من المستحيل إذن على الإنسان أن يفهم حقيقة إنسان آخر ؟..

لئن كان سبب الإبهام هو استعمال كلمة « حقيقة » أو « موضوعية » ، وحذفنا هاتين الكلمتين ، فماذا يبقى ؟..

هل من المستحيل إذن على الانسان أن يفهم حقيقة إنسان آخر ؟!..

في تلك الليلة .. رأيت فراساً مقبلاً نحوي ، وكنت أنتظر وصوله أمام مدخل دار الأوبرا الفسيح ، وإذ أشرت إليه ملوحاً بيدي ، أسرع ،مرتقياً مدرجــه العريض ،

فتطايرت جوانب ثوب أسود عريض ، ملقى على أكتافه ، اتسعت أرجاؤه ، فبدا بثيابه هذه مقبلاً علي من قرن مضى ..

أسرعنا إلى مقصورتنا في الطابق الأول ، فمررنا بقاعات وأعمدة المرمر الوردية والخضراء ، بتماثيل البرونز ، وبثريات الكريستال التي لاحصر لها ، ركنا إلى مقاعدنا المخملية الحمراء ، وسط ألوف انعكاسات الأضواء على التماثيل ، والحفر ، والنقوش الذهبية التي تزين جدران وسقف قاعة هي من أجمل وأعرق قاعات الدنيا !..

وإذ ضاقت أعين النور ،وخبا أجيج الجمال ، بدا نيف وثمانون عازفاً تحت عتبة المسرح يحضرون آلاتهم ، فتنبعث منها نغمات حائرة خافتة تصدر لا على التعيين ، تسبق كل حفل ، فتهدأ لها الروح ، وتتهيأ لصلاة تجوب فيها النفس أرجاء عوالم الخيال والحس النقي ..

أخذ فراس، كعادته في مثل هذا الحفل ، يبحث بمنظاره الصغير بين الحاضرين عن شيء .. كانت الموسيقى ستنقله إلى عالم الشعور والحب ، فكيف له أن يتيه في طياته وحيداً ؟..

.. وإذ وجد ضالته في عينين تائهتين تعكسان عطش روح بدت له لهفة ، تبحث هي الأخرى عن غدير ماء صاف لتعب منه ..

..وإذ وجد شفتين تتفتحان مع شفتيه كلما علا الموج بعاطفة Peleasse ،وأنّ له صوت Melisande قائلة .. « أنت قربي في الظلام ليت يدي تمس يدك » ..

وإذ وجد هذه الروح التي تبحث هي الأخرى عن كتف تستقر عليه كلما صاح الطفل Iqnolde « ما أثقل هذه الصخرة !.. إنها أثقل من العالم أجمع !..وذراعي الصغير لاتستطيع أن تزيحها » ..

.. صاح لها ، صاح لهاتين العينين اللتين تبحثان عن عينيه هو !.. حتى إذا علا مد الموسيقى الهادىء ليغمر الكون .. غاص في المقعد .. وانساب معها في عالم لايعرفه أحد سواه ..

* * *

الفصل الرابع

كان فراس قد سئم الحياة في الصحراء ، ومل الدسائس، والمؤامرات ، والمغامرات المعقدة !..

ولكي يبتعد عن ضوضاء العاصمة اتخـــذ لنفسه داراً صغيرة مستقلة ، ذات حديقـــة وارفة ، لايفصلها عن قصر قطر الندى ، سوى، طريق ضيقـة ملتوية ، طويلة بعض الشيء ، اكتظت جوانبها بأشجار الصنوبر والسنديان ، كثيراً ما كان يرتادها سيراً على الأقدام ليزور صديقتيه ، فيقضي الجميع ساعات الليل المبكرة في مرح وسمر ، متحدثين بين الفينة والأخرى عن غرابة الهدوء الذي بات يخيم على حياتهم ، هدوء لم يكن مبعثه استقرار نفوسهم ، بل توقف الأحداث !..

وطال ترقبهم لمخرج من هذا الركود !.. ولما لم يأتهم الحل ، عكفوا على حياتهم اليومية يبحثون فيها عن أحداث يشتركون في تضخيمها وصبغ الأحلام والآمال عليها..

تقول قطر الندى ..

— مررت بوكالة سيارات « الكدلك » اليوم .. فنزلت أتجول في الصالة ، وكأني أريد تبديل سيارتي .. وإذ بالوكيل يهرع إلي !.. أتدرون أنه شاب وسيم جداً ؟..لم أعره أية التفاتة .. لكني شعرت أنه كان يحملق فيّ طوال الوقت !..

تضحك ميساء ، وتعلق ..

— ليته يبعث إلينا بسيارتين سوداوين كهدية !.. أليس جميلاً أن نقصد القصر وننزل المدينة بسيارتين « كدلك » من آخر طراز ؟..

أو تقول قطر الندى ..

— مررت برئيس الوزراء السابق ،وأنا أتجول بسيارتي في السوق اليوم ، فابتسم بإصرار ، وحنى لي رأسه من بعيد !..

قاطعتها ميساء ..

ـ لقد حاول المستحيل ليتزوجني .. مسكين .. أنا لا أحاول أن أبخسه حقه .. لكن ، شتان مابينه وبين الأمير مراد !..

ويصمتون إذ يأتي ذكر مراد !.. ومراد على بعد ألوف الأميال منها !..

أما هلال .. فلقد انقطعت أخباره عنهم هو الآخر أو تكاد ..

ويلهو فراس عنهم بالقراءة أحياناً ، أو بالعزف على القيثارة ..

يضحك في سره ، أو يعجب لقطر الندى وميساء إذ تحلقان بعيداً بعيداً على أجنحة الخيال .. ويدهش آسفاً إذ يرى زوجته تشاركهما هذه الأحلام فتتحسر هي الأخرى على بعد الأمير مراد ، وكأنه لو عاد ، فسيعود إليها لا إلى ميساء ... وتظن أنها هي الأخرى مهيأة لأن يحملق بها وكيل السيارات الوسيم .. وأنه يحق لها ، هي الأخرى ، أن يبتسم لها رئيس الوزراء السابق .. ويلح في طلبها للزواج ..

سألته قطر الندى يوماً متعجبة ..

ـ وأنت يافراس .. ألا تمر بك أبداً حوادث غريبة في عملك الجديد ؟..

فكر قليلاً ، ثم قال ..

-- بلى .. كنت اليوم في طريقي إلى مقابلة أحد الشيوخ بصدد بضائع ابتعتها لحسابه ، وفي المصعد الذي أقلني إلى شقته ، شاهدت رجلاً ، قيل لي فيما بعد إنه نائب ذلك الشيخ ، لعله من أغرب مارأيت من الرجال في هذه المدينة !..

وحدثهم فراس عن ذلك الرجل الذي كان يحمل عقده الرابع بخفة وطرب مَن لايزال في سن المراهقة .. ووصف لهم وقفة ذلك الرجل أمام مرآة المصعد .. يصفف حاجبيه بإصبعه الصغرى المحملة بخاتمه الماسي الكبير ، ويزيح طرف « حطاطة » رأسه قيد أنملة ، تارة على اليمين ، وتارة إلى اليسار ، مقطباً عينيه ، متفرساً في مدى تأثير انحرافها على جمال وجهه ، غير عابىء بمن كانوا حوله في المصعد يحدقون به !..

ضحك الجميع .. وسألته قطر الندى مستفسرة ..

ــ هل كان ، على الأقل ، وسيماً ؟..

ــ وسيم جداً !.. طويل القامة .. بدا مشدود العود في قفطانه الحريري الأبيض وعينان خضراوان ، من أجمل مارأيت على بشرة سمراء !..

صاحت ميساء ..

ــ إنه جعفر .. أليس كذلك يافراس ؟..

ولما لم يجبها فراس على الفور ، تلهفت قطر الندى ..

ــ ألم يذكر أحد لك اسمه ؟..

تابع فراس ، وقد طغت على صوته دهشة من تلهف صديقتيه ..

ــ بلى .. قيل لي إن اسمه جعفر .. وكان يحمل في يده وردة يتنشق بين الفينة والأخرى عبيرها .. التفت إلي فجأة ، قبل أن نخرج من المصعد ، ومدها إلي دون أن يكلمني !..

والتفت فراس إلى ميساء ..

ــ لكن .. كيف عرفت أن اسمه جعفر ؟..

ضحكت ميساء مسرورة لصحة اكتشافها .. وتابعت مازحة ..

ــ متى ستعرف يافراس بأنني موسوعة متنقلة ؟!.. إن نساء الخليج ياعزيزي يتناقلن اسم جعفر ، ويتحدثن عن أخباره كما كن منذ قرون مضت يتناقلن أخبار ابن أبي ربيعة !!.. أهو حقاً على مثل مايقال من جمال ؟..

ــ وسيم جداً ، ليس في ذلك شك !.. أما وأنت تسألينني عن جماله بهذا الإلحاح ، فبت أراه أقرب إلى الوسط منه إلى أي شيء آخر !..

كان ما أثار انتباه فراس ، وما أراد أن يتحدث عنه ، هو عفوية هذا الإنسان حين أعطاه الوردة في المصعد دون معرفة سابقة بينهما ..

راوده أن جعفراً ربما كان يود التخلص منها قبل خروجه من المصعد ، فأعطاها له بدل أن يلقي بها إلى الأرض .. أو لعله كان سيعطيها لأي إنسان آخر أوقفته الصدفة أمامه في ذلك المصعد .. ورغم ذلك ، جاء وقع هذه الحادثة محبباً ، غريباً على نفس فراس .

أراد أن يحدثهم عما تطبع به من عادات الغرب ، فالغربي لايكلم من الناس إلا أنساناً يعرفه ، وفي الغرب يعيش الجار سنين دون أن يبادل جاره كلمة واحدة .. وإذا ما لامست يد الغربي يد إنسان لايعرفه ، سحبها بعصبية ، طالباً منه المغفرة !..

ما أطرف الشرق ، وما أعمق جذور إنسانيته !..

رجل لاتربطه معرفة برجل آخر ، ولا ينوي التعرف إليه ..إنسانان جمعهما المصعد لدقائق معدودة ، أمضى أحدهما معظمها في التحديق بنفسه في المرآة .. ومع هذا ، ولمدى لحظات خاطفة ، أوجدت عفوية هذا الإنسان احتكاكاً إنسانياً ، هو في الوقت ذاته عميق ، ولا معنى له ..

وتكرر اجتماع فراس بجعفر ..

كانا يتبادلان إيماءة من الرأس أو كلاماً عابراً .. إلى أن تمهل جعفر أمام فراس يوماً متردداً ، ثم قال له ..

ـ هنالك أمر أود أن أحدثك به يافراس .. متى تود ذلك ؟..

دهش فراس لهذه المفاجأة !.. كيف عرف اسمه ؟.. وما « رفع الكلفة » هذا ؟..

تمالك نفسه ..

ـ ليس ما يمنعني من التحدث الآن ..

أمسك جعفر بيد فراس كأنهما صديقان قديمان ،واتجها خارج مكتب الشركة ، نحو مدخل بنائها الكبير ، حيث استقرا على أحد المقاعد العريضة المعدة للمنتظرين ..

بادره قائلاً ..

ـ أنت صديق حميم للأميرة قطر الندى ، زوجة هلال ، على ماسمعت .. أليس كذلك ؟..

كان فراس ساهماً يبحث في مخيلته عما يمكن أن يربط جعفر به من عوامل مشتركة يمكن لهما التحدث عنها .. مرّ في مخيلته ،أثناء سيرهما نحو المكان الذي استقرا به ، ألف خاطر .. وألف جواب ..

دهش حين سمع اسم قطر الندى .. وأحس كومض البرق قائلاً يقول له « إذن هذا هو الموضوع الذي يهمك أيها الطاووس !.. »

أجابه بحذر ظاهر ..

ـ صديق حميم ؟!.. أنا متزوج .. والأميرة صديقة زوجتي .. صديقة العائلة !..

ـ دعك من هذا ياشيخ !.. أنا لا أنوه بشيء عن صداقتكما ، بل إن هذا الأمر يسرني جداً ، إذ أن لقطر الندى مكانة كبيرة في قلبي .. ويسعدني أن أحدث شخصاً تربطه صداقة أكيدة بها !..

لم يجبه فراس .. آثر اللجوء إلى الصمت والإصغاء لما يقوله محدثه الذي بدا له ، منذ أن وقعت عليه عيناه في المصعد ، مثلاً للإنسان الذي لايعي أن في الكون إنسانا يمكن أن يثير اهتمام الآخرين سواه ، كأن لاوظيفة للآخرين في هذه الحياة سوى انتظار اهتمامه بهم !..

وتابع جعفر كلامه ..

ـ كنت قد طلبت يد قطر الندى في الماضي للزواج !.. لكن سوء طالعي ، وطالعها ، شاءا أن تزف إلى هلال !.. إذ أنه كان قد طلب يدها قبلي بأيام !..

ضحك فراس في سره ، وتخيل وقع هـــذا الحديث على مسامع قطر الندى في المساء ..

ـ هلال في أوروبا .. أليس كذلك ؟..

أجابه فراس بنعم مقتضبة .. وتساءل عما يعرفه جعفر من حياته ومن حيـــاة صديقتيه الخاصة .. لكن جعفراً تابع حديثه ، قاطعاً أفكار فراس ..

ـ مسكينة هذه الفتاة .. أعندها سيارات في قصرها ؟..

ـ نعم ..

ـ كم سيارة ؟..

ـ سيارتان لها .. وثلاث لزوجها ..

ـ وهل أبدلت العام سيارتيها بسيارتين جديدتين ؟..

ـ ولماذا تبدلها ؟.. إنها على حال جيدة !..

وبحركة من يده تدل على شيء من العصبية والتبرم ، أجاب جعفر ..

ـ لأن الناس كلهم يفعلون ذلك .. مالك ياشيخ ؟.. إن فتاة كقطر الندى بحاجة إلى دلال كثير .. وأشياء جديدة تلهيها عن همها !.. فتاة في مثل حالها اليوم بحاجة للسفر إلى الغرب لتروح عن نفسها .. وتنسى أحزانها !..

نهض الرجلان من مقعدهما .. بدا الارتياح على وجه جعفر كمن أزاح بهذا الحديث حملاً كان يرهق كتفيه ..

شد على يد فراس قائلاً ..

ـ إنك شاب ممتاز الصفات ، ويسرني أن نصبح في المستقبل صديقين حميمين !..

ضحك فراس في سره ، أهكذا تولد الصداقة الحميمة ؟.. لكنه أجاب ..

ـ شكراً .. يسرني ذلك أنا أيضاً ..

وقبل أن يفترقا أمام مدخل البناء ، حيث هم جعفر بدخول سيارته الفخمة الغريبة الصنع ، قال ..

ـ إن دارك تقع على الطريق المؤدي إلى الجبل على ما أظن .. سوف أمر لزيارتك في الأيام المقبلة .. وداعاً يافراس .. ولا تنسى أن تهدي سلامي إلى صديقتينا !..

كان فراس يظن أن عصر المفاجآت بينه وبين ميساء وقطر الندى قد أقفل وانتهى .. ولكن مادار بينه وبينها في تلك الليلة أزاح عن عينيه وشاحاً آخر ، عن أفق آخر ، من تلك الآفاق المجهولة التي كان يمتد إليها تفكير هاتين الفتاتين ..

ضحكتا ملء قلبيهما لسماع مادار بينه وبين جعفر ، وإذ رأت قطر الندى الدهشة بادية على وجهه ، علقت قائلة ..

ـ إن ماروا‌ه جعفر عن طلبه ليدي صحيح كل الصحة يافراس !.. وما زلت احتفظ إلى اليوم بعقد وسوار من العقيق أهدانيها عن طريق عائلتي منذ ست سنوات.. أي قبل أن يطلبني هلال للزواج بثلاث سنين !..

وعادت إلى الضحك ، ثم تابعت ..

ـ أليس من المضحك أن يدّعي أنه لو سبق هلال إلى طلب يدي لقبلت به !.. إنني واثقة أنه لم ينس أبداً أني رفضت طلبه لا لإعجابي بمنافس ما ، بل لمجرد أنه إنسان تافه .. شيخ من مئات الشيوخ !.. وكنت في ذلك الحين لا أرضى بالزواج ، وإن جاءني من أمير !..

ـ لماذا ؟.. ألأنك كنت مغرمة بصديق دراستك ؟..

ـ طبعاً .. ولأني كنت في ذلك الحين أعيش في الأحلام !.. لم أكن قد أدركت بعد قيمة المادة وفائدة الثراء في هذه الحياة ...

كانت ميساء ما زالت تضحك لقصة جعفر .. توقفت قليلاً ، ثم قالت ..

ـ ليس فيما ترويه أي جديد بالنسبة لنا يافراس .. لقد كنت أنتظر أن يقوم جعفر بخطوة من هذا القبيل .. لكني كنت في حيرة من أمر الباب الذي سوف يطرقه !..

وعادت إلى الضحك ، شأنها في ذلك شأن أختها ، ثم تابعت ..

ـ لقد اختار أسلم الطرق ، وأكثرها شرعية .. إنك الذكر الوحيد بيننا .. واختار جعفر أن يطرق بابك أولاً .. أتعلم أنه تتبعني بسيارته منذ أيام وأنا عائدة إلى القصر ؟..

ـ لحق بك أنت ياميساء ؟.. وماذا فعلت ؟..

ـ نعم أنا .. تعمدت عدم الاهتمام به ، ثم أوقفت سيارتي إلى جانب الطريق ، فأوقف سيارته إزاء سيارتي ونزل منها ليحدثني ..

ـ ودار بينكما حديث ؟..

ـ لم أدر ما قاله لي في بادىء الأمر ، تكلم بلهجته الغريبة بعض الشيء ، وحين لم أجبه ، أزاح شعرة تائهة على كتفي .. وسألني بلطف زائد لماذا لا أجيب .. فأفهمته بأن طريقته هذه في تتبعي بسيارته ليست خير الطرق لإثارة إعجابي به !..

ـ وبماذا أجابك ؟..

– فوجيء كثيراً في بادىء الأمر !.. خجل ، ثم قال .. « حسناً .. سأجد طريقة أخرى !..»

وقال فراس ، وكأنما أسقط في يده ..

– وكنتُ أنا طريقه المناسبة !..لكن..هنالك شيء لا أفهمه !..أيسعى جعفر وراءك أنت ، أم وراء قطر الندى ؟..

ضحكت الأختان .. وأجابت ميساء وكأنها تجيب عن أختها في الوقت ذاته ..

– لا أهمية لأيةٍ منا يسعى جعفر وراءها !..المهم ياصديقي..هو أنه يسعى!!..

وأضافت قطر الندى بشيء من المرارة والحزن ..

– المهم .. هو أن هنالك رجلاً يسعى !!..

* * *

الفصل الخامس

كثر تردد جعفر على مركز عمل فراس .. وتلا ذلك الحديث بينهما أحاديث ، لئن كان طابعها الحذر ، في بادىء الأمر ، فإنه تطور إلى حذر هادىء لايشوبه التوجس أو عدم الثقة ..

لم يكن جعفر قد أقدم على زيارة فراس في داره بعد .. ولعله مانوه إلى هذه الزيارة في لقائها الأول إلا رغبة منه في توطيد عرى صداقتها .. أما الآن ، وقد أنس واحدهما إلى مجالسة الآخر ، بات فراس يتوقع هذه الزيارة في أية لحظة ، وإذ ازدادت معرفتها ببعض ، وأحس جعفر بقوة شخصية صديقه ، هدأت جرأته ، وتشربت مبادرته بشيء من الحياء ، فأصبح ينتظر من فراس الكلمة المشجعة للقيام بالخطوة التالية ..

وجاءت المناسبة يوم أصاب سيارة فراس خلل بسيط اقترح جعفر إزاءه أن يقل فراساً ، نظراً لأن داريهما تقعان على طريق واحدة .. قبل فراس ، وحين وصلا الدار ، دعا فراس جعفراً إلى الدخول ، فتلكأ هذا ، ثم قال ..

ـ لا أستطيع الآن المكوث عندك طويلاً .. سآتي بعد الظهيرة إن شئت .. وبذلك نستطيع أن نتحدث قليلاً ..

عاد جعفر بعيد ظهيرة ذلك اليوم ، وأمضى عند فراس ساعات ، دار الحديث فيها عن نوادر الطفولة وطرائفها .. عن مصاعب الحياة ، وغرائب وقائعها .. ولما لم ينبس فراس ببنت شفة حول الموضوع الذي يحرق جوف جعفر ، لم يجد هذا بدأ من أن يسأل مضيفه ..

ـ هل تعتقد أن هذه الحال ستدوم طويلاً بين قطر الندى وهلال ؟..

كانت لجعفر طريقة طريفة في التلفظ باسم هلال .. طريقة ملؤها الازدراء ، يؤكده بإظهار تعبير مناسب على وجهه ، مفعم بسخرية صبيانية ..

أجابه فراس مبتسماً ..

ـ وهل أمام قطر الندى حل غير الانتظار ؟..

ـ وماذا يفيدها الانتظار ياشيخ .. لقــد قلت لك سابقاً بأن عليها أن تقوم بما ينسيها همومها .. عليك أنت ،إن كنت صديقها حقاً ، ألا تترك أمامها مجالاً إلا وتفتحه ، لترفه عنها ، وهي في مثل هذه الحال من الوحدة والضيق ..

كان لهفة جعفر ولهجته الجدية أثر في إزاحة بعض الريبة التي كانت تعاور نفس فراس وهو يستمع إلى حديثه .. فرد عليه جاداً ، وكأنه يكلمه لأول مرة ..

ـ ألا ترى ياشيخ جعفر أن ..

قاطعه جعفر :

ـ نادني جعفر فقط .. أرجوك يافراس ..

ـ حسناً ، ألا ترى ياجعفر أن أي شيء قد تقوم به قطر الندى من هذا القبيل قد يسيء إلى سمعتها ، ولن يزيد الهوة إلا عمقاً بينها وبين زوجها ؟..

لم يكن في جواب فراس ما يثير الدهشة .. لكن العجب ارتسم على وجه جعفر الذي بدأ يتمعن بجدية في موقف فراس من صديقته ، ولعله كان يقارن هـذا الموقف بما يجول في خاطره من أحلام حول هـــذا الموضوع .. « هوة » .. « السمعة » .. «زوج».. كل هذه ، كلمات ، لم يكن جعفر يود أن يستمع إليها فيما يتعلق بقطر الندى ، كلمات نبهته إلى أن فراساً لايشاركه الصورة التي رسمها جعفر في خياله عن قطر الندى ..

كان يأمل ،دون سابق تفكير في الأمر ،بأن يجد في نظرة فراس إلى المرأة ماينسجم مع نظرته هو .. متعة جسدية جوالة بين الرجال ، يطبق عليها الأقوى منهم ، ويحتفظ بها !.. فوجيء الآن بفراس ينظر إلى قطر الندى من خلال مصلحتهــا هي ، ومن خلال نظرتها هي للأمور !..

ـ لا أظنك يافراس تعتقد أن الحلال عودة إلى قطر الندى !..

ـ قد يكون ذلك صحيحاً .. لكنها لن تكون أسعد حالاً مما أنت على مايعجل في طلاقهـا .. فتبقى وحيدة في مجتمـع ينظر إلى المطلقـات شزراً ، ويبيح للكبير والصغير أن يلوك سمعتهن !..

نظر جعفر ملياً إلى فراس ، وقال بصوت عميق ..

ـ أنا أدرك هذه الأمور حق الإدراك ..

تريث فترة كمن يجمع قواه ، ثم تابع ..

ـ والله لو نالت قطر الندى حريتها من هلال ، فليس ما يسعدني أكثر من الزواج بها ! ..

ما الذي حدا بجعفر إلى هذا القول ؟.. هل أراد الظهور بمظهر الفارس النبيل القصد ، كي يأمن فراس جانبه ؟.. أم هل هام حباً ، فجأة ، بقطر الندى ، وبالأمس كان لايمني نفسه إلاّ بغزو امرأة منيعة ، زوجة أمير منيع ! ..

شعر بالسعادة تطغى على نفسه وهو يتفوه بهذه الكلمات ! .. هل سبقت كلماته شعوره ، فأعطت لما يحس به قالباً ، وكونت من الفراغ الذي يجوب فيه درباً يسير عليها ؟! .. لم يكن يعلم منذ لحظات قليلة بأن حديثه سيتخذ مجرى كهذا ! .. لعل ما اصطبغ به موقف فراس من طابع الجدية والإخلاص دفع جعفراً ، كمن يقبل التحدي ، لأن يظهر هو الآخر بموقف نبيل ، بل لعله أراد أن يضارع موقف فراس نبلاً وأخلاقاً ! .

لعلها كانت مجرد كلمات ما تفوّه بها إلاّ ليظفر بالغلبة على خصمه في مبارزة تراءى له أن سلاحه الوحيد فيها هو الشهامة ! ..

وكمن يعشق الحب أولاً ، ثم يبحث بين الناس عمن يليق بحبه ، فيتدله بهواه .. وجد المغامر في نفس جعفر أجمل قصة يمكن له أن يتوّج بها شبابه الهارب ، فبدأ يجمع من معطيات قطر الندى عوامل توحده بها ، وتبرر لنفسه حبه المفاجيء لها ! ..

أقبل منذ لحظات على خلق هدف لحياته .. ربط سعادته وآماله بمصير امرأة لاتدري عنه إلا النزر اليسير ! ..

قال بصوت منهدج ، ملؤه الصدق ، وملؤه الخيال ..

ـ لقد أحببتها يافراس منذ أن وقع ناظري عليها ! .. أحببتها منذ ست سنين ! .. ولا أزال أحبها حتى هذا اليوم ! .. لم يجدني أن أعوّد نفسي على الصبر ، أفقده كلما مررت بقصرها المنيف ، أراها سجينة فيه ، زوجة ذلك الأمير المغرور ، بعيدة عن منال البشر ! .. ويل قلبي ! .. كيف أنقذ روحها المسكينة ؟ .. كيف أمسك بيديها الغضتين اللتين تمتدان في ظلمة الليل تبحثان عبثاً عن صدر عريض تأنسان إلى دفئه ؟ ..

تملك العجب نفس فراس ، وراح يستمع إلى حديثه الذي غلب عليه طابع من يكلم نفسه بصدق .. كان الوقت قد قارب وقت موعد الزيارات ، وفيما هو ينظر من النافذة رأى سيارة قطر الندى مسرعة على الطريق المؤدية إلى داره !..

اعتراه ارتباك أخفاه عن ضيفه الذي كان محلقاً في أجواء حبه المفاجيء ، لكنه طمأن نفسه إذ جال في خاطره أن زائرته لابد لها أن ترى سيارة جعفر واقفة أمام داره ، فتتابع سيرها ..

عاد ارتباكه من جديد إذ سمع صوت محرك سيارة قطر الندى ، بدل أن يبتعد عن داره ، بعد أن مر بها ، يتوقف فجأة أمامها !.. ثم سمع وقع خطاها الدقيق الأليف ، يقترب شيئاً فشيئاً ليتوقف أمام مدخل داره !..

توقف جعفر عن الكلام ليسأل فراساً عمن يمكن أن يكون الطارق .. فالتبك فراس ، لماذا لم تأبه قطر الندى لسيارة جعفر ، ولماذا لم تفطن لوجود جعفر عنده ؟!.. وإن دخلت الآن ، فهل يمكن أن تفوت جعفر مثل هذه الملاحظة ، فيعتبرها تشجيعاً له ؟..

وبحرج زائد ، لم يجد فراس بداً من أن يطلب إلى جعفر أن يحترس في أقواله ، فيما لو كانت القادمة قطر الندى ، وأسرع نحو الباب يفتحه لزائرته ، مؤهلاً بها ، مصطنعاً الدهشة لرؤيتها !..

كان يقف بوضع لا يستطيع جعفر فيه أن يرى وجهه ، فسألها بعينيه ، وبهزة استفهام خفيفة من رأسه ، عن سبب دخولها الدار ، على وجود جعفر فيها !.. فأجابته بغمزة ، وابتسامة ملؤها ما معناه « خلِ عنك ياصاحبي فأنا أعلم ما أفعله »!.. وأقبلت لتتوقف ، مصطنعة الدهشة هي الأخرى ، إذ رأت جعفراً يقف مهللاً ، ويتقدم لاستقبالها !..

وبعد الترحيب والسؤال عن زوجة فراس ، جلس ثلاثتهم ، وشرعت قطر الندى تقص عليهم نوادر السوق ، وأنواع ما ابتاعته من ثياب وحلي ، حتى كاد فراس أن يغرق في الضحك ، رغم ارتباكه ، لعلمه أنها لا تملك شروى نقير .. وأنها لا تقصد بهذا الكلام سوى المفاخرة ، وادعاء يسر الحال أمام جعفر !!..

كان جعفر ، وقد حنى رأسه إلى الأمام قليلاً ، ينظر بعينيه المتقدتين إلى قطر

الندى ، وعلى شفتيه تتلاعب ابتسامة تعكس ماطار في قرارته على سحب الرضا !..
لئن كانت في نفسه رواسب من شك في أنه ربما قد تسرع بأقواله أمام فراس ، فها هي ذي الأحداث تثبت له أنها أقدر منه على التسارع !.. تجمعه بكل بساطة ، تحت سقف واحد ، بمن حرقت لبه وأعيته الحيلة للاتصال بها لستة أعوام خلت !!..

حرك ناظريه عنها ليجول بهما على المقعد الأزرق الذي كانت تجلس عليه ، فأحبه!. ثم على الستائر المخملية الحمراء ، فأحبها !.. ومنها إلى النافذة ، ومن خلالها إلى الطبيعة الخضراء ، فأحبها !!.. فإذا استقر بناظريه على فراس ، تملكه شعور بالمحبة والعطف نحوه .. وتمكن منه يقين بأن مفتاح سعادته بات في حيز هذا الإنسان ..

انتبه فراس إلى معصم جعفر حين سمع قطر الندى تقول بإعجاب ..

– جميلة هي هذه الساعة التي تحملها ..

أزاح جعفر كم ثوبه عن ساعة من الذهب الخالص ، ضخمة الحجم ، مستطيلة ، مرصعة بأحجار كبيرة من الماس .. أجابها جعفر بزهوّ ..

– إنها آخر ما ابتكرته معامل « بياجي » من مجوهرات !.. ليتك تشرفينني بقبولها هدية صغيرة .. ضحكت قطر الندى بدلال ظاهر ..

– أوه .. هبني قبلتها .. فهل هنالك في المدينة من يجهل أنها لك .. وماذا سيقول الناس لو رأوها على معصمي ؟..

كانت هذه الساعة فاتحة حديث تناول الذهب وأسعار الماس ، استفاض فيه جعفر في وصف نقاء حجر خاتمه الماسي الأزرق اللون الذي كان يحمله على خنصره.. وحدثهم عن المشاق التي تكبدها ، وعما دفعه من ثمن باهظ للحصول عليه من أحد مهراجات الهند الذي تردد في بيعه ..

تطرق الحديث إلى السيارات ، وتسابق كل من جعفر وقطر الندى في عرض مايعلمان من أسعارها وفخامتها ، وما فيحوزتهما منها ، وما يصلح اقتناؤه في هذا البلد منها ومالا يصلح .. إلى أن سألها جعفر ..

– ماهي أجمل السيارات في نظرك إذن ؟..

سرّت قطر الندى لهذا السؤال ، وعادت بذاكرتها لتشرك كلًا من جعفر وفراساً

بذكريات حياة البذخ التي عاشتها في بادىء الأمر مع زوجها .. حدثتهما عن يوم خرجت فيه من الفندق في نيويورك ، وتعجبت لجمهرة من الناس تحيط بسيارة ذهبية اللون ، حتى إذا ماسنحت لها الفرصة أن تنظر إليها عن قرب ، بهتت لجمال خطوطها الفذة ، ولسحر تصميمها !..

تعجب جعفر لهذا الوصف ، وسألها ..

ـ ومن أي صنع كانت هذه السيارة ؟..

أجابت ، كمن يلقي بين الحاضرين بحلقة مفقودة يتطلع إليها الجميع ..

ـ من صنع « فراري » .. هي كما تعلمون شركة إيطالية لاتنتج سوى سيارات السباق .. المعدة لشخصين ..

لم يستطع جعفر أن يمحو مسحة خبث لوّنت ابتسامة علت شفتيه ..

ـ ماقولكما لو أخبرتكما بأن عندي مثل هذه السيارة ؟..

فوجئت قطر الندى لقوله هذا ، وسألته بلهف مكتوم ..

ـ عندك فراري ؟..

ـ نعم ، عندي فراري ؟.. وهي الآن في قصرنا في جنيف ..

لو أن إنساناً غيره بادرها بمثل هذه المفاجأة ، لأصابتها خيبة من حيازته على أحد أحلامها !.. لكنها ابتسمت ، إذ أحست في سرها بارتياح لما يكشفه جعفر لها من مظاهر ثرائه !.. أليس من المعجبين بها ؟.. ألا تستطيع لو أرادت أن تجعل منه ، مع كل ما يملكه ، كوكباً يدور في فلكها !..

سألته ..

ـ وهل لكم قصر في جنيف أيضاً ؟..

أجابها فراس مؤكداً ..

ـ نعم .. لقد قرأت عنه في إحدى المجلات الأجنبية .. إنه من أجمل القصور الرابضة على شاطيء بحيرة « ليمان » .. يلقبونه بقصر الأفراح .. بناه أحد الأمراء منذ نيف وثلاثمائة عام على ما أظن ..

وأضاف جعفر متواضعاً ..
ـ ليتك تشرفينه بزيارة منك .. من يدري ؟.. لعل فيه سحراً يعيد الأفراح إلى حياتك !..
إعترى الحزن وجه قطر الندى ، وأجابت بلوعة مكتومة عرف فراس أنها تتصنعها ..
ـ أي والله .. إن مايلزمني في هذه الأيام هو أن أطير إلى مثل هذا القصر ، ومثل هذه الأجواء ، علني أنسى فيها العالم ومن فيه .. أضيع في جوف الطبيعة ، أو بين شوارع مدينة مزدحمة بالسكان لايعرفني فيها أحد ، فأنسى من أنا وما فُرض عليّ من قيود وهموم ناء بها كاهلي ..
وكأن ما اصطنعته من حزن في بادىء حديثها زال ، لتحل محله كآبة حقيقية أحرج فراساً أن يرى صديقته تظهرها عارية أمام جعفر !.. وتململ من شعور باطني طغى عليه ، أحس بأنه ملزم بأن يسيطر عليه وأن يخنقه في المهد إن كان يود أن يحافظ على مابينه وبين صديقته من ود ومحبة خاليين من الالتزامات والتعقيد .
إذ رأى عيني جعفر تسائلانه حائرتين عما يجب أن يجيب به قطر الندى .. وقف ينظر من النافذة ثم أشار إليه بلطف أن يصمت ..
وكان قدراً محسوباً أتى بميساء في تلك اللحظة .. سكتت قطر الندى إذ سمعت محرك سيارة أختها يقترب ، ثم يقف أمام دار فراس ، ولم تمض دقائق قصار ، حتى أقبلت ميساء مشهرة ابتسامتها الحلوة ، تخف من ورائها جدائلها الذهبية ،فأزاح قدومها ما كان قد تلبد عليهم من سحب ..
ما إن هدأ الجمع قليلاً ، وعاد الحديث إلى نوادر الأسواق وحوادث المدينة ، حتى وقف جعفر مستأذناً بالرحيل ..
وقبل أن يغادر الدار ، همس في أذن فراس ..
ـ سأعود لزيارتك غداً بعد الظهر ..
وتابع بحرج المراهقين ..
ـ أرجو أن تسألها عن رأيها بي .. وداعاً .. إلى الغد ..
ثم أقفل باب سيارته وانصرف ..
تنفس فراس الصعداء ..

الفصل السادس

اجتمع شمل الأصدقاء في تلك الليلة على لهو ومرح ماعرفوا مثله منذ زمن طويل .. دار الحديث حول وقائع تلك الظهيرة .. وراح كل منهم يزيد تفسيره الشخصي على مايذكره الآخرون من انطباعات وتأويلات لهدف جعفر الحقيقي .. راحوا يمعنون في بحث ما « يمكن » أن يجاب به في هذه الحال ، أو تلك،ثم ما«يجب» أن يجاب به في هذه الحالة ، أو تلك .. أرادوا ، كعادتهم في استباق الأحداث ، ألا يتركوا للقدر شيئاً لايسيطرون عليه .. فعلا نجم جعفر ، وسطع بريقه لسعة ماشغله بينهم من مكان ، وتربع دون أن يدري على عروش مخيلاتهم الشاغرة !.. وما إن أوغل الليل ، حتى بدأ كل منهم يجد فيهذا القادم الجديد حلا لمشاكلهم، وراح ، كل، يقترح نصف جاد ، طرقاً ووسائل يمكن لجعفر فيها أن يخلصهم من الركود .. إلى أن قالت زوجة فراس ضاحكة ..

ـ لقد ألح في دعوتنا للسفر إلى الغرب .. لماذا لانقبل الدعوة ؟..

فراس الذي يأخذ كل مايقال أمامه مأخذ الجد ، أجابها ..

ـ وكيف نفعل ذلك ؟.. أنقول له غداً « حسناً ، لقد قبلنا دعوتك لنا أمس بالسفر » ؟.. لعله لم يكن جاداً في هذه الدعوة أصلاً !..

قالت ميساء ..

ـ بل أظن أنه كان جاداً كل الجد فيها !..

أجابها حائراً ..

ـ جاد في ماذا على الضبط ؟.. أهي دعوة إلى قصره ؟.. أم إلى المكوث فترة من الزمن في ضيافته في القصر ؟.. وفي هذه الحالة ، من الذي سيتكفل بمصاريف سفرنا ؟.. ومصاريف الإقامة الجانبية هناك ؟.. ثم ، هل يعقل أن تنزلا ضيفتين على رجل دون أن تكونا بصحبة زوجيكما ؟..

كان في لهجة فراس هدف من يحاول دراسة الخطوات العملية لهذه الدعوة ، لو صحّ أنهم سيقبلونها ، دون التعرض إلى مافي قبولها من معان جانبية ونتائج .. كان واضحاً للجميع أنها دعوة تحمل أكثر من معاني الدعوة .. وأن فيها دعوة إلى أمر آخر غير قبول الضيافة !.. لكن قبولها لم يكن قد طرح جدياً على بساط البحث كي يتطرق إلى نتائجها بشكل جدي .. لذلك بدأت لدى الجميع محاولة في صبغ هذا الحديث بالمزاح محاولين في الوقت ذاته مناقشة العراقيل ، مازحين ، لإزاحتها واحدة تلو الأخرى ، مبتدئين بالصغير منها ، تاركين الأهم إلى اللحظة التي لن يبقى أمامهم مفر من مواجهة الأهم !..

كانوا على حذر ربما تبادلته نفوسهم ، فحاول كل منهم ألا يُبدي من الاهتمام بالموضوع أكثر مما يبديه الآخرون .. وأنهم لواعون أو شبه واعين ، لخطورة مايتناوله البحث ، يتمنى أحدهم في سره لو تتوفر له طريقة تتم بواسطتها هذه الدعوة دون أن يضطر إلى مواجهة أو بحث ماقد يتأتى عن ذلك من نتائج أو عواقب !..

كان لوجود فراس بينهم أثر خالق المعجزات .. فاهتمامه بالنتائج العملية للأشياء ، لا بتقييمها ، ووضوح كونه لايفتعل هذا الدور لتسهيل المغامرات ، بل إنه حقاً ، لايعلق على معنى النتيجة من الأهمية أكثر مما يمكن لهذا المعنى أن يؤثر عملياً على مجرى الأمور ، زد على ذلك أنه الرجل الوحيد في جمع يملك قدره وقدر زوجته فيه ، من ناحية ، وله من الناحية الأخرى السلطة الظاهرية على التغطية لتصرفات صديقتيه أمام الناس بما هو معروف عنه من صداقته للأمير هلال .. جميع هذه العوامل ، سهلت على الأختين أمر شق باب المغامرة بواسطته .. بقي الآن عليهم أن يفتحوا هذا الباب بحذر لينزلقوا عبره إلى عالم المغامرة دون ضوضاء !..

قالت ميساء ..

– إن ما بودي أن أقوم به في الغرب هو عملية جراحية للتجميل !..

دهشوا لهذا القول .. سألتها أختها ..

– تجميل ماذا .؟!.. إن أنفك جميل لايحتاج لشيء !..

ـ أعرف ذلك !..

ـ ماذا تجملين أذن ؟.. لا أخالك تودين العبث بوجهك ؟!..

ـ طبعاً لا !..

ـ إذن !..

ضحكت ميساء باستحياء .. وإذ أشارت زوجة فراس إلى أنها قد فطنت إلى ماتنوه به ميساء ، تعجب فراس ، ونظر إليها بدهشة متسائلاً ..

ـ حقاً ؟.. صدرك ؟..

أجابت دون أن تنظر إلى أحد ..

ـ ما أجمل صدور الراقصات التي شاهدتها في الكازينو .. أهي عملية صعبة يافراس ؟!..

أجابها ضاحكاً ..

ـ بل هي من أسهل العمليات من الوجهة الطبية !.. يقال إنه يتلوها بعض الألم في دور النقاهة ..

ـ أهذا كل مافي الأمر ؟.. تصوروا !.. سيكون لي نهدا فتاة في الخامسة عشرة من عمرها !!..

أجابتها قطر الندى بشبه تحد ..

ـ ومن أين لك بمصاريف الجراحة ؟!.. ومصاريف السفر ؟.. والإقامة في باريس ؟!.. إذ لابد أنك ترغبين ، لو أمكنك ذلك ، أن تقومي بها عند الجراح الشهير الذي قام بعملية تجميل أنفي !!..

ـ تماماً !..

ـ إذاً ؟..

تململت ميساء بنزق في مقعدها ..

ـ مالكم تستغربون الأمر ؟..

ثم تابعت مصطنعة العجب ..

ـ ألن نذهب إلى الغرب بدعوة من جعفر ؟!..

ضحكوا قليلاً ، مصطنعين المفاجأة بدورهم ..

وإذا بزوجة فراس تقول ..

ـ وأنا أيضاً !.. سأقوم بعملية تجميل لأنفي !!.. ألم تكن يافراس تحرضني دوماً على ذلك ؟..

ـ بالطبع .. بالطبع ..

قال ذلك ، ساهماً بعض الشيء ، وإذ بقطر الندى تقول بدورها ..

ـ وهل تعلمون ماالذي سأحصل عليه ؟..

نظروا إليها ، متسائلين عما يمكن أن تود القيام به ، هي الأخرى ..

ـ سأحصل على سيارة الفراري !!..

ضحك فراس ..

ـ بودي لو يكون لي أمر هناك أظفر به ، أنا الآخر !..

أجابته ميساء مازحة ..

ـ لاتبتئس .. سنجد لك شيئاً ، أنت الآخر !!..

تم اجتياز العقبة الكبرى !!.. لم يكن حديثهم إلا مزاحاً وأحلاماً ، لكنها مرحلة اجتازوها بسلام .. مرحلة التوجس من الخوض في هذا الموضوع !.. خلقوا لأنفسهم آمالاً يودون تحقيقها من هذه الدعوة .. فبات عليهم الآن خوض الموضوع الشائك .. موضوع التكاليف !..

بادرت ميساء بالسؤال ..

ـ كم كلفتك عملية تجميل أنفك ياقطر ؟..

ـ أوه .. لا أدري !.. هلال كان يدفع في ذلك الحين .. على أية حال ، يلزم للأمر لا أقل من خمسة آلاف ليرة ..

وأضافت زوجة فراس ..

ـ وخمسة آلاف أخرى لأنفي أنا .. عشرة آلاف ، ولنضف إلى ذلك خمسة آلاف لتكاليف إقامتنا ..وخمسة آلاف لبطاقات الطائرة .. يكون المجموع عشرون ألفاً !!..

قال فراس بدهشة ساخرة ..

ـ عشرون ألفاً ؟!.. مبلغ بسيط !..
ضحك ، ثم تابع مازحاً ، مستبعداً ..
ـ ماعلي سوى أن أقول لجعفر غداً .. يلزمني عشرون ألفاً ليرة لقبول دعوتك، مارأيكم بذلك ؟..
صمتوا برهة .. وإذ بقطر الندى تفاجئهم بلهجة جادة ..
ـ لا أقبل أن أسافر إلى الغرب إن لم يكن معي خمسون ألفاً على الأقل !!..

وجمت ميساء !.. هاهي قطر الندى تعود إلى تكبرها من جديد !.. سيفسد طمعها عليهم هذه الدعوة دون شك !..

وإذ تعجب أحدهم وضحك لضخامة ماتشترطه ، أجابت رغم الابتسامة التي كانت تعلو شفتيها بلهجة أشعرتهم بها أنها تعني كل كلمة تفوهت بها ..
ـ لماذا تستغربون هذا مني ؟.. إني الوحيدة بينكم التي قد يلوك سمعتها الناس فيما لو قبلت هذه الدعوة ، وانكشف أمرها !.. وأضافت بتحفظ ..علماً ،بأني لا يمكن أن أسمح لجعفر حتى برفع الكلفة بيننا أثناء دعوته هذه .. أو بعدها !..
وتابعت بلهجتها الأولى ..
ـ وبما أنني الوحيدة التي قد تخسر سمعتها بينكم ، فلماذا لا أشترط مثل هذا الشرط ؟!..
وكأن ميساء كانت لها بالمرصاد ، إذ أجابتها على الفور ..
ـ إننا نخاطر جميعاً بسمعتنا !.. وبالمقدار نفسه !..
ـ لا ياميساء ، فأنت مازلت عروساً .. ولا يمكن لأي إنسان أن يشك بأن نفسك قد تراودك على جعفر !.. أما أنا ، فالكل يعلم أن هلالاً هجرني !.. وأني قد أقوم بأي شيء للانتقام منه !..
ـ هذا صحيح !.. لذلك من العدل أن تحصلي على « الفراري » ، وقيمتها تساوي

أكثر من ثلاثين ألفاً !.. أمّا أن تطلبي خمسين ألفاً .. نقداً .. وقبل ابتداء الرحلة.. فذلك يعني أنه لن تكون هنالك رحلة لأحد !!.. ولا « فراري » لك !!..

بهت فراس للأختين ، تتساومان على عشرات الألوف ، تناقشان كيف سيقوم بدفعها إنسان لاعلم له بعد بالموضوع ولا خبر !.. لم يفهم كيف تتشاحنان حول المال، جهاراً ، وبهذه البساطة !.. وجال في ذهنه أنهما وإن اجتمعتا على رأي ، فهل يعقل أن يدفع جعفر مثل هذه المبالغ كي تُقبل دعوته هذه ؟!..

أفصح عما يجول في ذهنه ..

– أمن المعقول ياقطر الندى أن يدفع جعفر سبعين ألفاً بمجرد أنك ستقبلين دعوته للسفر .. وللسفر فقط !..

أجابته على الفور ..

– خلّ عنك يافراس !.. أنا أعرف هؤلاء القوم خير معرفة !.. لو طلبت من جعفر غداً مئة ألف لأعطاني إياها ، لمجرد أنني طلبتها منه !.. كل مافي الأمر هو أننا ، بدعوة كهذه ، سنقوم برحلة إلى الغرب دون أن تلزمنا بشيء ، نروح فيها عن أنفسنا ، ونبتاع بعض الحاجيات !.. ورغم أنني لاأحتاج إلى المبلغ كلّه ، إلاّ أنني في الوقت ذاته لا أود لجعفر أن يظن أنني ، إن قبلت العطاء ، رضيت بأن أعطى مبلغاً زهيداً من المال !!..

بادرتها ميساء قائلة ..

– إذاً .. لقد وجدت الحل !..

نظر إليها الجميع بتلهف فقالت ..

– نوكل إلى فراس بهذا الأمر .. يخبر جعفراً عن العمليات الجراحية ، ويزيد له في تقدير ما ستكلف هذه العمليات ، ثم يطلب منه إضافة إلى كلفة العمليات مبلغا احتياطيا للطوارىء ، وتأخذين أنت ، دون أن تكوني قد طلبت شيئاً جميع ماقد يزيد عن تكاليف عملياتنا .. بعد أن يكون كل مناقد أخذ لنفسه ألفاً أو ألفين لمصاريفه الجانبية !.. بذلك تبدين لجعفر كمن قبلت أن تسافر معنا على مضض ، من أجل عملياتنا الجراحية ، لا لأجله هو ، وتكونين بذلك قد احتفظت بكبريائك بالنسبة له !!..

أدركت قطر أنه ليس من حل آخر يضمن لها السفر إلى الغرب دون أن تقحم نفسها بعلاقة جدية مع جعفر !.. فسكتت إزاء هذا الاقتراح .. لكنها سكتت على مضض !..

كان مما يثلج صدرها أن تصبح ، مرة أخرى ، محور هذا الجمع ،ومحط أنظارهم.. ومما يشبع غرورها أن تقول لهم ، لو أرادت ..

ـ ..«لئن صار بإمكانكم بحث السفر إلى الغرب والكلام عن المال فإن ذلك بفضلي ، وبفضل ما لجمالي من تأثير على الرجال »..« مالكم تناقشونني ،وتقترحون علي الحلول؟.. أنا وحدي صاحبة الأمر والنهي في هذا الموضوع !..» لكن عاملاً آخر تنازعها ..فهي لو جاهرت بهذا القول لأقرت أمامهم بأنها قد وافقت على مايعرضه عليها جعفر من علاقة ، ولأصبحت أول من زلت قدمها بينهم ، أول من بحثت ، عن غير مايلقبونه بـ « الطريق القويم » ، طريقاً ، لحل قضاياها المستعصية !.. لعله لم يكن لديها مانع كبير في أن يكون لها عشيق ، لكن ، لماذا تكون لميساء وفراس وزوجته علاقة به في هذه الحال ؟.. فإما أنه عشيقها ،لادخل لمخلوق بعلاقتها .. لكن ..لا .. هذا أمر صعب في هذه الظروف ، خاصة وأن وساطة فراس أمر لابد منه في هذه المرحلة ،أو أنها علاقة ظاهرها بريء ، لايربط صاحب هذه الدعوة فيها رباط خاص بأحد منهم ،وفي هذه الحال يتحتم عليها قبول النصح !..

كان كل من الحاضرين قد غاب مع أفكاره الخاصة ، وإذ بزوجة فراس تنبههم ..

ـ والفراري ؟..

ردّت قطر الندى بحمق ..

ـ لم أعد أريدها !..

ثم نظرت إلى زوجة فراس وجال في خاطرها .. « ما أغباك من امرأة .. أيكون عند جعفر فراري ولا أحصل عليها ؟.. إنكم بلهاء جميعاً !.. سأعرف كيف أتدبر أمري مع جعفر دون نصائحكم !..

عاد جعفر في اليوم التالي إلى دار فراس وهو لايطمح إلى أكثر من أن تكون قطر الندى قد أعارته من الاهتمام مايكفي لتبدي رأيها فيه لصديقها !.. وكما لم يطلع فراس قطر الندى على شدة ما أبداه جعفر أمامه من وله بها ، كذلك لم يطلع جعفراً عما

اكتشفه عند قطر الندى من لوعة على مافقدته من ثراء ، وما في نفسها من تربة خصبة لتقبّل المغامرة ، إن كان في المغامرة مايعيد إليها مافقدته من يسر !..

قرر فراس التروي ، وراح يشغل الحاضرين بأحاديث شتى بعيدة عما يدور في أنفس الجميع ..

لست أدري ما إذا كان قد سعى من وراء ذلك إلىإحكام الأمور ،أو إلىالتريث ، عسى قضاء غير منتظر يحل فجأة فيفسدها !..

تنبهت الأختان إلى تلكئه ،فلما أعياها الانتظار ، تقدمت قطر الندى ، ونوهت لجعفر عن حنينها إلى السفر !..

بهت فراس ، وطار جعفر من الفرح !..

وما إن غادرت الأختان الدار حتى راح جعفر يلح على فراس بقبول السفر معهما لمرافقتها ..

لم يعارض فراس فكرة السفر ، إنما أبدى تحفظاً إزاء الطريقة التي عرضت بها.. وأخذ يقنع جعفراً بأنسفرهم إلى جنيف لايمكن إلا وأن يثير ملاحظةالناسوأقاويلهم! فلا هذه المدينة بالمكان المنشود لمن يود الترويح عن نفسه بالغرب ، ولا هنالك من يجهل أنها عاصمة قومه في الغرب !..

كان يحدّث جعفراً ، فقال ..

ــ ثم علينا أن نجد عذراً لهذه السفرة المفاجئة .. عذراً ، نواجه به على الأقل من يسألنا ، أو من يسألني أنا بالذات ، لماذا سافرت هكذا ، فجأة ، إلى الغرب !..

لم يكن جعفر من البارزين في إيجاد الحلول السريعة لمشاكل من هذاالنوع ،لذلك أوكل إلى فراس منذ البداية أمر حل العقد !.. فما أن اقترح عليه فراس فكرة السفر إلى باريس بسبب العمليات الجراحية ، كمبرر لسفرهم أمام الناس ، حتى ابتهج وتحمس لها .. ثم قال متحسراً ..

ــ ليت ميساء تود فعلاً أن تقوم بعملية جراحية !.. فهي فتاة فطنة ،ووجودها دائماً إلى جانب قطر الندى في هــذه الرحلة قد لايسمح لي أن أرى قطراً بمفردها على الإطلاق ! لو قامت فعلاً بمثل هذه العملية الجراحية لأفسحت لي المجال ..

ضحك فراس في سره من جعفر الذي أظن أن قضية العمليات أمر وهمي لتبرير السفر أمام الناس !..

أجابه بتأن ..

– لكن ميساء قد تود فعلاً أن تقوم بمثل هذه العملية ، لو توفرت لديها تكاليفها ، بل إنها كانت تحاول إقناع زوجتي كذلك بإجراء تجميل لأنفها !..

بهت جعفر ، وحار كيف يضغط على أساريره ليخفي سروره ..

– عظيم جداً !!.. ليس هنالك أروع من هذا الحل ، قل لها يافراس بأنك ستمدها أنت بالمال .. وأنا أتكفل لك بكل شيء .. ولزوجتك أيضاً !!.. ما أروعها من فكرة ، ستتركان بذلك قطر الندى وحيدة لأسبوع كامل على الأقل !..

ثم استدرك فجأة ..

– .. لكي تذهب إلى الأسواق بمفردها طبعاً !.. دون إزعاج ميساء وزوجتك لها !.. أنت تعرف يافراس أن النساء يفضلن التسوق وحيدات !.. أليس كذلك؟.

تبسم فراس لسذاجته ..

– طبعاً .. طبعاً .. سيكون لها ماتشاء من وقت للترويح عن نفسها بمفردها !..

– حسناً سأذهب الآن لأعد لكم مايلزمكم للسفر !.. هيء الأمر مع ميساء وزوجتك بالطريقة التي تراها .. فأنت تعرفها أكثر مني .. سأعود لأراك بعد صلاة المساء !..

وقف أمام المرآة في دار فراس يزيح غطاء رأسه قيد أنملة ، تارة ذات اليمين ، وتارة ذات اليسار ، نصفه يكلم فراساً ، ونصفه الآخر يتأمل وجهه معجباً بعينيه الخضراوين !.. وقف ، كما رآه لأول مرة في المصعد ، وفي الوضع نفسه ، ينظر إلى نفسه بإعجاب ظاهر !.. أيشفق عليه ، لما يراه مقبلاً نحوه من أعاصير ، أم يعجب به إذ يراه ، كالمصارع الروماني ، على أهبة الدخول إلى الحلبة ، يلتفت إلى زينته وهندامه قبل الدخول ، غير آبه إلى أنه قد لايخرج من هذه الحلبة إلا جثة هامدة ؟!..

انتهى من تصفيف آخر ثنيات حطاطته ، فنفض ثوبه الفضفاض ، وأحكم وضع عباءته السوداء المذهبة الأطراف على كتفه ، ثم كرر قوله ..

ـ سأعود بعد صلاة المساء ؟..

* * *

كان على الأختين أن تصلا دار فراس قبل موعد قدوم جعفر ليطلعهما على ما تم بينها من حديث .. لكن سبباً أعاق قدومها في الوقت المحدد ، فوصلتا الدار في لحظة تأهب جعفر لدخولها ..

ضحكوا عالياً لتلك المصادفة !.. دون أن يتبادر لأحدهم أن يسأل عما يُضحك أو يسلّي فيها !..

لقد أجمعوا على هدف لايعرفونه بعد .. هدف أرادوا قطع المسافات دونه ، خطوة وراء خطوة .. فبات لكل مايقومون به معنى ، ووضَع كل منهم حركات الآخرين تحت مجهر عظّم من شأنها ، فأعطى حتى للبسيط منها ألف تأويل وتفسير ..

معركة طريفة من النظرات دارت بينهم !..

شرع جعفر ، منذ وصوله ، يسائل فراساً بعينه عما توصل إليه من اتفاق مع صديقتيه .. وراحت بدورها نظرات الأختين تتواثب عليه ، بطفولة ومرح ، لتستخلص منه ما انتهى إليه مع جعفر !.. كانوا يتحدثون عن مواضيع جانبية شتى ، بينما كل من الطرفين يتحين فرصة انشغال الطرف الآخر ، لينهال على فراس بإشارات التساؤل ، فيومىء هذا لكل منهما بدوره ، بالإيجاب تارة ، أو بالكف عن هذه الحركات ، تارة أخرى !..

ولم تهدأ قطر الندى حتى حصلت من فراس على إيماءة كبيرة من رأسه بالإيجاب ، أتبعتها ميساء بإشارة مرحة إلى صدرها ، ثم إلى أنف زوجته ، متسائلة بذلك عما إذا كان هذا الإيجاب يشمل أمر العمليتين الجراحيتين !..

وإذ أعاد عليها فراس إيماءة كبيرة برأسه ، كفت عن الإشارات ، والتفتت بفرح ظاهر إلى زوجته تطمئنها وتسامرها على انفراد ..

كانوا يتشاغلون بأحاديث لامعنى لها لتغطية ما يدور بينهم من إشارات وألغاز !..

فلما جاء دور جعفر ، وحصل هو الآخر على إشارة من فراس تعني أن كل شيء على مايرام ، تنهد بصوت كاد يسمعه الجميع ، وراح يكرر إشارة إلى معصمه ، محاولاً بذلك أن يُفهم صديقه أمراً استعصى فهمه عليه !..

لم تفهم قطر الندى إشارة جعفر الأخيرة إلى معصمه ، فشرعت تسائل فراساً عما يقصد جعفر بها ، ظانة أن فراساً قد فهم الأمر ..

عيل صبر فراس !..

أومأ إليها بأن تنصرف مع أختها ، لتترك له فرصة التحدث مع جعفر على انفراد ، علّ هنالك أمراً مهماً يريد أن يحدثه عنه ..

كانت الأختان قد حصلتا على جواب جعفر ، فوافقتا ، ونهضت قطر تنادي ميساء ، مدعية بأن عليها أن تعود إلى القصر سريعاً لأمر مهم ..

وعلى الباب ، أعاد فراس على الأختين بإيجاز ما تم له مع جعفر .. فأثلجت صدريهما هذه التفاصيل الخاطفة !.. وقبل أن تبرحا الدار ، أصرتا على أن يأتي مع زوجته إلى القصر حال ذهاب جعفر ، ليخبرهن عن سر تلك الإشارة الأخيرة ، وليتمتعوا ببحث تفاصيل رحلتهم المقبلة ..

لم تمض ساعة من الزمن حتى كان فراس في القصر ..

أسرع الجميع إلى البهو الخاص ، مرحين ضاحكين ، متلهفين لمعرفة مايخبئه لهم ، فجلس فراس إلى المقعد الذي تعود الجلوس إليه ، ثم أشار إلى النساء الثلاث بالجلوس !..

وببطء ظاهر متعمد ، مد يده إلى جيبه ، وأخرج منها ثلاث علب مخملية مستطيلة الشكل ، فتحها عن ثلاث ساعات رقيقة ، من أجمل ما وقعت عليه عين من ساعات دقيقة الصنع ، رصّعت جميع أرقامها وأطرها بحجارة نافرة من الماس !..

كانت هذه إشارة جعفر إلى معصمه .. هدية جعفر لهن !..

لم يسهب فراس لي بوصف ما اعتلج في صدور هؤلاء النسوة من مشاعر في تلك الليلة .. وإذ ألقيت عليه بالسؤال ، أجاب ..

ـ ماذا أقول لك ؟.. لم يكن جعفر يعلم بأن إحدى هذه الساعات ستكون من نصيب زوجتي ..

لقد أرادها هدية لي ، لكن شكلها كان نـاتئاً بعض الشيء ، ناهيـك عن الماس الظاهر الذي كان يعلوها !..

أما عن انطباعها ، فلا تسل ! ما إن رأتها زوجتي حتى تبدل وجهها !..

بدت لي في تلك اللحظة قبيحة ، قبيحة ! أسرعت ، فاغرة الفاه ، بخلع الساعة التي كانت تلف معصمها ، وتلك هدية مني ، وسارعت إلى وضعها في حقيبتها ، ثم عقـدت رباط الساعة الجديدة .. كانت الساعة كبيرة منبسطة فلم تنسجم مع معصمها الدقيق ، إذ بدت أكبر مما هي عليه ، لكن زوجتي نظرت إليها بنهم .. لابد أنها كانت تراهـا أجمل ساعة ، على أجمل معصم !..

– وميساء ؟..

– ميساء ..؟ لم تسمح لفرحها أن يبدو على وجهها لأكثر من ثوان معدودات .. ميساء ألفت رؤية الباهظ من الماس عند أختها وغير أختها من أمـيرات الشرق ، وهيأت نفسها لحيازة الشيء الكثير منه !.. لكن هذه الهدية أتت على غير انتظـار ، ومن إنسان لم تكن تتوقع منه مثل هذه الهدية البتة !.. كأني رأيت في عينيها ما اقترحته تلك الساعة من احتمالات جانبية !.. كانت تنظر إليهـا ، وترى ساعات أخرى .. وأموراً أخرى !!..

ولما سألته ، بعد صمت ، عن قطر الندى .. ضحك وأجاب ..

– قطر ؟!.. قطر أخذت الساعة بيدها .. ثم نظرت إلي ، وقالت بحماس : « ألم أقل لك يافراس إنه ثري » ؟! ..

ثم ضحكت كطفلة نهمة تطلب تفاحة أخرى .. وقالت .. « أريد ساعته الكبيرة .. تلك التي على معصمه » !..

ثم أضافت ، هامسة بأذني ..

– والفراري أيضاً !..

* * *

الفصل السابع

ـ هاك تذاكر السفر يافراس !.. موعد الطائرة بعد غد ..

وبعد أن أعطاه الظرف.. تابع جعفر قائلاً ..

ـ وهاك عشرين ألفاً ، لما ستحتاجونه للعمليات الجراحيـــة .. لاعليك من تكاليف الفنادق والطعام ، فإني سأتكفل بذلك عن طريق وكيل خاص لنا في جنيف !..

تاه لحظات ، وراح يتمتم كمن يكمل في ذهنه عمليـــة حسابية .. ثم تابع مجيباً نفسه ..

ـ لاعليك !.. هذه أمور سابقة لأوانها .. ستكون هنالك سيارة في انتظاركم حال هبوط الطائرة ..وسيأتي لاستقبالكم مدير الخطوط الجوية العام ،لينهي أمور الجوازات والجمارك .. خذ .. ضع هذه في يده حين ينهي لكم المعاملات !..

قال هذا ، وأعطى فراساً قطعة مئة فرنك سويسرية على حدة ..

بهت فراس ، أيعقل أن يُعطى مـدير عام مائة فرنك في يـده في السر كما يعطى البخشيش للحمالين ؟ .. حقاً .. لا حدّ لغرابة تصرفات جعفر ، لكن، لعل هذا المدير المزعوم ليس إلا موظفاً بسيطاً تعوّد قبول الهبات !..

أغلق جعفر باب سيارته ، وأدار محركها ..

ـ ستقلع طائرتي أنا إلى جنيف غداً في الصباح الباكر .. لذلك لن أراكم هـــذا المساء ، كما اتفقنا .. سأكون بعد غد في الفندق الذي ذكرت .. أود لو أكون في استقبالكم في المطار بنفسي ، لكنك تعلم خوف قطر الندى من الأقـــاويل ، لذلك لن أبرح غرفتي في جنيف حتى تصلوا الفندق ، وتكلمني أنت هاتفيـــاً ! .. أمن شيء آخر يافراس ؟..

ـ لا .. صحبتك السلامة ..

وبعد أن تبادلا قبل الوداع من نافذة السيارة ، انطلق جعفر ، ثم اختفى في الغبار الذي خلفه وراءه ..

عاد فراس إلى داره ، ووقف يقلب التذاكر والدراهم ، وللمرة الأولى ، أحس بوطأة وجود جعفر !..

أقبلت الأختان في المساء ، جلستا إلى فراس وزوجته ، وراح الجميع بين مرح وسمر يهيّئون تفاصيل ما سيقومون به في الغرب في هذه رحلة طال انتظارها .

في شرفة داره ، وقف فراس وميساء ينظران إلى المدينة ، تلألأت أنوارها من بعيد ، والبحر تعلوه غمامة شفافة يتخللها ضوء القمر ..

كانت ميساء تتهيأ للقاء مراد ، بدت مشغولة الذهن .. كيف ترضيه كزوجة .. الآن ، وقد بات زواجها الفعلي على الأبواب !..

ـ قل لي يافراس .. ما الذي يعجب الرجل ، أكثر مايعجبه ، في المرأة ؟..

بدت جميلة أخاذة ، وهي تنظر إليه شاردة متسترة بابتسامتها وبسحر القمر ..

ـ ماذا تعنين ؟..

ـ أعني .. ما الذي يتمنى الرجل أن يجده في المرأة من صفات ومزايا ؟..

ـ المرأة نفسها !..

وبحركة من حاجبيها تدل على أنها لاتسعى وراء أجوبة شاملة أو عميقة .. قالت ..

ـ هذا لايكفي .. لست أري في كل الذكور ما أتمناه في الرجل !.. لابد أن لكل رجل صفات خاصة يتمناها في المرأة التي يحب !..

ضحك فراس ..

ـ أراك قد أجبت نفسك !..

ـ كيف ؟..

ـ إن كنت تسألين هذا ، وفي ذهنك إرضاء مراد ، فما علينا سوى أن نبحث عما يحب مراد في المرأة !..

ـ صدقت ..

وتابعت بشرود ..

ـ ليس لي سوى هم واحد يؤرقني .. هل سأوفق إلى إرضاء مراد أم لا !!.. لم تحوجني الثقة بنفسي في الماضي ، مرجع ذلك أني لم أسع لإرضاء أحد ، لاسيما وأن المعجبين كانوا يسعون إلي أفواجاً !..

بدت المرارة على ثغرها .. همّ فراس بأن يقول لها شيئاً يرضيها ، فإذا بها تضحك فجأة بخجل ظاهر ..

ـ اسمع يافراس !.. كثيراً ماسمعت عن طرق خاصة تلجأ إليها النساء لإرضاء الرجال .. أتفهم ما أعنيه ؟..

وإذ نظر إليها فراس متعجباً ، بادرته قائلة ..

ـ مالك تتعجب ؟.. أنا لا أود أن أكون مجرد زوجة لمراد !.. آه لو تدري كم عدد النساء اللواتي عرفهن مراد !.. أتظن أن المحافظة على أمثال مراد أمر سهل ؟.. يجب أن أفوق جميع من عرفهن من نساء .. وعلى جميع المستويات !!..

ـ إن ماتقولينه صحيح .. لكن بحث هذه الأمور نظرياً لهو صعب ومعقد !!..

ـ طبعاً ..ولا ريب أني سأجد الطريق إلى ذلك حين نحيا معاً ،فأتعرف إلى طباعه ونزواته .. لكن مايخيفني يافراس هو الليلة الأولى .. الليلة الأولى !!.. آه لو تدري ما أشعر به كلما جال في خاطري هذا الموضوع !.. أتعلم أن أطرافي تبرد كلما فكرت بالأمر ؟!!..

أجابها برفق ..

ـ إنه أمر طبيعي .. لابد أن مثل هذه المخاوف تنتاب جميع الفتيات المقبلات على الزواج ..

ـ لا .. لا !!.. إنك لاتفهم قصدي ، فأنا لست بصدد الوجل الذي ينتاب الأبكار !!.. إن مايخيفني هو ألا أوفق إلى إرضائه !!.. أخاف من ماضيه !..

.. من خبرته !!.. أخاف مما سيقوم به في ذهنه من مقارنة بيني وبين جميع من عرفهن من غانيات متأصلات في فن مضاجعة الرجال !..

ضحك فراس لاضطرابها ..

ـ أتودين نصحي ؟..

ـ طبعاً !..

ـ إذاً فاذكري ما سأقوله لك .. كوني طبيعية ياميساء .. لاتحاولي القيام بما لاتعرفينه .. إن من يقدم على الزواج ببكر ، يود أن يجد بكراً في فراشه ليلة الزواج .. بكراً بنفسها ، لابجسدها فحسب !.. إنه حب الفريسة عند بعض الرجال ، أو حب المجهول عند الآخرين !.. ولعل جهل البكر بالأمور الجنسية هو بالذات مايثير الرجل ، ويعزز ثقته بنفسه !..

تبسم ، ثم تابع ..

ـ أتظنين الرجال يقدمون على العملية الجنسية وهم مفعمون بالثقة بالنفس ؟.. إن معظم الرجال يلبسون الرجولة والثقة بالنفس رداء يخفون وراءه ألف عقدة وعقدة !!

ـ ما أيسر دورهم !.. أهنالك مشكلة في الأخذ ؟.. فإن لم يبلغوا ما كانوا يصبون إليه من لذة وإشباع ، أفلا يعزون ذلك إلى قلة ماتوفر أمامهم من عطاء ؟.. ألا ينسبون ذلك إلى تقصير المرأة !..

أجابها ، محدثا نفسه ..

ـ ما أبعد عالم الرجال عن عالم النساء .. وما أصعب أن يفهم واحدهم الآخر ..

ـ ماذا تعني .. أليس الأمر كما قلت ؟..

ـ إن ماذكرته عن الأخذ ، بالنسبة للرجل ، لهو أمر صحيح في المرحلة التي تسبق الجماع !.. فالرجل ، إذ يركز اهتمامه على امرأة تروق له ، قد لايفكر إلا باللذة التي سيحصل عليها ، فيتفنن في ابتكار اللذة معها في ذهنه بالطريقة التي تروق له !.. قليل من الرجال ياميساء يقدمون على الجنس بالثقة والعفوية التي يعرفونها في أحلامهم !..

ـ وما الذي يختلف عند الرجل حين يصل إلى المرأة التي تروق له ؟..

ـ ازدواج الهدف ، أهداف الأنا ، وفوق الأنا ، كما يسميها « فرويد » ..إذ ما إن يبلغ الرجل المرأة ، حتى تتكشف أمامه هواجس تشابه تخوفاتك أنت !.. قد لاتكون هذه المخاوف شعورية عنده .. أو قد لايعيها بشكل واضح ، لكن ، يندر من الرجال من يقدم على الجنس دون أن يعاني نسبة ، ولو كانت ضئيلة ، من وطأة مجابهة المرأة التي أمامه !.. « ماذا عليه أن يقول » ؟.. « كيف يبتدىء » ؟.. « هل هذه الحركة أفضل من غيرها » ؟.. « هل أثارها حقاً » ؟.. « أهذه أفضل السبل كي يظهر رجولته » ؟.. « أهي منفعلة حقاً » ؟.. « هل أوصلتُها إلى الذروة » ؟!..

قاطعته ميساء ، ضاحكة ..

ـ يخيل إلي أنك تتحدث عن هواجسك أنت ؟!..

ـ لمَ لا ؟.. ألست رجلاً ، كبقية الرجال ؟.. حدثتك عن ازدواج الهدف ، فالرجل الذي ينظر إلى المرأة نظرته لإنسان حي ، لا إلى آلة لذة ، لايمكن له إلا وأن يفكر بالعطاء ، تفكيره بالأخذ ..

ـ في هذه الحال إذن ، تستوي المشكلة عند المرأة والرجل ..

ـ لا .. هنالك فارق آخر !.. أمر قد يضحكك ، لكنه بالرغم من ذلك ، عظيم الأهمية !.

ـ وما هو ؟!..

ـ الفارق العضوي بين الرجل والمرأة !.. لئن أشكل الأمر على المرأة،واستحال عليها الأخذ ، فما أسهل عليها أن تستكين للهدوء ، ويكمل الرجل ما ابتدأه ، ليصل إلى مايريد !..قد تنقم المرأة في هذه الحال على الرجل الذي معها ،أو على نفسها ، وقد تتألم ، لكن عزاءها في هذه الحال ، وإن يكن ضعيفاً ، هو أن باستطاعتها ،مهما تكن الظروف ، أن تروي ظمأ الرجل .. أما الرجل ، وافهمي جيداً ما سأقول ، لئن أشكل عليه الأمر ، فهي الطامة الكبرى للطرفين !!..

ضحكت ميساء عالياً .. فأقبلت قطر الندى عليها تسائلها عن سبب مرحها .. وحين أوجزا لها مادار بينهما من حديث ، قطبت ، وقالت جازمة ..

ـ إن الرجال وحوش .. لايسعون إلا وراء شهواتهم !..

أجابها فراس ..

ـ لا أعتقد أن طلب اللذة هو الأمر الذي يجعلهم وحوشاً في نظرك !.. بل هي الطريقة التي يتبعونها في سعيهم وراءها ، وأساليب مزاولتهم لها ..

أجابته باقتضاب ..

ـ قد يكون ذلك صحيحاً !.. وقد تختلف الأساليب ، لكن النتيجة واحدة في النهاية !..

سألتها ميساء ، متعجبة ..

ـ كيف ؟.. وهل تريد المرأة أكثر من أن يحسن الرجل طرقه معها في هذه الأمور ؟!..

أجابتها قطر الندى بنزق ..

ـ أقول لك إن النتيجة واحدة !!..قد تجدين من يحسن مغازلتك في بادىء الأمر ، تجدين من يوهمك بأن لا لذة له في الدنيا سوى إعطائك اللذة ، بجميع أنواعها !.. لكنها طرق ، وحيل ، لايستعملها الرجل إلا ليحسن امتلاك قيادك !.. فإذا ماوصل إلى ذلك ، ووثق من سيطرته عليك ، عاد إلى طبيعته الحقيقية !..

ـ أي طبيعة تعنين ؟..

ـ أعني ؟!.. أنه يصبح كالوحش الكاسر ..لايسعى سوى وراء لذته هو ، يأخذها منك ، وكأنك دجاجة ابتاعها من السوق ليأكلها !..

نظرت ميساء إليها ، ثم إلى البحر البعيد ، وتنهدت ..

ـ ليت مراداً يشتهيني حقاً .. فأقبل حتى بهذا !!..

وإذ بقطر الندى تجيبها هازئة ، نصف جادة ..

ـ بل يخيل إلي أنك من النوع الذي لايود للرجل أن يشتهيها سوى بهذا الشكل !!..

تلا ذلك مزاح، ثم حديث تناول الدراهم التي تركها جعفر .. نوقش الموضوع بالأناة التي يحرك بها جمر المنقل !..

كانت الدراهم قد ملأت قلوبهم فرحاً إلا أنهم لم يجرؤوا على التحـــدث بشأنها ، أو المطالبة بما لهم منها .. إلى أن اقترحت ميساء ، ولعلها كانت تخاف أن تأخذ قطر الندى منها حصة الأسد ، اقـترحت أن يوزع قسم بسيط منها على الجميـع بالتساوي ، ويترك الباقي مع فراس، ليتولى مصاريف العمليات الجراحية وغيرها ، ثم يعاد ويوزع مابقي منها بعد انتهاء الرحلة !..وإذ وافق الجميـع على هذا الاقتراح ، عادوا إلى حديثهم عن تفاصيل ماسيحضرونه للسفر ..

كثيراً ماجلسوا إلى مثل هذه الأمسيات يتحدثون فيهـا عن المهم من أمورهم ، أو التافه منها .. وكم أشرق الصباح عليهم وهم في مثل هذه الأحاديث ، مغرقين فيهـا ، لايخفي أحدهم عن الآخرين سوى البسيـط من الخـواطر التي تمر بذهنـه ، ولا يخفي ، حتى من تلك الخواطر ، سوى ما يشعر أن في ذكر مايخفيه ماقد يكدر غـيره !..

زال ما كان قد سيطر في الماضي على فراس من شعور بأنه مع صديقتيه وزوجته في قطار سريـع يقوده القدر .. زال ليحل محله شعور آخر ، وهو أنهم ،في الإطار الجديد لعلاقتهم ، باتوا كأربعة أصدقاء يتنزهون في عربة تقلـّهم ، تارة نحو هدف معـين ، وتارة أخرى دون هدف .. عربة ، باستطاعـة أي منهم ، لو اختـار ، أن يترجل منها دون حرج ..

إلا هذه الليلة !!.. أمر ما قد حل خفية بينهم ، سر، تسلل إلى أجوائهم ،فجعل كلًا منهم يشعر بوطأته ، فيحاول إخفاء شعوره به ، والتعامي عن وقعه ..

قال لي فراس موضحاً ..

ـ كنا قبل تلك الليلة نشعر أن مايحرك أقدارنا أمور عظيمة !.. لايشغل حياتنا سوى الملوك والأمراء .. وأهدافنا ، سواء أكانت للحصول على هؤلاء أو للإيقاع بهم ، فهي لم تكن تتعلق إلا بهم !.. وسواء أحببنا هذا الأمر أم كرهناه .. فإن هذا العالم بات عالمنا الوحيد ، أنسانا كل ماعداه من عوالم !!..

ماذا حل بينهم في تلك الليلة ؟.. أهو شعور خفي بأن في دخول جعفر حياتهم شيئاً من الحطة لقدرهم ؟!.. لم يمض على معرفتهم بجعفر سوى أسبوعين ، كان فيهـا تسليتهم

المفضلة !.. لم تؤرقهم ، حتى تلك الليلة ، معرفتهم به ولا إعجابه المفرط بقطر الندى.. ماذا في الأمر إذن ؟.. ألأنهم بحاجة إليه .. ألأنهم أحسوا بأنه سيقف على هذا الأمر.. ألأنه بات يحرك أقدارهم ؟..

جعفر .. لم يشغل في أذهانهم من الحيز إلا ما يوازي رزمة النقود التي تركها بين أيديهم .. أهي النقود إذن ؟!.. لعلها حاجتهم إلى النقود ، واضطرارهم إلى قبولها منه ، لبلوغ أهدافهم ..

لعل هذا الشعور الغريب بالذنب هو الذي دفع كلاً منهم على انفراد للامة الآخرين في سره ، ولإيجاد الأعذار لنفسه !..

لم يكن أحد منهم راضياً في قرارته عن الأسباب المشتركة التي اجتمعوا على إيجادها لتبرير قبولهم هذه الدعوة ، فراحوا ، بمحاولة خفية لينتقم بعضهم من بعض ، يخلقون أهدافاً خاصة لهذه المغامرة ، أهدافاً دفينة ، يمنّون نفوسهم بالوصول إليها .. فيخففون بذلك على أنفسهم من تقريع ضمائرهم !..

لعلها كانت الطريقة الوحيدة لتبرير خطورة هذه المغامرة أمام أنفسهم .. لكنها طريقة فتحت لدى كل منهم جبهة خاصة يحارب عليها ، وهو شيء لم يتعودوه إلا يومها !..

ولأول مرة أحسوا في قرارتهم بأن التصدع قد أصاب ذلك البنيان الذي كانوا يعيشون فيه !.. تلك الصداقة التي أشركتهم الأحداث في حياكتها ، حتى كادت تصبح جزءاً أكيداً من حياتهم !..

* * *

القسم الرابع

الفصل الأول

يجول في ذهن فراس قول لفاليري .. « ويقول له عفريت .. أعطني دليلاً على أنك مازلت الإنسان الذي كنت » !..

راح ينظر من نافذة الطائرة ، ثم يمعن النظر بقطر الندى التي جلست قربه وغاصت مؤخرة رأسها في وسادة المقعد ، مغمضة عينيها ، مستسلمة إلى نعاس هادىء ..

لم يبق لديه شك في طبيعة المشاعر التي تتنازعه نحوها !.. مشاعر بدأت ، وهي تتكشف عارية أمام عينيه ، تخلق بدورها ، وإزاء نفسها ، مشاعر أخرى في نفسه !..

أحس وكأن هواء جافاً غريباً قد عصف في أعماقه ..فأخذ قاعها يجف عن رواسب بدأت تتبلور وتتبدى عن أشكال ظهرت غريبة أمام عينيه ..

لم يكن يدري أن للعاطفة أقنية ومتاهات مرسومة في نفسه .. لا علم له بها !..

أقلقته هذه الكهوف !.. يحس ،مهما يشح بوجهه عنها ،أنه مرغم على السير فيها .. مرغم على تخطيها !..

لم يشأ أن يحرك ذراعه التي كانت تلامس ذراع قطر على مسند مقعديهما المشترك..

لم يشأ أن يقوم بأية حركة قد تنبهها من نومها ..

راح ينظر بإمعان إلى وجهها ، وقد استدار نحوه ، وود لو يستطيع أن يلامس بشفتيه جفنيها المغلقين ..

لم يكن قد رأى جفنيها بعد ..
ما أطهر هذا الوجه حين يستكين ، وما أشد نعومة بشرته !..

رفع ذراعه الطليقة بهدوء ، وأقفل مفتاح الهواء البارد الذي كان يتحـــدر برفق على وجهها ..
كان ذلك الهواء حاجزاً بينها ، فأزاحه ، وراح يتابع أنفاسها ، حتى خيل اليه أنه يسمعها فوق هدهدة المحركات ..

تنفست قطر بعمق ، ففتح صدره لأنفاسها ، وراح يعبُّ منها ..
تنهدت ،ثم فتحت جفنيها عن عينين حائرتين لم تدهشا إذ رأتا عينيه في انتظارهما ..
تبسمت كطفلة حائرة ، وسألته ..
ـ هل أطلت النوم ؟..
نظر إليها بجامع نفسه ..
تمهل ، ثم قال ..
ـ قطر !.. أنت لاتنوين أمراً تخفينه عني بشأن جعفر .. أليس كذلك !؟..
تابعت النظر إليه بصمت ، ثم ابتسمت بعد أن زمت شفتيها بكسل ..
ـ أتظنني قادرة على هذا ؟..
أطلق لهفة مكبوتة ..
ـ لم تردّي عن سؤالي !.. قد تكونين ، أو قـــد لاتكونين قادرة على ذلك ، فالذي أود معرفته هو .. أثمة ماتخفينه عني ؟.. بحق صداقتنا ياقطر .. إن كنت تنوين أمراً من هذا القبيل .. فاطلعيني عليه الآن !..
قاطعته مازحة بدلال ..
ـ ما الذي يتغير في الأمر لو أطلعتك عليه .. أو أخفيته عنك ؟!..
ـ أهذا جوابك الأخير ؟..
ضحكت بهدوء ، دون أن تزيح رأسها الغارق في الوسادة ..
همست في أذنه ، مطمئنة ..

ـ هدىء من روعك !.. لم أفعل مثل هذه الأمور في الماضي .. ولن أفعلها في المستقبل !.. القصة كلها مزاح !.. هناك بالطبع من لن يفهم هذا .. لكن الأمر واضح بالنسبة لي .. فلا النساء على درجة واحدة من المناعة .. ولا للدراهم قيمة واحدة بالنسبة للجميع !..

إزاء دهشة فراس وصمته ، تابعت ..

ـ مالك تعجب ؟! .. هنالك من النساء من يستسلمن للرجل رضوخاً لإرادته وأصراره ، لا حباً أو أعجاباً به !.. وهنالك من يبعن أنفسهن بالقليل أو بالكثير من المال .. والبيع واحد .. ولو اختلف الثمن !.. أما أنا ، فلا علاقة عندي بين المال والجنس .. وأنت أدرى الناس بذلك !.. لا حاجة لي بأن أذكرك أني لم أقو على بيع نفسي لهلال ، رغم إغراء ثرائه !.. قد يكون في قبول دعوة جعفر طيش منا واستهزاء بالعواقب ، وبأقاويل الناس !.. وقد يكون في قبول هذا المبلغ الزهيد منه أمر تقطب له ظاهرياً حواجب الأكثرية الساحقة من الناس ! .. لكن ،سيان عندي!.. صحيح أن هلالاً لم يترك لي مالاً ألهو به ، إلا أني لست في ضيق حقيقي !.. فأنا أملك بين قصري وحليي ماتزيد قيمته على المليونين !.. أتظنني كنت أقبل هذه الدعوة لو كنت وحدي !؟.. إن كوننا أربعة.. وشعوري بالاطمئنان التام ،بين أختي وأصدقائي ، هو الذي شجعني على قبولها !.. إنها لعبة نلعبها يافراس ، لا أكثر ولا أقل !.. كنا نلعب « الضيفة والضيوف » ونحن صغار .. وأرانا اليوم أمام لعبة تشبهها !.. ثق أن جعفراً ليس أكثر منا جدية في هذا الأمر !..

ـ أواثقة أنت من قصد جعفر !؟..

ـ وماذا في قصد جعفر من تعقيد ؟.. ألأنه معجب بي ؟.. ألأنه يسعى إلى مغازلتي ؟!.؟ إني أعرف هؤلاء القوم حق المعرفة .. جميعهم سواء !.. .. لايعرفون سوى الجنس والمال !.. فلا غرابة أن يحاول الرجل منهم السعي وراء مايتيسر له من النساء ، ولا غرابة أن تقبل نساؤهم مضاجعة من يتيسر لهن !!.. هل نسيت أمر درة وأخيها !؟.. هل نسيت حب درة لميساء ؟..

قاطعها فراس ، مفاجئاً ..

ـ إذن أنت تعلمين بالأمر .. وتعترفين به !..

ـ أبعشق درة لأخيها ولميساء معاً ؟.. طبعاً !!.. لهذا أقول لك إنني لا أجد غضاضة في ملاحقة جعفر لي بغزل قد تجده جريئاً لو قارنته بطرق الغزل التي نعرفها نحن !.. لكن ذلك شأنه .. وقبولي أو رفضي لهذا الغزل شأني أنا !..

ـ لكن قبولنا الدعوة ياقطر .. وقبول المال بهذه السهولة !..

قاطعته متنهدة ، صابرة على مالم يفهمه بعد ..

ـ قلت لك إن أمر جعفر يختلف عن ، لنقل ، إنسان مثلك !.. إن مثل هذه الدعوةلاتعنيالشيء الكبير بالنسبة له..وقبولي لها، لايعني أنني أسلمت قيادي له !!.. لو قلتُ له « إن سيارتك جميلة ياجعفر ، لو أن لي مثلها » لأعطاكها على الفور !.. هذه مفاهيم لايهضمها من على مثل مفاهيمك الغربية !!..

تنهد فراس بدوره ..

ـ إذن .. إن أي تطور في علاقتكما يتوقف على ما ستسمحين له به أنت ؟!..

ـ بالطبع !..

ـ وتقولين إنك لن تسمحي له حتى برفع الكلفة بينكما ؟!..

ضحكت في دلال محبب ، وقالت وهي تشيح النظر عنه ..

ـ هذا .. إذا استطعت مقاومة إغراء عينيه الخضراوين !!..

كانت ميساء تجلس إلى جانب زوجة فراس ، في الطرف الآخر ، وعلى امتداد مقعدي فراس وقطر الندى ..

وإذ انتبهت إلى مايدور من همس بين أختها وفراس ، اقتربت منها ، وعلقت مازحة !..

ـ ألا تكفان عن الهمس وتدبير المؤامرات ؟!.. هل تنويان الإيقاع بمسكين جديد ؟!..

أجابتها قطر الندى ، ضاحكة ، متظلمة ..

ـ ليتك تدرين بحديثنا !.. إن فراساً قد تغير ياميساء ..وكأنه إنسان آخر!..

سألتها أختها ، مازحة متعجبة ..

ـ وهل يمكن تحديد ماهو فراس .. كي يمكنك القول بأنه تغير ؟!..

ـ بل تغير بالفعل ياميساء !!.. إنه الآن يخاف أن أقع في هوى جعفر !.. أين خوفه هذا مما كان يحرضنا عليه في الماضي من حب للحياة والحرية الفردية ؟!..يقول ..

قاطعها فراس مبتسماً ..

ـ بل أنصحها بالتروي .. هذا كل مافي الأمر !..

اصطنعت ميساء التعجب .. ثم قالت ضاحكة ..

ـ اسمع !.. لم نقم بهذه الرحلة كي نسمع النصح بالتروي!.. قمنـــا بها كي نلهو ونمرح .. لقد مللنا الركود والحياة الرتيبة !..

وأضافت قطر الندى ضاحكة كأنها في جوقة تشترك فيها مع أختها ..

ـ .. ونود أن نغازل جميع من يروق لنا من الرجال !..

ـ ونود أن نتيه في الطرقات حيث لايعرفنا أحد !..

ـ .. ونجلس في المقاهي على أرصفة الشوارع الكبرى !..

ـ ونمسك بلفافة .. ننتظر من يشعلها لنا من « دون جوانات » باريس !!..

تقاربت رؤوسهم وهم يرّددون هذا الكلام ، وكادوا يخرجون من مقاعدهم !.. علا همسهم ، ثم ضحكهم ، حتى أثاروا انتباه بقية المسافرين !..

لم يكن في تصرفاتهم ، وإن هم بالغوا ، مايحيد عن اللياقة .. لقد تعودوا إثارة انتباه الناس عن غير ما قصد ..وتعودوا أن يقابلوا دوماً بالابتسامات المحببة من أناس لايعرفونهم ..

كان في تقاطيع وجوههم مايوحي بعراقة المنبت ، وفي أناقة مظهرهم مايدل على الثراء ، وما يوحي بأجواء بيئة مترفة ، يسمع عنها الناس ، ولا تسمح ظروفهم بأن يخالطوها ، عن قرب ، أو عن بعد ..

أربعة ، وكأنهم خلقوا للسعادة ، لحياة لاتعرف الهموم ..

حطت الطائرة في جنيف ..

ما إن وطئوا أرض المطار ، حتى تقدم لاستقبالهم رجل أشيب وقـور ، ذو لحية صغيرة ، بدا وقد ناهز الخمسين من عمره ..

رأته المضيفة ، فتجاوزتهم مسرعة نحوه ، تسأله عما إذا كان باستطاعتها تأدية خدمة له . لم يلتفت إليها ، بل خف مسرعاً نحوهم .. ثم رأته يقوم بانحناءة كبيرة لفراس معرفاً نفسه . .

ذهلت المضيفة ، وحارت فيما تفعل !..

هرعت نحو قطر الندى ، تساعدها على حمل ما كان معها من حاجيات خفيفة ، ثم إلى ميساء ، فأصرت على حمـــل حقيبة زينتها . جال في خاطرها .. « ما أبلهني » .. «كانوا طوال الرحلة على مقربة مني دون أن انتبه إلى أهميتهم !».. « مدير الشركة العام يهرع لاستقبالهم أمام سلم المطار ..وما جال في خاطري التعرف إليهم على الأقل » !..

وقفوا بمعزل عن بقيـــة المسافرين يحكمون وقارهم ، بينما يودون في سرهم لو يضجون بالضحك !..

أثارت حفاوة مدير الشركة بهم انتباه بقية المسافرين، وزاد على ذلك هروع المضيفة لمساعدتهم ، وتعثرها بما حملته من حاجياتهم ..

وقفوا ينتظرون عودة مدير الشركة الذي باشر بنفسه إنجاز الإجراءات القانونية اللازمة لدخولهم البلاد ..

بالغوا في إحكام ارتداء مافرضته عليهـم تلك الظروف من وقار .. وتزايدت في نفوسهم رغبتهم الملحة في الضحك !..

أخذ فراس ينظر إلى جمهرة صغيرة من الناس كانت تنظر إليهم من بعيد..سها عما كان يدور بين النساء من حديث ، وراح يفكر مسبقاً بالمشكلة التي ستواجهه بعدحين.

حار في أمر « البخشيش » الذي كان جعفر قد كلفه بأن يعطيه لمدير الشركة !..

كيف يمكن له أن يتغاضى عن وقار هذا الرجل الأشيب المهيب ، ويتنـــاسى منصبه كمدير عام لإحدى كبريات شركات الطيران الأوروبية ؟!..

صمم في بادىء الأمر على ألا يقوم بأي شيء من هـذا القبيل .. فما هو مبلغ مئة فرنك لمن راتبـه ألوف من الفرنكات !؟.. لكنه لم يستطع أن ينسى دور جعفر في الأمر !..

لئن تذكر جعفر أن يؤكد عليه إعطاء مئة فرنك للمدير ، دون أن يهتم بمصير العشرين ألفاً التي أعطاه ، فلا ريب أن لديه سبباً خاصاً حدا به إلى هذا التأكيد !

من يدري ؟.. أليس في مقدور جعفر أن يسأل المدير عما إذا كان هذا المبلغ قد وصله من فراس !!..

ماذا سيظن جعفر لو قال له المدير بأنه ما تسلم شيئاً ؟!..

ألن يعتقد أن فراساً قد ضن على المدير بهذه الهبة ، واحتفظ بها لنفسه ؟!..

انتبه إلى ضحك مكتوم ندّ عن صحبه ..

نظر يبحث عما يضحكهم أو عما استرعى انتباههم ، فلم يقف على شيء ..

سألهم عن سبب ضحكهم ، فلم يحصل على جواب وافٍ .. فأصر مازحاً .. حتى ضحكت ميساء ، وهمست في أذنه ..

ـ إنه ذلك الشاب الوسيم !.. قلت لقطر الندى .. بودي .. لو يغـازلني ، فأجابتني ..

سارعت قطر الندى إلى مقاطعتها ، ضاحكة ..

ـ قلت لها .. يحسن بنا أن نتفق منذ الآن !..فالشقر من الشبان، لي ولزوجتك، والسمر لها .. وبما أن هذا الشاب الذي أعجبني أشقر ، فهو لنا !..

نظر فراس إلى حيث أشارت ، فشاهد شاباً وسيماً طويل القامة ، حسن الهندام، يقف بصحبة عدد من الشبان تميز عنهم بزرقة عينيه ، وبشعره الذهبي اللامع ..

أحس بحرج ازداد إذ رأى الشاب يحدث رفاقـه تارة ، وتارة أخرى ينظر إليهم وكأن لا عمل له سوى مراقبتهم ..

كان فراس على أهبة أن يقول شيئاً ، للحد من تصرفات صحبه ، حين أبصر مدير الشركة مقبلاً نحوهم ، مشيراً إلى أنه قد أنهى إجراءات الدخول ..

نسي فراس الشاب .. نسي مزاح قطر الندى .. وعاد إليه حرجه إزاء ما كان جعفر قد أوصاه به !..

مد يده إلى جيبه وأطبقها على ورقة مئة فرنك ، دون أن يقرر ماسيفعله بها ..
تحركوا ، يتقدمهم مدير الشركة ، نحو السيارة التي كانت في انتظارهم ..

كم كانت دهشتهم حين رأوا الشاب الوسيم الأشقر ، يترك رفاقه فجأة ، ويسرع الخطا نحو السيارة ، هو الآخر !..
سمعوا مدير الشركة يشير إلى الشاب أن يتقدم ، ثم يقول لفراس باحترام زائد ..
– أقدم لكم السيد « بوليه » ، سائقكم ، ياصاحب السمو !..

« صاحب السمو » !!.. « سائقكم » !!.. وبحركة تكاد تكون لاشعورية ، أخرج فراس يده من جيبه ،وشدها على يد المدير مودعاً ، تاركاً فيها قطعة النقود !..
واتجه نحو السائق !..
– إلى فندق « دي رون » من فضلك !..

وفي السيارة التي أقلتهم إلى موعدهم مع جعفر ، ترك فراس النساء في لهو ومزاح لما فوجئن به من أمر السائق الأشقر الجديد .. بينما راح يفكر ، وهو مغمض العينين ، ويعيد في مخيلته ، المرة تلو الأخرى ، مظهر مدير الشركة ، وابتسامة الرضا التي رآها على شفتيه حين لامست قطعة النقود يده !..

* * *

الفصل الثاني

شغل فراس في الأيام الأولى من وصوله إلى جنيف بالتعويض عما أهمله من أعمال كان قد اتفق مع عدد من التجار على القيام بها لحسابهم ..

لطالما تساءلت عن الطريقة التي سيلجأ إليها في كسب عيشه بعد أن ترك إدارة شركة الاسمنت ..

كنت على يقين بأنه لايمكن له أن يثابر على العمل في مجال ، مهما كان ربحه وفيراً ، إن لم يكن لهذا المجال صلة ما بفن ، أو بأمر يحبه ويستهويه !..

لم يطل عجبي ، إذ سرعان ما وافاني بعد وصوله بأيام ، وكنت إذ ذاك في « لوزان » ، طالباً مني أن أساعده في البحث عن وكيل ينوب عنه في إنجاز الجوانب العملية لتصدير ما سيختاره من بضائع وحاجيات ، ثم إرسالها إلى عدد من بيوتات العرض الكبيرة التي كان قد اتفق مع أصحابها على تزويدهم بها ..

ما إن وجدنا هذا الشخص ، حتى عهد فراس إليه بأمور النقل ، والحزم ، والشحن ، واستصدار جميع مايلزم لأجل ذلك من معاملات ، بحيث لم يُبقِ لنفسه سوى مهمة اختيار البضائع ودفع ثمنها ..

لم تكن هذه « مهمة » بالنسبة له ، بل متعة راح يلهو بها ..

كان يدخل المتاجر الكبيرة ، وبعد نظرة خاطفة ، هنا وهناك يطلب أن ترسل إلى وكيله على الفور ، عشرة من هذه الآنية الفاخرة .. عشرون من هذه الدمى .. ثلاثون من هذه الطنافس .. خمسون قطعة من هذا القماش .. مئة قطعة من ذاك ، أو جميع ما قد تقع عليه عينيه من لوحات جميلة !!..

لم تمض أيام على وصوله ، حتى غدا قبلة انتباه أصحاب هذه المتاجر . يتخاطفونه أينما حل .. ويغرقونه بالهدايا الثمينة .. حتى ضاقت غرفته وحقائبه بها !..

كنت في شوق للجلوس إليه كعادتنا في الماضي .. لهفاً لسماع ماتم له ولرفاقه مع جعفر !.. انقضت أيام على وصوله دون أن يتم بيننا هذا اللقاء ، فلم أستطع تفسير لهوه عني وانشغاله بما هو أهم !..

راودني شعور بأن وراء تردده سبباً مهماً .. تغيراً طفيفاً في علاقته بي .. تحولاً يخفيه عني !..

أقلقني هذا الشعور ..

لم أدّعِ يوماً أني أفهم فراساً كي أجزم بمثل هذا التفسير ..

ماذا يمكن للمرء أن يعرف عن غيره من الناس سوى ماتسمح له تجربته الخاصة بفهمه ؟..

كي نفهم الناس ، يجب أن تكون لتجاربنا نفس الجذور .. نفس الساق .. وأن تنمو في نفس التربة !..

أهنالك تجربتان ، مهما بسط أمرهما ، يمكن القول إنهما متطابقتان ؟!..

انتابني شعور ملح بالحاجة إلى محادثة فراس ..

لم أفهم سبب هذا الشعور ..

همس باطني ، راح يحضني على الإصرار في المضي نحو تحقيق هذه الحاجة ..

هاتف خفي راح يهمس في أعماقي .. « يجب أن تراه اليوم » .. « ستقع على أشياء مهمة إن رأيته اليوم » .. « ستنجلي أمامكما عقد مستعصية إن تحدثتما اليوم »!..

جاءني صوته على الهاتف وكأنني أيقظته من نوم عميق ..

— حسن .. متى نجتمع ؟..

ثم تنبه فجأة إلى غرابة إيقاظي له من أجل مثل هذا الموعد .. فعلا صوته متطيراً ..

— ماذا حدث ؟.. أهنالك سبب ملح ؟!..

ضحكت من تخوفه ، ثم غمرني شعور بالحرج ..

مالي أوقظه هكذا ، لنزوة من نزواتي ؟.. بماذا أبرر له تصرفي ؟..

طمأنته ما أمكنني ذلك .. فصَمت برهة ، ثم قال ..

ـ حسن .. سنذهب اليوم لزيارة قصر جعفر .. إنه على منتصف الطريق بيني وبينك ، على طريق « لوزان » .. مارأيك لو نجتمع في مقهى البحيرة ؟.. سأوافيك فيها حالما تنتهي زيارتنا ..

أسرعت في إنهاء ما كان علي من أعمال ، واتجهت نحو مقهى البحيرة ، تنتابني مشاعر غامضة إزاء صديقي ..

ماذا أريد منه ؟.. ما الذي أفتش عنه ؟..

لئن كان دون استطاعتي أن أعرف من هو .. أفليس علي أن أعرف من هو فراس بالنسبة لي أنا على الأقل ؟!..

ماذا تغير في علاقتي به منذ ابتدأت في متابعة قصته ؟..

ما الذي دفعني أصلاً إلى متابعة هذه الحوادث ؟!..

لاريب أنني أنشد هدفاً غير تقفي الأحداث المثيرة !..

أكنت مخطئاً منذ البداية في فهم علاقتي به ؟..

أألنا حقاً لا أرى فيه سوى الإنسان والصديق ؟.. أم هل الغرب لايزال مختبئاً في أعماقي ، يبحث ، عبر صداقتي له ، عن حلول شرقية !؟..

لست ذلك اللامنتمي الذي يظن أنه يستطيع رؤية الأشياء بأحجامها الحقيقية ..

أهنالك لا منتم في هذا العالم ؟.. أهنالك أحجام حقيقية للأشياء ؟!..

هل توجد .. « حقيقة » ؟..

ماهي الحقيقة ؟.. حـ .. قـ .. يـ .. قـ .. ة ؟!..

أحرف أجمعها في رأسي ،ويخيل لي أنني أفهم مدلولها ،أوهم نفسي بأن لها مدلولاً !..

لكن مامعنى كلمة « مدلول » ؟..

ثم .. ماهو المدلول الحقيقي لهذا المفهوم بالذات ؟!..

مالي أفسر الماء بالماء؟..وكيف أسمح لنفسي أن أستعمل «المدلول» في محاولة لفهم المدلول نفسه ؟!..

أحسست بدوار في رأسي ..
ماهذه الدوامة التي أراني أنساق معها ؟.. إنها أسئلة فراس !..
مالي أتبناها ، دون أن أقوى على السيطرة عليها ؟!..
أحسست و كأني شريط معدني ، ينساب عبر ذراتي تيار شديد التوتر ، تيار .. لم أعدْ لتحمله !..
أغلقت باب سيارتي ، وأوغلت مسرعاً في الطريق المؤدية نحو المقهى ..

وإذ تلاشى هدير السيارات ، ولامس وجهي نسيم البحيرة الرطب ، أحسست بكآبة هادئة تغمر أرجاء نفسي ، كآبة لم أعرف مثلها إلا ذلك اليوم ، كآبة تتسرب إلى حنايا النفس حتى تكاد تغلفها ، تضغط عليها برفق تعتصر منها خلاصة الألم ..
لم أكره هذا الشعور ..
كان أرحم على نفسي من القلق الذي كنت أعانيه . . لعله كان نتيجة لهذا القلق ..
رأيت فراسا من بعيد ، فجال في ذهني ماقد يجيبني به لو حدثته عما أحس به ..
سيضحك مني قائلًا ..
ـ قلق ، لامخرج منه ؟!.. تتلوه كآبة محببة إلى النفس ؟..إنها رومنسية عفا عنها الدهر ياصديقي !!.. ميلانكوليا .. « شيلي ، و كيتس » !!..

كنت قد وصلت إلى حيث جلس صديقي في انتظاري على ضفة البحيرة ..
ومض في ذهني خاطر وأنا أرد التحية له .. « أهذه أجوبتي أنا لنفسي أم أجوبة فراس » ؟!!..
هب أنها حقاً أجوبته .. فما لي أصبحت لاأرى الأمور إلا من خلال منظار مزدوج .. مايخيل إلي أنه منظاري ، وما يخيل إلي أنه منظار فراس ؟..

جلست أنظر إليه ، وفي فمي ألف سؤال ..
فاجأني وجومه ، ومنعني عن التطرق إلى مايجول في ذهني .. سألته مستفسراً ..
ـ كيف كانت زيارتكم ؟..

ندت عنه ضحكة استهزاء ، وقال ..

ــ أتعرف القصر ؟..

ــ « قصر الأفراح » ؟.. لا.. مالك تهزأ ؟.. لكني رأيت صوراً خارجية له في شتى المجلات .. إنه في ظني أجمل ما بني من قصور عصر مابعد النهضة !..

ــ أنا لا أهزأ من القصر !.. أنا الآخر دهشت لروعة تصميمه .. بل أخـــذت بأناقة أبراجه الشامخة المرهفة ..

ــ ممَّ تهزأ إذن ؟..

ــ مهلا !..

صمت قليلًا .. ثم تابع ..

ــ كنا قد وصلنا في الصباح الباكر .. وكان الضباب لايزال مخيماً على أرجاء البحيرة .. كيف أصف لك شموخ ذلك القصر وكبرياءه ؟.. كان لقيامه على قمة تلك التلة الخضراء المتحدرة نحو البحيرة ، إطلالة أمير أوروبي من القرن الثامن عشر ، يستعرض على صهوة جواد أصيل ، شروق الشمس على زرقة مياه البحيرة ، وخضرة الغابات المحيطة بها .. غريب كيف لا يمكنني التخلي عن إطلاق أوصاف إنسانية على مثل هذه المباني !.. ولا يقل داخل القصر روعة عن خارجه .. لن أطيل عليك وصف جمال حفر أبوابه ، ودقة تصفيف أرضه الخشبية ، المهم في الأمر هو أننا حين دخلنا البهو الكبير ، فوجئت بقطع كبيرة من « النايلون » تكسو معظم جدرانه !.. مستطيلات شاسعة من « النايلون » الرخيص ، تغطي سطوحاً كبيرة ، وتحيط بهذه المساحات أطر جميلة الزخرف والحفر !.. ظننتها مساحات في دور التهيئة لنقش أو رسم .. فلم أســأل جعفراً عنهـا إلى أن نظرت إلى الأعلى ، فأدهشني ماجمّـل به السقف من مشاهد لفتية ، وفتيات ، يلهون مرحين في غابات مشرقة شبه منسقة ، لونت على طريقة مدرسة « فونتنبلو » ، ترى حرير أثواب الفتيات فيها ، رغم قـــدم الرسوم ، لايزال يعكس نور النهار وكأنه أوشحة حقيقية لصقت على السقف !.. لابد وأن هذا القصر

كان بحيازة قوم يعشقونه .. عجبت لماذا تخلى عنه أصحابه ؟.. أحباً في الربح ؟.. ضائقة مالية ؟.. كيف اهتدى جعفر إليه ؟.. كنت أعلم أن جعفراً وأمثاله لايميلون إلى ماهو من الطراز القديم أو الكلاسيكي .. كنت مرتاحاً لهـــذا ، أرى دراهمهم لاتمس سوى الجديد والتجاري من الأشياء،بل والقبيح منها في معظم الأحيان!.. لأول مرة،بدأت أحسد جعفراً وأنا أتجول في أرجاء ذلك القصر !.. هل تنبه إلى فساد ذوق قومه ، فأراد بهذا القصر أن يبرهن على ذوق جديد ؟..

تابع فراس بصوت حزين ..

ـ عدت إلى الجدران أتفحصها .. إلى أن وجدتني أسأله ، مستطلعاً ، أمر هـذه السطوح المكسوة بالنايلون .. أتعلم ماذا كان جوابه لي ؟..

أجبته على الفور ..

ـ لابد وأنهم كانوا يرممون ماعتق من الرسوم القديمة على الجدران ..

هز رأسه ، وأجابني ..

ـ لم يكن شيئاً من هذا القبيل !.. أجابني جعفر بالحرف الواحد : « آه !.. هذه ؟.. كانت صوراً لنساء عاريات .. وحيوانات .. وغير ذلك مما حرمه الدين !.. حاولنا خلعها عبثـــاً !.. يظهر أنهـــا رسمت مباشرة على الحائط .. فقشرناها !.. .. قشرناها ، بما لدينا من أدوات ، فبات منظر الحائط قبيحاً !.. فسترناه بالنايلون الذي تراه !!.. مارأيك ؟!.»

ـ قشروا « الفريسك » ؟!.. أمعقول هذا ؟!..

ـ أقسم لك بأن هذا هو ماشاهدته بعيني وسمعته من جعفر!..هرعت أستكشف بقية ردهات القصر ، فوجدت جميع جدرانها قد لاقت نفس المصير !!.. انتابتني غصة مؤلمة في حنجرتي .. أقسم لك مرة أخرى أنني كدت أبكي !.. فطنت إلى أمر آخر، فعدت إلى جعفر أسأله ما إذا كانت هنالك تحف أو تماثيل فنية في القصر حين ابتاعوه!. فأجابني ..« طبعاً ، طبعاً !.. كانت هنالك تماثيل وأصنام كثيرة !!.. من الرخام والمعدن والخشب !.. وصور صغيرة الحجم تملأ الجدران »..فازدادت ضربات قلبي وأنا أسأله خائفاً ،متردداً.. « أين هي ؟!.. » فإذ به يقول ..

« لقد حطمناها جميعاً ، طبعاً !.. وأحرقنا القابل للحرق منها !! .. » ......
لاريب أنه رأى نظرة غريبة ، مروعة ، وأنا أسأله في محاولة أخيرة .. « لكن .. إن كنتم لاتريدونها في القصر .. أفلا تعلمون أنها أشياء ذات قيمة بالنسبة لغيركم من الناس ؟!.. لماذا لم تتخلصوا منها بإعطائها لمن يحبها .. أو لماذا لم تطرحوها للبيع؟!..»
أتدري بماذا أجابني ؟..

– بماذا ؟!..

– قال .. « نفرق الحرام على الناس ؟!.. ماذا دهاك يافراس ؟.. نبيعها ؟!.. ونأخذ بذلك مالاً قذراً » !!..

عاد فراس إلى الصمت ..

وأغرقت أنا الآخر أقلب ما رواه لي، ساهياً عن كل ماعداه .. ناسياً هدف طلبي للقائه !..

سألته بعد حين..

– هل مكثتم طويلاً في القصر ؟..

– لا ..نصف ساعة على الأكثر .. خرجنا بعدها نتنزه في حديقته المنحدرة نحو البحيرة ..

ضحك لأمر جال في ذهنه ..

– أتعرف ماذا وجدنا في الحديقة ؟..

– ... ؟

– ماعز !!.. استرعى انتباهنا صوتها .. كانت مربوطة إلى الشجرة الوحيدة في الحديقة ..

– ماعز ؟.. وماذا كانت تفعل ماعز في حديقة ذلك القصر ؟..

– سألت جعفراً عنها ..فأجابني بأن الشيخ الكبير،صاحب القصر ، لايثق بحليب الأسواق .. لذلك استحضر هذه الماعز من بلاده كي توفر له الحليب الطازج !..

– القصر إذن ليس ملك جعفر !..

– لا..بل ملك شيخ بلاده ، كنت أنا الآخر في شك من ذلك،حتى علمت أخيراً

أن جعفراً ، بوصفه من أقوى عائلات تلك البلاد ، يشغل لدى هذا الشيخ مكانة الحاجب لدى الخليفة ، ولهـذا المنصب أهمية قصوى !.. إذ لا تنفذ مشيئة من مشيئات الشيخ إلا عن طريقه ..

تبادرت قطر إلى ذهني ، فسألته ..

ـ وقطر الندى ؟.. ماذا تم من أمر غرام جعفر المتأجج ؟!..

ـ لاشيء !...

قال ذلك بحدة، وما عودني التكلم عن هذا الموضوع سوى ببساطة ولا مبالاة !..

أشاح بوجهه ، كأنه يمنعني أن استوضحه الأمر..

أطرقت أحاول تفسير امتعاضه .. لابد أن هنالك جديداً لم يخبرني عنه !..

أكان هذا هو الدافع وراء تلكئه في مقابلتي ؟!..

عجبت لحدته وارتباكه .. أين فراس الذي يضحك من الحب، ويهزأ من القيم !.. أين مقدرته على الخوض في لجج العاطفة دون أن يفقد تجرده في الحكم على تجربته ؟!..

كم سمعت منه أقوالاً مثل « ما أسخف غرامي وأوهاه !.. ومع هذا ، فأنا غارق فيه ، سعيد ، أشرب منه حتى الثمالة » !..

ما باله اليوم ينطوي على نفسه، محتفظاً في سره بما يشعر به نحو قطر الندى ؟.. أهي عفة منه إزاء هذه العاطفة المفاجئة ؟!..

لا أظن !.. فأنا لا أعرف موضوعاً يمكن له إثارة الحرج بيننا !..

لم يبخل علي يوماً بتفاصيل علاقة نسائية .. فما باله يكتم عني مشاعره الآن ؟!..

ما الذي يحرقه ؟.. أهي علاقة جعفر بها !.. وليس في علاقة جعفر بها قضية غيرة فحسب .. إذ لو كان ذلك هو السبب لحدثني عن هذه الغيرة ببساطة !

لابد أنه أمر أعمق ..

أحسست وكأن فراساً يواجه مشكلة جذرية .. مشكلة إعادة تقييم أمور ظن أنه فرغ من تقييمها !..

لم أشأ ، رغم متانة معرفتي به ، أن أتسرع في الحكم ..

أحسست بأنني بحاجة إلى المزيد من الأدلة كي لا أخطىء فهمه ..
سألته متريثاً .. محاولاً تبسيط الأمور ..
ـ أللأمر علاقة بجعفر ؟.. أتقلقك غيرتك منه ؟..
ـ لا .. لاشيء من هذا القبيل ..
تبسم ، ثم تابع ..
ـ إنها ليست قضية غيرة ، أو قلق على نفسي من إحساسي بالغيرة .. إنه شعور ينتابني تجاه ما أحس به من عاطفة نحو قطر الندى ..
ـ لم أفهم بالضبط ..
ـ أعرف أنك لن تتركني وشأني.. اسمع .. لايكفي أن يعلم الإنسان بأن لاقبح هنالك ولا جمال ، وأن هذه ليست سوى مفاهيم نسبية !.. لايكفي أن يعلم المرء ، أن معرفته هذه ، تتيح له أن ينعم بما يريد ،مادام مصغياً في قرارته إلى صوت يذكره دوماً بأن إحساسه بالجمال أو القبح ، وإن كان أكيداً ، فإن مايحرك هذا الإحساس ليس سوى عوامل نسبية !.. ظننت أن باستطاعتي أن أتوقف عند هذا الحد .. أحب وأكره مايروق لي ، مطلقاً لنفسي العنان فيما تتذوقه ، مستنداً إلى معرفتي أصلًا ببطلان قيم ثابتة للجمال والذوق !.. بكلمة أخرى .. كنت قانعاً بما وضعته من فاصل بين المعرفة والشعور ، سعيداً بما حررت به نطاق الشعور عندي من قيود المعرفة !..
سمعت ضربات قلبي تعلو وأنا أستمع إليه يقترب من عالمي ..
سألته كابتاً لهفي ..
ـ والآن ؟.. ماذا تبدل في الأمر ؟!..
ـ يتفق للإنسان أن يقف أمام أمر يثير في نفسه فيضاً من الحس الجمالي ، فيود لو أن باستطاعة هذا الحس أن يغلّف معرفته ويحتويها !.. يود لو تكون لما يهزه من شعورقيمة ثابتة ، تقف صلبة ، لاتفككها المعرفة، ولا يبطلها العقل !.. قيمة مطلقة يود في قرارته لو أن شعوره ، لا عقله ، هو الطريق إليها !..

باغتني ماسمعت !.. لم أفهم ما الذي اعتمل في نفسي وأنا أسمعه يردد ما طالما تمنيت سماعه منه !..

فوجئت بما كنت أتطلع إليه .. لم أفهم لماذا كرهت هـذا التحول المفاجيء بدل أن أرحب به !..

لست أدري ما الذي انتابني ، لكني وجدت نفسي أقول بلهجة ساخرة ..

ــ أهو الحب .. يافراس !؟..

تغاضى عن سخريتي ..وأجاب ..

ــ ربما !.. لست أدري ..

ــ لم يخيل لي أن حبك لقطر الندى من القوة بما يدفعك لمراجعة مفاهيمك !..

ــ وماذا كنت تظنني ؟.. حصناً منيعاً من البرود وعدم المبالاة ؟!.. فتعجب كيف يوشك هذا الحصن على الانهيار أمام تجربة لاتؤمن بأبعادها ؟!..

سألته بدوري،مستغرباً ..

ــ ءأنا الذي لايؤمن بالحب يافراس .. أم أنت ..؟!

ثم تابعت مستفسراً ..

ــ .. وتجربتك .. أمن العنف بهذا المكان ؟..

ــ ليس هنالك تجربة عنيفة بحد ذاتها !.. قوة التجربة تعكس قوة صاحبها .. وعنفها يقاس بمقدار عنف توتره الداخلي !.. إن تجربتي مع قطر لم تصل إلى هذا العمق ولن تصل .. بل إنها على عكس ماتقول تماماً .. فلا عنف هنالك ولا عواطف متأججة ! لاريب أني في مأمن من مثل هذه التجارب المستعرة ، لانعدام هذه التوترات الداخلية في نفسي !.. ليس بيني وبين قطر كلمة حب واحدة .. ولا شك عندي أننا لو تبادلنا مثل هذه الكلمات لأغرق كلانا في الضحك مما نقول !.. إن ما أشعر به نحوها هو مشاركة من نوع آخر ..

ــ أأذكرك يافراس بقولك .. « إن الحب شهوة طويلة،والشهوة حب قصير» !..

ــ .. لكني لا أتحدث عن هذا الحب .. أو عن « الحب » إطلاقاً !..

أطرق ساهماً ، ثم تابع ..

ـ .. لعل كل إنسان ، إذ يحب ، يظن أن حبه يختلف عن حب من عداه من الناس .. من يدري .. لعل كل إنسان محق في محاولة الخروج عن تصانيف الحب المعروفة .. لاريب أن هنالك من أنواع الحب مايعادل عدد من يخوضون هذه التجربة من بشر .. ومع ذلك ، فإن مابيني وبين قطر الندى أقرب مايكون إلى القلة النادرة ! ثق أنني لو حاولت أن أجد ركيزة لعلاقتنا ، لأعياني الأمر .. فلا شهوة جنسية عارمة تدفعني نحوها .. ولا حب بالتملك أشعره تجاهها .. ولا إعجاب أعمى أحسه بجمالها !.. سأقول لك ماقد يضحك .. لعل علاقتنا لاتستمد قوتها سوى من نقصان جميع هذه العوامل بالذات !!..

سهوت عن كلامه .. أهذا « فراس » الذي يكلمني ؟!..

أهذا هو فراس الذي عرفت لسنوات طويلة ؟!..

ما الذي يجري بيننا الآن ؟ ولماذا أرفض في سري أن يلعب فراس دور المحب ؟!

ألم أسع في الماضي جاهداً في البحث عن عاطفته ؟.. ألست ممن ينادون بربط الشعور بالمعرفة ؟!..

أحسست بضيق مفاجىء !..

هل كان فراس حقاً ذلك المارد العقلاني .. وهل كنت حقاً ذلك الإنسان الحائر الذي يرفض عقلانيته الباردة ؟!..

جعفر !.. قطر الندى !.. ميساء !.. هلال !.. ودرة .. والبدر وسلاطين وملوك .. وحياة مغامرات ومؤامرات لها أول ، وليس لها آخر !!.. أيمكن أن ينشأ حب في مثل هذه الدوامة ؟! أم أن هذه الأحداث نفسها دفعت قطر الندى وفراساً أحدهما إلى الآخر ؟!

ـ .. هيه !.. مالك غارقاً في أحلامك ؟!..

نبهني صوته .. أخذت أتلمس الأعذار لشرودي ..

ضحك ..

ـ أتدري أنك لم تطلعني بعد على سبب إلحاحك في أن نتقابل اليوم ؟..

أجبته متلكئاً ..

ـ .. كنت متخوفاً من أمر .. أردت أن أتحقق من صحته..

سألني ببراءة ..

ـ .. ومما تتخوف ..

وقفت أدعوه إلى ترك المقهى .. ثم قلت مبعداً سؤاله ..

ـ لامجال لبحث هذا الموضوع اليوم .. سأخبرك عنه في حينـــه .. ثم .. من يدري ؟.. لعلني حصلت على ما كنت أبحث عنه من جواب !..

* * *

الفصل الثالث

كانوا في لهف للوصول إلى باريس ، لذاك جهدوا ألا يقضوا برفقة جعفر سوى أيام قلائل ..

لم يبق لوجوده بينهم ، بعد أن قاموا بزيارة القصر ، سوى مبرر واحد ، هو سيارة « الفراري » ، فما أن أطلعهم على حظيرة سياراته ، وأبدوا إعجابهم بمحتوياتها كما لو كانت خيولاً أصيلة تعب في تربيتها ، حتى زال من نفوسهم آخر سبب لاستبقائه بينهم ، وكادوا ، لولا بقية من كياسة ، أن يكاشفوه عن تبرمهم به !..

أنكبُّوا ، عشية اليوم المقرر للسفر ، يحزمون ما ضاقت به حقائبهم من أمتعة ..

أمضوا معظم الليل يلهون ويتسامرون ، يضحكون من ولائم جعفر التي فُرض عليهم تناول الطعام فيها في غرف النوم ، خوفاً من أعين المراقبين !..ولائم ، لم يتنوع الطعام فيها أبـــدا .. خروف محشي بالأرز .. طبق كبـــير يحتوي من الطعام على ما يكفي لعشرين شخصاً ، يوضـــع في وسط المائدة ، ليتناول كل منهم كفايته منه !..

وفي كل وليمة ..يعيد جعفر على مسامعهم قصة المشقة التي عاناها طاهي الفندق لاستحضار السمن العربي والأرز الهندي ،ويكررون في كل وليمة تقديرهم لهذه المشقة ، كأن لاهم لهم في جنيف سوى أكل الأرز الهندي واللحم المطبوخ بالسمن العربي !..

تذكروا اللعب بالورق .. فأغرقوا في ضحك سالت له دموعهم !..

كان جعفر ، كلما انتهوا من تناول الطعام ، يطلب إحضـــار القهوة ، ويردد نفس القول ..

ــ ماذا نفعل الآن ؟.. لايمكننا السهر .. ولا الخروج من الفنـدق ، كي لايرانا أحد !.. مارأيكم فيما لو لعبنا لعبة « أبو الفول » ؟..

ثم يجلس الجميع على الأرض ، بعد أن يكون جعفر قد جمع كل مافي الغرفة من وسائد ، وهيأها لراحة قطر الندى !..

كان يجلس إلى جانبها مظهراً إغراقه في اللعب .. ينظر إلى أوراق قطر الندى ، ليعرف ماتحتاج إليه من مساعدة ، وكلما جاء دورها لانتقاء ورقة من أوراقه ، وأراد أن يجنبها ماقد يضرها منها ، يقول ..

– .. ما أحلك الليل !.. أنظروا إلى ظلمة السماء !!..

فينظر الجميع من النافذة ، تاركين له عمداً فرصة القيام بما يريده من حيل !..

كان يوجه أوراقه خلسة نحو قطر الندى، رافعاً كتفيه ، مقطباً حاجبيه ، كالقط إذا أحس بالخطر ، فإذا تنبه إلى أن أحدهم يوشك أن يوجه نظره نحوه ، نهره بعينيه ، أو كرر عليه القول بأن الليل مظلم حالك !.. فما له لاينظر إليه !!..

وتتكرر الحيل .. وتتكرر المحاولات ، حتى يعييه اختلاق الأعذار .. فتبادر ميساء إلى نجدته !.. كأن تطلب من فراس أن يأتيها بحاجة ، أو يقوم هذا مدعياً أنه سمع قرعاً على الباب ، فيسرع جعفر إلى إنقاذ مايظن أن قطر قد وقعت فيه من مأزق في اللعب !.. وتدَّعي هذه السرور والامتنان لمساعدته .. فينظر إليها نظرة الذي أعياه تنفيذ مهمة شاقة !.. ثم يعود بالنظر إليهم ، متسائلاً عما إذا كان هنالك أمر قد لفت انتباهم !..

تذكروا هذه الولائم .. وهذه الجلسات .. فأفرغوا ، في آخر ليلة لهم في « جنيف » ، جميع ما كبتوه من ضحك ، على جعفر ، وعلى أنفسهم ، بسبب هذه المواقف التي فُرضت عليهم من جراء مازجُّوا به أنفسهم ..

تنفسوا الصعداء إذ أحسوا أن الغد سينقلهم إلى باريس ، وارتاحوا إلى فكرة أنهم سيعودون بعد ذلك إلى ديارهم .. فيسدل الستار نهائياً على هذه المهزلة القصيرة الأمد !..

وفي صبيحة اليوم التالي استقلوا سيارتهم باتجاه باريس ، يقودها سائقهم الأشقر ، تتبعهم سيارة أخرى.. خصصت لحقائبهم العديدة ..

أحسوا بتعب من سهرة الليلة الفائتة ، فاسترخوا في مقاعدهم ينتابهم نعاس ملح تهيؤوا للاستسلام إليه ..

أدار فراس مذياع السيارة إلى موسيقى هادئة ، فراح كل منهم ، وكأنه على موعد مع أحلامه ، ينتقل سلفاً بين أحياء باريس ، ويستبق في ذهنه ما سيقوم به هنـــاك من مغامرات ..

راحت قطر الندى تستعيـــد نظرات جعفر المفتونة ، وكلمات الغزل التي كان يغرقها بها كلما سنحت لهما الظروف لقضاء دقائق على انفراد ..

ابتسمت في سرها إذ تذكرت محاولاته للإمساك بيدها تحت مائدة الطعام !.. لاشك في أنه مستعد لبذل الغالي والرخيص للوصول إليها !..

أحست براحة واسترخاء إذ جال في خاطرها أن هنالك من يشتهيها إلى هذا الحد !..

يداه الكبيرتان الجميلتان .. أوتار أصابعه الظاهرة .. وعروق الدم النافرة من تحت الجلد ..

هل ستسمح لهاتين اليدين بمغازلتها ؟.. ماذا ستحس لو جالتا بأصابعهما القوية على صدرها .. وأنحاء جسدها ؟..

ضحكت من هذا الخاطر في سرها ..

هزأت ، إذ تذكرت ما كان يقوم به جعفر من حركات صبيانيـــة أثناء اللعب بالورق !.. حدث !.. مراهق !..

مابالها تفكر به .. وهي التي تبحث عن رجولة عارمة تغرق بها أنوثتها ؟!..

ومع ذلك ، فإنها تود أن تنتقي الرجل ، وتشتهيه هي ، لا أن ينتقيها الرجـــل ، ليغرقها بأحاسيس لم تطلبها منه !..

صحيح أنه لما يرضيها أن يدور في فلكها عشيق مثل جعفر .. لكن ، ليس في هذا مايسعدها ..

طار خيالها نحو هلال .. هل ستجده في باريس ؟..

هل تحاول أن تسترضيه إن وجدته ؟..

وماذا عن أم جوهر ؟.. ألا يزال على حبه لها ؟..

أحست بغصـــة إذ جال في ذهنها أن قصتـــه مع أم جعفر لابـد باتت على ألسنة الجميـع ؟..

كيف تنتقم لكرامتها من هلال ؟..

كم تود لو تستطيع أن تمرغ كرامته بالتراب !!..

ـ قطر !.. مالك تقطبين هكذا ؟!...

فتحت عينيها .. وضحكت من سؤال ميساء ..

ـ لاشيء .. لاشيء .. كنت أفكر بولدي ..

« ولدها !! » .. « ولدها !؟..»

أغمضت ميساء عينيها ..

أطلقت لأفكارها العنان ، لا لتحلّق .. كتلك السحب البيض المتقطعة .. بـل لتنساب بصمت وأناة ، كانسياب السيارة الدافئة التي كانت تقلهم عـــبر ثلوج تلك الطريق الجبلية الملتوية ..

هزأت مما سمعته من قطر .. «ولدها » .. « ولدها » !.. متى كانت تفكر قطر بولدها ؟!..

لاشك أن أختها رتبت خطة تنوي أن تنفذها بصدد جعفر ، وإلا لما تجرأت على قبول ذلك المبلغ الإضافي منه !..

ألم يعطها حقاً سوى عشرة آلاف في « جنيف » ؟!..

ماذا سيظن بها فراس وزوجته لو علما بالأمر .. ماذا سيقولان إن علما بأن قطراً قد قبلت ذلك المبلغ منه ، وأنها أعطتها نصفه لتبتاع به مايلزمها من ثياب لحفل زفافها على مراد ؟!..

تعجبت .. كيف جرت هذه الأمور أمامها دون أن تشعر بها !..

لابد أنها حصلت تحت سمعها وبصرها !..

لكنها لم تفارق أختها لحظة منذ أن حطتا في جنيف !..

متى دبرت قطر الندى ذلك ؟!..

ألا يجدر بها بعد اليوم أن تكف عن الاستخفاف بقدرة أختها على حياكة المؤامرات في الخفاء ؟..

لكن ، لا !.. فقطر قد برهنت مراراً على أنها غير قادرة على التنبؤ بالعواقب البعيدة للأمور !.. وإلا ، فكيف تزج نفسها بمثل هذه العلاقة مع جعفر ؟.. وماقيمة هذا المبلغ حتى تقبله خفية عنهم جميعاً .. وبهذا الشكل ؟!..

صحيح أنها حاكت مع أختها هذه الرحلة منذ البدء .. وصحيح أنها بحاجة إلى ما أخذته من أختها من مال .. لكنها لم تخاطر بشيء !..

ستقوم بعملية التجميل .. ثم .. وهذا سر لم تخبر عنه أحداً بعد .. إن هدفها الأول من هذه الرحلة هو مقابلة مراد !!.. لقد أبرقت إليه بأنها ستكون في باريس بعد يومين .. وأجابها بأنه سيأتي لمقابلتها هناك !!..

انتابتها غصة حين تذكرت بأنها كانت قد أبرقت إليه كي يوافيها في جنيف ، وإنها بدل أن تجده ، وجدت باقة من الورود في غرفتها ، وعلمت من إدارة الفندق أنه ترك جنيف في اليوم السابق لوصولها !..

دار في ذهنها خاطر بعث في نفسها غصة أقوى من الأولى !..

مالها تكذب على نفسها ؟!..

وضعت يدها على جبينها كي تخفي دموعاً أوشكت أن تنهمر من عينيها ..

فتحت جفنيها قليلاً لترى ما إذا كان أحد قد انتبه إلى حالتها .. فوجدت الجميع إما نائمين أو شبه نيام ..

عادت إلى أفكارها .. تتمشى بينها بصدق وخوف !..

إنها لم تبرق إليه كي يوافيها في جنيف .. لقد كان فعلاً في جنيف .. وكانت تعلم أنه هناك ، حين أرسلت إليه ببرقيتها !..

جل ماطلبته منه في تلك البرقية هو أن ينتظر قدومها يوماً أو يومين !!.. أكثير هذا يامراد ؟!..

لم تخبر فراساً أو أختها ، بأن مراداً كان في جنيف .. أو أنها أبرقت إليه كي

ينتظرها !.. أرادت أن تجعل من تلك المصادفة مفاجأة لهم .. أرادت أن تتوهم بأن مراداً جاء خصيصاً لمقابلتها في جنيف !!..

تذكرت خيبتها حين قيل لها إنه ترك الفندق ، ثم فرحها حين وجـــدت الورود في غرفتها !..

ظنت بلا شك أنه ذهب إلى « لوزان » ..

لقد ترك الفندق في اليوم السابق .. وهذه الورود مرسلة اليوم !.. أيقنت أنـه لازال موجوداً في البلاد ، في لوزان ، حيث له مقـــر محبب إلى نفسه .. على بعد كيلومترات منها !..

ظنّت أنه يختبر ذكاءها !.. أرادت أن تظن ذلك !..

أرادت أن تقنع نفسها أنه كان يستدرجها بطرق شاعرية إلى ذلك المقر .. فأسرعت إلى فراس تخبره بذلك .. وطلبت منه أن يرافقها إلى لوزان !..

تساقطت الدموع من عينيها حين تذكرت كيف لم يتعرف إليها حارس المقر .. وحين علمت منه أن مراداً كان في ذلك المقر فعلاً ، وأنه لم يمض فيه سوى ليلة واحدة!

تذكرت ابتسامة الهزء التي قابلها بها ذلك الحارس المسن .. وقوله لها ..

— .. الأمير مراد ؟.. لا يا آنستي ، لقد ذهب ..

.. ثم كيف حنا ظهره ، وقام بحركة سريعة بأصابعه تدل على الركض ، وكيف تابع ، مقطباً حاجبيه الكثيفين ، مبتسماً لها بسخرية ..

— .. عليك اللحاق به !.. لقد ذهب بعيداً .. إلى باريس .. أو ربما عاد إلى بلاده !!..

تذكرت كيف عاد إلى تشذيب الحديقة ، ثم كيف تابع قوله ..

— .. هذه حال الأمراء ياجميلتي !!.. يوم هنا .. ويوم هناك !!..

تذكرت مفاجآته ، وتلعثمه ، حين نهره فراس لمخاطبته « الأمـــيرة ميساء .. زوجة الأمير مراد » .. بهذه اللهجة النابية !!..

ـ .. آه !.. آه ،معذرة ياسيدي !.. أرجو المعذرة !.. ماذا تريدان .. ليست هذه أول مرة تسأل فيها فتاة حسناء عن الأمير !.. تدعي جميعهن بأنهن خطيباته !!..

تذكرت كيف أقبل يفتح باب سور الحديقة الحديدي ، يدعوهما باحترام شديد للدخول وهو يكرر عبارات الاعتذار ..

ـ آمل أن تكون الورود قد نالت رضا صاحبة السمو!.. لقد قمت بنفسي بطلبها من « انترفلورا » وأصررت عليهم ألا تكون قد تفتحت بعد .. ليت صاحب السمو أطلعني أن هذه الباقة كانت معدة لسموك !..ظننت أن « الأميرة ميساء » اسم إحدى أميرات العائلة المالكة ،من قريباته .. ما أغباني .. كيف لم أدرك أنها لزوجة الأمير بذاتها !.. آه .. كم يحب صاحب السمو المفاجآت ..

وتذكرت كيف تلعثمت هي الأخرى ،وأجابته ..

ـ أوه .. لابأس ، فصاحب السمو لم يكن يتوقع قدومي إلى لوزان !..

لطالما علمت بأن « صاحب السمو » يحب المفاجآت !!.. وأن لابأس لديه أن تحط هذه المفاجآت من كرامة الآخرين !!..

« صاحب السمو »لايعلم أصلاً أن لدى الآخرين شيئاً يلقب بالكرامة !!..

آه لو تستطيع أن تلقنه درسين أو ثلاثة !!..

لابأس !.. ستصبح زوجته الفعلية إن عاجلاً أو آجلاً !!.. وستعرف كيف تجعله يدفع ثمن هذه الإهانات !!..

كانت زوجة فراس تجلس بين الأختين،في المقعد الخلفي .. وإذ راحت ترقبهما بصمت ، شعرت بضيق شديد لسهوهما عنها !..

كان الكلام جسراً يربطها بصديقتيها .. وكانت بحاجة مستديمة لتحسس ذلك الجسر كي تستوثق من الرباط الذي يجمعها اليها !..

لطالما أحست بأن الصداقة لاتكفي لتخطي مابينها وبينها من فوارق !.. وهـذا زوجها.. إنه أقرب إليها منه إليها ، لافي لون البشرة،وتشكيل تقاطيع الوجه فحسب، بل في المظهر العام ، في الطباع ،والثقة بالنفس الظاهرة في جميـع تصرفاته !..

كانت تعلم أن في علاقة فراس بالأختين شيئاً أعمق وأوثق من العلاقات التي تحتاج للمسامرة والحديث لدعمها !..

أليست هي زوجة فراس ؟.. أليس من الطبيعي لها أن تقتفي أثره ، وأن تحاول أحياناً أن تتخذ من طريقته قدوة لعلاقتهـا بصديقتيها ؟.. فإن سكتوا عن الكـلام ركنت إلى السكوت ، متظاهرة بأنها تفكر هي الأخرى بأمور تشغلها عن الكلام !

لكن شعورها بأنها إنما تقلد الآخرين في ذلك كان يعذبها !..

لم تكن من النوع الذي يقبل راضياً بالمقام الثاني !.. وعلاوة على ذلك،فإن هنالك أمراً آخر لا تفهمه .. فما أن يحل الصمت بينهم حتى تشعر بأن ثلاثتهم قـد أجمعوا على إهمالها ؟..

فراس زوجها ، وفي ذلك مايطمئنها بأنه مهما حلق بعيداً عنها فإن بينهـما خيطاً يصلها.. يمكنها بواسطته أن تجذبه إليها !..

لكن صمت الصديقتين !.. صمت زوجهـا والصديقتين !.. كان في صمت هؤلاء الثلاثة ما يشعرها بأن هنالك اتفاقاً مدبراً لإهمالها !!..

لطالما رددت على نفسها بأنها حجر الأساس في صداقة زوجها بالأختين ، ولولاهـا لما جمعت الظروف فراساً بقطر الندى وميساء !..

لكن الحوادث تخطتها .. وشعورها بأنها الأساس في هذه الصداقة بـدأ يوهن ويبهت !..

فمن الظاهر أن ما يجمع زوجها بهما لهو أقوى من أن تفككه سراً ، أو أن تتصدى له علانية !..

لم يبق لديها سوى وسيلة واحدة .. أن تشد مايربط بينها وبين الأختين إلى أبعد ماتستطيع .. أن تصبح أقرب إليهما من فراس !!..

وجاءتها الفرصة المناسبة حين كانوا في زيارة القصر في جنيف !..

ضحكت في سرها حين تذكرت نظرات جعفر إليها وهى تفاجئه بقولها ..
ـ إن قطراً تود منك أمراً تخجل من أن تصارحك به !..

ماالذي أوحى إليها بهذه الفكرة ؟.. كيف اختلقتها ؟..
تعجب من جرأتها حين ادعت أن قطراً تود أن تبتاع بعض الحاجيات ، وأنها نسيت أن تحضر معها دفتر شيكاتها إلى جنيف ! ..هزأت من هذا العذر السخيف ، وخشيت أن تعلم قطر بأنها هي التي بادهت جعفراً بهذا الطلب ، فأصرت على جعفر ألا يوسّط غيرها ، وأن يعطيها المبلغ ، فتفاجىء قطراً به صباح ذهابهم إلى باريس ، على أنه هدية لاذيول لها !..

نظرت إلى قطر التي كانت ماتزال تحلم مغمضة العينين ..
« .. ما أغباك من أميرة !.. »

عاد إلى ذهنها كيف أسرّت إلى قطر ، حين عادوا إلى الفندق ، بأن جعفراً يلتمس الأذن في أمر هدية يتردد في تقديمها !..
كم ضحكت قطر للأمر ..وما أسهل ما انطلت عليها الحيلة !.. كم سارعت في القبول حيث تأكدت أن فراساً لن يعلم بأمر هذه الهدية !..
سألت زوجة فراس نفسها .. « لماذا خشيت قطر أن يعلم فراس !؟ » ..
تعجبت في نفسها .. ما الذي يهم قطر من أمر زوجها !؟..

نظرت إلى زوجها .. وكان يتأمل أشجار السنديان الباسقة المحملة بالثلج ..
ما أغباه .. هو الآخر !..
أيظن أنه يحيط علماً بجميع مايدور حوله ؟!.. ما أقل فطنة الرجال !..
ماذا لو علم أنها أخذت عشرين ألفاً من جعفر في السر ، على أن تسلمها لقطر الندى ، يوم سفرها إلى باريس ، وأن هذه أعطتها ثلاثة آلاف منها ، ثم أعطت خمسة آلاف

لأختها، مدعية أمامها بأنها لم تأخذ من جعفر سوى عشرة آلاف !!.. مؤكدة لها بأن لاعلم لفراس أو لزوجته بالأمر !..

ألم تضرب بذلك عصفورين بحجر واحد !..

ألا تشترك الآن مع قطر في سر لم تطلعا ميساء سوى على جزء منه ، ومن ثم ، اشتركت مع الأختين في كتمان نصف هذا السر عن فراس !..

ثم .. وهذا هو مايثلج صدرها الآن ، أليس فيا قامت به ما يساعد قطر على الانزلاق ؟..

ألم تدفع بقطر ، عمداً ، إلى أحضان جعفر ؟!..

فليعحب فراس بقطر ماشاء !..ولينظر إليها بحنان ماشاء !.. أيظنها عمياء عما يجري بينها ؟!..

ستعرف كيف تجعل من قطر عشيقة لجعفر !!..

تنبه فراس من نومه .. نظر إلى الخلف ، فوجد زوجته وصديقتيه مغرقتين في نوم عميق ..

سأل السائق ..

ــ أين نحن ؟..

ــ لقد اجتزنا جبال الألب السويسرية ،يا صاحب السمو .. نحن الآن في الـ Juras ، في فرنسا ..

تبسَّم لوقع « صاحب السمو » !..

عاد إلى إغلاق جفنيه .. وتنفس بعمق كأنه يعب من عبق الغابات الكثيفة الممتدة أمامه ..

تذكر « باتريس » ، صديق حداثته في باريس ، وكيف كان يحدثه بإسهاب عن جمال هذه الغابات .. حقاً .. إنها كما وصفها صديقه ، وأجمل !..

شاهد من بعيد قصراً قديم البناء ..

أيكون هذا هو القصر الذي كان صديقه يصفه له ، مسقط رأس أسلافه من قرون طويلة ؟..

أتكون هذه القلعة التي ولد فيها صديقه ؟..

لا بد أنها هي .. إنها القصر الوحيد في المنطقة ..

لطالما حدثه « باتريس » عن حجراته القديمة الواسعة .. وعن طفولته السعيدة ، التعيسة ، التي أمضاها ، يلعب مع أخيه بين جدرانه القديمة .. كانت الحرب على أشدها .. والدهما أسير لدى النازيين، وأمهما الورعة لاهية عنهما بالصلاة أوبتدبير الطعام ..

انقضى عامان على آخر لقاء له بصديقه .. ست سنوات من صداقة متصلة لم يشبها من سوء تفاهم واحد .. سيتصل به ، حال وصوله إلى باريس ..

كم ستكون مفاجأة باتريس كبيرة !..

سيصيح على الهاتف : « مكسيم !!.. أهذا أنت حقاً !!.. » ابتسم ، وخفق قلبه لهذه الصورة ..

عاد فراس بخياله من الـ Juras ، إلى باريس ، وحلق فوقها ليلتقط لها صورة شاملة في ذهنه !..

تضاعفت أصوات السيارات التي كانت تمر بالاتجاه المعاكس لهم ..

تحول ، في خياله ، ومض الأعمدة الكهربائية المتطاير أمامه ، إلى أنوار السيارات الكاشفة المتسابقة في شوارع باريس الواسعة التي كاد يحس أنه يحلق فوقها !..

اقترب من سقوف الأبنية التي كان يحلق فوقها في ذهنه، ثم راح يتغلغل في أزقتها وبين أبنيتها القديمة ، حتى كاد يشم رائحتها !..

وجَّه مخيلته نحو غابة « فانسين » ، نحو داره القديمة فيها .. نحو بحيرة الغاب وسار على الطريق المؤدية نحو المصح ..

ألا تزال « لورا » في ذلك المصح ؟..

لقد قطع اتصاله بها منذ زواجه ..

ألا يزال ذلك الجسد الواهي أسير ذلك السرير؟..

ألا تزال مشكلة الموت تحرق تلك النفس النبيلة ؟..

لم تبرح « لورا » سريرها منذ انتهاء الحرب !.. خمسة عشر عاماً قضتها مكبلة إلى ذلك السرير ، لاتبرحه سوى لحاجة ملحة ، أو لتمضية بضع دقائق في حديقة ذلك المصح !..

« لورا » .. يا آخر أعرق سلالة ملكية في أوروبا !..
ليس مكانك هذا المصح ..ولا زمانك هذا العصر !..

كانت زوجته على علم بأن له في باريس صديقة اسمها « لورا » .. فظنت أنها فتاة في مقتبل العمر .. فتاة لعوب ،على علاقة غرامية به !..

لابد أنها لم تصدقه حين شرح لها الأمر !..

تذكر كيف هزت رأسها صامتة حين أطلعها أن لورا سيدة جليلة قد ناهزت الستين من عمرها !..

لم تصدقه !.. أيمكن لمثل زوجته أن تفهم مثل هذه الصداقة العاطفية التي تربطه بلورا ؟..

أحس بفيض من المحبة يملأ صدره .. سيفاجىء صديقته بوصوله إلى باريس !..
سيذهب لزيارتها حالما يتسنى له ذلك ..
سيضمها إلى صدره برفق ، ويربت على كتفها ، ويمسح بيده على شعرها الأبيض..
تبسم في نفسه ..
فهو يعلم أنه لن يفعل ذلك !..
لو فعل ذلك لأجهشت لورا ببكاء قد تفيض روحها معه !..
لئن كانت نفس لورا لاتزال في الثامنة عشرة من العمر ، فإن جسدها المريض قد تجاوز الثمانين !..

كانا حريصين على تذكر ذلك .. يعلمان أنه لو حدث ما يطلق العنان لعاطفتها المكبلة لتهاوى جسدها ، ولما استطاع أن يتحمل شباب نفسها المكبوت ، سوى لدقائق معدودات !..

الفصل الرابع

« ديجون » .. « لاروش » .. « سانس » .. « مانتيرو » .. « مولان » .. « فيل نوف » .. « فونتنبلو » الأشجار الباسقة .. مدخل باريس .. الأتوستراد ، بأورقته الثمانية .. سيل السيارات الزاحف .. « باب إيطاليا » .. تمثال « أسد دانفير » المهيب ..

الشوارع الواسعة ..

أنوار ساحة « الكونكورد » المتلألئة ..

رذاذ النوافير ..

الأحلام المضاءة ..

مصابيح الغاز المتوهجة ..

الإيقاع المتصاعد لحركة المرور ..

دخلوا باريس مثقلين بما حمّلوا رؤوسهم من صور وأحلام ..

هاهو الخيال يتبعثر أمام الصور الحقيقية .. وهاهي حقيقة باريس تحتل المكان الذي ملأته أفكارهم عنها !..

حل النور مكان صور الخيال عن النور .. وأزاح الضجيج هدير أحلامهم عنها !..

خف السعاة إليهم ، أمام باب الفندق ، ينقلون حقائبهم .. بينما ترجلوا من السيارة ، وتقدموا نحو مندوب الإدارة الذي هرع لاستقبالهم ..

لم تبق في رؤوسهم بعد لحظات سوى فكرة واحدة .. أن يخرجوا من الفندق بأسرع وقت .. ليضيعوا في أرجاء المدينة ..

كانت إدارة الفندق على علم بقدوم موكب الأميرات .. فهيأت له جناحين

متصلين ، سروا بأثاثها الفخم الأنيق وفوجئوا بباقات الورود المنثورة في أرجائها !..

لم يسألوا عن مصدر الورود .. من غير جعفر يدفع مايزيد عن الألفين ثمناً لهذه الورود الحمر في شتاء باريس القارص ؟!..

تعجب فراس لأمر ..

ـ أتشمون ما أشم ؟..

ضحكت قطر الندى ، وهزت برأسها موافقة ..

ـ .. إنه العطر الذي أستعمله !!..

وأضافت هازئة ..

ـ .. لابد أن أحدهم كسر زجاجة منه في هذه الغرفة !..

لم ينتبهوا إلى أنهم كانوا ، كعادتهم ،يتكلمون بالإفرنسية ، لغة مندوب الإدارة ، وعلى مسمع منه ..

ابتسم المندوب بحرج ، وقال متردداً ..

ـ أرجو المعذرة .. ليس هذا إهمال منا !.. بل الأوامر التي تلقيناها من « جنيف » !..

سارعت قطر إلى سؤاله متعجبة ..

ـ .. أوامر ؟.. أية أوامر !؟..

ـ .. الزهور .. ياصاحبة السمو !.. لقد طلب صاحب السمو .. أو صاحب الجلالة ، آه .. أرجو المعذرة !.. إن الذي أوصل إلينا الأوامر هو وكيله في جنيف .. ولم أستوثق منه ما إذا كان ينوب عن « صاحب السمو » أو « صاحب الجلالة » !..

قال هذا وتوقف عن الكلام علّ أحداً يزوّده بما ينقصه من معلومات !.. وإذ وجدهم يتابعون النظر إليه ببرود ، ارتبك ، وحار فيما يقول !..

سمع فراساً يقول له ..

ـ حسن !.. وبعد ؟!..

تدارك نفسه .. وأجاب ..

ـ آه .. لقد أمرنا بأن نوزع تسعاً وعشرين باقة ، أرجو المعذرة .. لقد قيل لي

إن هذا هو سن سمو الأميرة !.. وأن نضع في كل باقة تسعاً وعشرين وردة حمراء .. ثماني‌مئة وردة ونيفاً !!..جميل !.. ياله من‌خيال شاعري !!..إنه الشرق ياسيدتي!.. من الذي يفكر بهذه الأمور من أمراء الغرب اليوم ؟!..

ثم تابع متداركاً ..

— .. آه .. لقد نسيت !..لقد ُطلب منا كذلك أن نفرغ تسعاً وعشرين زجاجة من عطر « جولي مدام » !!..

— تفرغونها ؟.. أين ؟!..

انقبض مندوب الإدارة على نفسه ، كمن يعترف بذنب ، ويحار في تبريره .. قال متردداً ..

— .. على .. الأثاث !.. على الأسرة .. وعلى الأرض ..

ثم تابع مسرعاً ..

— .. وحينما اتفق .. ماذا ؟.. هل أخطأنا ؟!.. أليست هـذه عادات مألوفة في بلاد سموكم ؟!..

نظروا في بادىء الأمر إلى بعضهم غير مصدقين !!..

كادوا ينساقون مع حاجة ملحة بالضحك .. لكن فراساً استدرك الموقف بأن أعطى مندوب الإدارة قطعة نقود كبيرة ، من الظاهر أن هذا كان في انتظارها ..

ثم قال هازئاً ..

— .. بل لقد أحسنتم الصنع !.. إنهـا عاداتنا بالفعل !.. لكنكم لابد نسيتم أن تفرغوا بعض هذه الزجاجات في دورة المياه !!..

بهت المندوب لما سمع .. وانطلق خارجا من الجناح ، دون أن يجيب ..

كانت ميساء في الغرفة المجاورة ..

عادت محتقنة الوجه ، تلمع على شفتها العليا حبيبات صغيرة من العرق !..

وقفت بينهم صامتة لبرهة .. كان واضحاً أنها تحت تأثير انفعال قوي تحاول جاهدة أن تزيل معالمه عن وجهها ..

انفرجت أساريرها عن ابتسامة منتصرة ، وتمتمت ..

ــ إنه آت .. سوف يأتي بعد قليل ..

سألتها قطر الندى بدهشة ..

ــ من الذي سيأتي ؟.. مراد ؟!..

ــ .. نعم .. كنت أكلمه على الهاتف .. سيكون هنا بعد عشر دقائق !..

قالت هذا ، وهرعت إلى غرفتها تهيىء زينتها ..

سارع كل منهم إلى غرفته .. ثم عاد فراس إلى البهو يفتح النوافذ ليخفف عن الجو وطأة رائحة العطر !..

كان أول من استعاد سكينته بينهم .. فجلس يستحثهن على الإسراع في إنهاء زينتهن ، يصيح لهن ، بين الفينة والأخرى ، مازحا ..

ــ .. ها هو قد أقبل !.. لقد وصل !.. لقد قرع الباب !..

عادت ميساء بعد أن بدلت ثوبها وأنهت ترتيب جدائلها ..

لم تشأ أن تكون عند الباب لدى وصول مراد !.. رجت فراساً أن يقوم باستقباله ، وأن يدع بضع دقائق تمر قبل أن يناديها !..

ما كادت تنهي كلامها حتى سمع قرع على الباب ، فأسرعت عائدة إلى غرفتها .. بينما تقدم فراس ليستقبل الزائر ..

مضت لحظات قبل أن يتكلم أحدهما !..

وقف الشابان يتفحصان بعضهما ، تعلو وجه كل منهما ابتسامة هادئة ..

أخفى كل منهما دهشته عن الآخر !..

ما هكذا وصفت ميساء فراساً ، لمراد .. ولا هكذا وصفت مراداً ، لفراس !..

رأى فراس أمامه شاباً يصغره بخمس سنوات على الأقل .. طويل القامة ، شديد السمرة .. وسيماً .. بارز تقاطيع الوجه ، أول ما يلفت النظر فيه هو أناقته ، يزيد في تأكيدها استعداد قامته النحيلة لإبراز هذه الأناقة ..

قال مراد بلطف محبب ..

ــ أنت فراس !.. أميساء هنا ؟..

ضحك فراس ..

ــ طبعاً .. تفضل ، ستخرج بعد لحظات !..

دخل مراد ببطء ، يمشي وهو ينظر إلى فراس ..

جلس على أحد المقاعد ، وتابع ، وهو لا يزال يبتسم ..

ــ .. كانت لدي فكرة تختلف تماماً عنك في الواقع !..

فوجىء فراس بقوله .. لم يكن يعرف أن مراداً يعلم بوجوده أصلا !..

استوضحه الأمر ، فأجاب مراد..

ــ .. لقد حدثتني ميساء مراراً عنك .. في رسائلها طبعاً .. عن صداقتكما المتينة ، ومعرفتك القديمة بعائلتها ، إنها تأخذ بنصحك في كثير من الأحيان .. أليس كذلك؟..

ازداد عجبه .. وضحك في سره ..

يا لها من فتاة فطنة !..

لا ريب أنها حدثت مراداً عنه ، مدعية هذه المعرفة القديمة بعائلتهـــا ، كي تبرر صداقتها ، ورفقتها المتصلة !..

كان مراد ينظر إليه وفي عينيه عجب بادٍ لم يحاول أن يخفيه ..

ــ .. كنت أظنك كبير السن !!.. على أبواب الشيخوخة !...

ــ حقاً ؟.. وماذا وجدت ؟!.

ضحك مراد ..

ــ .. وجدت شاباً في مثل سني !!.. أصحيح أنك متزوج ؟..

ــ طبعاً .. وزوجتي معنا .. ستخرج بعد حين ..

صمت مراد برهة ، وغير مجرى الحديث ،سائلا ..

ــ .. ما بالك ترتكز على هذه العصا ؟.. أهنالك مايؤلم ساقك ؟..

قال ذلك بشيء من اللهفة كمن يهمه حقاً هذا الأمر !..

وإذ أوضح له فراس أنه يعاني من ألم في إصبع قدمه ، بدأ يشعر به منذ أسابيع ، سارع مراد إلى إبداء النصح ، وأصر عليه أن يراجع طبيبه الخاص في باريس !..

أبدى من الاهتمام بعاته مالم يستطع فراس إزاءه سوى أن يتساءل عن دوافع هذا الاهتمام !..

حار في العثور على جواب شاف ، لم يزح هذا السؤال من ذهنه قبل أن يكور على نفسه القول بأن ميساء كانت جد مخطئة في فهمها لمراد !.. إذ رغم أنه لم تمر دقائق بعد على معرفتها ببعض ، فمن الظاهر أن مراداً ليس ذلك الأناني المتعجرف الذي لايرى في الكون وفي الآخرين سوى مكان وأدوات لتحقيق نزواته !..

نهض فراس يُعلن لميساء حضور زوجها ، فدخلت هذه ببساطة واتزان ، وتبعتها قطر الندى ، ثم زوجته ..

عادوا إلى الجلوس ، بعد أن أزاحوا من المقاعد ما هيأ لهم جلسة دائرية ، وبدأت ميساء حديثاً وجهته إلى مراد ، اشتركت بدورها فيه قطر الندى ، ثم زوجة فراس .. بينما راح فراس ينظر إليهن ، ويتسلى بصورة تمر في خياله ، يزيح فيها مراداً من مقعده ليضع فيه هلالاً ، فلا يتبدل في الجلسة الدائرية شيء ، سوى لهجة هلال ، والمواضيع التي تهمه ، تتناولها هؤلاء النسوة الثلاث بنفس الاهتمام وبنفس الدلال !.. ثم يزيح هلالاً من ذلك المقعد ، ليضع جعفراً مكانه ، ومرة أخرى ، لاتتغير إلا اللهجة ، وموضوع الحديث ، ويبقى اهتمام النسوة على ما هو عليه .. فلا يتبدل التصنع ولا يخف الدلال !..

كان فراس ساهما يحرك مقبض عصاه الفضية على خده ..

شعر أن مراداً يحدق فيه لسبب خفي عليه ..

أحس بحرج إذ انتبه إلى أن طرف المقبض بات بين شفتيه ، وأن مراداً ينظر إليه بإلحاح وهو على هذا الوضع ..

اجتاحه حرج طفولي .. كأنه ضبط وإصبعه في أنفه ..

لم يشأ أن يغير وضع العصا ، بل تابع تحريكها بين شفتيه بإصرار !..ماذا في الأمر ؟!.. أليست عصاه هو ؟!.. ومقبضها نظيف ..ومن الفضة الخالصة !؟..

ما لمراد يحدق به و كأنه يقوم بأمر مشين ؟!..

أمر ، قام به مراد ، بقي في ذهن فراس دون تفسير !..

وجَّه سؤالاً إلى ميساء ، وفي الوقت ذاته ، مد يده نحو فراس ،مشيراً إلى أنه يود منه أن يعطيه العصا ..

فوجىء فراس بذلك .. وناوله إياها ، وإذا بمراد ، في الوقت الذي كان يصغي فيه إلى جواب ميساء ، يمسك بالعصا أمامه ، مثلما كان فراس ممسكاً بها ، ودون أن يمسح البلل عن مقبضها ، يضعه بين شفتيه ، ويحركه كما كان يحركه فراس!..

أخفى فراس عجبه .. نظر إلى ميساء مستطلعاً ، فأجابته بإشارة من حاجبيها كمن تقول له إن حركة مراد صبيانية ، لايجب الانتباه إليها !..

لكنّ عجباً بقي في ذهنه إثر تلك الحادثة ..

تساؤل ، لم يفارقه لمدة طويلة !..

كان على مراد أن يترك باريس لأمر هام في اليوم التالي ، أو هكذا ادعى ، فأصرَّ في دعوتهم لقضاء السهرة معه في مربع ليلي محبب إليه .

لم تكن ميساء بحاجة لهذا الإصرار !..

قبلت دعوته على الفور .. وكان على الجميع أن يقبلوها إسوة بميساء ، ونزولاً عند رغبة الأمير ، زوجها !..

كان الوقت قد جاوز التاسعة مساء .. فتركهم مراد على أن يعود بعد ساعة ليقلهم إلى مكان السهرة ..

ما كاد يخرج من البهو ..حتى هرعت النساء إلى غرفهن ،مرة أخرى !..

ميساء .. تتذمر لضيق ماتركه لها مراد من وقت .. ولشعورها بالتعب من جراء رحلتهم الطويلة ..

قطر .. تتحسر على ما سهت عن إحضاره من مجوهرات يليق إظهارها أمام الجميع في مثل هذه السهرة !..

أما زوجة فراس ، فغابت في غرفتها دقائق ، ثم عادت إلى البهو ، حيث كان فراس لايزال غارقاً في تأملاته ..

طالعته قائلة ، والدموع في عينيها ..

ـ فراس !.. لن أذهب معكم إلى هذه السهرة !..

سألها عن السبب ، فدهش إذ سمعها تقول متذمرة ..

ـ .. تود أن تعرف لماذا ؟.. لأن ميساء وقطراً سترتديان أجمل ما لديهما من ثياب !!..

سألها حائراً متعجباً ..

ـ وماذا يضير ؟.. ألا تجدين أن هذا أمر طبيعي ؟..

ـ وما الذي أقتنيه من ثياب السهرة ؟..

ـ .. إن ماعندك لايقل أناقة عما لديها !..

بادرته بما كان يحرقها منذ البدء ..

ـ .. ها !.. سترتدي قطر معطف « الفيزون » !.. وستعطي فروها الرمادي لميساء !.. ستتحليان بأغلى المجوهرات !!..

وتابعت ، وقد أجهشت فجأة بالبكاء ..

ـ ما الذي عندي من فراء أو مجوهرات ثمينة ؟!.. سأبدو كخادمة بينهما !!.

امتعض فراس من بكائها .. واشمأز من وجهها المتلوي ..

تذكر ذلك الوجه يوم أعطاها ساعة جعفر الماسية !.. تذكر انفراج فمها العريض.. وتحديق عينيها !..

ماذا تود ؟.. أن تخدع نفسها .. أم الآخرين ؟!..

ألم يعد في هذا الجسد القصير المترهل نفس تحترم ذاتها ؟!..

دخلت قطر الندى البهو في تلك الأثناء ،وتساءلت متعجبة عن سبب دموع زوجته ، فلما أخبرها ، ضحكت منها ..

ـ أهذه هي المشكلة ؟.. تعالي ، إن عندي ماسيصلح كل شيء !..
ولما نظر إليها فراس مستنكراً ، ضحكت منه ..
ـ .. كفاكما صبيانية !.. أتود تعقيد الأمور أم تبسيطها ؟!..

دخلتا غرفة قطر مسرعتين .. ولما خرجتا منها ، كانت زوجته تحيط كتفيها بفرو ثمين بني اللون ، ويتدلى من أذنيها قرطان ماسيّان لم تكن قطر بحاجة إليها لتلك السهرة !..
نظرت زوجته إليه ،والزهو يملأ عينيها ..
ـ .. ألا أبدو جميلة هكذا ؟..
قالت ذلك ،وتبخترت أمامه يمنة ويسرة !..

ودّ لو يقول لها .. « قد تبدين أكثر أناقة وثراء من السابق .. لكنك لن تصبحي جميلة مهما حاولت !!. »

لئن كان في النفس أحياناً ما يعوّض عن نقصٍ في جمال الوجه .. فنفس زوجته ، لم تكن غير قادرة على مثل هذا التعويض فقط ، بل إنها كانت تزداد قبحاً يوماً بعد يوم !..

* * *

أمضوا سهرة ، لعل زوجة فراس كانت الوحيدة التي استمتعت بها !..
عادوا إلى الفندق واجمين ..
ما هكذا كان فراس يود أن يقضي أول ليلة له في باريس بعد غيابه الطويل عنها !..

تذكر كيف دخل الملهى ، برفقة مراد ، يتبعان زوجتيهما وقطر الندى ، وكيف فوجىء بوجود مدعوين آخرين ، رفاقٍ لمراد ، كانوا في انتظارهم في ذلك الملهى ..

كان من بين المدعوين ثلاثة سيدات إفرنسيات ما إن تقدمن لاستقبالهم ، حتى بانت رشاقة أجسامهن وأناقة ملابسهن البسيطة ، فأظهرن تكلف صحبه بما كنّ قد تلفحن به من فراء !..

سارعت ميساء إلى رفع فروها ، كي تظهر ثوبها الأنيق ..

لحقتها بذلك قطر الندى ، كي تكشف ما حمّلت به صدرها من مجوهرات ..

أما زوجة فراس، فأصرت على أن تظل ملفوفة بفروها ، مدعية البرد ، رغم دفء الملهى ، كي لايلاحظ الحاضرون أن ليس لها ما لقطر من مجوهرات ، أو أن ثوب ميساء أكثر أناقة من ثوبها !..

لم يجلس مراد بينهم .. بل تابع سيره نحو الراقصين برفقة إحدى مدعواته الإفرنسيات ، وما إن توسط حلبة الرقص ، التي لم تكن قد اكتظت بعد ، حتى بدأ يتلوى مع رفيقته على أنغام إيقاع الموسيقى الصاخب !..

امتعضت ميساء في بادىء الأمر .. لكنها ، ما إن رأته مندفعاً في الرقص ، ورأت إجادة رفيقته في متابعته ، والاستجابة لما كان يبتكره من حركات ، حتى شكرت حظها الذي أعفاها من هذه التجربة !..

كانت ، رغم ذلك ، تتحرق لأن تكون مكان هذه التي يراقصها مراد !..

شردت قليلاً .. كم كانت تود لو أن باستطاعتها أن تقف وسط الحلبة وحيدة وتصعق جميع الحاضرين بتلوّيها !. تبذهم الواحد تلو الآخر ثم تخرج من الحلبة ، لا بصحبة مراد ، بل برفقة أجمل شباب باريس !.. برفقة هذا الزنجي الذي يتصبب عرقاً .. بل بصحبة ثلاثة منهم إن لزم الأمر !.. يصيح بها مراد « أين تذهبين » .. فتنظر إليه شذراً ، وتقول له بسخريتها التي تجيدها .. « وما شأنك أنت ؟.. اذهب وتعلم الرقص »!!..

طالت الموسيقى ..

تتابعت الرقصات ومراد على حاله مع رفيقته في مرح ولهو !..

وبعد سلسلة طويلة من الأنغام الصاخبة ، هدأت الموسيقى ، وعلا صوت لحن محبب قديم ..

توقف الكثيرون عن الرقص وعادوا إلى مقاعدهم ، مترنحين ، ليحل مكانهم على الحلبة هواة الرقص الحالم .. يتسابقون ليحتضنوا بعضهم لفترة دافئة حالمة ..

أقبل مراد نحوهم ضاحكاً ..
أوصل رفيقته إلى مقعدها ، ثم تقدم إلى حيث كانت تجلس ميساء وأصحابها ..

خفق قلب ميساء !..
سيطلبها إلى الرقص لامحالة !..
لاريب أنه انتظر هذا اللحن الشاعري كي يراقصها على نغماته .. وستعرف كيف تستجيب إلى خطواته !..
تناول مراد مقعداً شاغراً ..
ألقى إلى ميساء بابتسامة عابرة .. ثم جلس على ذلك المقعد قرب فراس !..
لحظات ، وشرع معه في حديث وفكاهات عن عازفي الجوقة الذين كان يعرفهم شخصياً ، والذين طالما تابع السهر برفقتهم بعد انتهاء ساعات العمل ..

بان امتعاض ميساء واضحاً على وجهها .. وشاركتها قطر الندى هذا الامتعاض !..
لم يكن هنالك مايمكن أن تقوم به الأختان للأخذ بذمام الموقف !..
بدأت قطر الندى بإشارات خفية إلى فراس ، تومىء له فيها أن يكف عن محادثة مراد ، ليتيح له طلب ميساء للرقص ..
حاول فراس أن يفهمها أنه لايتكلم مع مراد ، بل يصغي إليه فقط !..
لم تأبه لإشاراته !. لابد أن ميساء تظن أيضاً أنه يلهي مراداً عنها !..
ضاق بوضعه .. وحار فيما يفعل ..
أحس بحرج شديد لم يجد إزاءه مخرجاً سوى أن يقول لمراد ضاحكاً ..
ــ ياله من نغم جميل .. هل تجيد الرقص البطيء ؟..
ــ .. طبعاً !..
ونهض مراد على الفور ، يطلب الفتـــاة الافرنسية مرة أخرى ، ليظهر افراس براعته في الرقص على ذلك الإيقاع الحديث !..

لعل زوجة فراس كانت واعية لما خيّم على الآخرين حولها من حرج .. لابد أنها انتبهت إلى مايدور بينهم من إشارات !.. لكنها جلست غير عابئة لما يجري حولها !..

أشار مراد إلى فراس بالرقص مع مدعوته الإفرنسية الأخرى !.. وكانت هذه قد لاحظت إشارة مراد ، فنهضت ، تلبية لإيماءة الأمير ، تنظر نحو فراس ، وتنتظر أن يتقدم لطلبها !..

لم يجد فراس بدأ من الذهاب إليها !..

لحظات .. وكان هو الآخر يتهادى على الحلبة ،ويحس، رغم البعد ، بنظرات زوجتةوصديقتيه وقد أضحت نقمتها عليه دون مراد !..

ما إن فرغوا من الرقص وأعاد رفيقته إلىمقعدها حتى أشارت إليه ميساء بأن صداعاً شديداً قد ألم بها .. وطلبت أن تعود على الفور إلى الفندق !!..

دخل فراس غرفته مرتاحاً إلى أن تلك السهرة لم تطل ، سعيداً بأن مراداً رافقهم حتى الفندق ، وبذلك لم تتح لصديقتيه الفرصة كي تفرغا أمامه مافي جعبتيهما من انتقادات ..

كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحاً ..

كان سريره في غرفة منفردة تتصل بغرفة زوجته ، فما إن أغلق بابه ، واستلقى على الفراش ، حتى تناول الهاتف الذي بجانبه ، وأدار رقم المصح ، حيث تقيم صديقته « لورا » ..

* * *

الفصل الخامس

طغى التأهب لعمليات التجميل على كل ماعداه في مشاغل ..

قابلوا الطبيب في اليوم التالي ، ثم عادوا إلى الفندق يستعدون لدخول المشفى ..

لم تمض ساعات حتى كانت كل من ميساء وزوجة فراس في فراشيها ، تنتظران وصول الطبيب ..

لم يندّ عنها أي تخوف أو دلع .. لقد صممتا على كسر قيود كبلتها بها الطبيعة ، فستواجهان هذه التجربة بما يليق بهما من تصميم !..

لطالما حلمتا بهذه اللحظة ..

غداً ، ستنظر زوجة فراس إلى نفسها في المرآة ، فيطالعها ، بدل أنفها الحاد الطويل المعقوف ، أنف جميل ، دقيق ، مرفوع !..

ستقف ميساء عارية أمام المرآة ، وتفخر بما ترى !..

لن تحتاج لأن ترفع ذراعيها لتخفف من تهدل ثدييها !.. ولن تلجأ إلى إخفائهما بيديها ، أو جمعها بذراعيها ، كي يبدوا ممتلئين ناضجين .. وتبدو هي صغيرة السن أمام مراد !..

مراد ؟.. أمن أجل مراد تقوم بهذه العملية ؟!..

لا ، وألف لا !. بل من أجلها هي !..

من أجل أن تصبح كما تود لنفسها أن تكون !..

كانت تعلم في قرارتها أنها لاتسعى وراء مراد حباً به .. بل حباً بنفسها !..

لئن أرادته زوجاً لها فلم يكن مبعث ذلك حبها الأمراء ، بل تعزيزاً لثقتها بأنها ولدت أميرة .. ولا يعوزها غير زوج يحمل هذا اللقب كي تتم الصورة التي لنفسها في ذهنها !..

دخلتا غرفة العمليات الواحدة تلو الأخرى .. وسرعان ماتمت العمليتان بنجاح ، واقتيـدتا إلى فراشيهما ، غارقتين بنوم عميق من تأثير المخدر ..

لبث فراس وقطر الندى إلى جانبيهما برهة حائرين فيما يفعلان . وإذا بالطبيب يشير عليهما بترك الفتاتين ، والعودة لزيارتهما في صباح اليوم التالي ..

لم يكن قد تبادر إلى ذهن فراس أنه سيجد نفسه يوماً وحيداً مع قطر الندى !.. هل جال في ذهنها ، هي الأخرى ، هذا الخاطر ؟..

نظر إليها مبتسماً ، وهو يدير محرك السيارة ، بعد أن خرجا من المشفى ..

ــ .. إلى أين نذهب !؟..

انتبه إلى أنها أخفت ابتسامة كانت قد تلاعبت على شفتيها !..

نظرت إلى الناحية الأخرى ،وقالت ..

ــ .. لنذهب إلى الفندق أولاً .. أود أن أبدل ملابسي ..

كان المصح في ضاحية من ضواحي باريس .. وفندق جورج الخامس فيوسطها.. والطريق طويل ..

أجابها على وتيرة واحدة ..

ــ إنها ساعة الازدحام .. ولن نصل إلى الفندق قبل ساعتين علىالأقل.. ما رأيك في أن أطلعك عن قرب علىبعض معالم باريس ؟..

لم تجبه .. سألها وبعض الدفء يتسرب إلى صوته ..

ــ لكن .. لماذا تودين تبديل ثيابك ؟..

أدارت بوجهها نحوه بنزق ، وقالت عاتبة ، حائرة ..

ــ ألا تود أن نخرج إلى سهرة ما هذه الليلة ؟!..

قالت ذلك ، وكأنها أجبرت على الإدلاء بأمر لاتود التحدث عنه !..

ــ .. وتودين أن تبدلي ملابسك هذه ، بملابس للسهرة ؟.. معطف الفيزون ؟.. والمجوهرات ؟!!..

عجبت من نبرة صوته الساخرة ..

ــ طبعاً .. وماذا في ذلك ؟!..

ــ وتسألين !!.. أتظنين أني متشوق لتكرار سهرة الليلة الماضية ؟!..

سألته بذهول ..

ــ ماذا تعني ؟..

ــ اسمعي !!.. إما أن أقرر أنا تفصيلاً ماسنقوم به الليلة ، أو أن تقومي بذلك أنت !..

قالت عاتبة ..

ــ أردتُ أن أرتدي أجمل ماعندي .. ألهذا تسخر مني ؟!..

ــ .. أمامنا أسبوع كامل ، تستطيعين في خلاله ارتداء ماتشائين !.. دعك من الزينة والمجوهرات هذه الليلة !!..

قطبت قليلاً .. وقالت بلهجة من يرى في المستقبل ، ويتطير منه ..

ــ قد لاتتكرر أمامنا مثل هذه الفرصة !..

ــ .. ماذا تعنين ؟!..

ــ .. قد لاتسنح لنا فرصة السهر معاً غير هذه الليلة ..

ــ وهل يمكن ذلك ؟.. زوجتي وميساء في المشفى ، ولن تخرجا منه قبل أسبوع على الأقل !..

خلدت إلى صمت مثقل بالمعاني .. ثم نظرت إليه طويلاً .. وقالت مستسلمة ..

ــ حسناً !.. وماذا نفعل اليوم ؟..

ــ .. لا .. يجب أولاً أن توافقي على شرطي !..

ــ حسناً .. سأعمل بجميع ماتشيره علي !..

ــ أتقسمين على ذلك ؟..

ــ أقسم على ذلك !..

نظرت إليه كطفلة تُسلم قياد اللعب إلى طفل أكبر منها وأقوى ..

وشد فراس على يدها كمن يقول لها « تعالي ندخل هذا الغاب العتم .. لن يصيبك مكروه مادمت معك » !..

أخذ منديله من جيبه ، ومد به إليها قائلاً ..

ــ .. ابدئي بمسح جميع ماعلى وجهك من زينة .. ولا تبقي غير الكحل حول عينيك !!..

ــ !!..

ــ هيا .. !! .. ألم تقسمي على إطاعتي ؟!!..

أخذت المنديل منه متبسمة ، وبحركة بطيئة ، قامت بما طلبه منها .. وإذ فرغت من ذلك ، سألته ..

ــ .. وماذا بعد !؟..

ــ .. انزعي جميع مافي شعرك من دبابيس ، أطلقيه على هواه !..

نظر إليها وقد أتمت ماطلبه منها ..

كانت قد جمعت قسماً من شعرها الطويل في ربطة أطلقها إلى الوراء ، وتركت ماتجعد من شعر صدغيها يتهدل برفق على خديها ..

بدت ، بعد أن زالت عن بشرتها المساحيق وأحمر الشفاه ، غضّة الوجه بريئة ، أجمل مما تعود أن يراها ، وأصغر سناً !..

ــ .. والآن ؟..

ــ .. والآن لم يبق سوى أن تنزعي ساعتك وخواتمك الماسية هذه ، ثم تضعيها هنا ، في هذا الصندوق !..

سرّه أن يراها تنصاع إلى مشيئته ، راضية ، بعد أن أعجبها زيّها الجديد ..

سألته بدلال ..

ــ والآن ؟..

ابتسم ..

ــ والآن !..

نظر إلى قدميها ..وسألها عن رقم حذائها .. وإذ أجابته مذهولة .. أوقف السيارة أمام أول بائع للأحذية ، وغاب دقائق ، ليعود حاملاً معه حذاءاً بسيطاً ذهبي اللون ، بالغ الطراوة ، لا كعب له ..

ـ .. ستشعرين براحة أكثر بهذا الحذاء !..

قال هذا ..و رفع قدمها الأولى إلى حضنه .. ثم الثانية ..

نزع عن قدميها حذاءها ذا الكعب الدقيق الطويل ..

شدّ بيده قليلاً على قدميها المتورمتين بعض الشيء .. فأغمضت عينيها ضاحكة متسلية ، وندّت عنها آهة تدل على ماشعرت به من راحة لمس يده ..

ألبس قدميها الحذاء الذي كان قد أحضره ، وشد عليها من جديد ، وإذ بها تطلقها من يديه ضاحكة..وتحركها في الهواء كطفلة تلهو !..

قهقهت إذ تنبهت إلى بعض المارة الذين توقفوا ينظرون إليها عبر نافذة السيارة ، فأنزلت قدميها عن حضنه بحركة أنيقة .. وقالت ..

ـ .. والآن ؟!..

أدار فراس محرك السيارة مرة ثانية ..

ـ سأريك الآن مالا تعرفينه عن الحياة !..

غاص بها تلك الليلة في أعماق باريس ..

غاص كالصائد البحري ، لايلجأ إلى السطح إلا مضطراً لاستنشاق الهواء .. يعبّ منه ملء رئتيه ، ليعود إلى الأعماق ، باحثاً عن اللآلىء والأسماك الغريبة التي كان يتقفى أثرها !..

نزل بها كهوفاً عرفها وأحبها في الماضي ..

شاركها ماضيه ، وأطلعها على خباياه ..

أحس تارة أنه برفقة صياد قوي .. يجاريه في الغوص ، وتارة أخرى بأنه ، بهذه الرحلة إلى الأعماق ، إنما يمكّن نفسه من الإمساك بها ، يمكّن نفسه من الإمساك بصيد جديد !..

هل أحست قطر الندى بذلك ؟..

ألهذا كانت لاتكاد تندفع نحوه حتى تبتعد عنه ..لتستنشق الهواء ؟..

لقد جرّدها من سلاح تعودت أن تحتمي وراءه !..

فلا زينة ، ولا فراء ، ولا مجوهرات ، ولا شعر مصفف !..

حتى حذاءها ذا الكعب الطويل !..

جردها منه ، فأعادها بذلك إلى طولها الطبيعي .. إلى طريقة طبيعية في المشي، لم تتعودها !..

أحبته ، وكرهته !..

أرجعها قصراً إلى طفولتها .. طفولة حزينة لاتكافؤ فيها ، ولا مبارزة !..

طفولة لا سلاح فيها ، ولا مال ..

ذكّرها بطفولة تعيسة.. لم يكن لها يوماً الدور الأول فيها ..

غاصوا في كهوف صاخبة ، وفي كهوف هادئة ..

سمعوا شعراً عاطفياً وشعراً تجريدياً ، وضحكوا لنكات جريئة ، ثم انساقوا مع أغنيات شعراء يائسين ..

ارتعشوا لخفقات أوتار قيثارة أندلسية ..

لم تكن قطر تعرف أنها قادرة على التجاوب مع الألحان الصاخبة !..

يدخفية أمسكت بباب موصد في نفسها وفتحته على مصراعيه !..

هندامها البسيط .. وحذاؤها المريح .. والنبيذ المعتق !.. شياطين ، أو ملائكة تحركت في أعماقها ، فانساقت لأنفاسها ، واندفعت مع اللحن !..

لم ير الآخرون غرابة في أمرها . كأنها باريسيان ، شاب وسيم ، يجيد مصاحبة فتاة جميلة ، تجيد الرقص .. تندفع بين الفينة والأخرى مع سحر النغم ، وكأن مسّاً أصابها من إيقاعه .. فتجوّد في تحريك أطرافها .. تغلق جفنيها على ما يرتعش في أعماقها .. تبادل الشاب قبلات تائهة ، ثم تعود إلى الرقص !..

منظر تعودته كهوف باريس ..

لكن فراساً كان يشاهد أمامه تفتح معجزة !..

أهذه هي قطر ؟!.. أهذه قطر الندى التي لاتعرف من الكون سوى المال والزينة والدسم من الطعام ؟!..

أهذه هي قطر التي لاتحب من الأنغام سوى نحيب الشرق !؟..

أهذه الفتاة المرحة الطروب ، التي تكاد أقدامها تطير عن الأرض خفة ورشاقة ، هي نفس المرأة التي دخلت ملهى الأمس ، يضج وقع خطاها بما لفّحت به نفسها من فراء ، وما أثقلت به عنقها من قلائد ثمينة ؟!..

نال منها النبيذ ..

أحسا بدوار طفيف ، فتوقفا عن الرقص ، وخرجا يطلبان الهواء الطلق ..

خرجا يتنزهان في الشوارع الباردة ..

قادها بين طرقات باريس الضيقة المظلمة ، وأطلعها على الأماكن التي كانت تصدح فيها نغمات آلته الموسيقية ، حين كان يرتدي زي بحار ، ويعزف ألحان باريس القديمة .. وسار الهوينى تحت المساكن التي كان أهلها يلقون إليه بقطع النقود من نوافذها !..

ساروا على الجسر القديم ، ثم توقفوا في منتصفه يتأملون مياه « السين » ، وأضواء ضفتيه المتلألئة ..

ــ .. أحسُّ بقشعريرة باردة ..

لفّها بذراعه بحنان .. نظرت إليه ، ثم إلى المياه ثانية ..

ــ .. إنه مفعول النبيذ ..

ــ لقد دار برأسي أنا الآخر ..

عادا إلى السيارة بصمت .. وتوجها نحو الفندق ..

استقلا المصعد وهما يتحاشيان النظر ..

أغلقا باب الجناح المشترك ، وتوجه كل منهما نحو غرفته في الظلام !..

مضت برهة ، عاد فراس بعدها إلى البهو يبحث عن مجلة يقرؤها ..

لم يضيء النور ، بل اكتفى بالذي كان يتسرب منه من غرفته ..

تعثر بشيء أوقعه على الأرض ..

ــ .. أهذا أنت يافراس ؟..

سمع صوتها خافتاً .. ورأى النور ينبعث من أسفل باب غرفة نومها ..
ـ .. أبحث عن شيء أقرؤه .. ألم تنامي بعد ؟..
ـ .. عندي مجلة هنا .. تعال إن شئت ، خذها ..
أحسّ قلبه يخفق بشدة لاتطاق !..

ما إن فتح باب غرفتها .. حتى أطفأت نور السرير ..
وقف على الباب طويلاً ينظر إليها متمددة في فراشها ..
لم ير وجهها بوضوح ..

كان شعرها لايزال على الشكل الذي ربطته فيه من أجله ..
سمعها تهمس إليه بقول ، علت عليه ضربات قلبه ، فلم يفهمه ..
سألها واجفاً ..
ـ .. هل قلت شيئاً ؟!..
تنهدت .. وأشاحت بوجهها عنه !..

وكأن تلك كانت إشارة منها إليه ..
أغلق الباب وراءه .. وتقدم من سريرها في الظلام ..

* * *

الفصل السادس

يندر أن يحلو لشمس باريس إيقاظ النائمين أيام برد الشتاء القارص !..

أطلّت ذلك الصباح ، شاحبة اللون ، من فوق الأبنيـــة الرمادية ، وعبر مداخنها القاتمـة ، وأطلقت قبساً تسلل من فتحة في النافـذة ، فسقط متمدداً على الأرض في غرفة فراس ..

بدأ القبس زحفه الهادىء نحو السرير ، فارتقى جانبه ببطء ، وتسلق على الوسادة ، إلى أن وصل جفني فراس ، فحركهما ..

نظر فراس حوله ..

كيف عاد إلى غرفته ؟.. ومتى ؟..

رفع غطاء السرير عن وجهه .. وتمسك بأذيال النوم !..

نادى نهدين سخيين كانت صورتهما ماتزال ماثلة أمامه .. فجال بشفتيه عليهما ، وطوق بذراعيه ذلك الجسد الرخص !..

تسارعت نبضات قلبه .. وأحس بتوتر في جميع أنحاء جسده !..

تسلل النور مرة ثانية عبر غطاء السرير ، فأدرك جفنيه المغمضين .. فتحهما ، فأفاق إلى أنه وحيد في فراشه .. وأن ذلك الجسد في غرفـــة مجاورة ، يفصلهما بهو واسع الأرجاء !..

متى عاد إلى غرفته ؟.. لا يهم ..

تناول سماعة الهاتف ، وإذ أخبرته العاملة أن الوقت قد قارب الظهيرة ، طلب منها أن تصله بغرفة قطر ..

جاءه صوتها ناعساً دافئاً ..

ـ مممم ...

ـ هل أيقظتك من نومك ؟..

ـ مممم !..

ـ ... قطر .. كان علينا أن نكون في المشفى منذ ساعة .. والساعة الآن الثانية عشرة !..

ـ مممم ؟..

أعادت أنّاتها ذكريات الليلة الماضية إلى رأسه .. فتسارع نبضه مرة ثانية ، وتمنى لو لم يفارق فراشها ..

ـ .. قطر ! انهضي !.. لقد تأخرنا !..

ـ .. حسناً .. حسناً .. سأكون جاهزة بعد عشر دقائق ..

أسرع في الاستحمام ..

أحس بنشاط ومرح داخليين ماعرف مثلها منذ زمن طويل ..

هرع إلى ثيابه ، يختار منها أبسط ما لديه وأدفأه ، ثم أسرع إلى البهو ، وقرع باب غرفة قطر ..

أتاه صوتها ..

ـ .. مهلك .. مهلك .. سأخرج بعد دقائق !..

جلس ينتظرها في البهو .. تمشّى نحو النافذة ،وأزاح ستائرها ..

وقف يرتشف قهوته ، وينظر من باب الشرفة الزجاجي إلى الأبنيـــة الرمادية والمداخن البعيدة ..

سمعها تفتح باب غرفتها .. فاستدار مبتسما وهم بالاقتراب منها ..

أمعن النظر فيها .. ثم تسمَّر في مكانه مذهولاً لما رأى !..

وقفت أمامه وقد طلت وجهها بأضعاف المساحيق والزينة التي تعوّدتها .. وكأنها تزيَّنت لعرس أحد الأمراء الشرقيين !..

لابد أنها تحلَّت بكل ما كانت تحمله معها من مجوهرات !..

وهذا الثوب المخملي الأسود !.. وهذا الفرو الطويل على ذراعها !.. وحذاؤها الدقيق العالي !..

سألته متعجبة ، متشامخة ..

ـ ما بالك تحدق هكذا ؟..

كان في صوتها برود أقلقه ، وزاد من دهشته ..

أجابها متردداً ..

ـ أجادة أنت ؟!.. الوقت ظهر !.. لماذا كل هذه الزينة ؟..

لم تجبه !.. ولما ظل واقفاً في مكانه ينتظر جوابها .. قالت ..

ـ .. سأذهب إلى « ديور » بعد زيارة المشفى لشراء بعض الثياب !.. ولا أود أن أعود إلى الفندق لتبديل ثيابي !!..

كان يعلم بأنها ذاهبة إلى « ديور » .. لكنه أحس أن في مبالغتها بالزينة على هذا الشكل هدفاً آخر !.. وأنها إنما تنتحل هذه الزيارة كعذر لتغطية أمر صممت على القيام به !..

قال ببرود ، واستخفاف ..

ـ أتظنين حقاً أن « ديور » سيعجب بك لو رآك بمثل هذه الزينة ، وهذه المجوهرات ، في مثل هذه الساعة المبكرة من النهار ؟!..

لم تجبه .. لعل وجهها امتقع تحت المساحيق ..

أحس أن عليه التراجع أمام حدود لا تتيح له اللياقة أن يتجاوزها .. فتابع قائلاً ..

ـ .. حسناً .. لنذهب .. لقد تأخرنا بما فيه الكفاية !..

خيم الصمت عليهما في السيارة .. أدار فراس المذياع إلى موسيقى جميلة هادئة .. تلهي بالمارة ..

كان ينظر أمامه فنسي زينة قطر المفتعلة ، وفروها ، وحليها ، واسترجع إلى ذهنه ملاك العشية .. وسكون ذلك الليل ..

كان ماخلعته من حلي ، قبل سهرة الليلة الفائتة ، مايزال في صندوق السيارة ، يذكره بما عرفه معها من سعادة ..

امتلأ صدره مرة ثانية بفيض من العاطفة .. وتدفقت ابتسامة على شفتيه ..

سألها برفق ..

— .. هل هنئت بالنوم البارحة ؟..

أبدت عجباً من سؤاله ، وأجابت ..

— وكيف لا أرتاح ؟.. لم أكد أغلق باب غرفتي ، حتى أويت إلى فراشي وأغرقت في نوم عميق !..

صمت .. أحس بأنها تقول شيئاً لم يفهمه .. أو أنها ترمي إلى هدف لم يدركه !..

تابعت كلامها ..

— .. وماذا فعلت أنت ؟.. أقرأت كعادتك ، أم هل لجأت فوراً إلى النوم ؟!..

صعق لما سمع !!..

أيمكن أنها تحاول تجاهل البارحة ؟!..

كيف تقوى على ذلك ؟.. ولماذا ؟.. لماذا ؟!..

امتقع وجهه ، ثم شحب .. راح يردد على نفسه ، ويهز رأسه هزات خفيفة « تريد إذن أن تنسى » .. « تريد إذن أن تنسى » « حسناً » .. « فليكن لها ما تريد » !..

ثارت كبرياؤه .. وجهد في إخفاء امتعاضه الشديد ..

أدرك أن عليه أن يتكلم .. أن يقول أي شيء ، وبصوت طبيعي ، كي لا يمكّنها من أله !..

تجاوز حادثة الأمس .. تجاوز نفسه ..

تطرق في الحديث إلى مواضيع أخرى .. لكن لهجة البرود واللامبالاة المتعمدة لم تفارق أجوبتها .. فادرك أن في الأمر أكثر من تجاهل حب الليلة الفائتة .. أو محاولة مسخ هذا الحب على شكل مغامرة عابرة !..

ومن خلال غيظه وألمه المكبوتين..أحس وكأن قطراً قد واجهت مشكلة عميقة.. فاختارت أن تحلها على هذا الشكل !..

سرعان ما وصلا المشفى .. فدخلاه واجمين ..

أراحهما أن وجدا المريضتين متشوقتين إلى لقائهما ، لايحلو لهما سوى الكلام عما قامتا به من تجميل ..

مرت الساعات ببطء ممل ، ولئن عاد كل منهما إلى طريقته الطبيعية في الكلام إلا أن رأسيهما كانا يدويان بألف أمر وأمر !..

ــ .. كيف قضيتما ليلة الأمس ؟..

فوجىء فراس !.. باغته أن تسأل زوجته عن أمس ..

كان من الطبيعي أن تسأل زوجته هذا السؤال ، ومن البديهي أن يحضّر مع قطر جواباً له !.. لكنهما لم يخططا لحوادث البارحة !.. وكأن ما مرّ معهما أمر طبيعي ، لذلك لم يشعرا بحاجة إلى التحضير لإخفائه ..

نظر إلى زوجته بصمت .. ثم انتبه إلى نفسه ، فاستدرك قائلاً ..

ــ .. ذهبنا إلى السينما ..

علّقت ميساء ..

ــ .. التعب باد على وجهيكما .. هل أطلتما السهر ؟..

ــ .. أتعبنا الفيلم ..

ــ ماذا كان عنوانه ؟..

ذكر لها فراس أول عنوان جال في خاطره !.. ثم نظر إلى قطر ، ولأول مرة ، منذ ليلة البارحة ، أحس بعينيها تنظران إليه ببراءة ، تستنجدان منه العون !..

أدرك أنها لاتعرف شيئاً عن الفيلم الذي ذكره .. وأنها تخاف أن تسأل عنه ، فتابع قائلاً ..

ــ لابد أنه لم يعجب قطراً .. لقد أمضت معظم العرض وهي نائمة !..

ضحكت ميساء .. ونهضت قطر ، وقد استرجعت ثقتها ، فقالت على عجل ..

ــ علي أن أذهب الآن إلى موعدي مع « ديور » ..

ثم نظرت إلى فراس ، وسألته مسترجعة لامبالاتها ..

ــ وأنت .. ماذا ستفعل الليلة ؟.. أنا شخصياً ، أود أن ألجأ إلى النوم مبكرة !..

نظر إليها ملياً .. ثم قال متعمداً عدم الاكتراث ..

ــ .. سأذهب لزيارة صديقي « باتريس » ..

كان على المريضتين أن تلجآ إلى الراحة .. فنهض فراس مع قطر .. وتركاهما على أن يعودا إليهما في اليوم التالي ..

عاد فراس إلى الفندق .. وحاول عبثاً الاتصال بصديقه « باتريس » .

همّ بالخروج ثانية .. وإذ بالهاتف يدوي في غرفته .. فهرع إليه ..

سمعتُ صوته يجيبني ..

ــ .. كنت على وشك مغادرة الفندق حين سمعت رنين الهاتف .. ثم صوتك!..

فقلت على عجل ..

ــ .. وصلت اليوم .. وها أنا أتصل بك على الفور .. هل أنت على موعد ؟.. سأمكث في باريس أياماً .. إن كان لديك مايشغلك فباستطاعتنا أن نلتقي غداً ، إن شئت !..

أجابني لهفاً ..

ــ .. بل أشكر الصدف التي أعادتني إلى الفندق لأتلقى مخابرتك !.. كنت على وشك الاتصال « بلورا » .. أتود أن نذهب لزيارتها معاً هذه الليلة ؟..

ــ لم أرها منذ سنين .. يسعدني جداً أن نذهب !..

ــ حسناً .. أنا بانتظارك ..

لم تمض ساعة من الزمن حتى كنا في طريقنا إليها ..

المصح في غاب « فانسين » .. قطعة من الغاب نفسه ، أحيطت بسور كبير .. وبين أشجاره الباسقة ، وعلى مسافات بعيدة من بعضها ، بنيت بيوت منفردة

أنيقة ، لولا الممرضات المتنقلات بينها بزيّهم الأبيض ، لما حسبها الناظر سوى ما كن أنيقة ، بنيت لأناس مترفين .. أثرياء ، اقتطعوا هذا الغاب من العالم ، ليبتعدوا عن صخب باريس ..

لم تكن زيارة « لورا » بالأمر السهل ، فهي تسهر الليل ، وتنام النهار !..

يُسأل الطبيب المشرف على المصح ما إذا كانت حالتها الصحية تسمح لها بقبول الزائرين ..

وحتى لو سمحت حالتها بذلك ، فلا يأذن طبيب ، مالم يكن على معرفة شخصية بالزائر ..

كانت حالتها تستوجب منه هذا الحذر .. ليستوثق من حسن تأثير الزائر على وضعها النفسي ..

لذلك ، كان عدد الذين يسمح لهم بزيارة « لورا » لايزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة .. كثيراً ما كان الطبيب يستثنى معظمهم !.. فلا يسمح بزيارتها لمن شاء ، متى شاء ، سوى لاثنين منهم .. فراس ، وامرأة طريفة ، صديقة قديمة للورا ، تقرأ الغيب ، وتزاول جميع مايرفضه العلم مما يتعلق بالنجوم !..

طرقنا ، ونحن في دربنا موضوعات شتى ..

كان فراس يحدثني بمرح ولهفة ظاهرين .. ثم يصمت ، فيعتريه الوجوم ، ولا يعود إلى الكلام ما لم أجرّه على متابعة الحديث ، فيفيق من شروده ، كمن يصحو من حلم غريب ..

ــ ماذا تخفي عني يافراس ؟.. هل ألم سوء « بلورا » ؟..

ــ .. الأمر لايتعلق « بلورا » !..

ــ هنالك أمر إذن .. بمن يتعلق ؟!.

ــ بي أنا .. وبقطر الندى !..

لم أعلّق على ماسمعت .. فنظر إلي متفحصاً ..
ـ لابد أنك تهزأ مني في سرّك !..
أجبته عاتباً ..
ـ متى كنت أهزأ منك ؟.. أو من أيّ إنسان يحب ؟..
أجابني ساخراً ..
ـ إن أكثر مايضحكني فيك هو هذه القدسية التي تضفيها على الحب !.. قل لي بربك !.. ألا ترى في ذلك نزوعاً لا شعورياً منك نحو القيام بدور « ملاك الحب »!..
ـ .. وماسبب هذه السخرية ؟.. ماذا بينك وبين قطر ؟..
عاد فراس إلى نفسه ، هز رأسه بوجوم ..
ـ .. بالضبط .. ماذا !..

وبعد أن سرد علي حوادث الليلة الماضية .. قال واجماً ..
ـ .. لم أعد أفهم نوع العاطفة التي أشعر بها نحوها !..
سألته متردداً ..
ـ .. وقطر ؟..
ـ أظن أنها أحست بخطورة ماتشعر به !.. إنها الآن تدافـــع عما بنته لنفسها من كيان !..ترفض الخوض في مثل هذه التجربة !..
ـ أتظنها واعية لذلك ؟..
ـ كل الوعي !.. وهذا مايؤلمني !..
كنا قد أشرفنا على المصح .. فطالعتنا أشجاره من بعيد ..
لم أستطع أن أمنع نفسي عن القول لفراس ..
ـ ما بالك لاتهوى سوى أغرب ماخلق الله من مخلوقات ؟!..
ضحك بشيء من الحزن ..
ـ لعله حب الصيد !..
كنا قد وصلنا .. فتعمدت ألاّ أرد عليه قبل أن يوقف محرك السيارة، ونخرج منها..
وما إن قرع باب المصح ، حتى قلت له ..

– .. وتظن أنك الصائـــد البارع !!.. الا ترى أنك الضحية دوماً في هـــذه المحاولات ؟!..

ضحك من وجومي ، وقال ..

– لحظة أخرى ، وتجعل منّي القديس « سيباستيان » !!..

سأل الحارس عن أسمائنا من وراء كوّته الحديدية الصغيرة ..

ما إن سمع جواب فراس ، حتى أطلق تياراً كهربائياً فتح الباب الحديديّ الكبير ثم خرج متلفحاً بدثار صوفي ، اتقاء للبرد القارص ، وقال مرحباً ..

– .. أهلاً بمسيو « مكسيم » !!.. لم تأت لزيارتنا منذ زمن طويل !!..

لم يكن من واجب الحارس أن يخرج لاستقبالنـــا .. أبديت عجبي لفراس بالانكليزية ، فأفهمني بأنه صديق قديم له ..

كان كلب الحارس قد اغتنم فرصة خروج سيده لينطلق كالسهم خارج الغرفة ، يعدو ويلعب بين الأشجار !.. توقف فجأة !.. تنسم في الهواء رائحة مألوفة !..

عاد يركض نحو فراس ، ملوحاً بذيله الكث .. يقفز نحوه في الهواء ، مرحّباً به هو الآخر !..

بدا التأثر على وجه فراس .. فركع يداعب الكلب ويحدثه متحبباً ، بينما وقف الحارس ، ينظر إليهما ، والرضا باد على وجهه ..

أخذ يحدثني ، فأتاني صوته من وراء دثاره ، وكأنه يحدث نفسه ..

– .. ليس مسيو « مكسيم » من الأشخاص الذين ينساهم الإنسان بسرعة .. إن له قلباً كبيراً ..

نهض فراس .. وبعد حديث قصير مع الحارس ، تبادلا فيه الأسئلة عن أشخاص عرفاهما سوية في المصح ، ترك الرجل العجوز ، بعد أن أودع في يده قطعة نقد كبيرة ، وتقدمني نحو منزل « لورا » ..

كانت « لورا » كعادتها ، متمددة على فراشها الواسع الوثير .. تحيط بها ، عن يمينها ، آلة مسجلة لاتفارقها ، وتحت أقدامها ، بعيداً في صدر الغرفة ، يقف بيانو قديم

قلما كانت تعزف عليه .. وإلى يسارها مقعدان مريحان من الجلد القديم ، ترقد بينهما منضدة صغيرة ، صفّت عليها صورة كبيرة للقديس « كريستوف » ، بين صور عديدة لأفراد من عائلتها المالكة ، وتحيط بهذين المقعدين كتب وأسطوانات موسيقية كثيرة ..

لم تكن « لورا » من النساء اللواتي يأبهن للشكليات كي تبادر ضيوفها بعبارات الترحيب والمجاملة المألوفة ..

هل أبدو كمن يبالغ بالمدح إن قلت إن الطبيعة لاتجود بمثل هذه الإنسانة سوى مرة كل عدة قرون ؟..

إن كان ذلك ، فلا بأس !..

فأنا لا أعرف من النساء في عالمي من تدانيها مكانة .. ولم أقع ، في ما قرأته من أدب ، قديم أو حديث ، على امرأة تشابهها من بعيد في عمق التفكير ، وأصالة النفس ..

رفعَت « لورا » حاجبيها للقائنا ، وتبسمت بتعب ..

أفهمتنا أنها تعاني من أزمة حادة تمنعها عن الكلام الكثير ، وأشارت إلينا بأن نستريح ..

تمدد فراس إلى جانبها على الفراش .. بينما جلستُ على أحد المقاعد الجلدية إلى يسارها ، وبادرتُ إلى تسليتها بالتحدث بهدوء عما شاهدته من مسرحيات ، وماحضرته من حفلات موسيقية ..

أصغت إلي بإمعان ، بينما راح فراس يحدق في سقف الغرفة ..

انسقت مع حديثي ، جاهداً أن أنقل العالم الخارجي إلى غرفة لورا التي نسيته ..

أطلقت لأفكاري العنان ..

تحدثت طويلاً ، حتى تنبهت فجأة إلى أنني بدأت أمل سماع صوتي ..

وفي النهاية .. خلدت أنا الآخر إلى الصمت ..

همست « لورا » بصوتها الخافت ..

ــ معذرة .. إن كنت لا أستطيع أن أشاركك الحديث ..

أشرت إليها أن لاعليها من ذلك.. فتبسم فراس، ثم استوى وتوجه نحو الأسطوانات فانتقى إحداها ، وأدارها على العازف ..

علت مقدمة Peleasse .. فتذكرت آخر مرة كنا فيها في الأوبرا .. تذكرت عيني فراس .. وأدركت من انتقائه لتلك المقطوعة أنه يعاني من ألم مرير!..

كأنما أدركت « لورا » ذلك .. فأشارت إليه بأن يوقف الموسيقى .. وإذ فعل ذلك ، قالت له ، شبه متوسلة ..

ــ « ميشكا » !.. لماذا لاتعزف لنا قطعة من تأليفك ؟..

سمعت نفسي أردد قولها متعجباً ..

ــ .. « ميشكا » ؟..

أجابتني مبتسمة ..

ــ ..أعرف أن اسمه فراس.. «ومكسيم» ..لكنني اخترت له اسم «ميشكا».. أجد أن هذا الاسم يناسبه .. ألم يخبرك ميشكا أن « لورا » اسم اختاره هو لي ؟!..

ضحك فراس لحيرتي .. توجه نحو البيانو ، ثم جلس يعزف بهدوء أحد ألحانه الحزينة .. ولما انتهى من العزف ، نظرت « لورا » إليه بحنان ، وقالت ..

ــ ما أجمل حزنك ..

ثم التفتت نحوي .. وتابعت ..

ــ .. أليس « ميشكا » من قرنٍ مضى ؟..

وجدت نفسي أجيبها ، دون أن أفهم ما أقول ..

ــ .. ومن قرن مقبل في الوقت ذاته !..

تبسمَت لقولي .. ثم عادت تسأل فراساً ..

ــ لماذا لاتزاول الموسيقى جدياً ؟..

أجابها .. متنهداً ..

ــ لأن مثل هذه الألحان التي نحب ، قديمة في أوروبا ، جديدة على الشرق، لايفهمها!

ـ .. والرسم ؟.. ألا تذكر كيف بيعت جميع لوحات معرضك هنا منذ أربع سنين ؟.. لماذا لاتعود إلى الرسم ؟.. لازلت أحتفظ باللوحة التي رسمتها لي.. انظر !.

وأشارت بأصابعها الدقيقة الطويلة إلى لوحة كبيرة على الحائط لم أكن قد تنبهت إليهـا ..

أعجبت بألوانها الليلية الداكنة ، فقلت لفراس ..

ـ .. لم أدر أن لك لوحات من مدرسة رامبراندت !.. حقاً ؟.. هل تركت الرسم ؟..

ضحك من سؤالي ..

ـ أراكما تستدرجاني إلى شرك !..

ـ .. ولماذا تعتبر هذا استدراجاً ؟.. ألست فناناً ؟.. أليس عليك أن تخلص لفنك ؟..

ـ .. وما هو « الفن » ؟..

تنهدت لورا كمن عذّبها هذا السؤال ..

ـ .. لايهمنـا التعريف .. الفن هو ما يزاوله أناس مرهفون خلاّقون .. إنـه فعاليتهم الطبيعية .. هذا كل مافي الأمر ..

ثم تابعت متوسلة ..

ـ .. إن مايهمنا الآن يامِيشكا هو رفضك مزاولة الفن بصورة جدية !..

أجابها ، وكأنها أقصرته على الكلام ..

ـ « لورا » .. لاتجيبي إن كان في ذلك إجهاد لك .. لكـن علي أن أقول لك هذا .. أن يكون الإنسان فناناً ـ حسب اجتهاد المجتمع في تعريف الإبداع ـ فهـذا شيء .. « واقع » !..وأن يزاول الإنسان فنه وإن كان بالنسبة إلى ذاته ، بشكل جدي كما تقولين ، فهذا شيء آخر .. « عمل » !.. وأن يعرّف الآخرين على نفسه وفنّه ، فهذا شيء آخر أيضاً ، بل عالم آخر ، « حملة دعائية » !!.. أما أن يفرض فنه على الآخرين ، سواء أكان ذلك بالانصياع لذوقهم ، أو بمهاجمته لهذا الذوق ، فذلك ، مرة أخرى ، عالم يختلف عن جميع ماذكرت .. حملات تبشيرية لا آخر لها .. محورها « الأنا » !!..

صمت برهة ثم تابع ..

ــ ثم .. ماهو الفن ؟.. كلمة لامعنى لها !.. هنالك « أشخــاص » .. أراهم وأعرفهم .. وهنالك « أعمال » .. أراها وأتذوقها !.. أما « الفن » فكلمةجوفاء!.. « مفهوم » يظن الإنسان أنه يفهمه في حين أنه لايفقه منه شيئاً !.. يكبّل الفنان نفسه بالتعريف الذي يختاره له ، فيأتمر بما يظن أنها شروطه ، حتى لايعود يقوى على التحرك ضمن هذه القيود !!.. الفن .. كالحقيقة .. كلمات ، لاواقع لها !!..

نظرت إليّ لورا تطلب مني أن أجيبه ، فبادرت ..

ــ .. وكيف لايكون هنالك فن ؟.. أليس الفن هو مايزاوله كل فنان ؟!..

أجابني مبتسماً ..

ــ .. وكأنك تكلمني عن الحب « أليس الحب هو مايشعر به كل محب ؟!..»!

قلت مازحاً ..

ــ عدنا إلى السيمانتيكية !.. حسناً أين الخطأ في ذلك ؟..

ــ .. هنالك إنسان يحب .. وليس هنالك « حب » يقف بحد ذاته !..

ــ وهذا الشعور الذي يتنازعك نحو قطر الندى ؟.. أليس هو الحب ؟..

نظرت إليه لورا دهشة ، وسألته ..

ــ أحقاً أنك تحب هذه الفتاة ؟.. ومن هي ؟..

ــ سأكلمك عنها بعد حين ..

وتابع قوله ..

ــ .. إن ما أشعر به نحو قطر الندى ليس سوى .. « ما أشعر به » .. لا أكثر ولا أقل !.. إنه « شعور » !.. وشعوري هــذا هو حركة داخلية ، لايحددها سوى اتجاهها العام !.. أما أن أعطي هذه الحركة « اسماً » .. « لقباً » .. فإني بذلك أقفز إلى عالم آخر .. مجال آخر !!.. مجال اللغة ، ثم الأدب !..

ــ .. أليست « الحركة » لقباً لما يقوم به الجسم المتحرك ؟.. لماذا إذن لاتسمي هذه الحركة « حباً » في عالم الشعور ، أو « فناً » في عالم الإبداع ؟!..

ــ أقبل بالحب كتسمية لانفعال ، والانفعال « تابع » لايمكن أن يستقل بوجوده ، خلافاً للحركة .. التي أقبل بها موضوعياً ، رغم كونها « مفهوماً » لأنها ظاهرة

تتقيد بشروط رياضية !.. لأنها تبـدأ من نقطة الصفر ، وتتباعد عنها بسرعة منتظمة أو متسارعة نحو اللانهاية ، أي إنه يمكننا قياس الحركة بالنسبة لأبعـادها النسبية ، الزمن ، والمكان ! وهل للشعور أبعاد يقاس بهـــا سوى « ألقاب » لا آخر لها ؟.. كلمات جوفاء اخترعها الأدب ؟!..

ــ .. أنت تحب، وليس هنالك « حب » !!..أنت تبدع .. وليس هذا « فناً » أهذا ما أفهمه منك ؟!..

ــ هنالك قوانين نحددها نسبياً عن عالم الأشياء .. وأبعاد عالم الأشياء معروفة !.. فما هي أبعاد عالم الشعور ، كي نقيس الشعور ضمن شروط هذا العالم ؟!..

ــ .. لنقل إن « نقطة الصفر » هي اللامبالاة ، و« اللانهاية » هو الحب المتفاني !!..

ــ وما هو مقياس التفاني ؟..

ــ الموت !!.. تضحية الإنسان بحياته من أجل من يحب !!..

ــ لئن قبلتُ معك جدلا أن اللامبالاة هي نقطة الصفر في الشعور .. فمتى كان التفاني واحداً عند الجميع ؟.. أعرف من الناس من كان التفاني طبيعة ثانية لهم ! والموت .. متى كانت قيمة الموت واحدة عند الجميع ؟!..

تبسم فراس إزاء صمتي ، وقال ..

ــ ياملاك الحب !.. ألم أقل لك مرة إن عالمك ليس سوى « شهوة طويلة » ، وأن الشهوة ليست سوى حب قصير ؟!..

عـاد فراس إلى سرير « لورا » واستلقى عليه مرة ثانيـة .. تنهـــد طويلاً ثم أغلق عينيه ..

أشارت إليّ لورا بعينيها كي أدير الحاكي .. فأدرت الأسطوانة التي كانت عليه ..

ومرة أخرى .. من أعماق الأرض .. من أعماق عالم خفي .. من خبـايا النفس البشرية ، تصعّدت أنغام « ديبوسي » .. وغلّفتنا بدثار دافىء شفاف ..

مال فراس إلى جنبه ضاما ذراعيـه بين ركبتيه ، وأخفى رأسه بين جنب لورا والسرير ..

رفعت لورا ذراعها النحيلة ، وأرقدتها برفق على كتفه ..
رفع وجهه نحوها دون أن يفتح عينيه ، فمدت أصابعها الدقيقة ببطء شديد ، وجالت برؤوسها المرهفة على تقاطيع وجهه دون أن تمسها ..

نظرت إلي .. فتجاوزت نظرتها عينيّ وانطلقت ، عبرهما ،نحو أبعاد سحيقة ..
همست قائلة .. وفي صوتها شيء من العتاب ..
– متى ستعرف أن « ميشكا » طفل يتألم ؟..
كان فراس يعبُّ من عبقها الدافىء الذي جرّدته السنون من أنوثته ..
رفع وجهه نحوها ، وقال ، دون أن يفتح عينيه ..
– .. ومتى ستعرفين أنني Per Guynt ؟..
صمتت « لورا » طويلا .. ضمت رأسها إلى جنبها برفق ، وتمتمت بحزن مهيب ..
– .. ومتى ستعرف أنني « جوكاست » ؟.. متى ستدرك أنني أسطورة تتألم ؟!..

خيّم على الغرفة جو غريب ..
وددت في تلك اللحظة لو أن في الكون قدرة يمكنها أن تبدد وجودي دون إحداث جلبة ..
تمنيت لو أن باستطاعتي أن أختفي .. أن أتحول إلى ضباب يتمدد ثم يتبعثر بين أرجاء الأثير ..
اجتازت الغرفة ومضةٌ من لحظة كنت أعرف أنها موجودة بين أبعاد الزمن ..
من هو « فراس » ؟.. من هو « مكسيم » ؟..
من هو « ميشكا » ؟.. من هي « لورا » ؟..
من أنا ؟.. ما هو الكون ؟..
ما هو الزمن ؟..
ما هو اللاكون .. ما هو اللازمن ؟؟..
هل نعيش ، جميعاً ، ضمن نفس الأبعاد ؟..

كيف تمتدُّ ، ثم تنصرم الحركة .. أبخطٍّ مستقيم أم بأمواج دائرية ؟..
أتبتعد اللانهاية عن مركز .. أم تتقارب بحركة لايُعبَّر عنها نحو لا مركز ؟!..
وكوننا ؟.. أموجب أم سالب ؟.. وهل يدرك اللاشعور هذا الانفصام ؟..
أهذا هو مبعث خلاصة الحركة ؟..
أهذا هو التناقض الأول ؟..
أهذا هو المفتاح ؟..

القيت برأسي إلى الوراء .. وغبت في شبه دوار آني ..
نهضنا بعد فترة صمت ، لم أعد أذكر مداها .. واستودعنا « لورا » بابتسامات وسكون ..

عاد فراس إلى الفندق مع أولى ساعات الفجر ..
لم يشأ أن يحدث جلبة توقظ قطر الندى ، فدخل الجناح على أطراف أصابعه .. وتقدم من البهو نحو غرفته دون أن يضيء النور ..
فوجىء بنور ينبعث من أسفل باب غرفتها ، فتوقف متعجباً ..
لعل قطر لجأت إلى القراءة قبل النوم ، فأغفت دون أن تطفىء مصباح السرير !..
كاد يتجه نحو غرفته حين سمع صوتاً ينبعث من غرفتها .. تقدم من بابها بحذر وهدوء ، وأصغى إلى الصوت !..
لم يسمع سوى صوتها .. تتكلم ، وتصمت ، ثم تعود إلى الكلام ..
كانت تتكلم على الهاتف !.. ومن تكلم في مثل هذه الساعة ؟..
لابد أنه جعفر !.. هل يكلمها من جنيف ؟!..

جلس القرفصاء .. وألصق أذنه بفتحة في الباب ..
سمع صوتها خافتاً واضحاً ..
— .. قلت لك إن فراساً وصل ! لا .. لا لم يكلمني .. ارفع صوتك ، لا أكاد أسمعك !..

.. أعرف أن فراساً هنا .. أنا الذي أخبرتك عن ذلك !..

.. يا الله !.. قد يسمع صوتي أنا ، لاصوتك أنت !!..

.. حسناً سأطفىء النور ..

واختفى النور من أسفل الباب ..

تبسّم فراس لسذاجة حذر جعفر ..

عاد صوت قطر ..

— .. لا ، لم يكن على علم بأنك ستصل هذه الليلة !..

.. لو تأخرنا قليلاً لأدركنا في البهو !..

.. ماذا ؟.. لم أفهم .. آه .. ارفع صوتك قليلاً !!..

.. آثار ؟!.. ماذا تقول ؟!.. أي مقعد ؟!..

.. آثار ماذا ؟؟!..

.. آه منك !!.. كيف لم تنتبه أنت ؟!..

.. لا ، لم أنتبه !.. ليست هذه مهمتي !!..

.. لا أظن .. لن يلاحظ شيئاً !!.. كيف ؟..

.. لأنه لم يضىء النور في البهو !!.. كيف يمكنه أن يرى في الظلام ؟!!..

انتصب فراس واقفاً !!..

جعفر هنا في باريس .. لقد كان هنا في هذا البهو !!..

سمع دوياً في رأسه !..

توجه نحو غرفته وأضاء نورها ، ثم عاد إلى البهو يتفحص المقاعد ..

نظر ملياً إلى المقعد الكبير .. وتوجه نحوه !..

جلس القرفصاء يتفحص الوسائد .. فلم يلاحظ شيئاً !..

جال بيديه عليها .. ثم توقف إذ شعر بتقزّز مما قد تمسّه يده !..

حمل الوسادة الوسطى وعاد بها إلى غرفته .. لم يكد يقع النور عليها ، حتى رأى ما كان يبحث عنه ..

.. بقعة جاليّة واضحة !!..

أعاد الوسادة إلى مكانها ..

أحس بدوار ، ثم بتعب شديد في ساقيه ..

عاد إلى غرفته ، وتناول حبوباً منومة ..

لجأ إلى فراشه ، ورأسه تدوي بما سمعه ، والبقعة ماثلة أمام عينيه !..

متى عاد جعفر ؟.! كيف لم يتوقع قدومه ؟.. ياله من غبي !..

كيف لا !.. ألم يحضّر جعفر لهذه المناسبة ؟.. العمليات الجراحية !.. الفرصة التي تحدث عنها حين كانوا في بلادهم .. الظفر بقطر الندى ، وحيدة ، دون أختها !..

البقعة !.. البهو !..

لماذا في البهو ؟!..

عادت ضربات قلبه إلى التصـــاعد .. لم تلجأ قطر إذن معـه إلى الفراش !.. لم تذعن له !..

في البهو .. على المقعد الكبير !!.. لم تنزع ثيابها له !..

البقعة !..

كيف يترك آثاراً ؟.. إنه نصف إذعان منها !.. نصف مطارحـة .. لماذا ؟! .. دلال منها ؟..

هل أقصرها ؟!..

لايجرؤ !..

نصف عملية !..

أهو ثمن الهدايا ؟.. ثمن الرحلة .. وعشرات الألوف ؟!..

أم هي دفعة على الحساب ؟!..

كم هو عدد الأقساط !..

....

كان باستطاعتها أن تستبقيه في جنيف ..

....

أياماً أخرى على الأقل ..

.....

لماذا أتى اليوم ؟.. هل استدعته خصيصاً ؟.. لماذا ؟..

.. لماذا تهرب من الحب ؟..

....

لماذا تهرب منه ؟.. البقعة ..

....

البقعة ..

....

....

* * *

الفصل السابع

استيقظ فراس متأخراً في اليوم التالي ليجد أن قطراً قد تركت الفندق مبكرة.. لم يكن في شوق إلى لقاء صريح معها .. فرحّب بغيابها ..

وصل المشفى متأخراً ، فقيل له إن قطراً غادرته منذ برهة، فزاد ارتياحه .. وحين عاد في المساء إلى الفندق سمعها ، كالليلة الفائتة ، تكلم جعفراً على الهاتف .. فلم يُشعرها بقدومه ، بل بدّل ملابسه ، وعاد إلى رفاقٍ له ليقضي معهم سهرة متأخرة ، رجع منها مع طلوع الفجر ..

مرت ثلاثة أيام على هذا المنوال .. وسواء أكان شعورها بالذنب هو الذي جعلها تتحاشى فراساً، أم أنّ تحاشي فراس لها هو الذي حرّك هذا الشعور لديها ، إلا أنها لم تجد خيراً من الصمت ملاذاً ..

طلبت من جعفر أن يخفي أمر قدومه عن صحبها ، فلم يقابلهم ، وغادر باريس عشية عودة ميساء وزوجة فراس إلى الفندق ..

وتتابعت الأحداث ..

طغى تسارعها على ما كان يجري بين قطر وفراس فلم يبق بينها سوى النظرات ، يتبادلانها عبر حائط كثيف من وجود الآخرين ..

عادوا إلى سابق عهدهم في المرح واللهو .. أيام ، وشرعوا يحضرون لسفرهم إلى روما ، للحاق بالأمير مراد الذي كان ينتظرهم هناك ..

أحاول أن أسترجع الصورة التي رسمها لي فراس لتلك الفترة .. فلا أقدر ..

حدثني طويلاً عن الذي لم يدر بينه وبين قطر الندى من كلام !..

وصف لي مالم يتبادلاه من نظرات !..

أسهب في وصف مواقف عديدة جالت في سرّ كل منهما .. شجار ، لم يقع بينهما

بالفعل ، نقاش ، وعتاب كان يدور في نفس كل منها على حدة .. يقوم كل منهما بدوره فيه ، وينوب في الوقت ذاته في الدفاع عن الطرف الآخر ..

نسيج معقد خفي لأحداث خلف الأحداث .. لنظرات خلف النظرات ..

صمت ، كان يعلو على الكلام ، لا يشعر به سواهما .. ولا تئن تحت وطأته سوى نفسيهما ..

عوامل كثيرة اجتمعت لتمنع ميساء وزوجة فراس من ملاحظة ما كان يدور بينهما !..

أراد فراس هذه التغطية ، فراح يساعد الأحداث على التسارع .. يضحك من تعقيدها ، بل زاد فيه ، وكان في ذلك تغطية لما يحس به .. مخرج له منه !..

أقنعهم بركوب القطار إلى روما بدل الطائرة التي ملوا السفر بها .. فأمضوا ليلة فيه يلهون ويضحكون كأطفال أفلتوا من رقابة صارمة ضاقوا بها ..

راحوا يمازحون المسافرين .. أو يشاكسونهم ، ثم يضحكون من كل ذلك كالسكارى !..

أخذوا يركضون بين عربات القطار ، نحو عربة الطعام ، كلما أحس أحدهم بأقل عطش أو جوع ، ثم نحو مقصورتهم ، إذا أرادوا حاجة فيها ، أو تخوفوا من سطو موهوم على أمتعتهم !.. وفي النهاية ، لجؤوا إلى حقائب المجوهرات ، ينقلونها في ركضهم بين العربات ، خوفاً عليها من اللصوص ، يمثلون أثناء ذلك حركات الحذر ، كلما ارتابوا من نظرات أحد المسافرين ، وما أكثر ما كان ينظر إليهم باستغراب ، ثم يقهقهون عالياً مما يقومون به من تمثيل .. حتى أنهكهم اللهو !..

كان وجود الأمير مراد وحاشيته على رصيف المحطة في روما لاستقبالهم مفاجأة لم يتوقعوها !..

أنّى لهم أن يعلموا أن مراداً كان على اتصال دائم بقوات الأمن التي كانت تحيطهم بحراسة خفيّة مشددة منذ أن تركوا باريس ؟!..

كيف يخطر ببالهم أن معظم الذين تلهوا بمشاكستهم في القطار ، أو تخوفوا من

نظراتهم المريبة ، ما كانوا في الواقع سوى رجال أمن فرنسيين ، خصصوا لحمايتهم ، أسلموا على الحدود مهمتهم إلى رجال أمن إيطاليين ؟!..

ارتبكوا إذ جال في خاطرهم أن مراداً سيطّلع على جميع تصرفاتهم !..

أخـــذ كل يسترجع ما قام به في القطار من عبث ليستبق وقعـــه على مسامع مراد !.. وإذ تداولوا الأمر فيما بينهم ، قالت ميساء ..

ــ ولا غرابة فيما قمنا به !.. ليس هنالك من يحب اللهو أكثر من مراد !.. سيعلم أننا قادرون مثله على اللهو وأكثر !!..

وكان لذلك بالفعل الوقع المطلوب على نفس مراد .. إذ ضحك طويلاً لما سمع من تقارير ، ولم يأت الليل ، حتى أقلهم إلى مطعم هنغاري شهير ، أمضوا فيه سهرة لم ينسوها لزمن طويل !..

وقفت فرقة غجرية تعزف لهم أدفأ الأنغام وأحزنها .. بينما خُصص لخدمة كل من المدعوين ندل ، يقف إزاءه ، يخف نحوه لأدنى إشارة منه ..

ميساء .. تضحك طرباً في سرها ..
هذا هو ماتمنته وحلمت به !..
أميرها ومدعووها !.. الموسيقى !.. والغجر !..

قطر الندى .. تجبر نفسها على تناسي زوجها ، وتجد طرافة في أنها تستخدم عشيقاً لتسترجع هذا الزوج !.. تجلس بضيافة هذا الأمير .. وإلى جانبها عشيق آخر !..

زوجة فراس .. كعادتها ، لايهمها أن تحدد مكانها في هذا الجمع !.. ترفض أن ترى أن لا مكان لها بين الحاضرين سوى كونها المبرر الشكلي لوجود زوجهـــا ، فتصرف النظر عما يربط الآخرين ببعضهم ، تتوهم أن ليس وراء هـــذه الدعوة سوى شكلها الخارجي كي يتساوى فيها الجميع !.. تمدّ الأحاديث الطويلة مع من يقع عليه نظرها .. ويود كل لو تحدث غيره ، كي ينصرف هو إلى مراقبة ومتابعة الآخرين !..

رفع السعاة أطباق الطعام ..

كان عازف الكمان ينهي آخر الأنغام الحزينة ، فأومأ مراد إليه بإشارة كان ينتظرها ، فإذا بالإيقاع يتوتر ويشتد ،ثم يتسارع !.. وإذا بالأنغام تتجمع ،وتتعالى ، ثم تتدفق رقصة غجرية سكرى !..

وبينما كانوا يرافقون النغم السريع المفاجىء ، يضحكون ويطربون له ، دخل السعاة دفعة واحدة !..

خمسة ، يحمل كل منهم طبقاً فضياً عليه كأس صغير من الفودكا .. لكل مدعو طبق !..

أغرقن في ضحك عصبي !..

لم يمهلهم مراد !.. أخذ كأسه ،وأشار إلى فراس بأن يتبعه .. ثوان وكان الشابان قد شربا كأسيهما .. وألقيا بهما من وراء كتفيهما !..

كان لصوت تحطم الكريستال على الأرض وقع حاسم على نفوس النساء ..

تهافتت قطر ،وميساء ،على كأسيهما .. غصتا ،وهما تبتلعان محتوياتهما دفعةواحدة، ثم قذفتا بالكأسين إلى الأرض ،إسوة بمراد وفراس .. وعادتا إلى الضحك طربتين لما قامتا به !..

فغرت زوجة فراس فمها من الدهشة !..

وقفت مشدوهة لما شاهدته من تحطيم الكؤوس الثمينة !..

رفعت يدها إلى خديها حين رأت صديقتيها تقلدان الرجال في شرب الفودكا ، وفي كسر الكؤوس !.. ثوان قصيرة مضت وهي على هذا الوضع ، أفاقت بعدها إلى نفسها ، وبسرعة خاطفة ، روعت السعاة وأدهشت من حولها ، تناولت كأسها كمن تستدرك نفسها ، وأفرغته ، هي الأخرى ، دفعة واحدة .. ثم قذفت به إلى الأرض !..

قهقه الجميع لذلك المشهد !..

وجمَتْ في البدء ، ثم نظرت إلى من حولها تستغرب ضحكهم .. لحظات ،

انفرجت أساريرها بعدها ، وشاركتهم ، هي الأخرى ، الضحك على نفسها !..

لم تمض دقائق حتى عاد السعاة حاملين خمسة كؤوس أخرى من الفودكا !..
علا الضجيج ، شربوا معاً هذه المرة .. ثم قذفوا بالكؤوس سوية إلى الأرض .. فكان لدوي تحطمها وقع أجمل وأقوى !..
صاحت قطر الندى ، طالبة المزيد !.. فتعالت الموسيقى ، وتوالت الكؤوس !..
تكرر مشهد التحطيم .. وتطايرت الكؤوس في الهواء مرة ، ومرتين ، وخمساً ، وعشراً !..
ما إن مضت ساعة ، وهم على هذه الحال ، حتى كانوا قد حطموا ما يقارب المئة !..
ولم يخف على فراس أن ميساء وقطر كانتا تقذفان بالكأس بعد أن تأخذا منه رشفة صغيرة ، وأن زوجته ، هي الأخرى ، قد لاحظت ذلك ، فحذت حذوهما !..
لكن مراداً لم ينتبه إلى تحفظهن .. وسواء أكان الخمر قد نال فعلا من قطر الندى أم إنه حلا لها أن تلعب دور السكرى ، إلا أنها بدأت تُفرط في الضحك والكلام ، وبدا السرور واضحاً على وجه مراد وهو يستزيدها ، مصغياً كل الإصغاء إلى هذيانها عن أمور حياتها الخاصة !..

راحت تعلّق بصوت متثاقل ، متقطع ، عن الحب والتعاسة ..
تضحك عالياً من اللواتي يعتقدن أن في ملازمة أزواجهن كخيالهن ، سعادة لهن .. وتشير إلى زوجة فراس !..
تنقلب إلى الوراء ضاحكة .. محذرة اللواتي يعتقدن أن السعادة في أن يترك الزوج زوجته لأمرها .. وتشير بأصبعها إلى نفسها !!..
أما التي لاعشيق لها !.. وتضحك إذ تشير إلى زوجة فراس ، فهل هي أسعد ، أم أتعس حالاً من التي لها عشيق ؟.. وتشير إلى نفسها !..
.. أو لها عشيقان ؟.. تنظر إلى فراس ، وتنفجر ضاحكة !..

أحست بضربات وجهها فراس إلى ساقها تحت المائدة .. ولاحظت تساؤلاً على وجهي كل من زوجته وميساء .. تساؤل بان من خلال ضحكها لما تقول !..

لم تأبه لضربات فراس ..

توقفت برهة عن الكلام ، كمن تستجمع قواها ..

قالت .. ودموع الضحك تسيل على خديها ..

ـ .. أما المصيبة الكبرى ، وأشارت إلى ميساء .. فهو حال التي لها .. زوج .. ولا زوج لها !!..

ثم عادت إلى القهقهة ، وأردفت ..

ـ كيف .. تأخذ .. مثل هذه الزوجة .. عشيقاً .. وهي .. ماتزال بكراً ؟!..

هل غاب عن مراد فهم مقصدها ؟.. لئن فهم ما أرادت ، فهو لم يبد أي إشارة إلى ذلك !..

حان وقت الرحيل .. فخرجوا إلى شوارع روما يتراكضون فيها .. ويتسابقون إلى بحيرة « تريفي »، بحيرة الآمال ، حتى كادوا يسقطون فيها وهم يلقون بالدراهم إليها من وراء أكتافهم !..

عادوا إلى الفندق في عربة تجرها الخيل ، تتبعهم سياراتهم ، ومن خلفها تتبعهم سيارات الحاشية التي لاتفارقهم !..

لم يهمّ مراد بترك الفندق إلا بعد أن استوثق من أن قطر الندى قد أوت إلى فراشها بسلام ! وعلى باب الجناح .. وبعد أن استودع الجميع ، اتجه مع فراس إلى الباب ، وقال له على مسمع من ميساء ..

ـ سأذهب غداً إلى « فلورانسا » في طائرتي الخاصة لانتقاء أثاث قصري الذي أوشك أن يتم .. هلاّ أتيت معي ؟.. سنعود حوالي السابعة مساء ..

فوجىء فراس بهذه الدعوة التي وجهت إليه من دون الآخرين ..

نظر خلفه إلى ميساء فوجدها على مثل حاله من الدهشة !..

وإذ أعاد عليه مراد السؤال ، لم يجد بداً من القبول ..

خرج مراد وهو يقول ..

— .. سنقلع في العاشرة صباحاً ، سيأتي سائقي ليقلك إلى القصر الذي نقيم فيه حالياً ، ثم نذهب من هناك إلى المطار .. جهز نفسك كي لاتتأخر !..

لم تنم ميساء من الليل سوى ساعات قليلة !..

جلست في الصباح الباكر تحادث قطراً ، وتقلب مشكلاتها معها ..

آلمها أن مراداً لم يدعها إلى « فلورانسا » ..

هذه الرحلة الخاطفة ، في طائرته الخاصة .. أن يزورا معاً فلورانسا الجميلة ، ولو لساعات .. أن يؤخذ رأيها في انتقاء أثاث القصر الذي ستعيش فيه مع مراد ، قصر الزوجية ، هذا ما حلمت به .. هذا كل ماتطلب !..

لم تكن تعلم أن مراداً يفكر أصلاً بمثل هذه التفاصيل .. فاجأها أنه كأي إنسان آخر ، في هذا المضمار على الأقل !..

لئن خفق قلبها بشدة لهذا النبأ ، فذلك لأنه يحمل في طياتــه أبعاداً أخرى !..

مراد يفكر جديا في وضع حد لزواجها الصوري هذا !..

كيف لايغمرها شعور بالحاجة إلى البكاء والارتماء على صدره حين تسمع منه أنه يحضّر ، بمثل هذه الأناة ، للبيت الذي سيضمها معاً ؟..

لكن !.. أن تسمع هذا النبأ .. ثم تُستثنى من المشاركة فيه !!..

ألاّ يطلب رأيها إطلاقاً في الموضوع .. ويختص فراساً به !!..

أن يقوم مراد بكل هذا على مرأى ومسمع منها !!..

في ذلك هدف مقصود !..

في ذلك إهانة ، وتعمد في الإيذاء !!..

في ذلك الصباح ، خرج فراس من غرفته ليجد الأختين تنتظرانه في البهــو واجمتين ..

أحس ، منذ أن فاتحته قطر الندى بالأمر ، أنهما تهدفان إلى أبعد من التداول معه ، أو الأخذ برأيه في هذه المشكلة !..

أطلقتا عليه وابلاً من الانتقادات ، فلم يناهضها ، ولم يعارضها ، بل لجـأ إلى السكون وموافقتها في الرأي !..

لم تجده هذه المسالمة نفعاً !..

كانت ميساء بادية الانفعال ، فلم تشترك في الجدل ،بل تركت هذه المهمة لأختها التي بالغت في ذمها لمراد !..

راحت تسترجع إهماله لميساء ، منذ أول سهرة في باريس ، مهوّلة أمر إيثـاره الحديث مع فراس .. على مراقصة زوجته !..

بدا واضحاً أنها ، بالاتفاق مع أختها ، تجد أن قسماً من اللوم يقع على عاتقه هو !..

لم يكن باستطاعتها تأنيب مراد على تصرفاته .. فكان لابد لهما من الانتقام من غيره !..

لو أن الأمر كان يختص بمن هو أقل مكانة من مراد .. لفاتحت ميساء فراساً باستيائها ببساطة ، ولطلبت منه صراحة أن يمتنع عن مقابلة زوجها !..

لو أن ميساء كانت مقتنعة أن في هذا الامتناع دواء لما تتذمر منه ، لما ترددت في طلبه بحزم !..

كانت تعلم في قرارتها أن لاعلاقة لفراس بإهمال مراد لها ..وأنه ،إن آثر الحديث عن مراقصتها ، فالعلة فيه ، أو فيها ، أو في علاقتها !..

ولو كان في فراس مايجذب مراداً بعيداً عنها ، ألا يعني ذلك أن لمثل هذه الحادثة أن تتكرر في ظرف آخر ، ومع شخص آخر ؟..

أحستا بعقم موقفها !..

انتاب ميساء حرج مما أظهرته قطر من تحمس زائد إزاء اهتمام مراد بفراس..

تعجبتْ من اندفاع أختها في هذا الاتجاه !..

لم تقف ، وهي في غمرة انفعالها ، لتتساءل ما إذا كان لدى قطر أسباب أخرى للنقمة على فراس ، أو لكره اهتمام مراد به !..

رجّعت موقف أختها لطبيعتها المندفعة ..

تدخلت في الحديث لتخفف من شدة توتره ..
وبينا النقاش على أشده ، رن جرس الهاتف ليُعلن سائق الأمير ..

أرجع فراس السماعة ، ثم قال بهدوء يحمل التحدي في طياته ..
ـ السائق هنا .. ماذا تودان أن أقول له ؟..
زاد سؤاله هذا من حرجها ..
امتقع وجه قطر ، وكادت تفوه بشيء ينم عما تشعر به ، لولا أن تدخلت ميساء، فأشارت إليها بطرف عينها أن تكف عن التدخل ..
وقفت قطر قائلة ..
ـ .. لك أن تفعل ما تشاء !..
واتجهت نحو غرفتها وهي تدمدم ..
ـ الأمر لايخصني .. سأرتدي ملابسي وأذهب إلى السوق !..

خشيت ميساء ، إن هي منعت فراساً من الذهاب ، أن يعلم مراد بذلك ،فيغضب منها !..
أدركت أن مثل هذه الأمور لايمكن أن تعالج بمثل هذه الطرق المكشوفة ..
جال في خاطرها أن للمشكلة وجهين .. لنفترض أنه لابد من إهمال مراد لها ، فهل اصطحابه لفراس بالذات هو ما يؤرقها ؟..
استعرضت في ذهنها أشخاصاً من حاشية مراد ..
ماذا لو اختار أحداً من هؤلاء بدل فراس ؟..
في هذه الحال ، سيجهل رفاقها الأمر .. لاريب أن ذلك أخف إيلاماً لكرامتها!..
لكنها ، في مثل هذه الحال ، ستقف عاجزة عن التدخل بين زوجها وبين من اختصه بالاهتمام !.. لا .. لن تتدخل !..
ليذهب فراس اليوم إلى « فلورانسا » .. ستعرف كيف تقف في وجه هذه الصداقة في الوقت المناسب !..

* * *

الفصل الثامن

خرج فراس للقاء مراد ساهما مشغول البال ..

حيّره ألاّ تفهم ميساء حرجه ، وساءه أن تدفع بصداقتها إلى الهاوية بهذا البرود !..

وقطر ؟.. كيف لايجرحه موقفها منه ؟..

لئن كانت ميساء محقة في الثورة على إهمال زوجها لها .. فكيف لا ترى ألاّ علاقة لفراس بذلك ، فتحمّله السخط الذي لاتجرأ على إظهاره لمراد ؟!..

أيقن الآن أنه ليس في تردي صداقتها ما يؤسف عليه !..

ألم يشعر منذ البدء أنها لاترى في هذه الصداقة سوى جسر لأهدافها ؟.. وأنها لن تتوانى عن نسف هذا الجسر حين تستنفد حاجتها إليه ؟!..

وليست قضية غيرة عمياء فحسب !..

أليست ميساء خائفة من أن تُربط الصداقة بين مراد وفراس .. وفراس يعرف عنها كل الذي يعرفه ؟.. أليس خوفها من ماضيها هو الذي يدفعها لأن تقف في وجه أية صداقة قد تربط مراد بمن لهم علم بهذا الماضي ؟!..

لكن .. إن كان هذا شأن ميساء ، فما علاقة قطر بكل ذلك ؟..

كيف تسمح لمخاوف ميساء أن تسيطر عليها ، فتضرب بما يربطها بفراس عرض الحائط ؟..

لا هذا الرباط الوثيق قد تولد بينه وبين مراد ، وما بدا من فراس ما يمكن أن يبعث على الشك في نواياه ، فتخاف منه على زواج أختها !..

ومع ذلك .. رآها تنقلب ضده ، تخاطبه ، ولو لدقائق معدودات ، وكأنه عدو خطر لدود ، لايؤمَن منه على مستقبل أختها !..

كان مراد لايزال نائماً حين وصل فراس القصر .. فجلس ينتظر برهة في غرفة الاستقبال ، متسائلاً عما أعاقه في النوم ..
ضاق بالانتظار ، فقام يعزف على بيانو عريض في البهو .. ثم تململ وصعد إلى الدور الأول ، حيث غرف النوم ، فطرق باب غرفة مراد ،وحضه على النهوض ..

تلكأ مراد في ارتداء ثيابه .. ودار بينهما حديث لم يلتفت إلى أهميته ..
كان مشغول البال ، همه الأوحد أن يخرج من هذه الغرفة العتمة ، أن يقوم بهذه الرحلة .. أن ينتهي منها ، فيرتاح من نقمة الأختين ، ويخلص إلى نفسه ..

تعجب فيما بعد كيف لم ينتبه إلى تفاصيل ما جرى له أثناء هذه الرحلة القصيرة !..
كان ساهماً ،حزيناً لما أحسه من هوة بدأت تتسع بينه وبين قطر الندى ..
رحلة شاقة .. جيوب هوائية .. مراد يتكلم دون انقطاع ، عن النساء ، عن قصره الجبلي في بلاده ، عن غواني أوروبا اللواتي كان يستحضرهن إلى ذلك القصر ، كشحنات فاكهة ، بطائرته الخاصة !..

ليس بين قطر وميساء هذا الفيض من الارتباط أو المحبة !..
كيف تعمى قطر عما بينها وبينه ، فتنقلب عليه بهذه الضراوة إذا ما لوحت لها أختها بأن هنالك من بعيد ما يمكن أن يمس بمصلحتها ؟..
غريب كيف يبدو هذا الرابط العائلي واهناً ضعيفاً حين يشتد التناحر والشجار بينها ، ليتحول إلى حائط منيع ، يفصلها عن العالم أجمع ، حين يتعلق الأمر بمن يلفهم هذا الحائط من أفراد العائلة !..
أليس هذا بالذات ما اعترض هلال ؟..
.. ألم يدرك أن قطراً راضية عن استغلال عائلتها له ؟..
لئن ظن في البدء أنها بريئة مما حاكه عميد عائلتها ، بالاتفاق مع والدتها ، للحصول على ذلك المبلغ الكبير للنجاح في الانتخابات ، أفلم تنجلِ له الحقيقة واضحة حين طالبه المصرف بتسديده ؟!..

ألم تنتصر قطر لقريبها حين تقاعس عن تسديد ذلك المبلغ ، فبات واضحاً أن على هلال أن يتحمل نتائج تلك الكفالة ؟!..

.. لو أنها لجأت إلى اللطف لهان الأمر عليه !..

لا !.. وقفت كاللبوة تناصر قريبها ! تنتحل له الأعذار رغم وضوح سوء نيته ، وترفض أن يُنعت قريبهـــا بسوء الائتمان !.. وإن كان في ذلك ما يحرج زوجها ، وما يضرب إسفينا آخر في علاقتها به !..

حطت الطائرة في فلورانسا .. وزارا معظم معارض الأثاث الأثري فيها ..

جلسا لتناول الغداء ، فلاحظ أنها وحيدان إلى مائدتها ، بينما جلس بقية من كانوا معهم في الطائرة ، وهم ثلاثة أشخاص فقط ، إلى مائدة أخرى ..

جال في رأس فراس خاطر مفاجىء ، فسأل مراداً ..

— .. أتسمح لي بأن أحدثك في أمر يتعلق بحياتك الخاصة ؟..

— طبعاً .. ما هو ؟..

— .. ما الذي يدفعك لتجنّب ميساء ؟..

— ... !

— .. لماذا لم تمض سهرة معها يوماً بمفردكما ؟.. ألا تظن أن الوقت قد حان لأن تفعل ذلك ؟..

لعل ما سمح لفراس أن يتطرق لهذا الأمر من حياة مراد الخاصة ، هو ما أظهره له مراد ، منذ البدء ، من مودة وعدم تكليف ..

فوجىء ، إذ أنهى سؤاله ، بابتسامة مراد تغيب ، وبوجهه تعتريه موجـــة تحفظ وبعد متعالين !..

ثوان .. وعادت الابتسامة السمحاء إلى شفتيه من جديد ..

نظر مراد إلى طعامه متسلياً ..

— .. أهذا طلب .. أم نصيحة ؟!..

أحب فراس صراحته ..

ـ .. بل طلب !..

ضحك مراد ، دون أن ينظر إليه ..

ـ حسناً .. سأدعوها هذه الليلة !!..

عادوا إلى مطار « فلورانسا » .. ومنه استقلا طائرة مراد الخاصة إلى روما ..

كانت طائرتها قد حطت في روما في السابعة مساء .. فاتفقا على أن يتلكأ فراس بالعودة إلى الفندق كي تتاح لمراد فرصة دعوة ميساء دون أن تبدو لفراس يد في ذلك..

عاد فراس في العاشرة مساء ليجد أن مراداً قد أقل ميساء إلى السهرة الموعودة ، وأن زوجته وقطر الندى ، بعد أن قطعتا الأمل من عودته مبكراً ، قد اغتنمتا فرصة وجودهما وحيدتين لتتناولا عشاءهما بمفردهما في الفندق ..

اقترب من باب الجناح وهو يذكر شجار الصباح .. ويتوجس سلفاً من سهرة سيمضيها وحيداً بين زوجته وقطر الندى الناقمة !..

فوجىء ، إذ همّ بفتح باب الجناح ، بقطر وبزوجته تهرعان نحو الباب فتدفعانه بكتفيها محاولتين منعه من الدخول !..

صعق لحركتها !!..

أذهله ما كان يمر معه !..

.. أهذه حقاً زوجته ، وقطر الندى ، اللتان تدفعان الباب بهذا الشكل كي تمنعاه من الدخول ؟!..

ولماذا ؟!.. أهو نفسه الذي يدفع الباب عنوة ليدخل الجناح ، حيث يقيم ؟!!..

راح يدفع الباب، حتى تم له إحكام قدمه بين مصراعيه ..

.. علا صراخ المرأتين من الداخل !..

.. تابع دفع الباب،حتى تغلب عليها .. فتقهقرتا أمامه ، ودخل حائراً ، باحثاً عن سبب دفع زوجته وقطراً إلى مثل هذا السلوك ..

ما إن نظر حوله مستجلياً الأمر ،حتى فوجىء بهما تركضان نحو مائدة الطعام ،

تقفان بثياب نومها ، فاتحتين ذراعيها ، وظهراهما نحو المائدة ، محاولتين إخفاء ما كان عليها !..

لحظات رُوّع أثناءها لما وجده على تلك المائدة !..

وقف أمامها فاغر الفم ، لايصدق ماتراه عيناه !..

لحظات .. ثم أغرق في ضحك سالت دموعه له !..

كان فراس على حرب مستديم مع نهم زوجته .. وجرت دعابة بينه وبين قطر الندى يمنعها فيها ، هي الأخرى ، عن تناول الأطعمة الدسمة لما لديها من استعداد للسمنة ..

قام بعدّ ما كان على المائدة من أطباق ..

أربعة عشر طبقاً كبيراً ، تكفي محتويات كل منها لإطعام ستة أشخاص على الأقل، تحتوي على معظم مايمكن للمطبخ الإيطالي تحضيره من معجنات !!..

ضحكوا طويلاً .. ضحكوا حتى لم يعد في مقدورهم متابعة الوقوف ..

.. شهوة أرادتا إشباعها منذ زمن طويل !..

.. حلم كانتا قد اتفقتا على تحقيقه منذ أن كانتا في الوطن !..

— .. أتسمحان لي أن أشاركما هذه المأدبة على الأقل ؟..

— .. على ألا تأكل كثيراً !..

ثم عادوا إلى الضحك من جديد ..

قطر الندى سعيدة مرحة !..

أنستها دعوة مراد لأختها شجار الصباح ، فتناساه فراس ، ثم أتت المأدبة ، وما تلاها من ضحك لتفعل فعلها السحري على نفسها !..

شربوا نبيذاً إيطالياً معتقاً ، فطربوا ، وغلبهم خدر لذيذ استرسلوا فيه ، حتى لم يعد في مقدورهم متابعة الكلام !..

قاموا إلى النوم يبتسمون لثقل رؤوسهم .. ونفوسهم تعمرها السعادة ويملؤها الترف ..

كان البهو الكبير يفصل غرفتي نوم وثيرتين تقع كل منها على أقصى طرفيه .. وكعادتها في باريس ، كانت الأختان تأويان إلى إحدى الغرفتين ، بينما فراس وزوجته ينامان في الأخرى ..

انقضى مايقارب عشر دقائق على إطفاء النور ، حين ظهر خيال قطر الندى على باب غرفة نوم الزوجين يؤكده ، من خلفها ، وهج ضعيف يتسلل إلى البهو من أضواء الشارع ..

استوت زوجة فراس في فراشها ، شبه مذعورة ، وسألتها بصوت واجف ..

ــ .. قطر ؟.. مابالك !.. أهنالك شيء ؟..

جاء صوت قطر حييّاً ،وجلاً ..

ــ لا .. لا .. تعودت النوم مع ميساء .. لا أستطيع النوم وحيدة في غرفتي !.. لقد أدار رأسي النبيذ .. أخاف الوحدة ..

رفع فراس رأسه يصغي إلى ماتقول ..

ضحكت زوجته منها بحنان ، وقالت مداعبة ..

ــ .. تعالي نامي معنا إن شئت .. فالسرير يتسع لثلاثة ..

ــ حقاً .. ألا يزعجكما ذلك ؟..

تلكأت زوجته بالجواب .. لم تكن تتوقع أن تقبل قطر عرضها ..

أمسكت بذراع فراس في الظلام، وهزته .. تستحثه على إبداء رأيه !..

قال متصنعاً عدم اكتراث مهذب ..

ــ لا .. أبداً .. ليس في ذلك إزعاج .. تعالي إن شئت !..

شعرت قطر بأن زوجة فراس تحركت نحو المصباح لإشعاله .. فاستوقفتها مازحة ..

ــ لا .. أرجوك !.. لاتشعلي النور .. سأبدو مخيفة دون زينة !..

سرت زوجته لهذا الاعتراف ..

فقهقهت قائلة لفراس ..

ــ .. هل سمعت ؟ .. كلنا سواء !..

ثم تابعت ، تحث قطراً ، وقد ازداد حبها فجأة نحوها ..

ـ تعالي .. أسرعي !..

.. وإذ تقدمت قطر من السرير ، أكملت ..

ـ .. من جهتي أنا طبعاً .. سأنام بينك وبين فراس !..

اقتربت زوجته منه ، مفسحة لقطر مكاناً في الفراش ، بينما دخلت هذه تحت الغطاء ، وهي تضحك ..

مرت دقائق صمت طويلة ازداد فيها دفء الفراش ..

أحس فراس فجأة بضيق مكانه ، فراح يتقلب فيه ..

طار النعاس .. تواترت أفكارهم ، وغمرهم عدم ارتياح لذيذ ..

صار لقرب زوجته منه معنىً جديد .. ولجسدها المألوف ، سحر ، وغموض لم يكونا له منذ دقائق !..

لم يشأ أن يحدد دور قطر الندى في هذا الشعور المفاجىء ..

.. مدَّ ذراعه ليلفَّ خصر زوجته ، وإذ بهذه تستجيب له ، وتلتصق به كأنها هي التي حركت تلك الذراع !..

دقائق أخرى طوال .. طوال ، خلد الزوجان فيها إلى سكون مريب ..

أحست قطر بما كان يجري بينهما ، فعلت ضربات قلبها ، وتململت وهي تقول بصوت متقطع أجش ..

ـ .. لا تدعا وجودي يعيقكما !.. ليست هذه ليلة الشكليات .. أو التحفظ !!..

سمع كل من الزوجين ضربات قلبه ..

ثوان أخرى طويلة .. طويلة ، وبحركة لاشعورية ، استسلما للغريزة دون ضوضاء ..

ما أوسع مخيلة الإنسان ، وما أضيق مايمكن لشخص واحد أن يشغله من حيز فيها ..

تواترت في رأس فراس ألوف الخيالات ، واختلطت في ذهنه صور البشر !..
كان واعياً حاسباً لما يقوم به ، سيئد جميع ذرات جسده .. وفي الوقت ذاته أحس بأن شيئاً من وعيه أفلت ليطير بعيداً ، ثم يعود ويطل على ذلك السرير ، فيراقب هذه الأجساد الثلاثة التي تمددت فيه ..
لم تكن تلك المرة الأولى التي قام فيها بمثل هذه التجربة .. لكنه حتى ذلك اليوم ، لم يجلس إلى مثل هذه الوليمة إلا مع غرباء ، لايهمه أمرهم !..

أدرك منذ زمن طويل أن ليس الإنسان سوى طرق محدودة يحس بالعالم الخارجي بواسطتها ، وأن ليس بين هذه الطرق ، ماهي أفضل أو أنبل من الأخرى !..

كان قد تخطى منذ زمن طويل مرحلة المحاكمة ، مرحلة البحث ، وأصبح يعيش جميع إحساساته بنفس العفوية وبنفس البساطة اللتين يعيش الناس بعضها ..
لكن تجربته لم تكن قد أتاحت له بعد أن يتذوق جميع الإحساسات !..
لئن تذوق معظمها .. وعلى مختلف مستوياتها ، فإن قيود المجتمع كانت تفرض عليه التزامات ضرورية نحو بعضها الآخر ، كان يتظاهر بقبولها ، ولا يفصح سوى للقليلين من أصدقائه عن حقيقة ازدرائه لها ..

.. وفي هذه الليلة ، أحس بأنه طار إلى ارتفاع جديد !..
كان حتى ذلك اليوم كمن يختنق بسحر لحن لايعرف كيف يُسمعه للآخرين ..
كان كالذي يشرح النور لمن خلقوا دون نعمة البصر !..

وفجأة .. دون حاجة لبحث ، أو لتمهيد ، تفتحت عند هاتين الاثنتين حاجة طبيعية لمزاولة ماهو أقوى وأقدم اللذات عند كافة البشر !..
.. ولدقائق معدودات ، وبمزيج غريب من التلقائية والإصرار .. تجاهلت كل منهما وجود الأخرى ، وانساقتا وراء ما التهب في أحشائهما من رغبة طبيعية ..

هل كانت زوجته اللاهثة تعلم بأن يده امتدت لتطبق على يد قطر الندى ؟!..
وإذ هدأ جسداهما ، وقامت بصمت وهدوء لكي تغتسل ، هل جال في

خاطرها أنها ستترك تحت الظلام،وفي فراش واحد ، جســـد امرأة في أوج التهابه إلى جانب رجل لايمكن له إلا وأن يستجيب لذاك اللهب ؟!..

لعلها لم تنتبه إلى يد زوجها ، أولعلها أقنعت نفسها أن قطراً كانت تغط في نوم عميق .. لكنها لم تبد ، حين عادت بعد دقائق طويلات ، أنها تكترث لما جال في ذاك الفراش أثناء غيابها ..

بدا على قطر الندى وزوجها أنهما يغطان في النوم ..

هل كانا يصطنعان ذلك ؟!..

ماذا يهم !..

تسللت بصمت إلى مكانها الذي تركته ..

وأسدل ذلك الليل إلى زمن طويل ستاره ، إلى هذه اللحظات ، على مادار في ذلك الفراش .. في غرفة ذلك الفندق .. في روما ..

* * *

الفصل التاسع

استيقظت ميساء ضاحكة مستبشرة ..

أسرعت إلى غرفة الزوجين المعتمة ، وتوجهت نحو الستائر المخملية تفتحها،وتحض النائمين على النهوض ، متسلية بنظهرهم ، ضاحكة لما قاموا به من محاولات لتفادي وهج النور المفاجىء ..

استوى الزوجان وقطر في الفراش ، فبدوا لميساء بثياب نومهم وشعرهم الأشعث كالأطفال !..

كانت هي الأخرى بثياب نومها ، فجلست على حافة أسفل السرير تسامرهم ، ترتشف قهوة الصباح ، وتتحين الفرصة كي تزف إليهم نبأ دعوة مراد لها إلى «نابولي» !.

تبسمت ،وقالت وهي تنظر إلى أظافرها المطلية بلون وردي باهت ..

— .. إنها ليست دعوة مباشرة منه !.. أعني ، إننا لن نكون هناك ضيوفه هو !.

— .. وماذا تعنين ؟..

تابعت ، وهي ماتزال تنظر إلى أظافرها ..

— إننا جميعاً مدعوون من قبل ملك البترول في إيطاليا !.. المقصود بهذه الدعوة هو مراد طبعاً !.. لكنها ، على ما أظن ، دعوة بمناسبة زواجنا !..

جال في ذهن فراس أن سهرة البارحة قد أتت بمفعولها !..

هاهي ذي ميساء توقظهم اليوم، كأنها لم تتربص له في الصباح السابق،وتحرض أختها ضده و كأنه على وشك اختطاف زوجها منها !..

رآها سعيدة متفتحة ، فضحك في سره ..

لم ينس شجار البارحة ..

لئن تناسته هي ، فهو لم يسه عن مقدرتها في كتمان مايعتمل في نفسها ، وإخفائه وراء تقلبات مزاجها الخارجي ..

ميساء من النوع الذي لاينسى الضغينة بسهولة !..
مالها تزف إليهم نبأ هذه الدعوة و كأن العيش لايهنأ لها مالم يشاركوهاهذاالهناء؟!.
مناسبة ، تلقفها فراس ..
أجابها ، مصطنعاً التعجب ..
ـ .. وما علاقتنا نحن بهذه الدعوة ياميساء ؟!..
فاجأها سؤاله ..
ـ .. ماذا تعني ؟..
تمهل قليلاً .. قلّب يديه متسائلاً ..
ـ .. أعني .. زوجتي وأنا !.. ماعلاقتنا بملك البترول في إيطاليا ؟.. وبدعوة يوجهها إلى الأمير مراد.. وزوجته ؟..
أدركت ميساء مايرمي إليه ، فتجاهلته ..
تغلبت على امتعاضها .. لعل سرورها لهذه الدعوة كان أقوى من استيائها لمناورة فراس ، فتابعت معاتبة ، مصطنعة البراءة ..
ـ .. أتظن حقاً أنني أفضل أن أكون وحيدة مع مراد ، وفي مثل هذه الدعوة؟ أو أنني أود ألا يرى مراد من الناس غيري ؟..
تدخلت قطر بشيء من السخرية ، وليس من يجاري قطراً في القذف بالحقائق المحرجة في مثل هذه المناسبات !..
وجهت كلامها إلى فراس دون أن تنظر إليه .. قالت بخبث ،وهي ترشف القهوة وتنظر إلى أختها من تحت جفنيها ..
ـ لاريب أن رهط مراد سيكون معه في هذه الدعوة .. ماذا بك يافراس؟!.. هل تود لميساء أن تظهر في مثل هذا الحفل ، أمام ملك البترول وزوجها ، وحيدة ، مستضعفة ..من غير ما حاشية خاصة تحيط بها ؟!..
علا وجنتي ميساء احمرار طفيف ..
قاطعت قطر قائلة ..

ـ .. تعلمين جيـــداً أن هذا ليس صحيحاً .. تعلمين جيداً أن قصدي ليس ماتقولين !!..

أثارها قول قطر .. فغلبها حنق مفاجىء !..

أدركت متأخرة أن أختها قد بدلت تحالفها ..

كيف لم تنتبه إلى تأثير مثل هذه الليلة على قطر ؟..

لابد أنهم مزحوا طويلاًقبل النوم .. ضحكوا طويلاً ، فنسيت أختها أن العـــالم مواقف ، ومصالح تجب صيانتها !..

غريبةقطر !.. تشفق عليها ، وتبذل كل ما بوسعها كي لاتراها مستضعفة ، فما أن يلوح لها النصر ، حتى تعود إلى مناوأتها ومحاولة النيل منها !..

ميساء ليست من النوع الذي يأبه للتافه من المناوشات ..

لكن صورة هؤلاء الثلاثة أمامها ، فراس وزوجته وقطر ، جالسين في فراشهم ، متوسدين ظهر السرير ، يرتشفون القهوة بهدوء ، وينظرون إليها ،صفاً واحداً،وكأنهم جبهة واحدة ، بينما هي وحيدة على أسفل الفراش !..

كبرت هذه الصورة في رأسها !.. وصممت على استرجاع عطف أختها وولائهـا حتى ولو اضطرها الوصول إلى ذلك أن تكشف عن نقطة الضعف في موقفها هي !..

ـ أظنك تعلمين أننا في موقف حرج !..

قالت ذلك وكأنها تستحث قطراً على تذكر حديث سابق دار بينهما حول هـــذا الموضوع ..

ولا مثل قطر من يجب أن توجه إليه المعاني الخفية ، فتعمل بهـا على الفور ، لا لشيء ، سوى لتدلل للطرف الآخر أنها فهمت مايرمي إليه !..

هزت رأسها موافقة ، بينما تابعت ميساء ..

ـ .. ثم إن مراداً سيفتقد فراساً وزوجته إن لم يحضرا !.. والأهم من كل ذلك هو .. كيف يمكنني أن أدخل الحفل دون رجل ؟.. كيف نذهب إلى نابولي دون رجل !؟..

شددت في كلامها على افتقاد مراد لفراس..فأدركت قطر من ذلك على الفور أن هنالك أموراً تجهلها حول هذه الدعوة .. وأن أختها مازالت في موقف الضعف !..

استدارت تنظر إلى فراس ،محاولة إخفاء التحدي الذي أحست به نحوه .. حتى إذا ماجاءت أختها على ذكر حاجتها لرجل إلى جانبها ، أدخلت عنصر المزاح ، وعلقت بما معناه أن لانفع للنساء بلا رجال اليوم .. فاصطنع الجميع الضحك !..

تبسم فراس في سره .. لابأس !.. إن ميساء بحاجة إليه ، وهي تصر على مجيئه معها إلى « نابولي » .. رغم مخاوفها ، ورغم ما كانت قد أبدته له من عداء في الصباح السابق !..

ما الذي يدفعها إلى هذا الإصرار ؟..

لاريب أنها فهمت من مراد ، بطريقة أو بأخرى ، أنه يود حضور فراس !..

ما الذي يجعلها تستجيب إلى طلبه ؟..

أليس في هذا الإصرار مايكفي لدفعها للوقوف أمامه ؟..

— .. ومتى نذهب ؟..

نظرت إلى ساعتها ..

— اليوم !.. حوالي الظهر !!..

نظر فراس إلى ساعته هو الآخر ، وقال مبهوتاً ..

— .. الساعة الآن .. الحادية عشرة !.. أي بعد ساعة واحدة !!..

قفزوا من الفراش !..

كان تباطؤ ميساء في اطلاعهم على أمر هذه الدعوة دليلاً آخر على أهمية ما كان يجري في رأسها إزاءها ..

أحسوا بأنها كانت تعالج أمراً خطيراً بدقة وأناة .. وأدركوا أن ما بدا لهم منذ ساعة من حديثها ، على أنه مشاحنة نسائية ، كان في الواقع محاولة دقيقة منها لفك أجزاء قنبلة قابلة للانفجار ..

سألتها قطر ..

— .. وكيف نذهب إلى نابولي ؟..

— سنستقل سيارة السفارة السوداء .. وسينقل متاعنا بسيارة أخرى ..

ــ ومراد ؟.. هل يذهب معنا في سيارة السفارة ؟..

تبسمت ميساء .. كابتة سرورها ..

ــ لقد ابتاع البارحة سيارة « مازيراتي » .. وسيقودها اليوم لأول مرة !..

صمتت قليلاً.. ثم تابعت ..

ــ .. وأظن أنه سيقلني فيها إلى نابولي معه !..

سألت زوجة فراس ..

ــ ونذهب نحن في سيارة السفارة القبيحة ؟!..

أسفت قطر لسيارة جعفر الفخمة السوداء التي اضطرت لإرجاعها إلى « جنيف » خوفاً من أن يكتشف أمرها ..

مرة أخرى ، نظرت إلى أختها تلك النظرة التي يكاد يستشف من ثناياها الحسد!..

هاهي ميساء تلامس برؤوس أصابعها ماسوف تحتضنه عما قريب ..

ستلف حلم الأمس بذراعيها ، وتغذيه من دفء جسدها ..

صار لها ما تريد ..

أميرها المتمدن .. أميرها الأنيق .. أميرها الذي يجيد الإفرنسية أكثر من لغة بلاده !..

وقصرها الذي أوشك أن يتم ..

سيؤثث بأجمل تحف فلورانسا !..

وسيارة « المازيراتي » !.. لم تضطر ميساء لأخذ عشيق للحصول على سيارة سباق !.

وقفوا أمام الفندق ينتظرون وصول الأمير ..

أحاطت بهم حاشية مراد تسليهم كي لايملوا الانتظار ..

أقبل أحد السفراء يشرح لهم أن الأمير لايزال في مكتب الشركة ينتظر استلام سيارته الجديدة .. وفهموا أن مراداً انتقى لوناً غريباً لها في آخر لحظة . . وأنهم على وشك إنهاء ماطلبه !..

بدأت قطر تتململ لهذا التأخير ، وتجد فيه قلة احترام لقدرها .. بينما راحت

ميساء ، وقد أدركت سبب ضيق أختها ، تهدؤها ، وتجد لأميرها المبررات !..

دقائق .. وأقبلت سيارة المضيف ، فتوقفت قربهم ..

ترجل منها شاب هادىء وسيم ، تبعته سيدة ساحرة التقاطيع والسمرة ، ترتدي زياً هندياً شفافاً ، وتحلي وشاحها الأبيض الطويل زهوراً صغيرة ذهبية ولآلىء ثمينة باهرة الزرقة !..

خفّ السفير للقاء القادمين .. وأقبل يعرّفهما على الأميرات وركبها ، فعرف هؤلاء أن الشاب هو « جورجيو » ، ابن صاحب الدعوة ، وأن السيدة الفاتنة هي « الأميرة سيتا » ابنة مهراجا كبير، وزوجة جورجيو ..

فوجئوا بالأميرة « سيتا » تغدق عليهم عبارات الترحيب المهذبة بصوت أقرب إلى الهمس منه إلى الكلام !..

ظنوا أن في الأمر سراً ، أو علة مؤقتة في حنجرتها ، لكن برهة من الحديث معها كانت كافية لأفهامهم أنهم أمام إنسانة من طينة ماعرفوا مثلها بعد !.. كائنة ، لم يروا مثلها حتى ذلك اليوم !..

طيف أسمر ، يتحرك بهدوء يماشي همسه .. لايقوى من يخاطبها على التحديق بها ، وتضطره إلى مجاراتها في الهمس !..

تركت سيتا زوجها ، ودعت قطر الندى إلى سيارتها ..

وبينما أقبلت قطر الندى تجلس إلى جانبها ، عاد زوجها ليخبرها بأنه سيسبق الركب بسيارة أخرى ، وطلب منها أن تلحق به فيما بعد مع ركب الأميرات ..

كان جورجيو لا يزال على بعد خطوات منها حين تذكرت أمراً مهماً أرادت أن تخبره به ..

مدت يدها من نافذة السيارة ، وهمست بصوتها الموسيقي الخافت ..

— .. جورجيو .. جورجيو !..

كان زوجها قد صار على بعد أمتار منها .. فألحّت ..

— .. جورجيو .. جورجيو !..

لم يسمعها ..

مدت بجذعها إلى الأمام ، وعادت تنـادي بصوت ، لئن كان أقوى بعض الشيء من همسها السابق ، فإنه لم يكد يصـل إلى مسامع قطر التي كانت تجلس إلى جانبها!..

توجهت إلى قطر ، والدموع تكاد تطفر من عينيها ..

ـ .. لكن الأمر مهم جداً .. يجب أن أكلم جورجيو !..

كادت قطر أن تصيح لفرط نزقها !.. كادت أن تزعق في وجهها !!

لو نادت سيتا زوجها بصوت أي إنسان عادي .. إنسان يتكلم بصورة طبيعية ، لسمعها ، لكن سيتا لاتنادي .. سيتا لاتعرف غير الهمس ..

لقد درجت على هذه الطريقة في السلوك ، فهي لاتعرف غيرها ..

مدت رأسها ، في محاولة أخيرة من نافذة السيارة ، وهمست لزوجها الذي بـدأ يبتعد بسيارته عنها ..

ـ .. جورجيو .. جورجيو ..

.. دون فائدة !..

غابت سيارة زوجها عن ناظريها ، دون أن يسمعها ، فعادت تنظر أمامها ، ثم إلى قطر الندى ، حزينة حيىّة ..

أقبل مراد بسيارته الأنيقة ، وبدل الرقم الاعتيادي على لائحتها الأمامية ، عُلّق مصغر لتاج ملكي أنيق ..

كادت ميساء تصفق فرحاً ، لكنها كبتت غبطتها ، ونظرت تسترق انفعـالات قطر ، فرأت أختها ، وقد حولت نظرها عنه ، تتعمد الشرود وعدم الاكتراث !..

أذنَ مراد لحاشيته بالتحرك ، فانطلقت سياراتهم ، وأقبل نحو الأمـيرة سيتا يحييها ، ويعتذر لقطر الندى عن تأخيره ..

عاد نحو سيـارته ، ووقف ينظر إلى ميساء وفراس اللذين كانا على بعد أمتار منه ، حائرين فيما يفعلان !..

أشعل لفافة ، وقال وهو يدخل سيارته ..
ــ فراس !.. أتود أن تركب معي إلى نابولي ؟..

لم يكن في سيارته الجديدة سوى مقعدين !..
علا الدم إلى وجه فراس !!..

تقدم خطوة نحو مراد ، ثم توقف حائراً فيما يفعل ..
كان مراد جالساً وساقه اليسرى على الأرض ، خارج السيارة ..
صاح وهو يدير المحرك ..
ــ .. مالك يافراس ؟.. أتخاف السيارات السريعة ؟!..
زاد حرج فراس !..
تلفّت خلفه ليجـــد ميساء صفراء اللون ، يكاد يغمى عليها !.. فتقدم نحو مراد بجزم ، وقال ..
ــ إن ميساء تنتظر أن تركب معك !!..
ودون أن ينتظر الجواب ، نادى ميساء ..
ــ .. إن زوجك بانتظارك .. مالك تقفين هكذا ؟..
نفث مراد دخان لفافته بصوت مسموع ..وتمتم ..
ــ .. حسناً .. لتركب معنا إذن !..
وشدد على « معنا » !..

نظر فراس إلى حيث يمكنه الجلوس في هذه السيارة الضيقة ..
كان واضحاً أن ميساء لايمكن لها أن تجلس ، أثناء تلك الرحلة الطويلة ، على عتبة المحرك الناتئة التي تتوسط المقعدين !.. لذلك ، صار عليه هو أن يجلس على ذلك النتوء ، بين الزوجين !..
دخل السيارة ، وارتفـع إلى مكانه الضيق معتمداً ذراعيه ، تاركاً مقعد اليمين إلى ميساء التي كانت لاتزال واقفة في مكانها و كأن السماء قد أطبقت عليها !..

ابتسم مراد بطريقته التي لاتفصح عما إذا كان واعياً لما يدور حوله أم لا ، وتقدم نحوها بسيارته ..
أشار إليها من خلف الزجاج بأن تصعد ، فأقبلت نحوهما بصمت ، وانزلقت في مقعدها ببطء ، ثم استرخت ..وكأنها لم تعد تقوى على الحراك ..

ضغط مراد على مدعس الوقود عدداً من المرات ، فضج المحرك بدوي هائل !..
أعاد الضغط .. وفي كل مرة كان الدوي يزداد ليستحوذ على المزيد من مشاعرهم !..
تملكت زمجرة المحرك منهم .. فبعثرت أفكارهم ، حتى أرخت سُدول النسيان على جميع ما كان قد مر بهم حتى تلك اللحظة !..

كان رجال الأمن قد عطلوا سير السيارات الأخرى ، ووقفوا متأهبين لتحرك سيارة الأمير ، فما أن أحكم مراد المحرك ، وانطلق بصفير مفزع ليسابق الريح ، حتى أدرك كل من فراس وميساء أنهما باتا رهناً لمشيئته ، وأن قدرهم ، لساعات مقبلة ، قد بات بين يديه !..

دقائق ، اجتازوا فيها شوارع روما ، مالبثت بعدها أن تفتحت أمامهم آفاق سهول الجنوب المنبسطة ..
راح مراد يناوىء السائقين ، ويحرضهم على السباق ، ولما لم يعترضه من تجرأ على مسابقته،استجاب لنداء داخلي ، فراح كالشهب يسابق نفسه ، ويتحدى مقدرة الآلة على الاستجابة لبراعة ذراعيه في تخطي الخطر !..
أخذ فراس !..
أحس وكأنه يمتطي جواد الموت ، فنسي الخطر !..

كان حذراً ، ألا تعيق ساقه حركة ذراع المحرك الذي تلامسه ، لكنه سرعان ماشعر بآلام في جنبه من ضيق المكان .. وبخدر بدأ يعلو ساقه ..
اضطر إلى محاولة تبديل موضع ساقه ، فحركها بعض الشيء ..

لم يكن له الخيار في طريقة جلوسه ..

امتدت ساقاه إلى اليمين، حذو ميساء ، فكان لابد لجذعه من ملامسة جذع مراد ، والاستناد عليه بعض الشيء ..

رفع ذراعه اليسرى ، كي يخفف من ثقله ، وأحاط بها مقعد مراد .. كانت تنزلق في المنعطفات ، فيضطر للاستناد على كتف مراد ليعود إلى وضعه الأول ..

شعر مراد بحركة ساق فراس ، فأشار إليه بأن يريحها بالوضع الذي يناسبه ..

وبعد تلكؤ طفيف ، أراح هذا ساقه بأن قربها من ذراع المحرك حتى لامسته ، فكان لابد ليد مراد من ملامسة ساقه كلما أراد تغيير السرعة ..

دقائق من الارتباك مرت ، أجبر كل منهما في نهايتها على اتخاذ الوضع الذي يريحه ، فاتكأ فراس بذراعه حول كتف مراد ، دون حرج ، وأركن هذا ذراعه على ساق فراس .. تاركاً يده على رأس ذراع المحرك ..

أتاح الوضع الجديد لفراس أن يريح ماتشنج من عضلاته .. زاد دفء جنبه الملاصق لمراد ، وأحس بدفء ذراع صديقه على ساقه ..

كان مراد يقود بسرعة فائقة ..

فسأل زوجته ..

– أتزعجك السرعة ؟..

ولما لم يسمع جوابها ، نظر فراس نحوها بطرف عينيه دون أن يحرك رأسه ، فوجدها مسندة رأسها إلى الخلف ، مغمضة العينين ..

لاحظ توتر أصابعها على فخذيها ، فأدرك أنها تصطنع النوم !..

همس لمراد بصوت تعمد أن تسمعه ميساء ..

– إنها نائمة .. يستحسن أن تخفف السرعة كي لاتوقظها المنعطفات .. مسكينة ، لقد أتعبتها هذه الرحلة ..

قال ذلك ، وضغط بيده على كتف مراد ..

حاول هذا أن يلتفت إليه مستفسراً ، فأعاد فراس الضغط مرات كي يمنعه من

ذلك !.. وفي النهاية،عدّل مراد وضع المرآة الصغيرة التي أمامه،فالتقت فيها عيناه بعيني فراس ، وفهم من إيماءته أن ميساء يقظة ، متنبهة إلى ما يدور بينهما من حديث ..

لم يدر ما الذي دفعه إلى تنبيه مراد .. هل جال في خاطره أن صديقه قد يفوه بشيء يزيد من تعقيد الأمور ؟..

ابتسم مراد لهذا التواطؤ الذي خلقه ذلك التنبيه !.. وعاد ينظر إلى الطريق أمامه محتفظاً بابتسامته المبهمة لمدة طويلة ..

أتاح وضع المرآة الجديد لمراد أن يرى عيني صديقه كلما حلا له ذلك ،فراح يطيل النظر إليهما ، ويجيبه فراس بابتسامة طفيفة ..

ـ ما أجمل هذه الطريق !..

ـ لو لم أكن خلف المقود ، لأخافتني ظلمتها ..لأخافني سكون هذه الأشجار !..

تعجب فراس ، نظر ملياً إلى عيني مراد الذي كان مقطباً ،ينظر باهتمام إلى الطريق أمامه ، وقد خيمت عليها الظلمة من كثافة الأشجار ..

.. طفل كبير !..

.. نظر إلى يدي مراد اللتين أطبقتا بشدة على جانبي المقود حتى نفرت منها العروق .. رآهما تسترخيان بعد أن تجاوز المنعطف الخطر ، وعادت ذراعه اليمنى لتستريح على ساقه ، بينما رفع مراد بناظريه مرة أخرى إلى المرآة ..

ولأول مرة ..أحس فراس بوجود صديقه !..

كان لاهياً عنه في الماضي .. لعل الصورة التي رسمتها له ميساء في ذهنه ، ثم التعقيد الذي خلقته حول صداقتهما ، كانا قد شغلاه عن النظر إلى مراد ببساطة كما كان ينظر إلى أي شاب آخر جمعتهما مثل تلك الظروف المقربة ..

أحس فجأة بالمعنى الذي تضمّنته إحاطة ذراعه بكتف صديقه .. وشعر بالعطف الذي تولده تلك الحركة ..

ابتسمت عيناه في المرآة ، وشعر بضغط خفيف من ذراع مراد على ساقه ، فاجابه بأن شد على كتفه ..

أقبل المساء ..

تسللت عتمة أول الليل على الطريق ..

مضى زمن طويل دون أن يصلوا إلى بلدة صغيرة تَقررَ أن يستريحوا فيها ..

همس فراس ..

ـ أظن أننا ضللنا الطريق !..

ـ لاريب .. إننا انعطفنا على الطريق الجبلية ، عند المفترق .. كان عليّ أن أتجه نحو الساحل !.. نحو الطريق الأسهل !..

ـ لابأس .. إنها الطريق الأطول والأشق ، لكن الطريقين تؤديان في النهاية إلى نفس الهدف !..

ـ أتخيفك هذه الطريق ؟!.. أيخيفك الضياع ؟!..

ـ ليتني لاه عنه !..

ـ لا بأس .. لن نأسف لهذه التجربة !..

لم يكن في السيارة مذياع تطرد موسيقاه ذلك السكون الموحش ..

زاد مراد من السرعة !..

كانوا يجتازون غابة كثيفة تشابكت أغصان أشجارها فوق رؤوسهم ..

نفق طويل لانهاية له ..

لاريب أنهـــا طريق جبلية مهجورة تلك التي عرج عليها مراد !.. فلا سيارات تعترضهم ، ولا بيوت ، ولا سكان على أطرافها ..

أضاء مراد الأنوار الكاشفة .. فأتت باهتة في تلك الساعة المبكرة من الليل ..

زاد ذلك من شعورهم بالوحشة والضياع !..

أحسا بأنهما معلقين بين زمنين .. تائهين على طريق مهجورة .. من عالم منسي !..

ماذا يفيد أنهـا طريق سلكها الرومان .. وعبَّدها الإغريق من قبلهم ، منـــذ ألوف الأعوام ؟!..

ماذا يفيد أنها طريق يطؤها الإنسان منذ فجر التاريخ ؟...
ماذا يفيد أن يتيها فيها وهما في أجمل وأقوى سيارة خلقتها صناعة العصر ؟..
.. أو أن أميراً يسوقها ؟..
..أو أن حاشيته الكبيرة في انتظاره، لاتجرؤ على انتقاده مهما تأخر فيها وتاه ؟..

لاريب أن ميساء أحست بما يجري ، فانكمشت في مقعدها ، مضاعفة تظاهرها بالإغراق في النوم !..

ما الذي كانت تنشده من هذا السكون؟..ما الذي كانت تحس به ..فيخيفها ؟!..

لعلها أرادت في البدء أن تسترق السمع إلى ما قد يجول بينهما من حديث .. أو لربما غلبها التعب بعد ذلك .. أو الخوف !..

لعلها تمنت ألا تكون في تلك السيارة ..

تضاءل وجودها ، حتى غاب .. ولفترة قصيرة ، باتت فعلا وكأنها لم تكن !..

زاد مراد من سرعته ..وبالغ في مبادهة الخطر !!..

شد بذراعه على ساق صديقه ،مرتكزاً عليها ، فلم يعد يتركها عند المنعطفات !..

تعمد أمراً غامضاً .. ولم يعد فراس يرى عينيه في الظلام !..

علا صوت زئير العجلات .. وقرقعة الحصى المتطاير من تحتها ..

كان دائم الحاجة إلى تحريك ذراع المحرك .. وفي الوقت ذاته ، بحاجة لذراعيه كليهما كي يسيطر على المقود ، ورغم ذلك لم يعتمد في القيادة ، سوى يده اليسرى ..

كانت الطريق ضيقة ،وفي صعود وتعرج مستديمين .. فكادت تفلت القيادة منه أكثر من مرة ، فما زاده ذلك إلا سرعة وتهوراً !!..

لم يدر فراس ما الذي أعاد إلى ذاكرته في تلك اللحظة حديث مراد له وهما في الطائرة ،في طريقهما إلى فلورانسا !..

ذكر سؤال مراد له « ألا تود أن ترى قصري الجبلي » ؟.. ثم ذكر قوله ..

« لنذهب إلى هناك ، بعد أن تودع زوجتك في بلادك » ..

ثم قوله .. « سنأخذ معنا من جميلات روما من تشاء » !.. « .. أعدك أننا سنقضي أسبوعاً لن تنساه ماحييت » !!..

تذكر أشياء كثيرة سها عنها ، كان مراد قد ذكرها له أثناء تلك الرحلة .. أشياء سها عنها حتى تلك اللحظة ..

شغله شجاره مع قطر وميساء ، ذاك الصباح ، عن الانتباه إلى أقوال صديقه .. فما الذي يذكره الآن بها ؟..

.. « لست أدري ماذا أود.. أو عمّ أبحث يافراس » .. « أود الموت أحياناً !.. »

.. « .. ألا تبحث أنت عن الشيء نفسه ؟!.. »

تذكر حزناً عميقاً في عينيه .. حزناً ، لم يدرك معناه في ذلك الحين !..

ما الذي جعله يدرك حزن مراد الآن ؟..

وما علاقة ذاك الحزن بهذا الضياع الموحش في تلك الطريق النائية المتعرجة القفر ؟!..

وكمن يصحو من حلم سحيق مخيف .. اندفع فراس وميساء إلى مقدمة السيارة حتى كادا يصدمان زجاجها الأمامي برأسيهما !..

كان مراد قد ألجم سيارته في آخر لحظة ، فتوقفت .. على شفا منحدر مخيف !!..

أوقف المحرك .. وراح الثلاثة يلهثون من شدة الخوف والتوتر !!..

صاحت ميساء ، وهي تنظر إلى أسفل المنحدر من نافذتها ..

— .. إنها نابولي !!.. إنها نابولي !!..

وصلوا نابولي عن طريق جبلية مهجورة ..

أزالت تلك المفاجأة السارة ما سيطر عليهم من خوف .. فوقفوا ينظرون إلى أضواء المدينة الخافتة ، إلى خليجها الرائع .. إلى البحر يحضنها .. إلى بركان « فيزوف » البعيد ..

قالت ميساء ..

— .. لابد أن « بومبايي » تقع هناك !..

تبسم فراس هازئاً ..

— .. وهل يمكن تمييز مايرى الإنسان في هذه الظلمة المعتمة ؟!..

.. أين كانوا ؟.. في أي حلم تاهوا ؟!..

ضحك مراد ، وهو يقودهم منحدراً نحو نابولي ..

همس في أذن فراس ..

— ليتنا ظللنا تائهين !..

★ ★ ★

الفصل العاشر

خف جميع من كان في القصر لاستقبالهم ..

وقف بعضهم مرتبكاً ، مستفسراً ، بينما راح البقية يتنقلون بين حديقته وأبهائه الواسعة ، يرتقون درج المدخل الرخامي العريض ، صاعدين نازلين ، حائرين فيما يفعلون !..

هرع المقربون من أفراد الحاشية ، يستطلعونهم خبر تأخيرهم ، وتعجبوا إذ علموا أن أحداً منهم لم يصب بمكروه !..

هزأت قطر من ضياعهم ، وقالت ساخرة ..

- .. أهذا وقت النزهات الغرامية !؟..

هزت ميساء رأسها كمن تجيبها .. « لاتتسرعي .. سأطلعك على كل شيء .. فيما بعد » !..

تقدمت الأميرة « سيتا » من ميساء وفراس ، وهمست بلطف زائد ..

— لابد أنكما متعبان .. أتسمحان لي أن أقودكما إلى غرفكما ؟..

ألقى مراد بتعليماته إلى حاشيته ، فتفرقت ، على أن تعود رؤوسها إلى مأدبة العشاء.. وتقدمت « سيتا » ضيوفها نحو بهو فسيح ، ارتقت منه سلماً عريضاً يصعد نحو أجنحة النوم !..

كانت قطر الندى قد سبقتهم إلى غرفتها ، فوقفت على بابها ، تنتظر وصول ميساء. توقفت سيتا أمام الباب الذي يسبق غرفة الأختين ، حيث كانت قطر واقفة، وأشارت لرئيس الخدم بأن يفتحه ..

همست لفراس ..

— هذه غرفتكم .. ستجدون فيها باباً داخلياً يصلكم بغرفة أختيكم ..

ضحك فراس لما سمع ، إذ انتبه إلى أن مضيفته ظنت أنه أخ لقطر وميساء ..

دخل غرفته ، وأغلق بابها خلفه ..

أعجبته أناقة ألوانها ، وراقه قدم أثاثها .. وقف أمام المرآة قليلاً ، ثم تذكر فجأة زوجته !..

نظر حوله فلم يجد حقائبها .. توجه نحو الباب الداخلي ، ففتحه ، ليجد قطراً وميساء تتجهان نحوه !..

وبعد أن ضحكوا للمفاجأة ، سألها عن زوجته .. فصمتت قطر قليلاً ، ثم بدأت تتكلم .. وكأنها تستوعب أمراً خطيراً كان قد غاب عنها ..

— .. إنها في جناح آخر !!.. رأيت سيتا ، بعد أن أوصلتني إلى جناحنا ،تقود زوجتك إلى جناح آخر ، بعيد عن هذا الجناح .. بعيد عن جناحنا !!.. في الجهة المقابلة !!..

كانت تبتسم ويدها على شفتيها،تحاول جاهدة أن تمنع نفسها من الإغراق في الضحك المحرج !..

نظرت ميساء إليها شذراً ، ثم قالت مشدوهة ..

— وما معنى أن تقود « سيتا » فراساً إلى جناح ملاصق لجناحنا .. وتقود زوجته إلى جناح آخر ؟!..

ما كادت تنهي سؤالها ، حتى سمعوا قرعاً على الباب ، وإذ أذنت ميساء للقارع بالدخول ، فُتح الباب ، وبانت زوجة فراس ، مقطبة الأسارير ، شاحبة الوجه ..

قالت ، وهي ترتعد غضباً ..

— سألت رئيس الخدم عنكم .. أتعلمون بماذا أجابني ؟..

لم تنتظر رد أحد ، بل تابعت ..

— ..قال.. « إن الأميرات وأخاها في الجناح الخاص بضيوف الشرف ياسيدتي !» .. هذا ما قاله !!..

خيم الصمت عليهم .. إلى أن أجابها فراس ، مهدئاً ..

— .. لقد ظنت سيتا أننا إخوة .. هذا كل ما في الأمر .. فما الداعي للغضب؟.

— .. ومن ظنتني أكون .. لتضعني في تلك الغرفة المنفصلة ؟!..

ومدت ذراعها مشيرة إلى الوراء ، بينما انحنت قليلاً إلى الأمام ، وتسمرت في وضع غريب !..

تابعت لاهثة ..

ـ .. أتظنني مرافقة لكم ؟!.. أتظنني وصيفة لأصحاب السمو ؟!..

ضحك فراس لغيظ زوجته ، ولم تستطع قطر أن تتمالك نفسها ، فشاركته بالضحك !..

قالت ميساء ، بلطف وتعقل ..

ـ على أية حال ، يجب ألا نحاول تغيير الأمور .. هي ليلة واحدة !..

صاحت بها زوجة فراس ..

ـ كيف ؟!..

تابعت ميساء كلامها ، مهدئة ..

ـ ليس فيما قامت به سيتا إهانة لأحد .. لابد أن علاقتنا الوثيقة قد أوحت إليها أننا إخوة !.. ولربما ارتكزت على الشبه .. لئن أوضحنا لها خطأها الآن لأوقعناها في ارتباك أكبر من أن تتحمله !..

أيدت قطر الندى ميساء .. جاءتها هذه مناسبة لتهزأ من « سيتا » التي أزعجها تهذيبها .. فقالت ..

ـ لئن علمت بخطئها لأصابها ارتباك قضى على صوتها .. كلياً !.. لأصابها الخرس لامحالة !..

تبسمت ميساء ، راق لها أن تتصور سيتا خرساء !..

أوحت لها هذه الصورة بالانتقام !..

ولعلها تذكرت مأدبة العشاء المقبلة .. التي ستجلس كضيفة الشرف فيها . فاختلط في نفسها مزيج غريب من الغبطة والنقمة ..

هل تسللت إلى نفسها نسمة هواء منعشة ، فأرادت أن تبدد ماتجمع في نفسها من تشاؤم ؟..

تذكرت الرحلة الأخيرة ..

تذكرت فراساً إلى جانب مراد ..

أحست بأنها تود ، قبل مأدبة العشاء المفرحة ، أن تقوم بشيء يخلصها من وطأة ما كبتته من شعور بالإهمال !..

لم يكن الوقت وقت مناقشة وعتاب .. وهذه قصة زوجة فراس جاءت لتضفي شيئاً من المزاح على ماتجمع في نفسها من نقمة ..

وجدت نفسها تتقدم نحو فراس نصف مازحة ، نصف جادة ، وهي تقول ..

ـ ليس غيرك مسؤولاً عن هذه التعقيدات !..

صاحت قطر مازحة ، تتقدم هي الأخرى منه ..

ـ تعالوا ننتقم منه !..

وكأن زوجته كانت تنتظر هذا القول .. فصاحت راكضة نحوه ..

ـ تعالوا !.. تعالوا ننتقم منه !.. إنه واحد .. ونحن ثلاثة !.. ماذا يمكنه أن يفعل بنا ؟.. هيا يافتيات !..

ماهي سوى ثوان معدودات ، حتى وجد فراس نفسه ملقى على الأرض .. والثلاث فوقه .. يكلن له ما استطعن من ضرب موجع ، وسباب !..

.. تناوبن الإمساك بيديه وبقدميه ، ورحن ، دون جدّ كبير ، يفرغن ماتجمع في نفوسهن من نقمة عليه !..

لجأ إلى الدفاع عن نفسه جاهداً ألا يصيبهن بأذى .. تلقى ضربات غير مؤذية، فردها بمثلها ، يدغدغهن ، أو يلطم هذه على خديها وتلك على قفاها .. حتى أنهكهم العراك !..

وبعد استراحة طويلة ، تمددوا فيها على الأسرة وعلى الأرض ، وضحكوا أثناءها من أمور كانت تبدو لهم معقدة قبل ذلك العراك ، قاموا متحفزين يتهيّؤون لمأدبة العشاء !..

زاد عدد المدعوين على الخمسين ، وقفوا ، أو جلسوا يتسامرون في البهو الكبير بانتظار قدوم ضيف الشرف ..

نبلاء أوروبيون أثرياء ، ونبلاء لم يبق الدهر لهم غير اللقب ..

.. كبار رجال أعمال ، يتوسطهم مضيفهم ، محاولاً جهده منعهم عن الدخول في مناقشات صناعية قد يستشم مراد منها أن لهم أهدافاً يسعون وراءها في بلاده ..

ظهرت الأميرة « سيتا » متوشحة « ساري » أحمر شفافاً ، وعلى عنقها عقد رائع من الياقوت ، أدهشت روعته حتى قطر الندى !..

تقدمت ، مع ميساء وقطر وزوجة فراس ، جميع المدعوين .. ومشى خلفهن الأمير مراد برفقة فراس والمهراجا ، والد سيتا ، ثم حموهاوزوجها ..

ثم أقبل المدعوون يجلسون حسب ترتيب مقاعدهم ، إلى مائدة فرشت بأطباق ، وصحون ، وأدوات ، جميعها من الذهب الخالص !..

مرت المأدبة على ما كان متوقعاً لها من الرتابة والتكلف ..

وقفت سيتا ، في الوقت المناسب ، تدعو ضيوفها إلى تنـــاول القهوة في البهو المرجاني ..

ساروا الهوينى بعد ذلك إلى الحديقة ، وجلسوا على مقاعد وثيرة يستمعون إلى أغاني الحب القديمة ، ينشدها عازف قيثارة كبير ، بلغة نابولي ، التي برعت في الجمع بين قسوة إسبانيا والإشراقة الإيطالية ..

تغلب سكون الليل على هواجسهم ،فأسكتها ..

و كأن ضوء القمر قد تسرب إلى نفوسهم ، فشذب تجاعيدها ، وأشواكها ،مخلفاً وراءه طريقاً سمحة تدفقت عليها أنغام القيثارة .. تطفو فوق خرير أوراق الشجر ..

مرت الساعات بهدوء ، حتى انسحب من المـــدعوين من شاء .. دون جلبة .. تاركاً ذلك الجو لمن أراد أن يبقى ، لينعم بالمزيد من سخائه ..

مضى الوقت ، حتى لم يبقَ في تلك الحديقة سوى الذين كانوا سيأوون إلى القصر في تلك الليلة ..

همست « سيتا » ..

ــ أشعر ببرد زائد .. أتأذنون لي؟..سأحرم نفسي لذة هذا الليل،وأتركه لكم..

أشار مراد إلى رغبته في متابعة السهر ، فانسحبت مع زوجها وأقربائها بهدوء ..

تنهدت قطر الندى ..

ـ .. سآوي إلى الفراش أنا الأخرى .. هل من آت معي ؟..

وقفت زوجة فراس ،وقالت شبه نائمة ..

ـ .. لا أقوى على البقاء في هذا البرد .. سأذهب إلى النوم، أنا الأخرى ..

أغمضت ميساء عينيها ، ولفت صدرها بذراعيها تحميه من نسائم الليل ..

سكت المغني .. وراح يعزف على قيثارته أنغاماً عذبة تقترح لنفسها الكلمات..

هدأت نفس فراس إلى الصمت ، ولفه همس أوراق الشجر ..

أغمض عينيه .. فلم يبق في الكون سوى خيالات شاحبة ..

فتح عينيه بعد برهة ، فرأى أن الخدم قد أزاحوا المقاعد الخالية والكؤوس الفارغة !..

قاموا بذلك دون ضوضاء ، ثم أعادوا تهيئة المكان ، بحيث بدت الحديقة وكأنها لم تعدَّ في الأصل سوى لاستقبال هؤلاء الضيوف الثلاثة..ميساء ، مراد ، وفراس..

أشار رئيس الخدم المسن إلى أعوانه بالانصراف ، فتسللوا بهدوء ، وجلس بعيداً عن الحاضرين ليستريح من عناء ليلته الطويلة ..

كانت مقاعد الضيوف مصفوفة في شبه دائرة كبيرة ، فما أن أزيح ماخلا منها ، حتى بدا الثلاثة الباقون وكأنهم جلسوا عمداً في مثلث كبير ..

لم يقترب عازف القيثارة منهم ..

لعله سر إذ لم يبق من المدعوين غيرهم .. لربما أحس بأن مابين هؤلاء الثلاثة عالماً غير مألوف ، لامكان له فيه .. فبقي في مكانه ، بعيـداً عنهم بعض الشيء ..

مال إلى الخلف ، محتضناً قيثارته على صدره ، وراح ينظر إلى السماء ويعزف لنفسه ما أوحى إليه ذلك الليل من ألحان ..

مضى وقت طويل .. وجالت في ذهن فراس خيالات كثيرة ..

كان ، إذا غرق في الشرود ، يسمع دوي محرك السيارة ، وكأنه لايزال تائهاً على تلك الطريق الجبلية ..

يقفل جفنيه ، فيرى عيني مراد ماثلتين أمامه ضمن أطار مرآة السيارة المستطيلة ..

ولم يكن فراس يشعر في ذلك بارتياح أو بسرور ..

استرجع نظرات مراد فيذهنه وراح يقيّمها من جديد ..

كان فيها غير التودد ، أو المحبة ..

فيها إلى جانب التطلع والتساؤل ، معنى آخر لم يرتح إليه ..

كانت تنتاب جفني مراد رجفة طفيفة تضفي على نظراته ومضـــة من قسوة لم يألفها في عيني إنسان من قبل .. قسوة مرضية ..

ثم يفتح فراس جفنيه ،فتختفي الصورة،وتعود العينان إلى صاحبها ليحيطها وجهه الأسمر الطفولي ، فيرى مراداً أمامه وقد أسند ذقنـــه إلى يديه المتشابكتين ، ينظر إليه ، ويبتسم بين الفينة والأخرى ، وكأنه يفهم مايدور في ذهن صديقه .

مرة أخرى ..غابت ميساء عن وجودهما ..

جلست غير بعيدة عنهما ، تصطنع الإغفاء أو الشرود في ليل لايحبّ المتطفلين..

عاد يعتمل في نفسها ما كانت تشعر به في السيارة من وحدة مريرة قاتلة ..

لم تكن تدري أنه يمكن للإنسان بأن يحس بمثل هذه الوحدة !..

ظنت أن تلك كانت تجربة وحيدة لن تتكرر .. فما لهذا الليـل يغمرها بهـــذا الشعور من جديد ؟!..

هل كانت ميساء تتمزق في وحدتها ؟..

هل كانت تود أن تصيح ليضج الليـل بمأساتها ؟..

لكن.. أي مأساة هذه التي كانت تعيشها ؟.. وما حقيقة مكانها في تلك اللحظة؟..

لئن لفظها ذلك الليل ..فلأنها أقحمت نفسها فيه !..

أين المأساة في إنسان يطلب من الحياة أكثر مايمكن لظروفه أن تحققها له ؟!..

ومتى كان عذاب الطموح ..حقيقة مأسوية ؟!..

لاريب في أن ما أحست به كان أكثر من أن تتحمله بصمت..
لكن ما أسكتها ، ماأحالها إلى جسد دون حراك في ذلك المقعد، لم يكن خفراً أو كبرياء ، بل صدى لإدراك طالما حاولت خنقه في أعماقها ..
قبس ، من حقيقة ذلك الفجر المقبل ..
ومض ، تمكن من شقائها ، فكبله ..
صوت ، همس في أذنها أن لامكان لها في تلك اللحظات ..
وأنّ من يعيشون شروق الفجر ، أناس ، غير الذين ينتظرون شروقه !..
أحسست أن في الفجر معنى آخر لاتراه هي .. يدركه أناس يحرك حياتهم بحث عن شيء آخر غير الطموح الذي لاتعرف غيره !..

كان العازف قد غط في إغفاءة طويلة ..
سمعوا تغريد بلبل شجي ..
استيقظت عصافير الفجر المبكر ، فحط بعضها عن الأشجار الباسقة يتطاير وجلا ، ويحوّم حول المائدة بينهم ..
أقبل شحرور ، ناقع السواد ، يحاول التقاط ماسقط على الأعشاب من فتات ..
نظر إلى الجالسين طويلا ، مستغرباً سكونهم .. ثم تقدم من المائدة دون وجل .. وقفز فوق الصحون يلتقط ماحلا له ..
راق له شيء في أحدى الكؤوس ، فطار وحط على طرفها .. وإذا بالكأس تقع وتتدحرج ، وبالشحرور يتعثر قليلا ، ثم يطير وجلا ، متعجباً لما حصل ..
ضحك الشابان منه ، وأخذا يلقيان بالفتات إلى العصافير .. كل يلقي ما كان لديه من فتات حول مقعد الآخر ، فتتطاير العصافير بين المقعدين حائرة أين تحط، تتخاطف الفتات في الهواء ، أو على الأرض ، فيضحكان لها و كأنهما طفلان صغيران ..

نهضت ميساء فجأة من مقعدها ..و كأنها لم تعد تطيق ثقلا جثا على صدرها !..
فزعت العصافير .. فتطايرت مبتعدة عنهم ..
خيم الصمت على الحديقة من جديد ..

ـ .. ألا يجدر بنا أن نأوي إلى النوم ؟..

تنبهت لحدة بانت على نبرات صوتها ، فتمالكت نفسها ، وتابعت بهدوء ..

ـ .. أمامنا رحلة الغد !.. وهؤلاء المساكين ينتظرون ذهابنا ..

وأشارت إلى العازف والخادم العجوز المستغرقين في النوم ..

كان وجهها مشدوداً .. زائد الشحوب ..

نظر إليها مراداً طويلا ..

هز رأسه بالإيجاب وقد زالت الابتسامة عن وجهه ..

ـ حسنا .. إلى النوم ..

* * *

الفصل الحادي عشر

تجمهر الناس أمام الرصيف المعد للمسافرين ..

وقفوا يتساءلون عن سبب إغلاق شباك التذاكر ، ومنعهم من اعتلاء القارب الكبير ..

جاؤوا مبكرين ليجدوا أماكن يجلسون فيها في رحلتهم إلى الجزيرة .. بدت « كابري » بعيدة شاحبة في ذلك الجو المضطرب ..

ترك الركاب القوارب الاعتيادية ، وتهافتوا على ذلك المركب الحديث الذي تستطيل زعانفه إذا ما أوغل في البحر ، فيمتطي الأمواج مستنداً عليها ، ويعلو على اليم حتى يكاد أسفله يطفو على الماء !..

ازداد عدد المسافرين ، وعلا تذمرهم وضجيجهم حتى بلغ درجة الصياح !..

بدؤوا يقذفون بالشتائم.. ويهددون بحارة المركب بقبضاتهم ،غاضبين ..

رد عليهم أحد البحارة بالسباب ، فنهره أحد زملائه ، ثم توجه نحوهم صائحاً ..

ـ .. ماذا ينفعكم هذا الصياح ؟.. المركب محجوز لرحلة خاصة !.. لافائدة من الانتظار !!..

علت أصواتهم بالأسئلة ..

ـ .. ألن يعود ؟.. متى يعود ؟!..

ـ .. والرحلات الباقية ؟!..

ـ .. هل ألغيت الرحلات الباقية ؟!..

خرج القبطان إليهم ..

بسط ذراعيه محاولاً تهدئتهم ، ثم صاح بصوت صارم ..

ـ لن تكون هنالك رحلات هذا اليوم !.. المركب محجوز طيلة هذا النهار !..

علا ضجيج الامتعاض برهة ، ثم خفت ..

تفرق بعضهم محاولاً اللحاق بمواعيد القوارب الاعتيادية، بينما بقي آخرون ينتظرون إبحار المركب .. ليلقوا نظرة على الذين احتجزوه ..

دارت التعليقات ..

ـ .. ويقولون .. لاحاجة لنا إلى الاشتراكية !!..

ـ .. خمس رحلات !.. احتجزوا الرحلات الخمس !!.. النهار كله !!..

ـ .. مبلغ يزيد عن ثمن بيتي !!.. أبعد هذا من إجرام !!؟..

وجه أحدهم السؤال إلى كاهن وقف بين الجمهور ..

ـ .. والكنيسة راضية عن هذا !.. أليس كذلك أيها الأب ؟!..

سأله الآخر ..

ـ الكنيسة تناقش حبوب منع الحمل !!.. تمنعون الحبوب.. والحامل، أيها الأب؟.. ماذا تفعل الحامل لو اضطرت للعودة اليوم إلى « كابري » ؟!.. وأين تنتظر المركب حتى الغد ؟!..

ابتسم الكاهن .. وهز برأسه متجاهلاً السؤال ..

سُمع جواب ينبعث من بين جمهرة من الواقفين ..

ـ وأنت أيها الثائر !.. أيقبل زعيمكم السفر معنا لو شاء الذهاب إلى « كابري »؟!.. ألم يكن ليحتجز المركب هو الآخر لحسابه ، ولحساب القيادة المركزية ؟!..

ـ اسمعوا هذا الفاشستي يتكلم !!..

ـ ليس لديكم سوى هذه اللعنة تلوحون بها !.. « فاشستي » !!.. حسناً !.. أنا فاشستي .. وأنت .. من تكون أنت !.. يعيش العلم الأحمر ؟!..

احتدم النقاش بين المتجمهرين ..

ما هي إلا فترة حتى كانوا قد انقسموا إلى قسمين ، لكل منها متحدثان أو

ثلاثة ، وقسم ثالث يسخر من النقاش ، ويضحـــك أو يثني على اللاذع من نكات الطرفين !..

سمع دوي صفارات رجال الأمن يتقدم سياراتهم ، ثم ظهروا ليفرقوا المجتمعين.. أفسح الجمهور الطريق لموكب السيارات الطويل المتقــدم ببطء ، فتوقفت ، وترجل منها الأمير مراد وصحبه ، يتبعهم مضيفهم وذووه ، ثم حاشية كل من هؤلاء .. رهط ، يزيد على الستين شخصاً ، يزهو بألبسة ساطعة اللون !..

تقدموا من المركب ، وارتقوا سلمه ضاحكين ، مرحين ..

لوّح أحد المتفرجين لهم بيده ، فبادلوه التحية والابتسامات .. وما إن صــار الجميع على المركب ، ورُفع السلم والمرساة ، حتى كان معظم من وقفوا على الرصيف يلوحون بأيديهم ، بينما اصطف الموكب الملكي على حافة السفينة ، وابتدأ يبـادل الجمهور إشارات الوداع !..

وقفت على الرصيف امرأة مسنة تنظر إلى قطر الندى بعطف وإعجاب ..

كانت قد اختصتها بانتباهها ، فبدأ على وجهها أسف لابتعادها ..

أخرجت منديلها من حقيبتها على عجل ..وراحت تلوّح لها بلهف وحماس !..

سألها أحدهم ..

ـ أتعرفينهم ؟.. من هم ؟..

هزت السيدة رأسها .. وقالت بتأثر ..

ـ لا .. إنهم أناس جميلون .. ألا يكفي ذلك ؟..

عجب الرجل منها ، ودمدم حانقاً ..

ـ .. إنهم سبب شقائنــا !.. أتظنين أنهم يعملون للحصـول على ماينفقـونه من مال ؟!..

تابعت المرأة هز رأسها ، بينما كسا الامتعاض وجهها ..

ـ لاتعرفهم .. ولا يعرفونك !.. مالك تغلي بهذا الحقد ؟!..

ـ طبعاً لا أعرفهم !.. ولعلهم من دولة أخرى !.. أقطع ذراعي هذه إن كان أحدهم يعمل لكسب عيشه !!.. شلة لصوص .. إنهم شلة مرتزقة ، لاغير !..

ـ لو كانوا لصوصاً لأدركهم القانون .. ولما أحاطهم رجال الأمن أنفسهم بالرعاية حتى وصلوا إلى ظهر المركب !!.. ماذنبهم إن كان القانون يسمح لهم بالثراء ؟.. إنه ذنب النظام !.. اسمع أيها الشاب !.. إن كان لك اعتراض ، فاذهب واعترض على النظام نفسه !..

ضحكت هازئة ، وتابعت ..

ـ أما أنا .. فإنهم لم يسرقوا مالي ، وأعرف أنهم على مستوى من التربية لن يسمح لهم بأن يسرقوه !..

هزأ الرجل منها ،وقال ..

ـ يدفع أمثالهم المال سخياً للحصول على تأييد البسطاء مثلك !!.. مسكينة .. أتدافعين عنهم دون أجر ؟!..

أغضبها قوله .. امتقع وجهها،وردت على الفور ..

ـ لعلك لاتحب الجمال !.. لعلكم جميعاً نسيتم معنى الجمال !.. لقد نشأتم بين القذارة والقبح حتى بات الجمال يؤذيكم !.. أعماكم حقدكم عن معنى الحياة ، فأصبحتم بحاجة للحقد كي تستطيعوا الحياة !!.. أما أنا ، فأحب الجمال !.. هل تفهم ذلك ؟.. أتفهم ما أقول ؟!!.. إنني فقيرة .. ورغم ذلك أحب الجمال ، ولا أغلي من الحقد إن رأيت غيري يرتدي الثياب الجميلة !.. وإذا رأيت وردة جميلة فلا أهتم للماء ، أو أسأل عن اسم الساقية التي ترويها !..

طغى على الشاب حرج من ثورتها .. فقال مرتبكاً ..

ـ وإن كانت تشرب على حساب غيرها من الزرع ؟..

ـ يالك من مدّع !.. وهل الوردة مسؤولة عن نظام الري ؟!.. إن كنت تؤمن بالله فحاسبه هو !!.. ما ذنبها هي ؟.. اذهب وغير مجرى الماء إن شئت يارجل ، ولا تضيع وقتك بالحقد على الوردة !.. ماذنبها هي ؟!..ها ؟.. قل لي !!..

تجمعت جمهرة من الناس تستمع لما تقول ..

سرها أن أحداً لم يتنطع للرد عليها .. أعادت منديلها إلى حقيبتها بنزق وترفع ، وابتعدت عن الرصيف ..

وصلوا « كابري » ..

رسا المركب في الميناء الصخري الصغير ..

هدأت الرياح ، وتبعثرت السحب .. أشرقت شمس هادئة يقظة ، تشرّب المركب الملكي دفأها بعطش لذيذ ..

تفرقوا جماعات صغيرة مشت نحو عربات تجرها الجياد ، أقلتهم عبر الطريق الجبلية الملتوية ، نحو قمة الجزيرة ..

جلس مراد وفراس إلى جانب الحوذي ، يتناوبان سوق الجياد ، ضاحكين لهلع النساء خلفهن !..

تركت ميساء دور التذمر والصياح لزوجة فراس وأختها ، بينما كست وجهها ابتسامة باهتة ، أخفت وراءها ما كان يعتمل في نفسها من ضياع ..

أمضوا ساعة يمرحون بها في ساحة البلدة ، يتنقلون بين متاجرها ، يتبادلون قبعات القش التي ابتاعوها .. يتقاذفونها في الهواء ويجرون كالأطفال لالتقاطها قبل أن تقع على الأرض ..

وفي كل ذلك كانت الحاشية تقف منهم على بعد مدروس ، لايقترب أفرادها منهم إلا بمقدار علو مرتبتهم ، ولا يجرؤ أحدهم على مشاركتهم اللعب ، إلا بمقدار قرب صلته بالأمير ، أو بأحد أقربائه ..

صاح مراد ضاحكاً ..

ـ هلموا نتمشى نحو المطعم !.. لاحاجة لنا بالعربات !..

فتحت الأميرة سيتا عينيها هلعاً .. وندت عنها آهة لم يسمعها غير جورجيو ، فأدرك قصدها ، وقال لمراد ..

ـ لكن المطعم على السفح الآخر !.. في قاع الوادي !..

وأشار إلى البحر ، بأسفل المنحدر الذي أمامهم ..

ـ إنه هناك على شاطىء البحر ، بين أشجار الخليج .. كيف يمكننا أن نسير هذه المسافة الطويلة ؟..

لم يأبه مراد لاعتراضه .. تابع سيره قائلاً ..
ـ لتلحق بنا العربات ، إذن !.. سننزل سيراً على الأقدام !..
وتقدم مسرعاً نحو المنحدر ..

لم ينتظر فراس قرار مراد ..
كان قد أحسّ بحاجة ملحة إلى خلوة ، فسأل أحد المارة عن الطريق المؤدية نحو المطعم .. ثم اغتنم فرصة لهو رفاقه عنه ، فتسلل بهدوء ، متتبعاً طريقاً مستقيمة ، تنحدر عبر المنعطفات ، فتختصرها ..

اعترضته عربة ، فما إن مرت أمامه حتى تجاوز الطريق المعبدة ، ودخل بين الأشجار محاولاً الخروج منها على الطرف الثاني من الطريق ، قبل وصول العربة ..

أخذ يسابق عربة أخرى ..
اجتاز في دقائق عدداً من المنعطفات ، ثم وقف على حافة الطريق ، ينتظر وصولها من جديد ..
.. سمع صوت أجراس الجياد يسبق وقع حوافرها .. بانت العربة من بعيد .. مرت أمامه ، ثم اختفت ..

توغل في الغاب ..
علت من الأرض رطوبة دافئة ، أمواج .. راحت تغمره بين الفينة والأخرى ، فتسكره بعبق الصنوبر والسنديان ..
وقف ينظر عبر الأشجار الكثيفة إلى زرقة البحر البعيد ..
قفز فوق الصخور ، ثم تمهل ، ليستمتع بالدوس على بساط بني كثيف من أوراق الشجر ..

تنبه فجأة إلى صوت الطبيعة ..
عالم بأسره .. لم يكن يدري بوجوده منذ لحظات !..
سمع بوضوح همس ووشوشة ألوف الحشرات ، يعلوه صرير أخاذ ، تسرب إلى نفسه حتى امتلكها ..

شعر بسعادة ضاق بها ..
فتح ذراعيه ..وتنهد كمن يتألم..
وفجأة ..توقف الصرير والهمس المتناغم ..
ساد السكون على الغاب و كأن قدرة خفية أشارت إلى الطبيعة بأن تصمت !..
لم يعد يسمع غير صفير النسيم وهو يتخلل أوراق الصنوبر الحادة ..

لم يطل عجبه لهذا السكون ، إذ فوجىء بوقع أقدام يأتيه من الخلف ..
نظر إلى الوراء .. لم يدر إلا ومراد يحط ، بعد قفزة عالية ، إلى جانبه ، ينظر إليه كالطفل ، ويبتسم لاهثاً !..
لحظات صمت ، عاد الصرير بعدها خافتاً متقطعاً ، ثم ارتفع وتكاثف ، حتى صار إلى ما كان عليه ، ولف الغاب مرة أخرى بطنينه المسحور ..

سأل فراساً برفق ..
— .. وأين الآخرون ؟..
— يتبعوننا .. يسيرون على الطريق العام ..
— و كيف عرفت أني هنا ؟..
— رأيتك تتسلل من الساحة .. فأشرت إلى البقية أن يسيروا على الأقدام، ثم تبعتك !..
ثم تابع ، وهو ينظر إلى فراس بطرف عينيه ..
— .. لماذا تسأل ؟.. هل كنت تنوي الهروب ؟..
— ليس منك على أية حال ..
— ممن تهرب إذن ؟.. أمن نظرات ميساء .. وزوجتك ؟..

ساء فراس أن يطرق هذا الموضوع ، وبهذا الشكل ؟..
لم يشأ ، وهو في هذا الغاب ، وفي هذا الدفء ، أن تُوضَع أمامه النقاط على الحروف !..
تمنى لو أن مراداً لم يدركه ..
لم يجبه .. تغلب على امتعاضه ، وتقدم قليلاً على المنحدر ..

توقف بعد خطوات ، ونظر خلفه نحو مراد الذي كان لايزال ينتظر في مكانه حائراً ، يدرك جزءاً مما يدور في خاطر فراس ، ويحرك غصناً في يده ..

أشار فراس إليه بأن يتابع السير .. فتلكأ ..

مد إليه ذراعه .. فتح يده ..

ــ تعال !..

أخذا يسيران على الدروب الضيقة .. يتمهلان كلما خرجا إلى حافة الطريق .. فما إن يبدو الموكب من بعيد ، تتقدمه النساء ، حتى يتوغلا بين الأشجار من جديد .. ثم يظهرا بعد المنعطف التالي ، فيعودا إلى التمهل والانتظار ..

أشارت إليهما قطر مراراً ، ملوحة بيدها .. وفي كل مرة ، كان مراد يحرض فراساً على تجاهل إشارتها ، ويصر على عدم التوقف لانتظار الآخرين ..

ضاق في النهاية من إشارتها ، فأمسك بيد فراس وجره إلى الركض ، متجاوزاً عدداً من المنعطفات مرة واحدة ..

بات من الواضح أنهما لن يجتمعا بالآخرين إلا في نهاية الطريق..

ــ أتظن أن ميساء ستسكت عن ابتعادنا عنها بهذا الشكل ؟..

بدا على مراد وكأنه لم يفهم قصد صديقه ..

ــ .. أتود حقاً أن نعود إليهم ؟..

أجاب فراس، كمن يحدث نفسه ..

ــ .. لاسبيل إلى الرجوع الآن ..

وصلوا الخليج متأخرين .. وجدوا الآخرين في انتظارهم ، حائرين كيف يتفرقون على موائد الطعام ..

لم يجلسوا إلا بعد أن مكّن كل منهم على وجهه القناع الذي عزم أن يخفي وراءه حقيقة ما يخبىء في نفسه ..

ضاق حيز المناورات ..

لئن كان لابد لهم من متابعة التمثيل .. فإن الأدوار قد تغيرت !..

لئن بدؤوا لعبة لابد من إتمامها ، فإن الأحداث قد غيرت من شروط هـــذه اللعبة !..

تبدلت رقعة الشطرنج .. حتى غدا مبهماً ما إذا كانت حمـــاية الشاه هي الهدف المقصود منها ، أم الذريعة لمتابعة اللعب ..

تجاهلت ميساء أمر النزهة .. بدت وكأنها لم تجد غرابة في أن تلحق بزوجهـا ، بينما هو يتمتع بنزهة مع فراس ..

ظلت على هدوئها ، وعلى شفتيها ابتسامة مبهمة لاتنبىء عن شيء ..

كذلك قطر الندى .. شاركت الجميـع في اللهو والسمر وكأن الأمور لاتسير إلا كما تشتهيه الأختان ..

بدا عليهم أنهم يمثلون تصرفاتهم .. يخفون حقيقة مشاعرهم .. إلا زوجـة فراس ، أحست ،مرة أخرى ، بقلق شديد لجهلها بما يدور حولها ، فراحت ترقب الآخرين ، وعلى وجهها ابتسامة حائرة بلهاء !..

أخفى فراس عجبه لهدوء الأختين ، وراح يستطلع مراداً انطباعـه ، ويبحث في عينيه عما إذا كان قد تنبه إلى حقيقة ذلك الهدوء ..

أحس أن ميـــاء تخفي قراراً جهد في أن يعرف مداه ..

أحسنت مراوغته ، حتى تعب من محاولة استكشاف حقيقة مشاعرها ، فلجأ إلى قطر الندى ، يناوشها ، ويستحثها على الكلام ، علها تفصح عما تعرف ؟!..

لم تخف على قطر هدف محاولات فراس .. ولا خفي عليه أنها أدركت ذلك ..

كان عليه ، كي يصل إلى مايريـــد ، أن يستثير نزقها أو ضحكها ، لا أن يراوغ ذكاءها .. فلجأ إلى مضايقتها ، وتعمد اختيار علاقتها بجعفر كمحور لمحاولاته !..

نجح في إثارتها !..

كان قد ركز على استدعائها لجعفر من جنيف ، رغم ما كان بينهما في الليلة السابقة لذلك !..وأغدق في كيل اللوم عليها حتى كادت تغضب !..

لم تتح لهما فرصة الأخذ والرد الطويلين .. كانا محاطين بجمع غفير ، يتحينان فرص انشغال الآخرين عنهما ليتراشقا الاتهامات ..

ضحكت في البـــدء لإصراره على تـذكيرها بجعفر .. ثم ضاقت باتهاماته حتى ضجرت ، ولما غضبت .. انتهزت أول فرصة مناسبة لترشقه بنظرة ساخرة وتقول ..

ـ وأنت ؟!.. ما الذي كان يدور بينك وبين مراد ؟!..

كانت ميساء جالسة إلى مراد تراقبها من بعيد ، تتمنى لو تستطيع أن تشترك فيما يدور بينهما من حديث ..

لم تقو على ترك مراد ..

كانت تتحرق للنيل من فراس .. للانتقام منه .. لتجريحه !..

سمعت أختها تتلفـــظ باسم مراد ، ورأت نظرة السخرية على عينيهـا ، ثم العجب والامتعاض على عيني فراس !..

خافت أن يسمع مراد حوارهما ، فنهضت متثاقـــلة ، وأقبلت نحوهما وهي تهمس متصنعة عدم الاهتمام ..

ـ لاحاجة بكما لمناقشة مثـل هـذه الموضوعات الآن !.. فيما بعد !.. لديكما المتسع من الوقت لذلك فيما بعد !!..

سُرت قطر بتدخل أختها .. فقاطعتها ساخرة ، متشكية ..

ـ تصوري !.. لديه الجرأة على محاسبة تصرفاتي في الوقت الذي يبرر لنفسه كل مايقوم به !..

كانت تلك فرصة ميساء .. فقالت بلهجة هادئة .. قاطعة ..

ـ من الخير أن يحصل هذا ونحن في أول الطريق ، لا في آخره .. أنا لا ألوم سوى الظروف فيما حصل !.. وسأتحرى في المستقبل ألا تتكرر مثل هذه المناسبات !!..

سألتها قطر ، وكأنها تتعمد أن تتيـح لأختها الفرصة لتضـــع آخر نقطة على آخر حرف ..

ـ .. أية مناسبات ؟..

ـ .. سنعود إلى بلادنا بعد يومين أو ثلاثة ، أليس كـذلك ؟.. وسيعود كل منا إلى حياته الطبيعية .. أليس كذلك ؟..

سكتت ، ثم أنهت بجزم ووجوم ..

ـ مراد وفراس .. لن يلتقيا بعد اليوم !!..

نفثت ميساء السم الذي كان قد احتقن في أنيابها ، فهدأت أساريرها ، وعادت مخالبها إلى أماكنها بسكون !..

أحست بارتياح لأنها لم تلجأ إلى التجريح ..

ماحاجتها إلى المخالب الآن ؟..

سيأتي السم مفعوله بصمت وتصميم ، دون مساعدة أحد !..

قاوم فراس امتعاضاً شديداً حرّكه في نفسه ما كشفته ميساء له من نوايا ..

ساءه أن يحشر في مثل هذا المكان الضيق ، حيث توجَّه إليه أنصاف الاتهامات وأنصاف الوعيد ، دون أن يقوى على ردها !..

لقد كان هو الآخر في شوق للعودة إلى بلده ..

في شوق للخلاص من وضع اضطرته ظروف تلك الرحلة إلى قبوله .. وضع ، فرض عليه علاقة زائفة مع الأختين .. علاقة، تعطيها المكان الأول في صداقتها .. وصداقة ، كانت في البدء بريئة ، ولم تعد تدري اليوم على أية الأهداف تستقر ..

تجاهل وعيد ميساء ..

لقد شارفت الرحلة على الانتهاء ، فلماذا يواجه ميساء بحقيقة وضعها . . ستكشف لها الأيام عن ذلك ..

عادوا في المساء إلى نابولي ، ومنها إلى روما ، حيث تركهم ، مراد متوجهاً هو الآخر إلى بلاده ..

لم يبق لديهم سوى السوق يتلهون فيه .. فقضوا اليومين الأخيرين منهمكين في شراء ماحلا لهم من آخر أنواع الكماليات ..

عادت بلادهم إلى أذهانهم .. وتحركت في نفوسهم ذكريات حياتهم وعاداتهم فيها ..

أحست ميساء بعد أن جاهرت فراساً بقرارها أن ثقلاً كبيراً قد أزيح عن صدرها !.. لكن شعوراً ساورها بأنها تسرعت في الكشف عن هذا القرار ..

لئن كانت صداقة مراد به قد لوحت لها بخطر مبهم على زواجها ، فإنها لم تكن في الواقع قانعة في قرارتها بأن فراساً يضمر لها السوء ..

لم يكن كرهها لفراس سوى موجة سخط .. نقمة عابرة .. سرعان ما هدأت ليحل محلها شعور بالحذر منه ، بل بالحاجة إلى مهادنته بعد أن زال الخطر !

ما إن عاد مراد إلى وطنه ، حتى أحست بأنها عادت إلى امتلاك زمام الأمور فصفحت عنه ، صفحها عن ضحية كادت أن تتمرد عليها !..

ولفترة قصيرة، عادت إليها ثقتها بنفسها، وتناست إهمال مراد لها ، معوضة عن ذلك بشعورها أنها باتت تمتلك القدرة الشكلية على ربط أو قطع صداقته الجديدة بفراس ..

لم يكن فراس راضياً أو قانعاً بما جرى له ..

أحس وهو يتأهب للعودة إلى بلده بأن حبه لقطر الندى لم يكن سوى محاولة لاشعورية منه للخروج من سطحية الأحداث ، والثبات على حبل ليس في مقدرة قطر الندى سوى التأرجح عليه !..

جالت صورة مراد في ذهنه ..

مراد ؟.. ماذا يمكنه أن يقول عنه ؟..

كيف يُفسَّر الضياع ، بغير كلمة الضياع ؟!..

فتح فراس نوافذ نفسه على مصراعيها ، واستنشق من مرح روما ما يمكن له أن يزيح ما خلفه مراد فيها من عبق القلق ..

ماهي إلا أيام قلائل حتى أقلتهم الطائرة إلى وطنهم .. وعاد كل منهم إلى داره وذويه ، كأن شيئاً من الذي كان .. لم يكن ..

القسم الخامس

الفصل الأول

« إن كنت قد مللت مياه البحيرات الراكدة ، فتعال إلى النيل » .. « أنا بجوار الأهرام أشاهد هزيمة القرن العشرين » !..

كنت في جنيف حين وصلتني كلمات فراس ..

أجبته على الفور بأنني سأوافيه في القاهرة بعد أربعة أيام ، رتبت فيها مشاغلي ، وتهيأت لقضاء عطلة طالما منيت بها نفسي ..

مرة أخرى.. جلست في مقعدي ، مسنداً رأسي إلى كوة الطائرة ، أنظر إلى ذلك البساط الأزرق الفسيح ..

بدا لي البحر صلباً مخيفاً ..

ماذا يحل لجسد الإنسان لو اصطدم بسطحه من هذا العلو الشاهق ؟.. أين مرونة الماء ؟.. أليست المرونة ظاهرة لا يعرفها سوى من يقترب من الماء بسرعة محدودة ؟!.. ليس الماء إذن جسماً مرناً بحد ذاته !..

حتى هذا الهواء المتناهي الشفافية .. كيف تتراكم ذراته فيتحول إلى ذلك الجدار الصلب حين تتزايد سرعة ما يخترقه من أجسام ؟!.. من كان ليتخيل ذلك ، لولا اختراع الطائرة ؟!..

.. ما هي معرفتي بظواهر هذا الكون ؟.. وما قيمتها ؟..

.. ما قيمة المعرفة ؟!..

ضحكت من نفسي إذ جالت في خاطري هواجس كثيرة ..

.. محاكات « كانت » .. وال « نومين » .. والحدس .. و « بيرجسون » .. والإحساسات الباطنية .. « هوسيرل » والفينومنولوجيا .. وجدتني أرفضها !..

رفضتها جملة وإفراداً !.. ثم هزئت من نفسي !..

أدركت أنني في رفضها ، استنطق نفس المصادر التي لجأ إليها هؤلاء للوقوف على المعرفة !.. أستند إلى نفس الأصول !..

كيف أثق برفضي ؟..

ما قيمة رفضي إن كان ينبع من نفس المصادر التي لجأ إليها هؤلاء لاستنباط المعرفة ؟!..

كيف أرفض معرفتهم ، مستنداً إلى شكي في قدرة الإنسان على الوصول إلى المعرفة ، ثم أقتنع بهذا الشك ، كأنه معرفة جديدة ، وكأنما قد أوحي بها إلي من مصدر لايمكن أن يتطرق إليه الشك ؟!..

ماذا أقول ؟.. لئن كان شكي مجالاً للشك .. أفليس في ذلك عودة إلى المعرفة التي أرفضها في الأصل ؟!..

كدت أضحك عالياً من النهج الذي سارت عليه خواطري ..

تذكرت باريس .. والمترو .. وكيف كان يحلو لي في حداثتي أن أسند رأسي إلى زجاج نوافذه ، فاستمتع بارتجاجه ، وأطلق العنان لمثل هذه الأفكار ..

وضح أمامي أن هذا موضوع قديم ..يعاودني باستمرار ..

ترى كيف كنت أعالجه في الماضي ؟.. وما هي النتائج التي كنت أصل إليها في ذلك الحين ؟..

تذكرت رحلتي الأخيرة إلى الشرق .. وتذكرت أن هذه الأفكار نفسها انتابتني وأنا في طريقي إلى دمشق ..

لماذا تعاودني هذه الأفكار أثناء السفر ؟..

ضحكت !.. سأضمنها مقالاً أدعوه « خواطر مسافر » !..

وفجأة ، وضح أمامي أمر تنبهتْ إليه جميع حواسي !..

كنت أحس في الماضي بقلق وأنا أناقش هذه المواضيع .. ما لهذا القلق قد زال عني الآن ؟..

مالي أضحك اليوم ، وأتسلى من حوار داخلي كان في الماضي يبعث في نفسي القلق والاضطراب !؟..

كان فراس ينتظرني في المطار ..

رحت أنظر إليه ، متمعنا ، ونحن في طريقنا إلى القاهرة ..

ما أكثر المرات التي نظرت إليه بهـــذا الشكل .. كأني معه في طريقي إلى دمشق .. كأننا في طريقنا إلى باريس .. أو إلى لوزان .. أو إلى جنيف ..

ضحك مني ..

ـ أراك عدت إلى عادتك في التأمل .. مالك تعتصم بهذا الصمت ؟..

لم أجبه .. فأصر ..

ـ مالك ؟.. أهنالك ما يزعجك ؟..

ـ لا .. لا .. أتدري يافراس ؟.. أظن أنك تغيرت !..

ـ أهنالك من لايتغير ؟.. لكن .. من أين لك بهـذه الاكتشافات المفاجئة ، ونحن لم نتبادل بعد سوى بضع كلمات ؟..

ـ .. شعور داخلي !..

ـ ألا يرجح هذا أنك أنت الذي تغيرت ؟..

أحسست أنه على حق .. ورغم ذلك ، رحت أتابع النظر إليـه مؤكداً لنفسي أن فراساً قد تغير أيضاً .. وأن تعبيراً جديداً قد طرأ على وجهه ..

بدا ذلك لي واضحاً جلياً ، فقلت ..

ـ كنت في الماضي أبحث من خلالك عن الأجوبة .. أتيه في مشاكلي الداخلية ، فأتخبط .. وألطم سيل أجوبتك ، محاولاً أن أتمسك بما يسد رمقي ..

ـ ....!

ـ .. لاتعجب !.. كثيراً مايحاول الإنسان أن يبحث ، عبر غيره من الناس ، عن حلول لما يستعصي عليه من العقد !.. لعل مرجع ذلك كسل في طبيعتي .. أو عدم مقدرة مني على طرح المشاكل منذ ألفها وبائها !.. أردت حلولاً جاهزة ، بحثت من خلالك عنها !.. ولست ملوماً كل اللوم .. فإنك وربما لم تسع ذلك ، كنت تعيش ، كنت تحيا، وتتكلم وتمشي ، كمن وصل إلى حل لجميع الأحجيات !.. كنتَ بالنسبة لي .. لا أدري كيف أعبر عن ذلك .. كنتَ كمن وصل إلى غاية يبحث عنها الجميع !..

ـ « رأيت ماظن الإنسان أنه قد رأى » ..

ـ بالضبط !.. كان قول « رامبو » هذا مجسداً فيك .. بالنسبة لي على الأقل !..

ـ وبعد ؟.. ماذا تغير الآن ؟.. هل اكتشفتَ أنك على خطأ في هذا الظن ؟..

ـ على العكس !.. إنما بدأت أرى لنفسي !.. تعبت من اللحاق برؤى الآخرين، وأدركت أنّ لكل إنسان رؤيا خاصة به .. وأن عليّ البحث عن طريقي الخاص .. عن منفذي الخاص من هذا النفق !!..

ضحك قليلاً .. وقال مداعباً ..

ـ ومتى تبدأ البحث ؟!..

أجبته على الفور ..

ـ .. لقد انتهيت منه !..

فوجىء بقولي .. نظر إلي ملياً، ثم قال ..

ـ .. وهل لي أن أعرف ماذا وجدت ؟..

ـ طبعاً !.. وجدت أننا نسير في خط مستقيم من حلقة مفرغة !!.. هل يبدو ذلك غريباً لك ؟!.. وجدت أنه لافائدة من البحث !.. وأننا إنما نبحث بدافع من قوة كامنة فينا ، مبعثها ذلك التناقض الأبدي .. تناقض الحياة نفسها .. نظن أن لهذا التناقض حلاً .. ولو وجد الحل ، وزال التناقض ، لزالت الحياة نفسها !..

تبسم فراس طويلاً .. ثم انفجر ضاحكاً ..

ـ هـذه مناسبة يجب الاحتفال بها !.. مناسبة رائعـة !!.. وهل كالقاهرة بلد في الكون لمثل هذه الاحتفالات !..

كنا قد وصلنا شقة فراس ..

أبدلت ملابسي ، بما يناسب ليل القاهرة الدافيء ، ورحنا لساعات طـويلة نجوب أنحاء المدينة .. مستسلمين لما قادتنا أقدامنا إليه من صدف ..

ليس مثل القاهرة مدينة في العالم يستطيـع الإنسان أن يعيش فيها حقبـة ما من التاريخ تحلو له ، راجعاً إلى نحو ألف عام !..

قلما تخلو عواصم الغرب من أحياء يعود تاريخها إلى مثل هذا الزمان ، وأكثر ..

لكنها ،في الغرب ، تـكاد تـكون أماكنأثرية..أزقة ،لئن عاد تاريخها إلى قرون، فإنعادات من يعيشون فيها لا يمكن أن ترجع إلى أكثر من أول هذا القرن ..

ليست هذه هي الحال في القاهرة !..

في هذه المدينة تعكس الأحياء عادات سكانها ، ويعود هؤلاء ، مع أحيـائهم ، راجعين على دروب التاريخ ..

أين تقف عودة التاريخ فيالقاهرة؟.. وأين تقف جذور من يدب علبها ، كالنمل ، من البشر ؟..

ما أعجب القاهرة .. وما أجملها ..

وقفنا ننظر إلى « مدينة الموتى » !..

أين تبتدىء الحياة ، في هذه المدينة ، وأين تنتهي ؟..

أين تبتدىء العادات ، وأين تنتهي ؟..

ما أعجب اختلاط الموت والحياة فيها .. وما أغرب انصهار العـادات برواسب جميع أديان الأرض ، منذ آلاف السنين !؟..

الدين فيها يكره القبور .. ومع ذلك ، لايبني سكانها القبور لموتاهم فحسب ، بـل ويبنون البيوت فوقها .. ثم يسكنون فيها أحياناً فوق موتاهم !..

يراسلون أمواتهم على صفحات الجرائد ، و كأن الموتى تقرأ صحف الصباح !..
يعتبون عليهم « .. كيف هان عليك يا ماما فراقنا على حين غرة » !؟..
قيل لي .. « إنها عادات فرعونية » وانتهى التعليق عند هذا الحد، و كأن لاغرابة في أن تلازم شعباً « عادات » تعود إلى أربعة آ لاف عام !..

قال لي فراس ضاحكاً ..
ـ ألم أخبرك بأنك ستشاهد هزيمة القرن العشرين ؟..
ـ لئن ُهزم هنا حقاً .. فإنها ، على أية حال ، هزيمة على يد خصم نبيل !..

وقفنا على شاطىء النيل ، نستريح من عناء سير طويل ..
بدت علائم الفجر .. فخلد كل منا إلى الصمت ، والتأمل ..
قلت ، بعد فترة طويلة من السكون ..
ـ .. متى ستعود إلى زوجتك ؟..
ـ لن تطول إقامتي هنا أكثر من عشرة أيام على الأكثر .. سأتم شراء السبحات والأفلام التي جئت من أجلها .. ثم أعود على الفور ..
ـ أجعفر في بلد قطر ؟..
ـ لست أدري .. كان في جنيف حين عدنا من روما ..
ـ أتظن أن قطراً ستواصل علاقتها به ؟..
ـ لا أعتقد .. فالصيف قد انتهى ، أو كاد .. وعلى جعفر أن يعـــود في أول الخريف إلى وطنه ..
ـ وميساء ؟.. هل تم من جديد بشأن زواجها ؟..
ـ لقد وعد مراد أن يزورها عما قريب .. لعله ، حين سيجتمع بوالدتها ، سيضطر إلى تعيين موعد رسمي لحفل الزواج ..

عدنا إلى الصمت ..
بدأت القوارب تنزل النيل مع التيار ، وأشرعتها ممتلئة بالهواء المناسب ..
مشهد يتكرر منذ ألوف الأعوام ..

نفس الوجوه ، والحركات .. نفس البضائع ، تقوم بسيرتها الأزلية نحو الدلتا ، والبحر ..

ومن يدري ؟.. لعلها نفس ذرات الماء أيضاً !..

لا أذكر ما الذي جعلني أفكر بمراد ..

وجدتني أقول لفراس فجأة ..

ــ .. هنالك ما يحيرني بأمره ..

كان فراس متكئاً على حاجز النهر ، فأدار رأسه نحوي ، وحيرة طريفة مرتسمة على وجهه ..

ــ .. بأمر مراد ؟.. أكنت تفكر به أنت الآخر ؟..

ضحكت ..

ــ .. لماذا ؟.. أكنت تفكر به ؟..

هز رأسه بالإيجاب ، ثم عاد ينظر إلى النيل واجماً ..

قال بعد فترة ..

ــ وما الذي يحيرك في أمره ؟..

ــ .. إن كان طموح ميساء هو الذي يجعلها تسعى وراءه ، ويجبرها على تحمل الإهمال والإهانات منه .. فما الذي يجبره هو ، إن كان لايحبها ، على تحمل مضايقاتها؟.. وما الذي أجبره في الأصل على الزواج منها ؟..

ــ إرادة والده أولاً ، ثم .. كان عليه أن يتزوج أولاً وآخراً ، أليس كذلك ؟.. راق له جمال ميساء منذ البدء ، وأعجب بثقافتها ، فقرر أنها ستكون زوجته في يوم من الأيام .. وفقاً لمزاجه ، وشروطه هو ، بمعنى آخر .. دون أي شرط !.. وهذا هو الذي يحدث الآن !..

ــ .. وأنت .. هل ستحاول الاتصال به !..

عاد إلى الصمت ، ثم هز رأسه نافياً ..

وعدت إلى النيل .. وأفكاري ..

« أن يكفّ الإنسان عن البحث الجاد ؟..
أن يبحث ، دون أن يبحث ، لعلمه المسبق أن ليس هنالك مايبحث عنه ؟!..
أن يتابع البحث ، لأن قوة محركة عمياء تدفعه نحو ذلك ، دون قصد !؟..
وفي كل هذا ، ألا يُحمّل هذا الموضوع صيغة الجد ، وألا يضفي على النتيجة صيغة المطلق ؟!.. »
أهذا ما وصلت إليه ؟..

بدأ البحارة السُّمر يفكون عقد حبال مراكبهم ..
كان قد أدركهم الليل وهم في طريقهم نحو الجنوب ، فربطوا مراكبهم إلى نخيل الشاطىء ..أما وقد لاح الفجر ، فقاموا في صمت يفكون الحبال ، وينشرون أشرعتهم لمتابعة الرحيل ..

« أن يفكر الإنسان ، بصمت ، كما يعمل هؤلاء البحارة ..
أن يفكر ، لأن عليه أن يعيش .. كما هي الحال في العمل .. »

سألني فراس ..
ــ مالك تبتسم ؟..
ــ .. مثل هـــذا النخيل ، يزرع في بلادي على شواطىء « الكوت دازور » .. ويحاط بحواجز لحمايته .. والنخيل هنا جزء من الطبيعة ، تُشد إليه القوارب !..

أذكر أنني تابعت بصوت خفيض .. لا أدري ما إذا كان فراس قد سمعه ..
ــ شأننا بالمعرفة ، المعرفة التي أنشدها .. هي في الشرق جزء من الحياة ، يستند إليه الناس ،دون أن يحيطوه بهالة من نور !.. بينما نحن .. إذا ماظننا أننا وجدناها ، نسلط عليها أنوارنا الكاشفة ، ليلتهمها علمنا ، فتفتتها محاكاتنا ، حتى تتبدد أمام أعيننا، ولمّا نكد نعثر عليها !..

لم يرد علي ..
لئن سمعني ، فلا بد أنه أدرك بحدس صحيح .. بحكمة شرقية ، أن محاكمة الآخرين لاتفيد الذي يحار في مثل هذه الموضوعات ..
كم من مرة ردد أمامي قوله « .. الحكمة لاتؤخذ ، ولا تعطى » !.. « الحكمة

ليست سلعة ، يُزج بها على الآخرين.. كما يفعل بالدين مبشرو بلادكم ».. «.. الحكمة تنبع من الداخل .. المعرفة إشراقة .. يولدها توتر داخلي هائل » ..

نظرت إليه ،فوجدت عينيه تستقبلان الفجر بسكون واطمئنان عجيبين ..
لابد أنني تبدلت !..
.. فأنا لم أقطع شرود فراس ،ولم ألجأ كعادتي إلى مشاركته ما يجول في خاطري..
لم أعد أتعثر وراءه ، لاحقاً به على الطريق التي وجدها لنفسه ..
أحسست ، للمرة الأولى ، بأننا نسير على طريقين متوازيين ..
لكن شيئاً آخر تفتح في تلك اللحظة أمامي ، وأرّقني !..
هذان الطريقان .. إنهما من خلق أفكاري أنا !..
هل يشعر فراس بهما ؟..
هاتف من أعماقي أجاب بـ « لا » !.. « فراس لايرى طريقي .. إنه يعيش في دائرة .. وجوده مركز لها .. وهو ، ثابت ، أو على محورها ، لايتنقل » !..
لماذا لا أضيع أنا الآخرُ في مثل هذه الدائرة ؟..
لماذا لاتغيب دوائر الآخرين عن وعيي ؟!..

سرنا حذو النيل ، حتى وصلنا مسكن فراس ، فأعادنا بنساؤه الحديث إلى القرن العشرين ..
أقلّنا المصعد إلى الدور الثالث والعشرين ، حيث كنا نقيم ، فاتجه فراس إلى البيانو ، بينما أزحت الستائر عن الجدار الزجاجي العريض ، ورحت أمتّع ناظري بأحد أجمل مشاهد الدنيا ..

أخذت بالمآذن ، والنخيل ، والنيل ، والقمر ..
أحسست ، وكأني طفل بهرته هدية ، فأحس أن باستطاعته مقارعة الدنيا بها !..
لعلّ موسيقى « شوبان » ، التي كان يعزفها فراس ، هي التي أعطت اللمسة المكملة الأخيرة لتلك اللحظة ..
ليس بالأمر السهل أن ينقل الإنسان للآخرين صور الجمال ، أو وقع هذا الجمال على نفسه ..

شعرت في تلك اللحظة أني سعيد .. وأنني على اتصال بجميع من في هذا العالم ممن لايزالون يحبون تثاؤب الفجر ، وجلال الأنهـــار ، ومن لا يقطّبون أمام الشعر ، والتاريخ ، في أشرعة بالية خَلِقَةٍ تحركها زنود نقية سمراء ..

توقف فراس عن العزف ، وجاء يقف بجواري ينظر إلى ذلك المشهد بسكون ..

ما أقوى وطأة الزمان في هـذه المدينـة .. وما أقل شأن إنسان واحــد أمام تاريخها الطويل !..

ومع ذلك ، تجد في نفوس سكانها ماتحاكي تاريخها في الامتداد والقدم ..

لقد رسمت الطبيعة نفوسهم على شاكلتها .. فلا جبال ولا وديان في طبيعتها ، ولا تعقيد وتناقضات غريبة في طبائعهم !..

هنا لاتـُعرف تقلبات الفصول الأربعة التي يعرفها الشمال .. وطموح سكانها سمح ، لاتحركه الزوابع !..

.. حتى غضبهم ، تجده خالياً من التعقيد ، يشعرك أنهم سيملّونه إذا طال !..

سألني فراس ..

– لمَ لاتعود معي قبل ذهابك إلى أوربا ؟..

– وماذا أفعل عندك ؟..

– نمضي بضعة أيام قبل عودتك إلىجنيف .. قد تسنح لنا المناسبة فيها .. فأعرفك على قطر الندى ، وميساء !..

باغتني اقتراحه ، فنظرت إليه متعجباً ..

– وما الذي حدا بك إلى هذا الاقتراح !..

ألست تكتب قصة هؤلاء الأشخاص ؟.. ثم أنك أصبحت جزءاً من هذه القصة .. أفلا يجدر بك أن ترى الأمور عن كثب ؟..

راقت لي الفكرة !.. أعرتها تفكيراً طويلاً وأنا في فراشي .. لاشك في أنني أصبحت أحد شخصيات قصتي .. فلماذا لا أتعرف إلى بقية الزملاء !..

قمنا في اليوم التالي إلى تجوالنا .. وبدل أن نطيـــل الإقامة في القاهرة ، أسرع فراس بإنجاز ماجاء من أجله من أعمال .. أيام قـــلائل .. وتأهبنا للسفر سوية ..

الفصل الثاني

لم تكن زوجة فراس تتوقع عودته المبكرة من القاهرة ..

فوجئت بمشاهدته على الباب ، وبدا عليها أنها تصطنع السرور !..

رآها تروح وتجيء ، فتساءل عن سبب اضطرابها ، ثم تنبه إلى أن بهو داره معد لاستقبال الضيوف ..

فرغت الخادمة من مسح الغبار ، وترتيب آنية الزهور والحلوى ، فتوارت، لتعود ثانية ، وتسأل عما إذا كان وقت انصرافها قد حان ..

تعجب فراس ، وسأل زوجته ..

ــ وأين تنصرف في مثل هذه الساعة المبكرة ؟..

ــ .. ستأخذ الطفلة لنزهة في الغاب .. الطقس حار ، ويستحسن أن تلعب في الهواء الطلق ..

وإذ بالسائق يستأذن في الدخول ، ثم يسأل هو الآخر ..

ــ هل أنصرف ياسيدتي ؟..

هزت له رأسها بالإيجاب ..

استوقفه فراس ..

ــ انتظرني أمام المدخل .. ثمة حاجة !..

وما إن خرج السائق حتى التفت إلى زوجته ..

ــ .. من تنتظرين من الضيوف ؟..

تلكأت قليلاً ، ثم تعمدت ابتسامة في غير مكانها ..

ــ قطر .. انتظر قطر !.. ستأتي بعد نصف ساعة .. أو ..

نظرت إلى ساعتها متشاغلة ، وتابعت ..

ــ .. أو بعد قليل ..

أدرك فراس أن في الجو أمراً تخفيه عنه .. فتجــاهل تلكؤها ، وقال وهو يهم بالخروج من البهو ..

ــ قطر ؟.. حسناً .. سأكلم السائق ، ثم أعود ..

كان السائق من الذين يأتمنهم فراس على بعض أموره الخاصة ..

هبط السلم مسرعاً ، فوجده أمام مدخل الدار ، يمسح غبار السيارة ..

بادره بصوت جاف ..

ــ قل !.. ولا تراوغ !.. من الذي سيأتي بعد قليل ؟..

فوجىء السائق بسؤال سيده ..

وقف ، بجسده القوي الطويل وذهنه المتبلد ، يقلب سؤال سيده في رأسه ..

سُرّ بأن يُشرك بأمور عليا ، فأجاب بلهجته المتثاقلة ..

ــ أرجوك ألاّ تخبر السيدة أنني أطلعتك على ذلك .. لقد أصرت علينا أن نخفي الأمر .. وألا نطلع أحداً عليه !..

ومض خاطر في ذهنه البطيء ، فانحنى يقلّبه ، وهو يمسح زجاج السيارة ..

نظر إلى سيده من تحت جفنيه ، وعلى فمه ابتسامة خبيثة ، ثم قال ..

ــ .. إنها في الواقع لم تختص أحداً حين منعتنا من التحدث عن هذا الأمر .. لكنني أدركت على الفور أنها لاتود أن تطلعك عليه !..

قطب فراس ، وكاد يثور ..

ــ تطلعني على ماذا أيها الأبله !؟..من الذي يأتي هنا ؟!..

خاف السائق أن يكون قد أساء إلى سيده ، وهو يكن له حباً وأعجاباً كبيرين ، فأسرع قائلا ..

ــ الأميرة .. والشيخ جعفر !..

بدا على فراس وكأن السائق ذكر له اسمين لاعلاقة لهما بما كان يجول فيخاطره ..

فأعاد السؤال ..

ــ .. الأميرة ، والشيخ جعفر ؟.. وما علاقتهما ؟.. ولماذا يأتيان ؟..

ولما لم يجبه السائق ، أطرق ، وكأن ستاراً رفع أمامه ببطء وهو يتفوه بسؤاله الأخير ..

رفع عينيه نحو ما كان يراه في ذهنه .. وراح يحدق بعيداً ..

نظر إلى السائق .. فرآه مستغرباً سؤال سيده ، متعجباً لبطء فهمه ..

سمع صوت السائق يأتيه من بعيد ..

ـ .. يأتيان يومياً ، منذ ذهابك إلى القاهرة ياسيدي .. ودائماً في نفس الساعة !..

لم يجبه سيده بشيء .. فتابع بصوت متقطع ، كأنما يقر بذنب ليس غيره مسؤولاً عن عدم تفاديه ..

ـ .. وتخلي السيدة لهما الدار .. إلا منها !.. ولا تسمح لنا بالعودة قبل الساعة السابعة من كل مساء !..

تابع فراس صمته .. وتوالت على وجهه الانفعالات !..

استدار بعنف نحو الباب ، وأمسك بقضبانه الحديدية يهزها ، كأن شيئاً يمنعه عن الدخول !!..

وقف برهة على هذا الوضع .. ثم استدار ثانية نحو السائق ينظر إليه .. ولاذ بالصمت ..

كان السائق منهمكاً في عصر قطعة الجلد التي بين يديه ..

أشار إلى الغاب .. ثم إلى نافذة غرفة نوم سيده ، في الدور العلوي ..

ـ كنت أقف مع الخادمة ، نداعب الطفلة ، وراء تلك الأشجار .. ننتظر أن ينطفىء نور غرفة النوم ، فنعلم من ذلك أنهما سيغادران الدار .. كم مرة بكت الطفلة مطالبة بالعودة .. فنحير كيف نلهيها ونشغلها ريثما يحين موعد العودة !..

ردد فراس كمن يحدث نفسه ..

ـ غرفة النوم .. غرفة نومي !..

ـ .. ثم تفتح السيدة النافذة ، فنراها من ذلك المرتفع القريب ، تُصلح الفراش ، فراشكما ياسيدي .. ثم تطفىء النور .. وتنتظرنا في البهو ..

أفاق فراس من شروده ببطء ، ثم قال بهدوء وحزم ..

ـ اذهب واستدعِ الخادمة والطفلة .. ثم ابق في عملك !.. ولا تغادر الدار إلا بإذني !..

وإذ صعد السلم عائداً إلى داره ، سمع السائق يستعطفه قائلاً ..

ـ سيدي !.. لن تخبر السيدة عما أطلعتك عليه .. أليس كذلك ؟..

ـ لا .. لن أخبرها ..

جلس وحيداً في البهو .. ينتظر وصول قطر الندى ..

تشاغلت زوجته عنه .. لم تنف من ذهنها أنه ربما قد اطّلع على سرها من السائق ، رأته واجماً لايتكلم ، فلزمت الصمت ، وجلست هي الأخرى في البهو ، تنتظر حلول ماسيحدث ، وكأن ما يسيّر الأمور ، قدر ، لاعلاقة لها به ..

سمعا صوت محرك سيارة قطر الندى .. ثم صرير عجلاتها وهي تقف أمام الدار . لحظات ، وسمعا وقع أقدام قطر وهي ترتقي سلم المدخل ..

قامت زوجة فراس مسرعة نحو الباب تفتحه ، وتشير إلى صديقتها بعينيها أن فراساً في الداخل ..

فوجئت قطر بوجوده !.. وبدل أن تتابع النظر إليه ، شغلت عينيها بتفهم ما كانت صديقتها ترشقها به من غمزات ..

أدركت على الفور أن فراساً ربما قد اطلع على جميع مقابلاتها السرية مع جعفر !..

وأدرك فراس ، في الوقت ذاته ، أنها باتت تعلم أن سرها قد انكشف ..

كانت نوافذ البهو مفتوحة ، تستقبل نسيم الجبل ..
أتاح ذلك لهم أن يسمعوا صوت محرك سيارة جعفر من بعيد ..
اقترب الصوت .. ولما توقف قرب الدار ، تساءلت قطر الندى عمن يكون هـذا الضيف المفاجىء !..
لم يأبه فراس لتجاهلها ..
لعله من حقها ، وهي الغريبة عن أهل هذه الدار ، أن تصطنع الجهل ، محتفظة بذلك بحق إدخال من تشاء على تفاصيل حياتها الخاصة !..

أشاح بعينيه عنها ، وراح ينظر إلى زوجته ، وكأنها إنسانة لايعرفها !..
كيف تلعب زوجته مثل هذا الدور ؟!..
كيف اختارت أن تكون شريكة لقطر وجعفر على زوجها !..
أحس بتقزز واشمئزاز إذ رآها تصر على دورها .. تثابر في تقفي تجاهل قطر الندى، غير آبهة لوقع ذلك على نفسه ، ولا مدركة انعدام فائدته لها بعد أن انكشف الأمر !..
تقدمت من النافذة .. أطلت منها ، وقالت ..
— عجباً !.. إنه جعفر !.. ما الذي أتى به في مثل هذه الساعة ؟..
توجهت نحو قطر مازحة ..
— .. لعله رأى سيارتك أمام الدار !..
ثم جهدت أن تبدو جادة وهي تقول لزوجها ..
— .. لا .. لابد أنه علم بوصولك يافراس !..
لم تتلق جواباً على تعليقها ..

سُمع صوت إغلاق باب السيارة .. ثم علا صوت جعفر ، فصعقوا لما سمعوا !..
أتاهم صوته ، واضحاً ، يؤنب سائق فراس على بقائه أمام الدار ، غير مكترث إلى أنه وقت الزيارة المعتادة .. يوبخه على إهماله تعليمات سيدته .. ويذكره بها !..
لابد أن السائق أخبره بوجود سيده في الداخل .. إذ انخفض صوت جعفر فجأة ، ثم غاب !..
سُمع وقع أقدامه يقترب من الباب ..
نظر فراس إلى زوجته وقطر الندى اللتين كانتا قد غاصتا تحت موجة من الخزي لما ضبطتا به من كذب لم تكادا تفرغان بعد من اختلاقه !..

قامت زوجته لتفتح الباب .. وكادت تتعثر لفرط اضطرابها !..

لم ير فراس ما رشقت جعفراً به من نظرات توبخه بها على زلته !..

هزىء من تلعثم جعفر الظاهر وهو يحاول إفهامها أن الذنب ذنبها ، إذ أنها لم تطلعه على وصول فراس في الوقت المناسب !..

مضى وقت طويل قبل أن تتكشف موجة الاضطراب التي حوّمت عليهم .. وقبل أن يبتكروا نهجاً حيادياً يسيرون في الحديث عليه ..

وللوهلة الأولى ، عوّض فراس ، بما رآه من قلق وبلبلة ، عن اللطمة التي أصابته ! سره أن يضبط جعفراً وقطر الندى بذنب ، ما كان بإمكانه أن يؤاخذهما عليه ، لو لم تضطرهما الظروف إلى اقترافه في داره !:.

نظر إليها متشفياً بموقف الضعف الذي جرتها الصدفة إليه ..

وأخذ يحدق بقطر الندى بقسوة ، فتهرب عينيها من عينيه ، وهي التي كانت لوقت قصير مضى تتصرف وكأنها لم تفطم سوى على التحدي والانتصار !..

عادت زوجته تحمل القهوة التي أعدتها .. فنظر إليها ملياً ..

الكذب في عينيها .. الكذب في ابتسامتها ، في أنفها المزيف !..

تمنى لو يخنقها ، ويلقي بجثتها للكلاب !..

ما الذي دفعها إلى هذا الدرك ؟..

ما الذي حدا بها ، وهي المرأة الشرقية المحافظة ، أن تفتح دارها وغرفة نومها ، ليفترش هذان المخلوقان الغريبان سرير زواجها ؟!.. ما الذي سعت وراءه .. أي نفع كانت تبتغيه ؟..

لا ، لم تكن هذه انفعالات الرجل الشرقي فيه !.. أحس أنه محق في سخطه عليها !..

تعمّد أن يحاكم الموضوع في منظار آخر ..

ماذا كان ليفعل لو أنه اكتشف أن لزوجته عشيقاً ؟!..

أعاد النظر إليها ، وكانت تهم بالجلوس ، بعد أن فرغت من تقديم فناجين القهوة للضيوف .. نظر ملياً إلى جسدها القصير الممتلىء .. إلى أنفها الذي سوته .. ورغم شعوره بأنه لم تعد تربطه أدنى رغبة بهذا الجسد الكريه ، إلا أن إحساساً أكيداً انتابه ..

أحس بأنه لو اكتشف مثل هذا الأمر ، فإنه لابدّ سيثور .. سيُرغي ويزبد ، لأن عليه أن يفعل ذلك !.. لكنه سيعلم في قرارته أنها زلة طبيعية !..

جال في ذهنه أنه ، حتى لو أرخى العنان لشرقيته ، فقام بضربها أو قتلها ، فإنه سيدرك في أعماقه وهو يقوم بهذا الفعل ، بأنه على خطأ !.. إذ لكل جسد متطلباته ، حتى ولو كان ذلك الجسد بديناً قبيحاً !.. وإن للمرأة المهملة حاجات طبيعية لابد من إروائها !..

لكن ماقامت به زوجته ، من ترك المجال لجعفر وقطر باستباحة سريرها ، بدا له ذنباً أكبر من أمر العشيق ، وأهول !.. بدا له كالجرم في فداحته .. لكونه دون مبرر !..

قام في ذهنه بمحاسبتها وأدانتها من خلال شروطها ومفاهيمها هي !.. من خلال ماتجاوزته ، مما علمتها إياه بيئتها وأسرتها من قواعد الأخلاق !..

لئن أعطت المرأة جسدها ، فمن أجل اللذة ، أو بسبب الحرمان ..

ولئن باعته ، فبسبب الحاجة ، أو من أجل المزيد من المال ..

أما أن تستبيح الزوجة حرمة دارها !.. أن تترك الآخرين يمارسون الدعارة في سريرها !..

أن تصبح قوادة، تحضر القهوة لهم ، وتنظف الفراش !!.. لماذا ؟!.. لماذا ؟!!..

أحس بلهب يجتاح رأسه !!..

ثم ومض خاطر غريب في ذهنه ..

أيمكن أنه أساء فهمها ؟!..

هل يمكن أن يكون قد ضل الطريق في محاكمتها منذ البدء ؟!..

لعلها كانت لاتسعى سوى وراء الانتقام !..

لعلها كانت تكيد له الصاع صاعين ، تعلم ما كان بينه وبين قطر ، فتذله ، بفعلتها هذه ، وتذلها !.. تذبح حبه لها ، بسكينه هو !!..

عاد إلى التحديق فيها .. وفجأة لم تعد تلك التعيسة الذليلة التي رآها منذ لحظات !..

بدت لوهلة عابرة ، كعملاقة تثأر لجراحها !..
.. وأراد في أعماقه لو تكون أم طفلته تلك العملاقة الشموخ !..

تشبث بهذه الصورة لها في مخيلته ، لكن سرعان ما هُدّت آماله وتحطمت !..
إذ ما إن غادر جعفر الدار واعدا فراساً أنه سيعود لزيارته في اليوم التالي ، وعادت قطر إلى مقعدها ، حتى قالت لزوجة فراس ..
ـ أتسمحين لي أن أكلم زوجك دقائق على انفراد ؟..
ـ طبعاً .. طبعاً ..
وتوارت هذه ،مبتسمة لصديقتها ، كمن تقول لها « أنت التي أوقعتني في هذه الورطة .. فعليك بإخراجي منها » !..
كانت هذه النظرة أول بادرة أنبأت فراساً أن ذلك التمثال الذي بناه لزوجته في خياله أوشك أن يهوي !..

أشعلت قطر الندى لفافة عبت منها نفساً طويلا ، ثم قالت ، وهي تبتسم ..
ـ .. لن أراوغك يافراس !.. إني على علاقة مع جعفر .. لكنها ليست كما تظن !.. ولا للهدف الذي تظن !.. لا .. لاتتسرع !.. فحين أشرح لك الأمر ستدرك .. أولا .. أنني أنا التي حرضت زوجتك على مساعدتنا .. وثانياً .. أنها لم تقم في ذلك بأي منكر !..

كاد فراس يستشيط غضباً لما قالت !..
ستجد الأعذار لنفسها !..
ستنتحل كذباً تبرر به فعلتها !..
ستحاول تبرئة زوجته بأعذار تحطم الصورة التي أرادها لها في ذهنه !..
لم تمهله .. لم تدع له المجال لكي يغضب ..
بادرته بما ملأ نفسه عجباً ..
ـ أريد الزواج من جعفر !..
ـ ... !

ـ ألم تفهم ما أقول ؟.. أريد الزواج منه يافراس !.. ولست معه إزاء مغامرة عابرة .. أو وراء نفع ، أو مال !..

وراحت ، لفترة طويلة ، تحدثه عن يأسها من رجوع هلال ، وحيرتها مما سيكون مصيرها دون زوج !..

أسهبت في سرد الشائعات التي سمعتها أثناء غيابه في القاهرة ، ومفادها أن هنالك من علم بأمر علاقتها بجعفر ، وأن الناس قد بدؤوا يلوكون سمعتها ..

هل يمكن لهذه الأخبار ألا تصل في النهاية إلى مسامع هلال ؟

ألن تكون له العذر الذي ينتظره لطلاقها ؟

ــ .. ومن ذا الذي سيقبل الزواج مني إن طلقني هلال بسبب علاقتي برجل آخر؟.. بجعفر ! .. ها ؟ .. من الذي سيقبل بمطلقة ذات ماض ، وعشيق ؟ !..

أسهبت في شرح حسن نواياها ..وفراس شارد ..لايدري ماذا يصدق من كلامها !..

ادعت أنها كانت ، منذ البدء ، تناقش في سرها مثل هذا الاحتمال ، وأنها لم تجرؤ على البوح به ، كي لايفسر ذلك على أنه عذر آخر تنتحله لتبرر به علاقتها بجعفر ، أو لتنفرد بهداياه !..

أشعلت لفافة ثانية .. وصمتت بوجوم ..

سألها فراس ببرود ..

ــ وهل يعلم جعفر ماتنوينه بشأنه ؟..

ــ .. يعلم ؟!..إنه يفاتحني بالزواج كل يوم !..بدأ يحرضني على ترك هلال منذ سفرك إلى القاهرة !.. كان يقوم بذلك على الهاتف .. وأنت تعلم أن للهاتف في قصري فروعاً كثيرة !.. خفت أن يسمع أحد الخدم كلامه ، وجميعهم عيون لهلال ، فرجوت زوجتك السماح لنا أن نتحدث في دارك !.. وما العيب في ذلك ؟.. أليست قضية زواج ؟!..

ضحك بهزء ظاهر ..

ــ .. ولم يجر بينكما غير الحديث .. على ما أظن !!..

صمتت قليلا .. راحت تنظر إلى الأرض شاردة ، ثم أجابت فجـــأة ، وكأنها تنبهت إلى أن سؤالاً قد طرح عليها ..

ـ .. لقد تورطت بما فيه الكفاية قبل أن التقي به في دارك !.. ماذا يزيد أو ينقص هذا الذي حدث ؟!..

ـ لئن كنتِ واثقة منه .. فما احتياجك إلى هذه المواعيد ؟!..

ضحكت ساخرة ..

ـ لن تذهب إلى تعليمي كيف عليّ أن أتصرف .. كي أحصل على رجل !..

لذعته سخريتها ، فصاح في وجهها ..

ـ ألم تجدي غير فراشي مكاناً لتضاجعيه فيه ؟!..

نظرت إليه في حيرة ، وقالت بنزق ..

ـ وأين كنت تريدني أن أفعل ذلك ؟.. أعلى الأرض ؟!!..

لاذ بالصمت مصعوقاً لما سمع !!..

أهذه هي قطر التي عرفها منذ سنتين ؟!..

أهذه هي الزوجة المحرومة التي لم تكن تجرؤ على مناهضة أبسط قيود المجتمع ؟!..

ما الذي طرأ عليها حتى تبدلت بهذا الشكل ؟!..

هل كان له ضلع في هذا التحول ؟!!..

أهي أحاديثها الطويلة عن الحرية الفردية ، وفلسفتها ؟!!..

كان لغياب زوجته تأثير جذري على مجرى الحديث ..

فمن ثورته ، لامتهانها حرمة داره ، وللدور الذليـــل الذي لعبته زوجته فيه ، تحوّل طابع الحديث إلى عتاب بينه وبين قطر .. فتوهمت أنها لو أقنعته بحسن الغاية الـــتي كانت تسعى وراءها ، لانتهى الإشكال ، ولزال طابع الخساسة عما قامت به زوجته !..

تجاهل ردها .. وبادرها قائلا ..

ـ إن للقضية ياقطر وجهين !..

قال ذلك بلهجة من يعيدها إلى قواعدها ..

ـ .. هنالك مايتعلق بك ، وهذه قضية بيننا !.. ومايتعلق بزوجتي .. وهـــذا أمر لاعلاقة لك به !..

كانت تعلم منذ البدء أنه سيصل إلى هذه النتيجة ، لامحالة ..

فقالت ، شبه متوسلة ..

ـ أقسم أن لا ذنب لزوجتك !.. وأنها لم تكن على علم بما يجري بيننا !..

ـ والغرفة ؟.. غرفة النوم !.. هل نسيتها ؟!..

ـ كنا نقول لها إننا نود التحدث فيها على انفراد !..

هزىء منها ..

ـ أتنتظرين مني حقاً أن أصدق هذا ؟!..

وتوقف فراس عن الكلام ليضع حداً له ..

ماذا يفيد النقاش في مثل هذه الموضوعات ؟..

أشعل لفافة راح يدخنها وهو ينظر عبر النافذة إلى الغاب الداكن الخضرة الممتـد نحو المدينة ، والبحر الذي يعكس أشعة المغيب ..

قالت قطر بصوت هادىء ..

ـ كم هي صديقة وفية .. نويت إهداءها سيارة صغيرة ..

اكفهر وجه فراس لما سمع !..

جاءه الجواب على تساؤلاته بأسرع مما توقع !..

إذن ، هذا هو الثمن !!.. هذا هو الثمن !!..

التفت إليها فرأى مسحة خبث تتلاعب على شفتيها ..

أشاح بوجهه عنها على الفور !..

لقد أدركت أن محاولة تبرئة زوجته لن تنطلي عليه .. فما بالهـــا تثابر في لعب هذا الدور ؟..

.. لماذا تحاول تبرئتها في الأصل ؟!.. بل لماذا لاتطلعه على ما ستتقاضاه زوجته من ثمن ؟!..

تابعت بنفس الصوت الهادىء ..

ـ .. إنها ،طبعاً ، لم تكن تعرف شيئاً عن هذه الهدية !.. لعلها كانت تتوقعها.. لكني لم أخبرها عنها سوى البارحة !..

لقد قامت بذلك عمداً !..

لقد أطلعته عمداً على خسة زوجته !.. لماذا تفعل هذا ؟!..

أتود أن تُسقط جميع من حولها معها ؟!..

هبّ واقفاً ..

ـ علي أن أزور صديقاً لي أتى معي من القاهرة !.. سأتركـكما لتتحدثا طويلاً عن السيارة !!.. والهدايا الأخرى !!..

واتجه نحو الباب الخارجي ..

فوجئت قطر بذلك .. واندفعت وراءه منادية ..

ـ فراس !.. فراس !..

أفلت منها .. أغلق الباب وراءه ، ونزل السلم مسرعاً ..

أطلت زوجته من نافذة غرفة النوم ، وصاحت ..

ـ .. فراس ؟.. متى ستعود ؟..

لم يجبها .. ركب سيارته وانطلق بها نحو المدينة ..

* * *

الفصل الثالث

ـ حسناً !.. وماذا تنوي أن تفعل الآن ؟..

أجابني شارداً ، واجماً ..

ـ وماذا يمكنني أن أفعل ؟!..

ـ هل أنت حانق فعلا ؟.. هل غضبت حقاً لما حصل ؟..

قال هازئاً ..

ـ .. علي أن أغضب .. أليس كذلك ؟!..

ـ لم أفهم !.. أهو دور عليك أن تقوم به ؟.. موقف ، تجاه زوجتك ، عليك أن تتخذه ؟..

ـ لا لم يكن دوراً قمت بتمثيله !.. كان علي أن أغضب .. وغضبت !..

ـ وكيف تقول « كان علي أن أغضب » ؟.. هل من صفة أملت عليك هذا الشعور ؟!..

ـ ليس عندي صفة تملي علي أي شيء كان ؟.. إن في نفسي مالا يشعر بشيء على الإطلاق ..وفي الوقت ذاته ، فيها مرآة ، لاتقوم بغير عكس الحوادث .. ولو كان ذلك على طريقتها الخاصة !..

ـ .. هل هما حيزان ؟.. ازدواج ؟..

ضحك مني ..

ـ أليس باستطاعتك أن تنسى منطقك .. ولو لقليل ؟!..

كنا في شرفة الفندق نكرر على أنفسنا مرد ماجرى ، نقلّب الحوادث ، محاولين الخروج منها إلى غير تلك الكآبة اللامبالية التي تعلقت بأذيال فراس ..

ـ .. وما الذي تنويه بشأن زوجتك ؟..

ـ .. لقد سلكت درباً لايمكنني اللحاق بها عليه !..

ـ ألم تفتح لها الباب ، يافراس ؟..

ـ كيف ؟..

ـ ألم ترضَ عن نصف هذه المغامرة منذ البدء ؟.. ألم ترَها ، بقبولك دعوة جعفر ، أنك لاتناهض مثل هذه العلاقات ؟.. هل كان لها أن تدخل هذا العالم لولاك ؟!..

ـ .. لكني زوجها !.. ولئن أدخلتها في عالم شائك ، فلقد أدخلتها إياه وهي إلى جانبي .. إلى جانب زوجها !.. أردت لهـا أن تسير فيه متفرجة !.. لا أن تدخله وحيدة !.. كانت محاطة ، بزوج ، وصديقتين ، لا يريدون لهـا الأذى ، ولا يطمعون في أكثر من أن تشاهد ما تشاهده ، وتغض الطرف عما لايعجبها فيه !..

ـ لابد أن ما شاهدَته من انزلاق صديقتيها هو الذي شجعها على ما أقدمت عليه !..

ـ .. وإن ما أخشاه هو أن تغيراً جذرياً قد طرأ عليها !..

ـ .. حقاً ؟..

هز رأسه وأردف ..

ـ كانت معزولة عن عالم النساء والجنس !.. أنفها كان السبب .. لعل عفتها لم تكن منذ البدء سوى كبت ، ردة فعل لقبح لم تود أن تعترف به ، فأوهمت نفسها ، ومن حولها ، وأنا من جملتهم ، بأنها غير بنات مجتمعها الضحل !..

لم أستطع أن أمنع جواباً طالما أردت أن أجاهره به ..

ـ .. آه منك يافراس !.. ألم أحذرك من ذلك ؟.. ألم أنذرك بأن هـذه العفة ليست سوى قشرة زائفة ؟!..

لم أسترسل في كلامي ..

حزنت لصمته وكآبته ، فلم أشأ أن أزيد من ألمه ..

مضت أيام وفراس على هذه الحال .. يتأرجح بين الكآبة وعدم المبالاة ..

ابتعد عن داره بقدر المستطاع ..

بات يخرج إلى شواطىء البحر المنعزلة ، منذ الصباح الباكر ، أو يلجأ إلى كوخه البحري ، يقضي فيه سويعات بعد الظهر ، مستلقياً على ظهره ، تائهاً بين الحلم،واليقظة وأصوات لهو السابحين ..

تحاشى زوجته ، وكف عن الكلام معها .. إلا من الضروري اللازم ..

كأنما أدركت هي خطر أن تحاول تبرير فعلتها ، فتجاهلت صمته وابتعاده عنها، وقابلت سلوكه بالسكينة والحياد ..

قلَّ كلامه حتى معي ..

كنت أوافيه على الشاطىء ، يقلني سائقه في كل صباح، من الفندق إلى الكوخ.. فنقضي الساعات الطويلة على الرمال ، بين القراءة والسباحة ، متلذذين بأشعة الشمس، وما تضفيه على جسمينا من سمرة نحاسية ..

كان من أحد دواعي تسليتي مراقبة سائقه ، ومتابعة ما يحار في إيجاده من وسائل للترويح عن سيده ..

يجهد في تحضير الأطعمة الصعبة ، يفرش لها بساطاً كبيراً على الرمل ، ويضع في وسطه زهوراً مضحكة ..

يمنع الغرباء من الاقتراب منا ، ظاناً أن في ذلك مايسرنا ، وإذا اقتربت منا فتاة، ينظر نحونا مستطلعاً رأينا فيها ، فإذا مابدا على أحدنا أنها أعجبته حار في لفت انتباهها!.. وكم من مرة أعياه ذلك ، فراح يتقلب على الأرض ، يقف على رأسه ، أويسير على ذراعيه !..

سألت فراساً ..

ـ أهو دائماً على هذا الإخلاص لك ؟..

أجابني بعد تردد ..

ـ كان في البدء معجباً بي .. وأظن أن أعجابه تحول إلى محبة ..

ابتسم وهو ينظر إليه ، كما ينظر إلى حيوان أليف .. ثم أردف ..

ـ إن مايحيطني به اليوم من رعاية ، يعود إلى اطلاعه على الجفاء الذي بيني وبين زوجتي .. يظن أني أتألم .. فيحاول التخفيف عني ..

ـ وهل تتألم ؟..

ضحك بمرارة .. دون أن يجيب ..

ـ ألا تنوي أن تفاتح زوجتك بهذه القضية ؟..

هز رأسه .. نافياً ..

ـ وماذا ينفع الكلام ؟.. سأحرص ألا يتكرر مثل هذا الأمر في المستقبل ..

صمت ، ثم تابع بحزن ..

ـ أبحث عن الحل .. فلا أجده ..

ـ أبالصمت ، وبعدك عن دارك ؟..

ـ تماماً .. لقد فهمَت قطر بجلاء موقفي من هذه العلاقة .. وبُعدي عن الدار أراحني ، في الوقت الحاضر على الأقل ، من مقابلتها ، ومن زيارات جعفر !.. وما أظن أنهما سيتجرآن على محاولة اللقاء في داري بعد اليوم ، في الخفاء ، حتى ولو رضيت زوجتي بذلك !..

ـ وزوجتك ؟.. إلام سيؤدي معها الصمت .. والإهمال ؟!..

ـ لست أدري .. لم يعد أمرها يهمني ..

وتابع بعد صمت طويل ..

ـ .. لقد وصلت مع زوجتي إلى مفترق الطرق !.. لست بحاجة لنقاش أو مشادة لبلوغ هذه النتيجة ، وليس من السهل علي أن أعترف لنفسي بما وصلت إليه وطفلتنا تربط بيننا !.. أما فيما يتعلق بقطر وجعفر ، فليس لي أن أحاسب أياً منهما على ما فعل !.. فجعفر من عقلية أخرى ، ومن عَالم آخر !.. ثم .. لقد أعلن منذ البدء عن رغبته بالزواج من قطر .. لا .. إن الذنب ذنب زوجتي ، حين سمحت له بدارها بما سمحت !.. أما قطر .. فلقد أضفَت هي الأخرى صفة الشرعية على علاقتها بجعفر منذ أن أعلنت أنها تود الزواج منه حالما يتم طلاقها من هلال .. فبأي حق ألومها ؟!.. وهل تلام امرأة تسعى إلى الزواج من رجل يقدسها ؟!..

كنت قد أقفلت جفني تحت وطأة الشمس ، وأنا أستمع إلى مايقوله ..

أخذت صور الأشخاص الذين كان يحدثني عنهم تتحرك تحت جفني .. خيالات عابرة تتخللها نقاط حمر وسود ، تقفز نقاط أخرى في وجهها ، ومساحات ضوئية تتمدد مارة بجميع الألوان ، ثم تتشتت .. لتعود ثانية وتتكون من جديد ..

لست أدري ما إذا كانت هذه الصور هي التي أوحت إلي بفكرة ضياع هؤلاء الأشخاص ..

كيف يعيشون عوالمهم وكأنهم أفلاك تدور ضمن أبعاد خاصة منقطعة عمّا يحيط بها ؟!..

ليسوا من الذين يكسبون عيشهم بعرق الجبين ، ليلتفتوا إلى عالم العمل ، والواقع ..

وليسوا من الذين يهتمون بما فوق عالمهم من مجالات الجمال ، والحس الفني ..

.. العامل يجاهد في سبيل عيشه ، فيجد في ذلك مبرراً ، وهدفاً لحياته ..

.. الفنان أو صاحب العقيدة ، يسعيان في سبيل قيم وضعاها سلفاً لحياتهما .. فيعملان في ذلك الاتجاه مستنيرين بما وضعاه من هدف نصب أعينهما ..

.. أين يقف هؤلاء الذين لايجبرهم واقعهم على تحديد أماكنهم في الحياة ؟..

.. أين يقف هؤلاء الذين لم تهيأ لهم الظروف إدراك ..أن الإدراك أمر مهم ؟!..

لم أدر وأنا أتلذذ بأشعة الشمس ما إذا كنت جاداً بهذا التفكير ، ولم أقف لأتحقق من ذلك .

ضحكت من نفسي عالياً ، فتعجب فراس لضحكي وسألني عن سببه ، فلم أجبه ..

ثم وجدتني أسأله فجأة ..

ــ أتأمن بالروح يافراس ؟..

ــ جاء دوري بالضحك !.. أجاد أنت بهذا السؤال ؟..

ــ لا ، طبعاً !.. خذه على محمله الظاهري البسيط ، وأجبني عنه .. أرجوك !..

لعل دافعاً لا شعورياً من أعمـــاقي حضني على التفكير بأنه إن لم يكن لهؤلاء الأشخاص صفة مميزة ظاهرة غير أجسادهم المتحركة ، فإن وراء هذه الأجساد أرواحاً لها الحق في الحياة ما لغيرها ..

سمعت فراساً يسألني ..

ـ حسناً .. أي روح تعني ؟..

ـ ضحكت من غمزته ، وقلت ..

ـ هذه التي يتحدث عنها الجميع !.. التي تتوق إلى الخلاص من ضياع الجسد .. التي يكبلها الجسد بحدوده الضيقة وبحاجاته الدنيا !..

ـ سأتعامى عن معتقداتي ، وأجيبك ، كما لو كنت أعتقد بأن للروح وجوداً فعلياً !..

صمت برهة وعلى فمه ابتسامة هادئة .. وحدق بي مقلصاً جفنيه ..

ـ هل نتكلم عن الروح كما يفهمها المتصوفون ؟..

أشرت برأسي موافقاً ، فقال ..

ـ لئن آمنت ، جدلاً ، بمثل هذه الأرواح ، فلا شك عندي في أنها الفرع ، وليست الأصل .. وأنها تائهة في هذا الكون .. تنتظر فرصتها لكي تتجسد !!..

استويت في مكاني فجأة .. وصحت به مازحاً ..

ـ .. كيف ؟؟.. أين مايقال عن سعادة الروح لدى انعتاقها من الجسد ؟!.. ما لك تقلب المفاهيم ؟!.. ولماذا تتوق الروح للرجوع إلى الجسد !؟..

ـ .. كي تشعر بذاتها .. كي تدرك أنها روح !!..

ساورني شعور بأني على وشك أن أضيع مع فراس في نقـــاش لم أسع وراءه .. فجهدت أن أعيد الحديث إلى حيث ابتدأت ..

ـ دعك من المزاح !.. وهل الروح بحاجة للجسد كي تشعر بذاتها ؟.. وما علاقة سعادة الروح بسعادة الجسد ؟..

ـ يالك من جاهل !.. وهل يعرف السعادة إلا الجسد ؟..

ألهاه حديثنا عن مشاكل داره .. واتخذ ، رغم الهزل والمزاح ، طابعاً غير منتظر من الجدية ..

سعدت لذلك ، إذ لو كنت جاداً في الأصل ، لاتخذ الحديث غير هذا المجرى ، ولتطرقنا إلى إثبات وجود الروح ، أو نفي ذلك .. ولما استطعت أن أنتقل إلى صفات هذه الروح ، ليقيني أن فراساً في الأصل لايؤمن بها ، فكيف لي بأن أجره إلى الحديث عن صفات شيء لايؤمن به ؟..

عاد إلى الكلام مبتسماً ..

ــ إن سعادة الروح مربوطة بوجودها أسيرة في الجسد !.. تتوق إلى حريتها ، وتتصور سعادتها حين ستفك من قيودها !.. فإذا فك أسرها بالفعل ، وعادت إلى حالتها الطبيعية ، فكيف تكون سعادتها ؟.. أن تذكر الأسر ؟.. أن تسعد في أنها خلصت منه ؟!.. ما أتفهها من سعادة .. حين تكون مربوطة بذكرى الأسر والجسد !!..

ــ بل سعادتها في أنها .. لا .. لن أقول « حرة » فمعنى ذلك أنها لاتزال تذكر الأسر ، ماذا أقول .. في أنها .. في أنها « هي » !..

ضحك من حيرتي ..

عاد إلى الاستلقاء وتابع ..

ــ .. لا مخرج لك من الشرك الذي أوقعت نفسك فيه !.. لئن عادت الروح إلى وضعها الطبيعي ، بأكمل ما لهذه الحالة من معنى ، فمعنى ذلك أنها ستنسى ذاتها حتماً .. وتضيع فيها !.. وهذه حالة أقرب إلى الحياد منها إلى السعادة !.. لئن لم تكرر الروح لذاتها .. « أنا الروح .. أنا ذاتي .. أنا .. أنا .. » إلى آخره .. وتضيع في لانهاية من امتداد الأنا ، فلا يمكن أن تكون قد نسيت غير آناها من الهويّات !.. أما إذا وصلت فعلا إلى هذه الغاية .. وتوقفت عن إدراك الأنا ، ضائعة ، أو غائبة في ذاتها .. فأين السعادة في ذلك ؟.. وما سعادتها في أن تكون في وضع لاتدرك احتمال غيره ؟..

ــ والـ « نرفانا » ؟!..

ــ .. وهل شعرت بها يوماً ؟..

ــ لا !.. لكن ..

قاطعني هازئاً ..

ــ .. دعك إذن مما قاله فلان ، نقلاً عن قول فلان ، عما أحس به فلان حين وصل إلى هذه الحالة من الإشراق !.. ثم .. عليك ببعض الـ « ل.س . د . » .. وسترى أنك ستصل إلى هذه الـ « نرفانا » عن طريق مركب كيميائي بسيط !..

ضاع المزاح .. عدت أنا الآخر إلى الاستلقاء ، وقلت ..

ــ .. معنى ذلك في نظرك أن لاسعادة لشيء في وضعه الطبيعي .. أن التناقض قائم ، حتى في مفهوم السعادة .. وأن لاسعادة دون تعاسة !..

ــ بالطبع !.. إذ كيف يعرف الإنسان أنه سعيد ، مالم يذق طعم التعاسة ؟.. إن ذكرى التعاسة نقطة الدنيا لدى الفرد ، يقيس سعادته بها ، فيسعد بمقدار ابتعاده عنها !.. ولا يكفي أن ينظر الإنسان من نافذته إلى تعاسة الآخرين كي ينعم بالسعادة .. بل عليه أن يشعر بالتعاسة بنفسه كي يحسن قياس بعده عنها !.. وإلا .. لو قاس الإنسان سعادته بمقدار « فهمه » لتعاسة الآخرين ، لأصبحت هذه قضية « فهم » لاقضية « شعور » !.. ولَـ « فَـهِمَ » أنه سعيد ، بدل أن « يشعر » بذلك !..

ــ .. ألا تظن أن للسعادة شروطاً يمكن أن يحددها الإنسان سلفاً ، ويسعى إليها ؟..

ــ قد تكون شروط سعادة بعض الناس شروطاً لتعاسة الآخرين !.. لا .. ليس للسعادة شروط يمكن للإنسان أن يسعى وراءها كي يحققها لنفسه .. أو لنقل .. إن تهيئة الشروط الخارجية ليست ، بجملتها ، سوى أحد شروط السعادة .. والشرط الآخر ، هو مقدرة الإنسان على تقييم هذه الشروط ، وهذا أمر لايمكن للفرد أن يستخلصه عن طريق « فهمه » لتجربة الغير !.. إن ألوفاً من المال قد توفر أقصى السعادة لقدر من الناس .. وما قيمة الألوف لمن ولد بين مئات الملايين ؟..

المال ثمين بمقدار حاجتك إليه .. والطعام مهم بمقدار معرفتنا للجوع .. ماقيمة الهواء إن لم يشرف الإنسان على الاختناق !..

توقف فراس عن الكلام .. استند على ذراعه ، ثم صاح بي بعد أن كان يتكلم بهدوء ..

ـ .. ثم ، ماهذا الحديث الذي جررتني إليه !؟.. وما علاقة كل هذا بالمشكلة التي أنا فيها !؟..

ضحكت منه ..

ـ وما العلاقة فيه ؟.. ألم يلهك عن مشاكلك اليومية !.. ألم يحدد موقفك منها ؟!..

أطرقت برهة ، ثم قلت وفي صوتي حسرة لم أتوقعها ..

ـ .. لن تقع في مشكلة ، لاتحسن الخروج منها !..

فاجأني قولي .. خجلت منه !..

نظر فراس إلي مستغرباً لهجتي ..

ـ .. ما بالك تقول هذا وكأنك تود لي السقوط ؟!..

لست أدري بماذا أجبته ..

لابد أنه أحس بتخبطي .. حار برهة ثم خف إلى مساعدتي بابتسامة ملؤها المحبة ..

سعيت جهدي لأن أخفي من لهجتي مابعث في نفسه ذاك الانطباع ..

لئن نجحت في محو ذلك الأثر من نفسه ، فلأنه تعامى عما أفلت مني بدافع من إدراكه لعمق صداقتنا ، وليس لمقدرتي على إخفاء عواطفي !..

أحسست نحوه بغيرة خفية ، حسد .. لا كره فيه !..

هل كان ذلك نتيجة تحول طبيعي لإعجابي به ، وقد وصلت معه ، في درب المعرفة ، على مفترق الطرق ؟!..

لم يكن إعجابي به لدهشة من عظم معرفته ، بقدر ما كان شعوراً بأن معرفته هذه تنبع من مصدر عريق !..

حسدت تعاليه على المعرفة .. وهزأه منها !..

لم يجذبني إليه مقدار ماعاد به من ماء ، بقدر يقيني أنه شرب يوماً من ينبـــوع المعرفة .. وأنه يعرف مذاق ذلك الينبوع !..

كرهت نقاشنا لفرط ما باعد بين عالمينا ..

أسفت لأنني عرجت على بلده قبـل العودة إلى بلادي ، وازداد شعوري بالغربة حتى أصبحت أتذمر لأي سبب !..

نبحث عن المعرفة بحثنا عن الثمار .. نظن أنه يكفي أن تكون لنا أيدٍ تمتد كي نقطفها من منبـع ما ، فنقلّبهـا متعجبين ، أو نلتهمها ، أو نرمي بهـا جانباً إن لم يعجبنا مذاقها !..

أشعرني طول احتكاكي بفراس أن المعرفة ليست ثماراً ، أو ساقاً ، أو جذوراً ..

لا .. لايمكن التقاط المعرفة .. إذ ليس هنالك معرفة مستقلة عن وجود الإنسان .. هي النبتة بكاملها .. الإنسان بلحمه وصفاته ..

كنت أعلم أن مرجع تبرمي هو وحدتي .. لكن ما أرقني هو إدراكي أن شعوري بالوحدة هذا .. مرجعه أنني أودع فراساً الذي عرفت ..

لم تطل إقامتي في الشرق ..

تركته على أن ألتقي بفراس في باريس ، قبل الشتاء ..

* * *

الفصل الرابع

وبانتهاء الصيف ، عاد جعفر لاحقاً بأميره ، وسيد بلاده ..

ماهي سوى أسابيع حتى اختطت حياة فراس العائلية لنفسها مجرى جديداً ، وعادت إلى ما كانت عليه في الشتاء الماضي من رتابة وسكينة ..

كان انقطاعه عن ميساء وقطر نتيجة طبيعية لتواتر الأحداث ، وسرعة تطورها ..

هدنة ، تلت ما دار بينهم من معارك معقدة خفية ..

فترة راحـــة ، أعادت إلى أذهانهم صفاءها السابق ، وإلى محاكمتهم دقتها في تقيم الأمور !..

لم يطل بهم الزمان قبل أن يتناسوا ما كان بينهم من منازعات ، وما تولد بينهم من أحقاد طفيفة ..

أما الذنوب التي لاتغتفر ..

أما الجراح العميقة ..

فسرعان ما أزيحت جانبا ، لعلمهم أن ما كان بينهم من علاقة وثيقة أمر ليس من السهل الحصول عليه ، أو التنازل عنه .. وأن ماجمع بينهم لأثمن من أن يهمل ويلقى به جانباً ليموت ..

اغتنمت الأختان فرصة ابتعاد فراس عن داره في نزهاته البحرية ، للإكثار من زيارتها لزوجته .. وبإقبال الخريف ، أقل فراس من هروبه إلى البحر ، فزاد لقاؤه بها في داره ، وعاد بالتدريج إلى زيارتها مع زوجته في القصر .. فلم يأت الشتاء ، حتى عادت الصداقة وعدم التكلف ، في الظاهر على الأقل ، إلى ما كانا عليه في السابق ..

مرة أخرى ، تبدلت رقعة الشطرنج .. فهدؤوا إلى وضعها الجديد !..
لعل ماسبّب المناوشات بينهم في الماضي كان عدم إقرارهم بمراكزهم الجديدة ..
أما وقد ثبتت هذه المراكز .. واستقر كل منهم في وضعه الجديد .. فعادوا إلى مداراة بعضهم بعضاً و كأنهم حديثو المعرفة ببعض !..
فما إن أعلنت قطر الندى عن إزماعها الزواج بجعفر ، رغم كونها لاتزال زوجة لهلال ، وأقر فراس لها بذلك ، حتى أدركت حاجتها له ، لكونه نقطة الوصل الوحيدة بينها وبين جعفر ، ولكونه الرجل الوحيد الذي يمكن له أن يخفف من غلوائه ، أن يقف في وجهه إن هي آثرت في آخر لحظة البقاء زوجة لهلال !..

أما فراس ، فلقد حضن الجرح الذي تركته قطر في نفسه ..
أدرك ضآلة شأن العاطفة في حياتها ، فلم يلمها ، بل أحس أن عليه أن يبتكر قواعد جديدة لعلاقة تسمح له فيها بأن يحبها على طريقتها .. ويساعدها ، في الوقت ذاته ، للوصول إلى غايتها ..

لاحظ ، إذ زارها مرة ، أن في مرآبها سيارة جديدة ..
ما إن اقترب منها حتى تعرف إلى الـ « فراري » ، التي كان قد نسي أمرها ، ظاناً أنها لاتزال في جنيف ، في حوزة جعفر !..
سألها عنها دون اكتراث ، فابتسمت ، وأجابته أنها وصلت منذ أسبوع ..
.. وفي مناسبة أخرى رآها تتحلى بمجوهرات جديدة لم يرها من قبل ..
أدرك على الفور أنها من هدايا جعفر ، فلم يبادرها بالسؤال ، حتى رأى على معصمها يوماً تلك الساعة الغليظة المرصعة بالماس ، والتي أعجبت بها في الماضي حين رأتها على معصم جعفر ..
ضحك من منظرها ببرود ..
ـ .. احذري على الأقل من الظهور فيها أمام الناس !..
أطرقت ، ثم هزت رأسها كمن تلوم نفسها ..
ـ .. صدقت !.. لقد غاب هذا الأمر عن ذهني .. نزلت إلى السوق اليوم ، وكانت على معصمي ، وإذا بوكيل سيارات « الكديلاك » ، وهو من معارف جعفر ، يحدق بها وبي .. غير مصدق لما يرى !..

باتت علاقتها بجعفر أمراً واقعاً لامجال لمناقشته أو للتساؤل عنه ..

تحولت من علاقة في الخفاء ، من أمر يجب التستر عليه ، إلى قضية شرعية ،تناقش تفاصيلها بنفس الموضوعية التي يناقش بها جفاء هلال ، أو إهمال مراد !..

إلى أن جاءت قطر الندى يوما منفعلة بسبب مكالمة تلفونية ضايقها فيها إلحاح جعفر عليها بترك هلال !..

جلست كعادتها في بهـــو دار فراس ، تنفخ الدخان ، وتنظر بنزق وعصبية إلى الغاب من خلال النوافذ العريضة ..

قالت .. وهي تكاد ترتجف غضباً ..

— .. تصور !.. إنه يود مني أن أطالب هلالاً بالطلاق !!..

— وعلى أي أساس تفعلين ذلك ؟..

— لست أدري !؟.. لقد جن !!.. أخبرته أنني بذلك سأفقد أبني لامحالة ، وأن هلالاً لن يتوانى عن حرماني منه !!.. وهل تعلم بماذا أجابني ؟!.. قال .. « لنعمل إذن على أن يطلقك هو » !..

— وماذا يعني بذلك ؟..

— لست أدري !..أظن أنه كان يفكر بإطلاع هلال،بصورة غير مباشرة ،على علاقتنا !!.. على علاقتي به !!.. تصور !!.. كل ذلك ، كي يحرضه ، حسب ظنه ، على طلاقي !!..

— .. وبماذا أجبته ؟..

— .. حذرته من ذلك !.. حرت كيف أفهمه أن هـذه الطريقة ستفقدني ولدي لامحـالة ! وأن هلالاً ، لو علم بعلاقتنا ، فلن يحجم عن شيء للانتقام مني ! ثم نوهت له بأنه قد يحاول قتلي ، أو قتله هو ، لو علم بالأمر !..

ضحك فراس من طريقة تخلصها ، وطمأنها قائلاً ..

— إنها ثورة الشوق !.. يحرضه شوقه على التهور في الكلام وهو بعيد عنك !.. لاعليك .. إنه يهاب هلالاً أكثر منك !.. ولن يطلعه على شيء !.. لقـــد أحسنت التخلص .. إلا أنني لا آمن شر لسانه عليك .. وأظنه يفاخر الآن في بلاده بعلاقته

بك .. أمثاله يحبّون التفاخر كما تعلمين .. وسعادته بجوزته عليك لن تكتمل ، بالنسبة له ، إن لم تصبح حديث الناس في المجالس !..

ـ أتظن ذلك حقاً ؟..

ـ .. كيف لا !.. هل نسيت لقبه .. ابن ربيعة« الخليج » ؟!..

غادرت قطر الغرفة لأمر ، وعادت بعد دقائق ضاحكة وكأنها نسيت جعفراً.. عجب لأمرها ..

ألم تقل بأنها تود الزواج من جعفر ؟..

.. ألم تيأس بعد من عودة هلال ؟..

مالها تتهرب .. وتنصب العراقيل أمام زوج المستقبل ؟!..

سألها ، متصنعاً عدم الاهتمام ..

ـ وهلال ؟.. ما الذي قررته بشأنه ؟..

رآها تنظر إليه بدهشة وكأنها لم تفهم ، فكرر سؤاله ،مبالغاً هذه المرة إظهار عدم الاكتراث .. وكأنما يسألها عن أمر يتعلق بأبسط خدمها ..

لعلها صدقت عدم اهتمامه ، وفسرت ذلك على أنه عودة منه للنظر إلى الأشيـــاء بمنظارها .. شجعها ذلك فنظرت إليه بمرح ظاهر ..

ـ آه لو أستطيع أن أحتفظ بالاثنين معاً !!..

ثم قلبت شفتيها ، وأردفت ..

ـ لكن هذا مستحيل !.. إذ لابد أن ينكشف الأمر أولاً أو آخراً !..

ابتسم فراس ..

ـ من الخير أن جعفراً على الباب !..

هزت برأسها ، ثم أطرقت تقلب أمر زوجها بجعفر ..

قالت ، ومسحة من التقزز تكسو وجهها ..

ـ .. « زوجة الشيخ » !!.. أمَا لقب !!.. « زوجة الشيخ » بعد أن كنت « أميرة » !!..

ثم تابعت وهي تحملق فيه ..

ـ اسمع !.. لن أترك لقب « أميرة » وعندي رمق من أمل بالاحتفاظ به !!..

لم تكن مضايقات جعفر ، وتقصي آخر الإشاعات عن علاقتها به ، هي محور أحاديث سهراتهم الوحيد !..

اقترب موعد قدوم مراد لزيارة والدة ميساء وقطر ، فطرحت قضية لم تكن واضحة في البدء ، لكنها مالبثت أن كبرت وزادت أهميتها ، حتى باتت شغلهم الشاغل، وهمهم الوحيد ..

أين تستقبل ميساء زوجها ، الأمير مراد ؟!..

.. أفي قصر والدتها الكبير .. الفارغ من الأثاث ؟!..

كيف يمكن أن يتم استقبال مراد فيه ، وهو على هذه الحال ؟!..

أيستعيضون عنه بقصر أختها ، قطر الندى ؟..

وصلوا إلى أنه لايمكنهم استقباله فيه .. فقطر أولاً ، على جفاء معروف مع زوجها الذي لايعرف مراداً .. ثم إن الأمير هلال غائب عن داره ، فكيف تستقبل صهراً غريباً .. وليس في دارها رجل ؟!..

وبما أنه من الحط في قدر العائلة أن ينزل مراد في أحد الفنادق ، لذلك وجدت قطر وميساء أنه لابد من تأثيث قصر أبيها الراحل ، واستقبال مراد فيه ..

نظمت الأختان حملة على والدتها كي تفرش القصر بالأثاث المناسب ، دون فائدة!. استعانتا بالأقارب والأصحاب ، وبكل من توسمتا فيهم التأثير عليها ، فلم يزدها ذلك إلا تعنتاً وصلابة !..

صحيح أنها كانت قد اغتنمت فرصة موت زوجها قبل إتمام بناء قصره ، لتطلب من أحد السلاطين أن يمدها بالمال !.. وأنها احتفظت بالمال ، بدل إنفاقه على إتمام القصر ، وتأثيثه !.. لكن ما شأن الآخرين بذلك ؟!..

المال مالها !.. وقصة زواج ميساء « بالوكالة » ، وعلى يد سفير ، لم تعجبها منذ البدء ؟!..

لئن جُنت ابنتها ، ووقّعت عقد زواجها على « تائه » لايفهم من الأصول مايكفي لأن يحضر عقد زواجه ، فهي لن تسير في ركاب قافلة المجانين هذه ، وتنفق عشرات

الألوف على أثاث لاتحتاج إليه !!..

ثم .. من القائل إن مراداً سيأتي حقاً لزيارتها ؟!..

من يضمن لها أن هذا الأمير العجيب سيكلف نفسه مشقة زيارتها ، حين لم يكلف نفسه عناء حضور زواجه !؟..

يئست الأختان من والدتها .. ولجأتا إلى تدبير أمرهما بنفسيهما !..

لم تجدا في النهاية حلاً غير نقل الفائض من أثاث قصر قطر الندى إلى قصر والدتها الخاوي .. وأسرعتا في شراء بقية مالزمه من ستائر وأثاث ثانوي ..

ماهي إلا أسابيع حتى أعدتا جانباً من ذلك القصر الفسيح ، جناح الصدارة ، وأوصدتا الأبواب المؤدية إلى بقية أجنحته الخاوية ..

لم يعلم فراس بقدوم مراد إلا في آخر لحظة !..

أخبرته ميساء بذلك على الهاتف ، قائلة إنها تنتظره في المطار ، وإن طائرته على وشك الهبوط !..

لعلها لم تكن واثقة هي الأخرى من قدوم مراد !..

أو لعلها لم تود لفراس أن يكون في استقباله .. ثم بدلت رأيها ، خوفاً من أن يعلم مراد بحيلتها !..

نقم فراس عليها ، وكاد فعلاً ألاّ ينزل إلى استقباله ، لكنه تعامى عن تلاعبها ، وما هو إلا وقت قصير ، حتى وصل المطار ، وراح الصديقان يتباسمان من بعيد ، عبر جمهور المستقبلين ..

ما إن حانت لفراس الفرصة حتى همس في أذن مراد أنه يمجّ هذا الصخب ، وأن لامجال للتحدث الآن .

أخبره بأنه سيتصل به على الهاتف في اليوم التالي ، ثم تسلل بهدوء ، دون أن يُشعر أحداً بانسحابه ، واستقل سيارته ، عائداً إلى داره ، هارباً من الضوضاء والصحفيين ؟!..

في ذلك المساء ، رن جرس الهاتف في داره ..
أجاب فراس .. وإذ بها دعوة من السفير للعشاء ، احتفالاً بقدوم أميره ..

لم يكن على مائدة السفير سوى أشخاص قلائل ..
اختار لتلك الدعوة أرقى ملاهي العاصمة .. وأكثرها صخباً !..

لم يقم أحد من المدعويين للرقص ، ففسح المجال بذلك أمام الجميع للاشتراك بأحاديث مطولة .. إلا فراساً .. جلس صامتاً ينقل ناظريه بين مراد ، وميساء ، وبقية المدعوين .. يطير بعينيه هارباً ، إذا ما أوشك أحدهم على التقاط نظراته .

بدا على ميساء سرورها للاحتفاظ بمراد إلى جانبها ، بعيداً عن الرقص والمحدثين .. فأرادت إطالة السهر ..

ما إن شعر فراس بالتعب ، حتى استأذن وزوجته الآخرين بالانصراف .. وعاد إلى داره ..

وفي الصباح التالي طلب مراداً على الهاتف .. ولم يكن بحاجة لإطالة الشرح ..
.. أطلعه على بعض ما تاب حياته من تعقيد على يد الأعين المسلطة على صداقتهما ..
.. ذكره بوسطهما الذي لاتلبث الملاحظات فيه أن تصبح إشاعات عفنة ..

ارتأى لهما ألا يثيرا حقد ميساء ، وهي في عرينها ، واقترح بدل ذلك أن يرجئا لقاءهما إلى وقت آخر .. من مكان آخر ..

صمت مراد .. ولوقت طويل ، لم يسمع فراس على سماعة الهاتف سوى أصداء بعيدة لموسيقى خافتة .. وفي النهاية ، لم يجبه سوى بكلمة واحدة ..
- .. حسناً ..
وأنهى الاثنان مكالمتهما على تلك الكلمة ..

وكي لايترك المجال للصدف في التدخل وتغيير ما اتفقا عليه ، قرر السفر إلى دمشق ..
وصمم البقاء فيها حتى عودة مراد لبلاده ..
سرّه أنه سيستطيع القول لميساء : « لقد غادرت المدينة كي لا أكون بينكما »!..
وتسلى بتصور دهشة مراد ، حين سيعلم بغيابه المفاجىء !..

لكن الأمور لم تسر على ما اشتهاه .. إذ أنه كان أول من أحس بوطأة قراره .. بدت له دمشق خاوية جوفاء .. ولأول مرة .. أحس بكآبة موحشة في منزله الكبير فيها !..

لم يتعود في الماضي تصنع الحلول ، أو قصر نفسه على ما لاتشتهيه .. فلماذا يبدأ الآن ؟!..

صمم على العودة بأسرع وقت ممكن !..

عاد في اليوم التالي .. وما إن وصل منزله الجبلي حتى اتصل بميساء على الهاتف .. حاورها ، مبيتاً تقصي أخبار مراد .. لكن ميساء لم تحوجه إلى ذلك .. فاجأته ، ورنة الحزن والحسرة تملأ صوتها ..

ـ لقد طار مراد عائداً إلى بلاده يافراس .. طار !..

أشعره صوتها أنها تعلم أنه الوحيد ، بعدها ، الذي يهتم حقاً بمراد ..

أحس أنها ، بالرغم من كل شيء ، لاتود لغيره أن يشاركها حزنها .. فلم يخف دهشته ، أو أسفه لما سمع ..

سألها على الفور ..

ـ .. أمس ؟.. ألم يقل إنه ينوي البقاء هنا أسبوعين .. على أقل تقدير ؟!..

ـ .. نعم .. نعم !.. أعلم ذلك !.. لكن وجوماً شديداً أصابه أول أمس .. فقرر السفر إلى بلاده في اليوم التالي ..

تأكد إذ ذاك أن لسفره إلى دمشق علاقة بعودة مراد المفاجئة .. لكن ميساء لم تربط بين الحادثتين .. أو هكذا بدا عليها ، فسألها متردداً ..

ـ .. وماذا قال .. هل سيعود ؟.. هل وصلتما إلى ..

مرة أخرى ، فوجىء إذ سمعها تقاطعه قائلة ..

ـ لا .. لم يقل شيئاً !.. ذهب دون أن يعيّن موعداً ، حتى لحفلة الزواج !..

غاب صوتها ..

قالت ، وكأنها تبكي ..

ـ .. ودّعني في دار أمي .. لم يشأ أن أرافقه .. حتى إلى المطار !..

تلت ذلك أسابيع تناوبت على الأختين فيها حالات من القلق والتشاؤم ماعرفتا مثلها حتى ذلك اليوم !..

شحبت ميساء .. أحست بسأم وإعياء ملت في النهاية من مقاومتها .. فبان الهزال على جسمها ..

ما العمل ؟.. أين الحل ؟.. كيف الخروج من هذا التيه ؟..

لمن تكبدت مشاق تجميل صدرها ؟.. وأين ذهب سعيها وراء مراد في أرجاء أوربا ؟..

ماذا ينفع أن يكون قد ابتاع لها سيارة فخمة قبل سفره ؟..

أميرة بالاسم !.. زوجة بالاسم !..

.. زوجة ، تقيم مع والدتها ..وليس لها على الأقل دار تعيش فيها مستقلة أو حتى مهملة ، كما تعيش أختها !..

أما قطر ، فضجّت بمضايقات جعفر !..

راح يلاحقها عبر ألوف الأميال بمكالماته الهاتفية ، لايقبل انشغالها عن الدار عذراً لإهماله ، يطالبها بالتحدث إليه ، وإن كانت في زيارة صديقاتها !..

حارت في كيفية الهرب من هذه المكالمات اليومية ..

وحار هو في قطع السبل على محاولاتها !..

لم يجدا في النهاية خيراً من دار فراس ، يلجآن إليها ، للتحدث بالهاتف ..

فلا عيون في دار فراس .. وفيها يجد جعفر دوماً من يكلمه ، فيروّح عنه حين تمنع قطراً مشاغلها من انتظار مكالمته .. أو حين تمل الكلام ، فتمتنع عن محادثته ، وتتهرب منه !..

لم تكن لجعفر حرية التنقل كيف ماشاء ..

كان رغم علو شأنه وسعة ثرائه مرتبطاً بأمير بلاده ، يعمل لديه ، ويقوم بدور الوسيط بينه وبين العالم الخارجي ، فلا يستطيع تركه إلا بإذن منه ، ولا يأتيه هذا الأذن ، مالم يكن مرتبطاً بحاجة من حاجات الأمير ..

لم يعد باستطاعته الصبر على بعد قطر الندى ..

.. ينبىء قطراً أنه حصل أخيراً على أذن بالذهاب إلى بلدٍ من البلدان ، ويطالب منها أن توافيه هناك على عجل ..

ترفض قطر ، وتحار في تبرير رفضها ، جاهدة ألا تثير غضبه !..

تدّعي ، تارة أنها لاتستطيع ذلك بسبب ولدها .. وتارة أخرى ، بأن لهلال عيوناً في البلد الذي حصل جعفر على الإذن بالذهاب إليه !..

.. فيثور جعفر .. ثم يتصبر !..

.. يعيد الكرة بعد أسابيع ، محاولاً تعيين بلد آخر للقاء ، فتعود قطر إلى التهرب أو الرفض ، فيكاد يجن من تهربها !..

إلى أن ضاق ذرعه .. فنسي ما كان قد وعدها به من تعقل ، وبدأ يصر عليها أن تزوره ، في بلاده هو ، مهما كلفها ذلك من مخاطرة !..

طار صوابها لجرأته !!..

أدركت أنه لايستطيع الصبر على مرور الشتاء والربيع دون لقائها .. وأنه لن يلبث أن يقوم بعمل طائش قد يكلفها الكثير !..

ومرة أخرى ، اشترك الجميع في محاولة لإيجاد مخرج لقطر الندى من هذا المأزق..

زاد اهتمام ميساء في البحث عن طريقة لكبح جماح جعفر ، حتى بدت لفراس ، وكأنها هي المعنية بالأمر .. لا أختها !..

أخذت تحض قطراً على إثارة كراهية جعفر .. تصر عليها في اللجوء إلى جرح كرامته ، أو إهانته ، لعل ذلك يقتل حبه لها ، أو يخفف من غلوائه ، فيكف عن ملاحقتها ، أو ينتظر حلول الصيف لمقابلتها ، على الأقل !..

وفي إحدى الليالي التي جلسوا فيها إلى حديثهم المألوف ، ضيَّقت ميساء على أختها الخناق ، حتى أوشكت هذه على البكاء ..

.. إلى أن صاحت قطر في النهاية ..

ــ .. وما شأنك أنت به !.. جل ما أوده هو أن يخفف من ملاحقتي !.. لا أن أهين كرامته ، فيسعى إلى الانتقام مني !!..

.. صاحت ميساء بأعلى من صوت أختها ..

– .. وفي هذه الأثناء تصل قصص غرامياتك إلى مراد !!.. فيُقضى على سمعتي .. ثم على زواجي !!.. هــل فكرت بذلك ؟!.. أم إنك محور العـالم .. لايجب أن يكون لمن حولك من هم ، سوى إعادة زوجك لك .. وتهدئة عشيقك ؟!..

تدخل فراس بينها لتهدئة الجو .. فنظرت ميساء إليه ببرود ..

– اسمع !.. أعلم أنك في هـذه القضية إلى جانب قطر ، لا إلى جـانبي .. فها أنا أنذركما الآن .. إن لم تجدا طريقة لدرء الفضيحة ، فسأجدها أنا !..

أجابها فراس ، هادئاً ، متعجباً ..

– .. إن كان لديك طريقة ناجعة .. فلماذا لاتطلعنا عليها ؟..

– لسبب بسيط .. وهو أنك لم تستطع تنفيذها ، بما يتعلق بهلال !..

– لم أفهم !..

– .. طبعاً لم تفهم !.. ومع ذلك فالأمر بسيط ..

حدقت فيه وتابعت ..

– .. لابد من قتل جعفر !..

نظروا إليها غير مصدقين ماسمعوا ..

سألها فراس ..

– .. ومن يقوم بذلك ؟..

– .. ولا أسهل !.. هنالك محترفون أعرف كيف أتصل بهم !..

عادت في تلك الأثناء زوجة فراس إلى حيث كانوا يجلسون ، وكانت خارج البهو، فكفوا عن حديث القتل .. ولاذوا بالصمت ..

كانت قطر تحملق في أختها بذهول ..

قالت بلهجة حائرة ، وكأن لا أحد يسمع حديثها مع أختها ..

– أتفعلين ذلك حقاً ؟.. لمجرد خوفك من أن يسمع مراد بقصتي ؟..

– .. ولم لا ؟.. ألا يسعى كل منا إلى غايته ؟!..

– .. كل ذلك !.. لأن جعفراً يصر على مقابلتي قبل حلول الصيف ؟..

نظرت ميساء إليها هازئة ..

ــ حسناً .. ولماذا لاتجتمعين به ؟..

ــ وأثير سيلاً آخر من الشائعات حولي ؟.. وأفقــد بذلك آخر أمل لي بعودة هلال ؟!..

هزت ميساء رأسها ساخرة ..

ــ .. هلال ؟.. أحقاً لازلت تظنين أنه سيعود إليك ؟!.. ألم تقرئي الصحف؟.. إنه في باريس ، تتقاتل بنات الهوى على خدمته !..

لمعت عينا قطر بالنقمة على أختها ، وهي تهز أصابعها ساخرة ..

ــ .. ومراد ؟!.. ما شاء الله على سيرته .. وعلى إخلاصه لك !.. لعلك تظنين أنه لايقطع الصلاة .. ولا يترك الجوامع !..

صمتت برهة .. أطرقت كمن تراءى لها خاطر مهم .. وفجأة رفعت عينيهــا نحو أختها وكأن لاشجار بينها ..

ــ .. من قال لك أن هلالاً في باريس ؟..

ضحكت ميساء منها بمزيد من السخرية ..

ــ لم أر من هو أشد بلهاً منك !.. اسألي « سروراً » ، عبده !.. ألم يخطر ببالك يوماً أن « سروراً » قد يكون على اتصال به ؟!..

حقاً !.. لم يدر في خاطرها أبداً أن هلالاً يهتم بأمر ابنه ، وأنه قد يتقصى أخباره أحياناً من عبده ومربيه !..

قرعت جرس الخدم .. واستدعت سروراً في الحال ..

جاء هذا بعد لحظات .. حاملاً ابنها فراساً على جنبه ..

أنزل الأمير الصغير إلى الأرض ، ووقف ينظر إليها تلك النظرة التي كانت تمقتها .. نظرة فيها مزيج غريب من الخنوع والتحدي !..

ــ .. أتريدينني ، طال عمرك ؟..

ــ .. هل اتصل سمو الأمير بابنه مؤخراً ؟..

أطال سرور النظر إليها .. ثم قال بخبث ..
ـ أتودين أن تعرفي أين هو الأمير ، طال عمرك ؟..
علا احمرار وجهها ..

لم يكن سرور ، رغم طاعته الظاهرية لها ، يأتمر بغير كلمة سيده !..
كان لوضع أمثاله مكانة غريبة في بيوت الأمراء ..
تخافهم النساء ، لما لهم من صلة وثيقة بأسيادهم ، فتمالئهم حتى يصبحوا في النهاية أسياداً صغاراً لهن !..

قطر الندى ليست من النوع الذي يقوى على ممالأة العبيد ، وكان سرور يعرف ذلك ، لذلك كان يبتعد عن طريقها ، مقتصاً منها بتربية ابنها ، في السر ، على كره طريقة أمه في الحياة .. واحتقار بيئتها !..

قال لها ابنها فجأة ، بلهجة شرقية تماثل طريقة سرور في الكلام ..
ـ والدي في باريس .. كلمني البارحة !..
ـ أواثق أنت من ذلك ؟..
ـ كيف لا ؟.. أتظنينني مغفلاً مثل بقية أهل هذا البلد ؟..

نهضت ميساء ، ووقفت تنظر إلى نفسها في المرآة مبتسمة لجواب الأمير الصغير .. وإذا به ينظر إليها ، والاحتقار ملء عينيه ، ثم يصيح بها مشيراً إلى ساقيها ..
ـ .. غطي ساقيك !.. ألا تخجلين من هذا الثوب القصير ؟!.. ألا تستحين ؟..

بوغتوا .. ثم وجدوا في قوله دعابة ضحكوا لها ..

انحنى « سرور » فخوراً ، وحمل الأمير على جنبه ، ثم انطلق خارجاً به من الغرفة ..

نظر فراس إلى قطر ، فوجدها تبتسم بسرور ..
أطال النظر إليها ، فأدرك أنها شاردة تمعن التفكير بأشياء كثيرة ..

نظرت إليه .. ثم إلى ميساء ، وعيناها تتوثبان لخاطر طرأ في ذهنها ..

ـ .. اسمعوا !.. لماذا لانذهب إلى أوروبا ؟..

ـ .. كيف ؟!..

ـ .. أقابل جعفراً .. في باريس !..

ـ .. مرة ثانية ؟!..

رفعت قطر حاجبيها ..

ـ .. لِمَ ، لا ؟!..

* * *

الفصل السادس

لم يصدق جعفر ماسمعت أذناه !..

أصحيح هذا ؟.. أليست حيلة أخرى لتهدئته ؟..

هل سيراها .. هل سيلقاها بعد هذا الغياب الطويل ؟..

استمهلها ريثما يتم له أمر استئذان أميره ..

لم يضع وقته سدى بل راح يفكر ملياً بما سمع ..

فاجأه قبولها ، فارتاب لإذعانها بعد عناد أشهر طويلة ..

طلب فراساً على الهاتف بعدأيام دون علم من قطر .. وأخبره أنه استقصى أنباء غريمه ، فعلم أنه في باريس !..

راح يسائل نفسه ما إذا كان للأمرين صلة ..

هل قبلت قطر مقابلته في باريس لأن هلالاً هناك ؟!..

كان رغم حبه الجارف لها ، قد بدأ يرتاب بنواياها .. علمته مراوغتها الحذر ، فاستحلف فراساً على السفر معها ، ليظل إلى جانبها ، ينبئه عن أخبارها ..

ـ سيمنعها وجودك كرقيب عليها من الاتصال بهلال !!..

ضحك فراس لسذاجته .. ورفض قبول هذه الدعوة !..

كانت قطر من جانبها تحاول السفر هذه المرة دون فراس .. راحت تتملص من من إصرار جعفر ، تحاول إقناعه بأن وجود أختها إلى جانبها يكفيها ، وأنها ليست في الواقع بحاجة لحماية رجل !..

زادت شكوك جعفر .. وأيقن أنها تبيّت لقاء مع زوجهاتود له أن لايطلع عليه .. أصر على مرافقة فراس وزوجته لها .. حتى أذعنت في النهاية ..

تم الاتفاق على السفر إلى لندن أولا ، مدعية أمام أقاربها أنها تنـــوي استئصال بثرة خبيثة من ساقها ، على أن يتم لقاؤها بجعفر فيما بعد ، مرة أخرى ، في باريس ..

بقي أمر إقناع فراس بالسفر معها !..

توددت إليه .. ثم حاولت إغراءه ، مصورة له ماسيلاقيه في أوروبا من متعـة .. دون فائدة !..

كان يعلم أن هذه الرحلة قد لاتتم بدونه .. فأصر على الرفض !..

وفي النهاية .. لجأت إلى طريقة الاستنجاد به ..

توسلت إليه أن يتيح لها فـــرصة لقاء أخير مع زوجها .. لقاء ، قد تعود بعده إلى هلال ، فتنهي علاقتها بجعفر ، وبحياة المغامرة !..

لم يكن تمنّعه عن السفر لرادع يحثه على الوقوف في طريق لقائهـا مع جعفر .. فهو في الأصل لايأبه للمفاهيم الأخلاقية السائدة في بيئتـه !.. وإن ناقش الأمر من هذا المنطلق ، ألا يجد أن هنالك مايبرر تسهيل هذه الرحلة ؟..

كانت قطر أمام أحد أمرين .. فإما أن يتم لقاؤها بزوجها ، فتصلـــح الأمور ، وتعود إليه .. أو تدرك نهائياً أن لا طائل من انتظاره ، فتسعى إلى الطلاق ، وتتزوج من جعفر .. وعلى الحـالين ، ينتهي سفرها بأن تستقر مع زوج يرضى الجميـــع عن علاقتها به !..

تمنـع فراس لسبب آخر ..

كان قد مل المناورات .. ومل تقلب أهواء قطر !..

.. مل ميساء .. ومل ماستحاوله هي الأخرى من مناورات للحاق بمراد !..

مل زوجته ، وتملقها لقطر وميساء .. ومل بهجتها برحلات ظنت أنها تطلعهـا على أمور عظيمة !..

قبل فراس على مضض ..

مسرعان ماجهزوا أنفسهم ، مرة أخرى ، وطاروا إلى الغرب ..
وصلوا لندن .. وملء فراس ، سلفاً ، النزول في الفنادق الفخمة !..
توجهوا نحو جناحهم الفسيح .. وملء سلفاً ، ماسيجده فيه من زهور وعطر !..
هجعوا إلى أسرتهم .. وملء سلفاً تصور حوادث الغد .. بهجة ،وثرثرة، وصخباً ..
وتقزز سلفاً مما ستقوم به النساء في السوق ، وما ستعدن به إلى الفندق من مشتريات !..
جلس ينتظر مكالمات جعفر .. وضاق حتى كاد يغشى من تصور حواره المتوقع على الهاتف !..

لجأ إلى ترك الفندق صباح كل يوم ، والتجول على غير هدى في أحياء المدينة ..
لم يجد في تجواله الطويل ما أيقظ مشاعره إلى أمور أهم أو أعمق من الملل الذي كان يتيه فيه ..
ماله يبحث اليوم عن المهم والعميق ؟..
انطبعت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، لم تعد تفارقه ..
ما باله اليوم يبحث .. والبحث ، أمر ظن أنه فرغ منه منذ أمد طويل ؟!..
ما للملل لايفارقه .. يمسخ حوادث يومه .. يدفعه إلى الاستهزاء والسخرية من كل ما يعترضه .. وهو الذي لايرى في العيش سوى حركة لاتحتاج إلى تفسير .. ولا تبحث لنفسها عن مبرر ؟..
تذكر سني حداثته القلقة .. وبحثها الموتور عن مطلق يملؤها ، فتعلل به ..
جميل أن تبحث النفس المتفتحة حديثاً على الكون عن أشياء لاتعرفها ، وإن أحست أن ما بها من فراغ قادر على استيعاب العالم بأسره .. أما أن تقف نفس كانت تعيش في طمأنينة الاكتفاء ..وتشعر فجأة أنها أصبحت بحاجة إلى البحث .. للبحث عن ماذا ؟!..
..أن تعلم أنه لا يحوجها شيء .. ولاتجديها هذه المعرفة للخلاص مما تغوص به .. أو تقوى على إزاحة شعورها بالحاجة إلى البحث !..
.. أهذه ذروة الملل ؟!..

لئن ظن الملل أنه قد تمكن من فراس ، فلأن الملل قد أغفل من حسابه وجود ميساء ، وقطر الندى ، ونسي أنهما إذا ماوجدتا في مكان ، فلا مكان له فيه ، سوى لفترات عابرة قصيرة !..

طاروا من لندن إلى باريس .. ومرة أخرى نزلوا في أفخم فنادقها ..

تعجب فراس من إصرار ميساء على النزول في جناح منفرد ..

قالت إن مراداً سيزورها قريباً .. ولن تستطيع التحدث إليه بانفراد إلا في مثل هذا الجناح ..

لم تهدأ ، حتى حصلت على ماتريد .. أربع غرف مستقلة في الدور الثامن ، بينما نزلت قطر الندى في جناح فراس وزوجته ، في أحد أجنحة الدور الرابع ..

لم يفهم فراس سبب نزول قطر في جناحه .. ولا سبب تركها أختها في جناح مستقل ، وبمعزل عن جميع سكان الفندق !..

خرجوا لتناول العشاء ، وما إن عادوا من سهرة متأخرة ، حتى استودعوا بعضهم في المصعد المغلف بالجلد المنقوش .. ثم أكملت ميساء طريقها ، صاعدة فيه إلى دورها المرتفع ..

دقائق .. وسمعوا طرقاً شديداً على باب جناحهم !..

هرع فراس إلى الباب يفتحه ، فبهت إذ وجد ميساء أمامه بثياب النوم ، صفراء الوجه ، تلهث فزعاً ، ويدها على فمها ..

دخلت مسرعة ، وأقفلت الباب وراءها ..

قالت بصوت مخنوق أشح ..

ـ لقد سُرقت مجوهراتي !.. لقد سرقت حقيبة المجوهرات .. وفيها جميع ما أملك !!..

.. ثم استندت على الباب .. وراحت تنظر إليهم بوجوم !!..

صعق فراس لما سمع !..

لم يبد على زوجته أنها فهمت جميع مايتضمنه هذا النبأ من ذيول ..

.. وقفت قطر الندى ، حائرة ، لاتدري ماذا تقول !..

لحظات ، وهرعوا إليها جميعاً ، يروّحون عنها ، ويدعونها إلى الجلوس والهدوء ..

سأل فراس بعد برهة ..

ــ وماذا كان في الحقيبة ؟..

كانت ميساء مسندة رأسها إلى ذراعها .. يكاد يغمى عليها .. وإذ بها ترفع رأسها فجأة ، وتصيح ..

ــ .. كل شيء !.. كل شيء !.. خواتمي الماسية الثلاثة ، من بينها الخاتم الذي أهداني إياه البدر !..وزوجان من الأقراط الماسية !.. ثم خاتم الزمرد الذي تعرفون.. وخاتمان كبيران أهدتنيها والدتي بمناسبة الزواج .. ثم العقد الماسي هدية قطر ، ولم تسنح لي فرصة تقلده بعد ..

توقف فراس عن متابعة ماراحت تعدده من مجوهرات ..

ماهذا الذي يسمع ؟!..

إنه يعرف مجوهرات ميساء حق المعرفة !..

لقد حمل تلك الحقيبة إلى جانب حقيبة قطر ، طوال الرحلة الماضية ، خوفاً عليها من اللصوص .. فما بالها تعدد مجوهرات لم يرها قط في تلك الحقيبة ، ولم يسمع من ميساء يوماً أنها في حيازتها ؟!..

كيف تدعي أن والدتها أهدتها خاتمين كبيرين..في حين أن والدتها رفضت إمدادها حتى بما يلزمها من مال ، لتجهز نفسها بثياب لائقة للعرس ..

ثم .. ما العقد الذي تزعم أن قطراً قد أهدتها ؟!..

نظر إلى قطر طويلاً ..

وبالرغم من جهدها في إظهار الأسى .. إلا أنه أدرك تصنُّعها .. وتذكر أن شبه ابتسامة لمعت على جفنيها حين ذكرت ميساء أمامها منذ برهة ذلك العقد !..

عاد ينظر إلى ميساء وقد اعتراه الذهول !..

كانت قد توقفت عن عد مجوهراتها المسروقة .. فقال لها محاولاً إخفاء بروده ..

ــ .. وما العمل ؟..

أطرقت قليلا ..

ــ .. نخبر إدارة الفندق !..

هال فراساً ما استبقه ذهنه من نتائج كان يعلم أنها ستتلو ذلك الحادث ..

لم يجد مايمكن أن يقوله ليعترض على قرارها .. فتقدم من الهاتف ببطء وطلب من مندوب الإدارة الصعود إليهم حالاً ..

تتالت الأمور طبقاً لما توقعه !..

ما إن أخطرت إدارة الفندق ..حتى سارعت بدورها إلى إعلام دوائر الأمن !..

.. ولم تمض دقائق حتى حط رجال الأمن عليهم كالغربان ، يتنقلون بألبستهم الرمادية والسوداء بين غرفهم ، يأخذون صوراً لاحصر لها لبصمات الأصابع في كل مكان ، ويجرون تحريات لانهاية لها في تلك الساعة المتأخرة من الليل !..

طلبت قطر الندى أن يرجأ البحث حتى الصباح ، فكان لها ما أرادت ، ونزلوا متثاقلين إلى جناحهم في الدور الرابع .. يقلّبون في أذهانهم ما سيأتيهم الغد من مفاجآت ..

وليست السرقات ممّا يسر أصحاب الفنادق !.. وسرقة مجوهرات أميرة شرقية في أكبر وأفخم فنادق باريس ، لايمكن إلا وأن تطبل لها الصحف وتزمر !..

لئن لم يجد أحد مايقوله لميساء إثر هذه السرقة سوى ما يشجعها ، ويروح عنها ،إلا أن إدارة الفندق لم تترك رجال الأمن دون أن تطرح أمامهم تساؤلات محرجة ، وضعت على هذه السرقة علامات استفهام كبيرة !..

توافدت عليهم وفود الصحفيين منذ الصباح الباكر ..

أسماء معروفة لمحرري أكبر صحف ومجلات باريس .. جميعهـا تطلب مقابلة الأميرة ..لتستوضح منها تفاصيل السرقة ، والأميرة ميساء ترفض مقابلتهم ، مدعية أنها متوعكة المزاج !..

لم تنج ميساء من تساؤلات إدارة الفندق ..

جاءت هذه التساؤلات على ألسنة الصحفيين في جرائدهم ، أسئلة ساخرة لاذعة..

.. « لم آثرت الأميرة الشرقية المحافظة النزول في جناح بمفردها.. تاركة أختها برفقة صديقين في جناح آخر !؟..»

.. « لماذا لم تودع الأميرة الشرقية مجوهراتها لدى دائرة أمانات الفندق ، جرياً على المألوف ؟!.. »

.. « لماذا لم تؤمن الأميرة الشرقية على مجوهراتها.. إن كان لها هذه القيمة الكبيرة التي تدعي !.. »

.. تساؤلات كانت تصل فراساً إلى الفندق ، على صفحات الجرائد والمجلات ، فيقرؤها أمامهم ببرود ، كمن لايفهم فحواها !..

لم تطل حيرة فراس في فهم هدف ميساء ممّا ادّعت !..

سرعان ما جاءه الرد السريع على تساؤلاته .. فلم تمض أيام قلائل ، حتى أدرك أنها أصابت ثلاثة عصافير بحجر واحد !..

ميساء لاتعرف أين مراد .. سيقرأ نبأ السرقة ، أو سيقرؤه أحد أفراد حاشيته ، فيطلعه عليه ، فيأتي مسرعاً إليها .. أو ينبئها عن مكانه !..

والهدف الثاني أشد أهمية من الأول .. إذ لم يكن لدى ميساء من المجوهرات ما يليق بالصورة التي رسمتها لمراد عن نفسها !.. حرصت في الماضي أن تبعد ظنه عن رغبتها في ثروته ..فادعت أمامه ثراء كبيراً ورثته عن والدها.. علاوة عن قسم ادعت أنه نابها من مجموعة مجوهرات نادرة تتوارثها أسرتها منذ أجيال !..

.. قدّرت أنها باختلاق هذه السرقة ستنجو من الظهور يوم الزفاف دون تلك الحلي التي ادعت ملكيتها !.. دون مجوهرات تليق بمقام أسرتها !..

أما الهدف الثالث ، فهو أنها بهذه السرقة ستحض مراداً وعائلته على التعويض عما فقدته .. وسيكون لها أخيراً مجوهرات تفخر بها ، وفي هذا أكبر ربح لها !..

ما لبثت ثمار فعلتها أن أينعت !..

طلبها مراد على الهاتف في اليوم الذي تلا انتشار الخبر ، واتفقا على أن توافيه في « مدريد » . .بعد عشرة أيام !..

لم ينه مراد مكالمته قبل الإشارة إلى أنه ووالده وأخاه قد هيؤوا لها من الهدايا ما سيعوضها عما فقدت !..

أنستهم تلك المعمعة أن جعفراً في طريقه إليهم ، وأن هذه الرحلة في الأصل لم تتم سوى لمقابلته !..

وصل جعفر باريس ، وحار كيف يسترق الدقائق المعدودات من وقت قطر التي غرقت مع أختها تحت سيل من زيارات المسؤولين ، ومتابعة الصحفيين !..

كان لابد من إبعاد ميساء . . لإبعاد رجال الصحافة والخلاص من العيون التي أخذت تراقب جميع حركات الأختين وسكناتهما، فلم يجد جعفر في النهاية سوى أقصر الحلول !..

عمل باقتراح كانت قطر قد دبرته في الخفاء مع أختها !..

.. ألا يود إبعاد ميساء عنها ؟.. لماذا لا ينتهز الفرصة المناسبة ، فيقترح عليها السفر وحيدة كي تروح عن نفسها ؟!.. ويهديها من المال ما يسهل لها ذلك ؟!..

كان لهما ما أرادتا .. فعوّض جعفر ، هو الآخر ، لميساء عن قيمة جزء مما فقدته ، ثمناً لذهابها إلى لندن ، لشراء ما تشتهيه !..

أيام قلائل ، وكانت ميساء في لندن في ضيافة أحد السفراء ، مدعية الهرب من الصحفيين !.. وعادت الحياة في الفندق إلى سابق هدوئها ، فتهيأ جعفر للقاء بقطر الندى .. لقاء طالما حلم به !..

ضَمِن بُعدَ ميساء ، فأقام في الفندق المقابل ، آملا أن يفسح ذلك له الجو لمقابلة قطر على ما تشتهيه نفسه !..

لم تكن قطر قد هدأت بعد مما أعقب هدية السرقة من ضوضاء ، حين جاءها جعفر .. لذلك لم تتح لها الفرصة التي كانت تنشدها للبحث عن زوجها ..

بدت تلك الحادثة و كأنها قد استقطبت جميع من له علاقة بقطر الندى !.. إذ ما لبث هلال أن حط في نفس الفندق الذي كانت تقيم فيه !..
جاء القدر لخدمتها .. غير عابىء بخطأ التوقيت !..

ما إن علمت قطر بذلك ، حتى أصابها ارتباك كبير .. وعاشت ساعات غريبة من الهرج والمرج أحست فيها و كأن جميع ما في الكون من أضواء قد أطبقت عليها !..

علم جعفر بوجود هلال في فندق قطر .. فجن جنونه !..
لجأ إلى الهاتف يحدثها دون انقطاع ، ليستوثق من أنهـــا في غرفتها ، بعيدة عن زوجها .. لاتحاول الاتصال به ! ..
أخذت قطر الندى تطمئنه ،وتهدىء من روعه .. وعبثا حاولت جميع ما استطاعت ابتكاره من حيل كي تفلت من رقابته !..

راحت تغلي وتفور في سرها .. تكاد تنفجر لفرط توترها !!..
وقفت بين زوجها وعشيقها ، تخاف الاثنين ، ولا تدري في أي الاتجاهين تسير !..
ها هو هلال ، على بعد عشرات الأمتار منها !..
لابد من الاتصال به .. لابد من محاولة استرجاعه !..
.. ماذا لو اتصل بها على الهاتف ؟.. طار صوابها لهـــذا الخاطر !.. سيجد رقمها مشغولاً على الدوام !!..
كيف تفلت من جعفر دون إثارة حقده ؟..
ماذا تعمل لتكلم هلالاً ؟!..

لم تجد في النهاية غير ادعاء الإعياء التام .. إعياء يقارب الإغماء !..
راحت تكلم جعفراً على الهاتف و كأنها على وشك الإغماء .. لعلها اقتربت من هذه الحال فعلا .. فتدخل فراس لإنقاذها ..

أخذ سماعة الهاتف منها ، وأكد لجعفر أن قطراً توشك على الانهيار ، وأن عليها ملازمة الفراش دون أن تكلم كائناً من كان !..

لم يذعن جعفر لذلك ، حتى أقسم له فراس أغلظ الأيمان ، أنه سيسهر على مراقبتها ، وأنه سيقفل بابها ، ويحتفظ بمفتاحه في جيبه !..

دقائق ، وكانت قطر الندى تحدث زوجها على هاتف غرفة فراس !..
قبلت دعوته للعشاء في غرفته ، فأقفلت الهاتف ، وعادت إلى غرفتها تطلب جعفراً لتستوثق ، هذه المرة ، أنه لايزال في غرفته ، وأنه لن يحاول مباغتتها !..
كان الليل قد أوشك على الهبوط ..
سر جعفر كل السرور للفتتها .. أعادت هذه المكالمة إليه إطمئنانه ، ووثق من انقطاعها إلى حبه !!..
وبعد حديث طويل ، أكثرت من التثاؤب في نهايته ، استودعته ، مؤكدة له أنها ستنام هذه المرة ، وأنها ستتصل به حالما تستيقظ في الصباح التالي ..

سارعت إلى المرآة تصلح من زينتها ..
خلعت ما كانت تتحلى به من مجوهرات جعفر .. وتقلدت أبسط ما كان هلال قد أهداها ..
ارتدت ثوبا من الصوف الناعم لف جسدها ، فبدت ممتلئة ناضجة .. كما يحب هلال !..
أسرعت إليه .. مُقبّلةً فراساً في طريقها .. صائحة لزوجته التي كانت في غرفتها بأن تنتظر عودتها قبل أن تهجع إلى النوم ..
جلس فراس إلى مقعده يطيل النظر إلى الباب الذي أغلقته منذ لحظات .. محتفظاً بطعم شفتيها ، وبللها لازال دافئاً على شفتيه !..
.. لم يمسحها ..
أحس بآثار شفتيها تبرد شيئاً فشيئاً على شفتيه ، إلى أن جفت ، فأغمض عينيه ، وعض على شفتيه عضاً خفيفاً ، وكأن ذلك الوجه المحبب ما زال لاصقاً بوجهه !..

— .. مابالك !؟.. هل تتألم ؟..
تنبه إلى صوت زوجته ..

فتح عينيه ، فرآها تحملق فيه ، متعجبة لشروده ..

ـ لا .. لا ..

نهض بعجل .. كمن أفاق إلى أمر مهم ..

ـ سأذهب لزيارة صديقي « باتريس » .. وقد أتأخر عنده ..

سألت متعجبة ..

ـ ظننت أن باتريس يؤدي خدمته العسكرية !..

ـ .. لقد عاد في عطلة ..

حارت زوجته كيف تستبقيه ..

ـ ألن تنتظر أخبار قطر وهلال ؟..

ـ ستعلمني قطر عن ذلك غداً ..

وغادر الغرفة ، ثم الفندق ..

ولم يتجه إلى غابة « بولون » حيث يقيم صديقه .. بل مضى إلى غاب « فانسين ».. نحو صديقته « لورا » ..

* * *

الفصل السابع

سها فراس عن الاتصال بصديقته من الفندق ..

توقف في تلك الضاحية النائية ، غير بعيد عن المصح ، يبحث عن هاتف ، لينبىء لورا بقدومه ، ويستوثق أن حالتها الصحية تسمح لها بقبول الزائرين ..

اهتدى إلى المقهى الوحيد في تلك المنطقة .. النوافذ الوحيدة التي ينبعث منها النور في تلك الطريق الطويلة المعتمة ..

نقله دخان المقهى المتكاثف ، وأضواؤه البرتقالية الباهتة ، والأثاث القديم ، إلى حقبة مابعد الحرب .. حقبة نسيتها باريس ، ومحتها من معالمها ..

دخل مقصورة الهاتف القديمة .. وتنبه إلى رائحة الرطوبة المألوفة لديه .. فتبسم غبطة ..

أدار رقم المصح ، وأخذ ينتظر الجواب ، ينقل ناظريه عبر غمامة الدخان ، بين مصابيح الغاز ، واللوحات القديمة .. بين انعكاسات النور على المرايا الكبيرة المعلقة على جدران المقهى ..

سره توقفه عند هذه القطعة القديمة من باريس قبل دخوله غاب المصح بأشجاره الباسقة ..

ابتسم للصدف التي أدخلته هذا المقهى المنسي ، قبل زيارة صديقته المنسية ..

جاءه صوت مرافقة لورا على الهاتف ..

وإذ سألها عن سيدتها ، وأنبأها بأنه يود زيارتها .. فوجىء بها تخبره بتوعك قد ألمّ بصديقته .. وبأن حالتها المتدهورة لاتسمح لها باستقباله !..

لم ترفض لورا زيارته في الماضي إلا في حالات الإعياء التام ، أو حين كانت مشرفة على الخطر .. فتطيّر لقول المرافقة ، وأصر على مكالمة لورا وسماع صوتها على الأقل ..

بعد انتظار طويل ، سمع صوت صديقته و كأنه يأتيه من بئر سحيق ..

ـ .. « ميشكا » ؟.. أهذا أنت ؟.. من أين تتكلم ؟..

ـ .. من باريس !..

ـ .. لا .. أعني .. هل تكلمني من الفندق ؟..

ـ لا .. من مقهى قريب من المصح .. إني على بعد خطوات منك !..

ندت عنها آهة ارتياح .. آهة تعس !..

ـ آه .. لو استطيع أن أراك !.. كم أود ذلك .. لكن هذا مستحيل ..

أصر فراس على رؤيتها .. فأنبأته بأنها إنما تنصاع بتعليمات الطبيب ..

طلب إذ ذاك مكالمة الطبيب على الهاتف ، وكان على معرفة شخصية به ، فلم يتركه ، حتى سمح له برؤيتها ، بعد وعد قاطع بألاّ يطيل البقاء ، وأن يتجنب كل مايمكنه إثارة أعصابها ..

خفّ الحارس المسن لرؤيته ، وقال مستبشراً ..

ـ كنت أعلم أنك ستأتي في الوقت المناسب !.. آه يا سيدي .. كنت أعلم أنك ستأتي ..

داعب كلب الحارس على عجل ، ثم دخل مسرعاً ، وتوجه نحو مسكن صديقته في قاع الغاب ..

كانت لورا كعادتها مستلقية على فراشها الوثير .. ترتدي ثوباً من أثواب نومها الطويلة الهفهافة التي تكاد تصلح أن تكون ثوباً للسهرة لفرط أناقتها ، وبساطتها ..

تبسمت وهو يمس ظهر يدها بشفتيه .. ثم سكنت تقاطيع وجهها وسألته ..

ـ .. متى وصلت باريس ؟..

ـ منذ أيام ..

ـ هل أتت زوجتك معك ؟..

عجب لسؤالها ..

ـ نعم .. لماذا تسألين !..

ـ .. آه .. لا لسبب .. لا لسبب ..

لم تكن لورا ممن يسألون الاسئلة الاجتماعية التي لامعنى لها !..
لماذا تسأل عن زوجته ؟..
لماذا أشاحت بوجهها عنه حين أجابها بأن زوجته أتت معه إلى باريس ؟..

ـ .. من الخير أنك لم تكلمني من الفندق ..
زاد عجبه .. تذكر سؤالها له على الهاتف بشأن الفندق ، فسألها برفق ..
ـ .. لورا ؟.. ما المانع في أن أكلمك من الفندق ؟..

نظرت إليه ملياً ثم استرخت وكأن ومضاً أطفىء في نفسها ..
ـ صحيح .. أنك لاتعلم ..
ـ .. لا أعلم ، ماذا ؟..
ـ .. أن زوجتك جاءت لزيارتي ..
ـ .. زوجتي ؟!!.. متى ؟!!..
وراح يقدح ذهنه مسترجعاً .. متى سنحت لزوجته الفرصة لزيارتها ؟.. ولم يصلوا باريس إلاّ منذ أيام !..
ـ أتت لزيارتي منذ أشهر .. في المرة السابقة التي كنتما هنا فيها .. يالهـــا من امرأة جميلة !..
كادت تئن وهي تقول ذلك ..
ـ زوجتي !.. جميلة !؟..
تابعت لورا بنفس اللهجة الحالمة الحزينة ..
ـ جميلة بصحتها .. ممتلئة .. تتفجر حيوية ..
وأشارت إلى جسدها ..
ـ .. أنظر إلي أنا !.. جسدي السقيم .. نحافتي المخيفة .. طولي المفرط !..
ـ وكيف أتت ؟.. لماذا ؟.. لماذا لم تخبريني بذلك ؟..
رفعت لورا حاجبيها ، مبتسمة بحزن ..
أرادت أن تعرف من أكون !.. ظنت إني فتاة مراهقة ، فأتت لترى عشيقة

زوجها السابقة .. لترى الفتاة اللعوب التي كان زوجها يكلمها على الهاتف حين يأوي إلى الفراش !..

وإذ رأت تعجب فراس ، تابعت ..

ـ لقد أخبرتني هي بذلك .. صحيح أنك أخبرتها أنـني قد تخطيت الخمسين .. لكنها لم تصدقك يا ميشكا .. وهذا طبيعي .. مَنْ من الشباب يهتم بامرأة على حافة القبر مثلي .. أتت لتتحقق من كلامك ! واستحلفتني ألا أطلعك على هذه الزيارة !..

تابعت « لورا » بلهجة ساهمة ..

ـ .. جلستْ حيث تجلس أنت الآن .. متحفزة في مقعدها .. تنظر إلي بإمعان تحدثنا طويلاً .. تحدثنا عنك .. أعذرني يا ميشكا .. لقد صدقتها في البدء .. صدقت حبها لك .. وغيرتها عليك .. لم أشعر أنني بحاجة إلى أن أؤكد لها أن علاقتي بك لم تكن سوى .. ماذا أقول .. علاقة صداقة عاطفية ؟..

صمتت « لورا » .. ثم رفعت أصابعها الدقيقة لتمسح بها دموعاً انهمرت على خديها

ـ ألم ترني عيناها ؟.. ألم ترني عيناها ؟!.. ألم تر ، وهي تنظر إلي .. أنه لا يمكن أن يكون لي علاقة جنسية بأحد !..

أحس فراس بأعماقه تغلي ..

سألها ، محاولاً جهده كبت انفعالاته ..

ـ وما الذي حصل ؟.. هل حدث شيء ؟.. هل قالت شيئاً أساء إليك ؟!..

هزت رأسها نافية ..

ـ لا .. لم تقل شيئاً .. ذهبت بهدوء ..

صمتت برهة طويلة .. قالت بعدها ..

ـ .. وبعد أيام .. خمسة أو ستة على ما أظن ، رن جرس الهاتف ، وإذ بها تطلب مكالمتي ..

قالت « لورا » ذلك .. ومدت يدها نحو المسجل الذي لايفارق جنب سريرها ، فأدارته على شريط كانت قد أعدته عليه ..

سمع فراس طنين المسجل .. تلاه صمت ، ثم صوت زوجته يقول ..

ـ ألو .. ألو .. أود التحدث إلى السيدة « لورا » ..

ـ .. أنا لورا .. من المتكلم ؟..

كان صوت زوجته متحفزاً .. يضمر الشر ..

ـ .. لاتعرفينني !.. أليس كذلك ؟!.. أنا زوجة فراس .. هل نسيت من أكون ؟!.. هل نسيت صوتي ؟.. كنت عندك منذ أسبوع !..

ـ أرجوك المعذرة .. لم أتعرف إلى صوتك .. إنها أول مرة أسمع فيها صوتك على الـ ..

ـ طبعاً .. لاتعرفين صوتي !.. أنت لاتعرفين غير صوت زوجي !..

ـ ...

تقلصت أحشاء فراس ..

عاد صوت زوجته ..

ـ اسمعي !.. أنا أعرف اللواتي مثلك من النساء !.. أمثالك من العجائز اللواتي يسعين وراء الشباب !.. يدفعن لهم الدراهم ليطارحنهم الغرام !..

علا الدم إلى رأس فراس وأحس بدويّ في أذنيه ..

جاء صوت لورا مفجوعاً ..

ـ ماذا ؟.. ماذا ؟..

ـ أمثالك من الساقطات اللواتي لم يشبعن من الجنس في شبابهن .. اللواتي شبقهن لايشبعه شيء !.. يتابعن ملاحقة الشبان .. ويسعين وراءهم بأي ثمن !!..

صاحت لورا باكية .. متوسلة ، يائسة ..

ـ آه .. آه .. ماذا تقولين ؟.. من الذي يتكلم ؟.. من الذي يتكلم ؟..

ـ اسمعي أيتها الساقطة !.. لقد أتيت شخصياً لمحادثتك .. وذهبت .. ظانة أنك بعد تلك الزيارة ستكفين عن ملاحقة زوجي !.. يظهر أنك لم تفهمي معنى زيارتي !..

ـ أرجوك .. ماذا تقولين ؟!.. أنا ألاحق ميشكا ؟!..

علا صوت زوجته بضحك هستيري غريب ..

ـ ها .. ها .. ميشكا !.. اسمعوا ماذا تقول !.. ميشكا .. تقول المجنونة !.. ألا زلت تسمينه ميشكا ؟!.. أيتها المجنونة !.. أيتها المعتوهة !..

تفطر قلب فراس حزناً وهلعاً على صديقته التي بدا صوتها ، وهي تحـاول الدفاع عن نفسها ، و كأنه يصدر عن إنسان على شفا الموت ..

راحت تبكي وتشهق ..

ـ .. أنا مجنونة ؟.. أنا مجنونة ؟.. ما الذي تقولينه ؟.. لم أعـد أفهم شيئاً .. يا الله !.. ياالله !.. أين أنا ؟!.. ماهذا الذي يحدث لي .. ما هذا الذي ..

ـ اسمعي أيتها العجوز السـاقطة !.. لن ينفعك بكاؤك !.. لقد يئست من استجداتك لفراس .. فلجأت إلى مطارحته الغرام على الهاتف ؟!.. أليس كذلك ؟!.. مل فراس عظامك الجافة .. فلجأت للجنس بواسطة الهاتف ؟!!..

دوّى عويل « لورا » وزعيقها ..

ـ آه .. آه .. ماهذا يارب .. ماذا أسمع ؟.. « ميشـــكا » !.. « ميشـــكا » أين أنت !..

ـ .. وتصيحين له أيتها السـاقطة !.. وتصيحين له !.. لو لم يكن ساقطاً مثلك لما كلمك !.. أتظنين أنني أجهل أمر مكالمتكما الليلية حتى الصباح أيتها العاهرة !.. أجهل أنك كنت تكلمينه .. وتعضّين الساق على الساق !؟.. أتظنين أنني بلهاء ، لا أفهم معنى هذه المكالمات !؟..

لم يعد فراس يعي ما كان يسمع !..

طغى صوت زوجته .. ونحيب وصراخ لورا على فهمه ، فراح يصغي دون أن يفهم شيئاً مما كان يسمع ..

وفجأة سمع همساً باللغة العربية أعاد انتباهه إلى الشريط ..

كانت لورا قد كفّت عن المقاومة .. ولعلها كانت قد تشنجت .. فبقيت سماعة الهاتف في مكانها على وسادتها ، تسجل شهيقها ، بينما تابعت المسجلة التقاط ما كان يجري على الطرف الآخر من الهاتف ؟..

سمع صوت ميساء يقول لزوجته ..

ــ .. مالك لاتعرفين ما تقولين !؟.. هاتي السماعة !!..

ثم صوت زوجته تجيبها ..

ــ لم أعد أدري ماذا عليّ أن أقول !!.. إن اللعينة لم تلجأ إلى السباب !!.. لا أسمع سوى شهيقها !!..

ــ اعطني الهاتف لأكلمها أنا !!..

وجاء صوت ميساء .. يكلم « لورا » ..

ــ اسمعي أيتها المومس الساقطة !!.. إن لأمثالك من العاهرات لغة واحدة لايفهمن غيرها !!.. فإما أن تكفّي عن ملاحقة فراس ، ومكالمته ، أو سنعرف كيف نتدبر أمرك .. ونزيحك من الوجود !!.. هل فهمت ؟!.. سنقتلك !!.. هل فهمت ؟!..

ثم أقفلت ميساء طرفها من الهاتف ..

ظل الشريط يدور مدة طويلة .. لاينبعث منه سوى صوت شهيق «لورا» ونحيبها !..

وفجأة دوت صرخة أطلقتها « لورا » ضجّ لها الشريط !!..

تلا ذلك وقع أقدام .. ثم اختلط صوت المرافقة بصراخ « لورا » المتشنج .. وبصوت ممرضات يتصايحن طالبات الطبيب ، يتكلمن عن تحضير حقنة المخدر ..

وانقطعت الأصوات عن الشريط ، كأن أحدهم أقفل الآلة ..

راح الشريط يتابع دورانه على صمت رهيب ، حرض خيال فراس على تصور أبشع نهاية ممكنة لتلك الليلة !..

مدّت لورا يدها مرة ثانية ، وأقفلت المسجل ..

همست .. والدموع تسيل على خديها ..

ــ .. لا أذكر أزمة في حياتي أقسى من التي مررت بها بعد ذلك الحادث ..

تبسمت والدموع تتابع انهمارها ..

ــ .. مُنعت عني الزيارات .. ولا زالت ممنوعة إلى الآن .. لقد انقضت شهور على هذه الحادثة ، ولا زلت أعاني من تأثيرها ..

تقدم فراس منها ..

ركع ألى جانب سريرها مغرقاً وجهه بين يديها الحزينتين اللتين امتدتا للقائه ..

مضت برهة طويلة وهما في هذه الحال ..

رفع وجهه إليها .. بينما نظرت إلى راحتيها اللتين أغرقتهما دموعه ..

رفعت يدها ببطء وهي تنظر إليه .. ثم ضمتهما إلى خديها النديين ..

لم يترك فراس مسكن لورا إلا مع أول ساعات الفجر ..

كان الغاب يسبح بنور أزرق باهت ..

لفحه برد الصباح ، فسرت في جسده قشعريرة أحكم لها لف ردائه ، وأسرع نحو السور ..

هرع كلب الحارس إليه يداعبه ، ويقفز حوله فرحاً ..

ابتسم فراس له بحزن .. وتوسل إليه في سره أن يتركه وشأنه ..

تسلل من المصح ، عبر باب السور الحديدي ، دون جلبة ، كي لايوقظ الحارس فيضطر إلى محادثته ..

سار في الغاب الكبير على غير هدى ..

أعاد ذلك إلى ذهنه سني حداثته .. أيام كان يتيه في هذا الغاب ، وليس في رأسه من شاغل سوى تأمل أشجاره ، والتلذذ بعبقها ..

قادته قدماه إلى بحيرة طالما جلس بقربها ، في مثل هذه الساعة ، يراقب صيادي الأسماك الذين خرجوا مبكرين إلى صيدهم ..

جلس إلى حيث تعود الجلوس في الماضي ..

تذكر كلبه الأسود الكبير .. وكيف كان يلعب مرحاً ، يجري وراء روائح لايتنسمها غيره ، يقف فجأة ، كمن تصلبت عنقه ، ثم يعود إلى الجري ، متقفياً آثار رائحة جديدة ..

بعثت هذه الذكريات في نفسه شعوراً غريباً من عدم الراحة لما هو فيه !..

هل نسي رائحة الهواء الطلق ؟..

هل نسي السكينة الداخلية ، حتى ظن أنه ، بما يعيش فيه الآن ، لايزال على اطمئنانه الداخلي السابق ؟..

كيف استطاع معايشة زوجته ؟..

كيف تحملها طوال هذه السنين ؟..

كيف يُسمح لأمثالها من الناس بالحياة ؟..

كيف لايُغلق على مثلها بالمصحات ؟..

وميساء ؟.. وقطر ؟.. وجعفر ؟.. وجميع من لف حول هؤلاء ؟..

أين له بمن يجمع رؤوسهم تحت مقصلة تنقض عليها ، فتقطعها جميعاً دفعة واحدة !!..

أحس أنه على وشك أن يطلق لجام غضبه تملكته رغبة بالزعيق والبكاء .. فشدّ على شفتيه .. وتمالك نفسه !..

عاد ينظر إلى الصيادين والبحيرة .. والنُّمْ ينساب عليها كتماثيل رائعة الجمال ..

« إنها جميلة » .. « إنها جميلة » .. وراح سيل غضبه ينساب وراء قوله « إنها جميلة » .. يكرره على نفسه ، وكأنه سحر لتهدئة النفس ..

« إنها جميلة » .. « علي أن أطرد كل ماعدا ذلك من رأسي » .. « يجب ألا أغضب » .. « لن يفيد غضبي في شيء » .. « يجب أن أتمالك نفسي .. أن أجد مخرجاً من هذه الدوامة » .. « أن أخرج من هذه الدوامة .. بهدوء » !..

تملكه تعب مفاجىء ..

وهن ، أحس به كموجة من السكر تسري في أوصاله ..

ترك الغابة مسرعاً ، واستقل أول عربة نقل عامة متجهة نحو الحي اللاتيني ..

جلس ينظر إلى من حوله من الركاب .. وجوه ، كان ينسى وجودها ..

نظرات ، وتعابير من يستيقظون مبكرين إلى أعمالهم .. عالم نسيه !..

أيد خشنة ، وأخرى رقيقة ، تلفها كفوف من صوف غليظ .. جميعها أيد تعمل بكد لتعيش !..

أيد ، تطبق على قطع النقود المعدنية التي نسيها لضآلة قيمتها ، تحتفظ بها ضمن أكياس جلدية خاصة .. قطع نقود صغيرة ، لم يشاهدها منذ سنين !..

ما الذي أبعده عن هذا العالم ؟!..

أحس بلهف وشوق إليه ..

راح يتأمل وجوه من حوله .. ويود لو يعانقها جميعاً ..

لاحظ أن بعضهم ينظر إليه بإلحاح .. لاريب أنها ملابسه الأنيقة في هـذا الصباح الباكر !..

تبسم حزناً في سره .. « لاتخدعكم الملابس » .. « إنها تباع وتشترى » .. « إنها في الأسواق .. معروضة للجميـع » .. « المهم هو الجوهر » .. « خلاصة ما تتدفق به النفس » .. « رائحة الرحيق الإنساني » .. « رحيق الإنسان » !..

لفت انتباهه همس وراءه ..

نظر حذرا إلى الخلف ، بطرف عينيه ، فلاحظ عاملتين تتحدثان عنـه .. أصغى إلى ما كان يدور بينهما ..

قالت الأولى ..

ــ لا أعتقد أنه أجنبي !.. رأيته يصعد الأوتوبيس في محطة « فانسين » .. ماذا يفعل أجنبي في مثل هذه الساعة المبكرة في ضاحيتنا ؟!..

ضحكت صاحبتها منها ، مغطية فمها بيدها ..

ــ لعله ممثل سينما !.. ألا تعتقدين أنه يشبه الممثل .. آه .. ما اسمه ؟.. ما اسمه ؟..

ــ .. بلهاء !.. دعك من هذا الكلام !.. ممثل .. ويركب الأوتوبيس ؟!.. وفي ساعة خروج العمال إلى مصانعهم ؟!..

ــ ماذا تظنين إذن ؟..

ــ أظن .. أظن أنه « جيغولو » .. عائد من مهمة شاقة ! وإلا فما هذه الأناقة في مثل هذه الساعة ؟..

انظري كيف يبدو عليه التعب .. لابد أنها أتعبته !!..

ضحكت واستطردت ..

ـــ .. لعل عميلته لم تدفع له كفاية .. فأجبر على ركوب الأوتوبيس !!..

ـ على أية حال .. إنه وسيم !..

وعادت الفتاتان إلى القهقهة المستورة ..

صعد الدم إلى وجه فراس !..

كان قد أوشك أن يصل إلى الحي اللاتيني ، فنزل عند أول موقف .. وسار نحو المقهى الذي كان يقصده ..

طلب قهوة مكثفة ، وجلس ينظر إلى نفسه في المرآة المقابلة ، ثم إلى الشارع ، وقد تزايد عدد المارة فيه ، وكأن الوقت منتصف النهار ..

عاد ينظر إلى المرآة .. إلى نفسه فيها ، ويستعيد ما سمعه منذ لحظات ..

أطال النظر إلى صورته .. لا .. ليس ذنب الفتاة إن أخطأت في الحكم علي !..

ليس مكان هذا الذي يراه في المرآة ، في أوتوبيس يطفح بعمال لامعنى للفجر عندهم سوى أنه وقت اليقظة من نوم مريح ، والاقتراب من ساعة العمل البغيضة !..

سيأتي أصدقاء له من الفنانين الذين اعتادوا السهر ، سيأتي بعضهم بعد لحظات ، يطلبون قهوة قبل الهجوع إلى غرفهم ، حتى هؤلاء ، سواء جاهروه ذلك أم لا ، فإنهم لاريب سيشعرون ببعده عن عالمهم .. باختلافه عنهم !..

اختلافه ؟.. لم تمض سنون بعد على تلك الأيام التي كان فيها هو المحور ، هو الفنان الذي تقاس البوهيمية بتصرفاته !..

أين هو اليوم ممّا كان عليه !..

لن يعود إلى الفندق .. لن يعود إلى زوجته أو قطر أو ميساء !!..

ما علاقته بهن ؟.. ماذا يربطه إليهن ؟!.. كيف ينظر إلى زوجته بعد اليوم ؟!..

كيف يسمي هذه المخلوقة البغيضة « زوجته » بعد اليوم !؟..

تملكه شعور جارف .. وأحس بألم في حنجرته !..

.. أين يذهب ؟!..
اضطر في النهاية إلى العودة .. هنالك أبنته في الوجود .. فلن يرتجل الحلول !..
يجب التروي ..
لقد وصل إلى حل نهائي في قرارته ، فلا داعي للتهور أو التسرع في تنفيذه ..
إنه وزوجته من عالمين مختلفين ، يجب وضع حد لهذه المهزلة !..
يجب أن يعود كل منهما إلى عالمه الذي نشأ فيه ..

شيء تحرك .. واتخذ مقراً جديداً في أعماقه ..
صحيح أنه إنسان .. وأن غيره من الناس أناس .. وأن الجميع يستظلون تحت كلمة « إنسان » .. لكن .. ما أبعد الفوارق بين إنسان وإنسان !..
لهذه الكلمة معنى كبير اليوم .. مدلول عاطفي ، لاسبيل حتى إلى مناقشته ..
سيأتي اليوم الذي لن يشار إلى الإنسان سوى بكلمة «هوموسيبيان» .. ولن يقوّم هذا المخلوق سوى بمقدار حضارته وثقافته !!..

ليس العالم كما كان يقول .. لا ، ليس تماماً كما كان يظن !..
صحيح أن أصل المادة واحد .. وأن باستطاعة رجل العلم أن ينسى الشكل ، وألا يهتم سوى بالتركيب الذي للمادة ، وللمخلوقات ..
وصحيح أن تركيب جميع الوجوه واحد .. وأن باستطاعة الرسام ألا يرى فارقاً بين الجمال والقبح سوى في انحناءة طفيفة هنا ، أو ظل هناك ..
صحيح أن العلم في يوم من الأيام سوف يعبّر عن تعقيد النفوس أو مرضها ، بمعادلة رياضية ، أساسها يكاد يكون واحداً بالنسبة للجميع ..
كل هذا صحيح ! لكن الإنسان الاجتماعي اليوم لم يصل إلى هذه المرحلة بعد ، بل هو بعيد عن أن يكون هذا العقل الإلكتروني الذي لايرى في التعقيد سوى مسبباته !..
ومن السخف أن يخلط الإنسان بين الرياضيات وبين إحساساته ، وإن كان أساس هذه الإحساسات ، معادلة رياضية !..

الخير ؟.. الشر ؟.. هل أزالت النسبية حقاً معنى هذين المفهومين ؟..
هل قوضّت « السيانتيكية العامة » فعلا جذورهما ؟..
ربما كان صحيحاً .. على الورق !..

أمضى النهار يتسكع في الطرقات ..
لم يجد غير واجهات المخازن يلهي نفسه بها ، وفي النهاية لجأ إلى الشراء ليشغل نفسه عما كان يشعر به من ضيق وسأم ..
بدأ في شراء أشياء بدت له ضرورية ، ثم أشياء لا على التعيين ، إلى أن راح يبتاع جميع ما كان يثير انتباهه ..
لم يأت المساء ، حتى كان يسير كالسكران من فرط تعبه وحاجته إلى النوم ..
لم تغلق المتاجر أبوابها ، حتى كان قد أنفق ثروة صغيرة على ما اشتراه !..

عاد إلى الفندق وقـــد أنهكه التعب .. أوصد باب غرفته ، واستلقى بثيابه على الفراش ، فغط في الحال في نوم عميق لم يستيقظ منه إلا بعيد ظهيرة اليوم التالي ..

فتح جفنيه ببطء ..
أخذ ينظر إلى سقف الغرفة وكأن خدراً قد أصاب عينيه ..
تعجب كيف يمكن لصوره الذهنية أن تظهر بهذه الحسية وهذا الجلاء ، تنعكس على سقف الغرفة كما لو أنها على شاشة باهتة !..

عادت إليه بعض ذكريات اليوم السابق .. توالت أمامه صور متقطعة منها ..
سمع أصوات أصدقائه ، واستعاد مرحهم ومقاطع من أقوالهم ، ثم تداعت صور من الليلة التي سبقتها ، ليلة زار صديقته لورا ، فأتت صامتة شاحبة !..

لاح وجه زوجته أمامه وكأنه صورة كلسية كبيرة تنهمر عليها الأمطار ..
رأى حبيبات الماء تتساقط ، متباعدة ، على هـــذه الصورة .. ثم تقترب من الفم أو العينين فتشوهها إذ تصيبها .. ثم تبددهما تماماً !..

رأى شريط التسجيل يدور أمام عينيه .. شريطاً كبيراً ملء السقف !.. ومن خلال هذا الشريط ، لاح وجه زوجته الذي شوهته الأمطار في خياله ، فبدا باهتاً شاحباً ، يصيح دون أن يسمع له صوت !.. بدا و كأنه يتثاءب .. كأن قد أوصد عليه خلف زجاج غليظ أصم ..

لابد أنه نصف نائم ..

حرك أصابعه يتحسس الفراش .. لا ، إنه تام اليقظة ..

سمع باب غرفته يُفتح بهدوء .. ثم صوت زوجته يقول ..

ـ إنه لايزال نائماً .. ترى أين قضى ليلة أول أمس ؟!.. أتعتقدين أنه كان عند عشيقته العجوز ؟..

ثم سمع صوت قطر الندى تجيبها ..

ـ دعيه .. لاتوقظيه .. لنذهب إلى السوق !..

أغلق الباب .. وبعد لحظات ، سمع صوت إغلاق باب الجناح الخارجي ، ثم ساد الصمت من جديد ..

* * *

الفصل الثامن

لم يطل بقاء ميساء في لندن .. عادت إلى باريس تحث رفاقها على الإسراع إلى مدريد ، وقد اقترب موعد لقائها بمراد ..

أحس فراس ، رغم ما كان يعتمل في نفسه ضدها ، أن قدومها جاء في الوقت المناسب ..

كان يتحرق لترك باريس ، لاضيقا بها ، بل ليعود إلى دمشق .. فينفذ الحل الذي كان قد وصل إليه بشأن زوجته ..

لشد ما كان يود لو يحزم حقائبه في الحال ، ويترك هؤلاء النسوة إلى مصيرهن ..

لشد ما كان بحاجة إلى محاسبتهن على أفعالهن !..

لم يعد يربطه بزوجته ذلك الرابط الخاص الذي كانت تتحطم أمامه جميع زلاتها ونقائصها ..

لم يعد باستطاعته بعد اليوم أن يقف ليفسر أفعالها ، أو يبرر العوامل التي أوصلتها إلى هذا الدرك !..

صحيح أنه لم يكن أصلح الأزواج بالنسبة لها .. وصحيح أنه قام بالكثير مما يمكن أن يؤاخذ عليه .. إلا أنه لم يضع حتى ذلك اليوم زواجه قط على بساط البحث ، ولم يترك لأهوائه يوماً المجال في مزاحمة المكانة التي كان يحتفظ بها في نفسه لدار الزوجية منذ البداية .. لاريب أن الصورة التي كان يحملها للزواج صورة طوباوية ، ليس لها مكان في الواقع !..

أراد منذ أن اكتشف الهوة السحيقة التي تفصله عن زوجته ، أن تتحول علاقتها إلى مشاركة ، إلى ذلك العقد الذي كان يعلم أنه أصل الزواج ، حيث يرى الطرفان فيه علاّت بعضها ، فيتناسيانها ، حرصاً على مايمكن المحافظة عليه ، وتلافيا لما .. يمكن أن يصيب ابنتها من سوء ، فيما لو تهدمت هذه الدار !..

لتكن لزوجته عيوبها .. ولتكن له عيوبه .. ولتكن هذه الدار ملاذاً لها !..

هذا ما كان يوده ..

أما أن تحيك زوجته المكائد في الخفاء !..

أما أن تجعل من دارهما ماجعلتها .. وتجمع الغرباء في سريرهما !..

أما أن تسعى إلى أصدقائه ..فتكيل لهم أحط الشتائم والاتهامات..أن تتجرأ على سيدة في سن والدتها ، وتقول لها .. « تتلذذين أيتها المومس بمكالمة زوجي على الهاتف .. بينما تعصّين الساق على الساق » !!..

لا .. ليست هذه هي الفتاة التي اختارها شريكة لحياته ، وأمّاً لابنته ..

ولا المرأة التي يمكن أن يربط مصيره بمصيرها بعد اليوم !!..

وقطر ؟.. وميساء ؟..

أين هاتان الفتاتان اليوم .. من اللتين عرفها أول مرة منذ سنتين ؟!..

أين ما كانتا تتوقدان به من ظرف وذكاء وجمال ؟!..

أين شوقها البرىء المتحفز للمغامرة ، من هذا الاحتراف الذي غرقتا فيه !؟..

لم يسأل قطر الندى عما وصلت إليه مع زوجها إثر مقابلتها الأخيرة ..

كان يعلم أنها لن تحيد عن شططها الذي فرق بينهما .. ويعلم سلفاً أن ألاعيبها لايمكن أن تنطلي بعد اليوم على هلال ..

لم يبد عليها أنها جد مبتئسة لفشلها في استرجاع زوجها !..

ولماذا تبتئس ؟.. هل كان هلال يوماً غير أداة تسمح لها بالمحافظة على لقب الإمارة ؟!..

وميساء ؟..

أهي الفتاة التي كان الاحمرار يعلو وجهها حين يأتي الحديث على ذكر الرجال !.. كيف خدعه أمرها ؟..

هاهي تعود من رحلة ، دفع جعفر ثمنها ، لتتيح له مواصلة أختها !..

قالت لقطر وهي تحزم حقائبها ..

ـ أود من جعفر أمراً .. لا أجرؤ على طلبه منه !..

ضحكت أختها ، وقالت ..

ـ ومن أين لك هذا الحياء المفاجىء ؟..

قطبت ميساء ، ثم تابعت بعد أن استعادت ابتسامتها ..

ـ ابطلي هذا المزاح .. أرجوك !..

ـ حسناً ، ماذا تودين ؟..

ـ ساعة معصم ، من ساعات جعفر الماسية !..

عجبت قطر لطلبها ، ونظر فراس إليها مستغرباً !..

لئن كانت جادة في طلبها هذا ، فلماذا تتحدث عنه أمامه ؟..

لم تمهلها ميساء ، تابعت مرحة ..

ـ أود أن أهـــدي مراداً شيئاً ، بمناسبة عيد ميلاده .. فتبادرت لذهني أحدى ساعات جعفر !..

لم تحوجها قطر الندى إلى الإلحاح .. سرها أن تحتاج ميساء إلى مساعدتها في أمر هدية لزوجها .. سرها أنها لجأت إليها فيما يتعلق بالمجوهرات ، فسارعت للقول ..

ـ حسناً ، سأطلب منه إحدى ساعته المحلاّة بالماس !.. آمل أن يسرك هذا !..

نظر فراس إليها مستغرباً ، ثم عاد يصطنع قراءة مجلة كان يتصفحها ..

لم يعد يقوى على تجاهل غرابة تصرفاتها ..

غلبه شعور بالاشمئزاز لما سمع ..

أية علاقة هذه التي تبتدئها ميساء مع زوجها بمثل هذا الخداع ؟..

هدية بمناسبة عيد ميلاده ؟.. أي هدية هذه التي تطلبها من عشيق أختها !؟..

هل كان مراد ليقبل بها لو عرف مصدرها ؟..وماذا كان ليفعل لو علم بالأمر !؟..

عاد للقراءة .. ثم توقف عنها..

تمنى لو يرحل على الفور !..

تمنى لو تغيبان عن عالمه إلى الأبد !..

لكن ، مهلا .. هي أسابيع قليلة وينتهي كل شيء !..

ما كان عليه أن يقبل بهذه الرحلة منذ البدء .. أما وقد قبل بها . فعليه أن يتمها كيفما اتفق ..

إنها أيام قلائل سيرحلون بعدها ، بعيداً عن جعفر ، إلى مدريد .. ومراد !..

كان قد انساق مع أفكاره .. فنسي حديث الأختين ..

تنبه إلى أن ميساء كانت تسائل قطراً عما جرى لها مع زوجها .. فأصغى إليهما.. كانت قطر تقول..

ـ .. على العكس .. كان لطيفاً جداً !.. إن ما أضحكني ، حتى كاد هلال يلاحظ ذلك ، هو العشاء الذي دعاني إليه !.. كان قد أعد خروفاً محشياً بالأرز !.. تماماً كالخروف الذي كان يعده لنا جعفر في « جنيف » !..

ضحكت ميساء عاليا ..

ـ ألم يحدثك عن الصعوبة التي تكبدها طاهي الفندق لتحضير ذلك ؟!..

قهقهت قطر الندى ..

ـ .. اقسم لك بأنه حدثني عن ذلك !.. إنما هلال فطن .. وليس على درجة جعفر من الإسراف !.. هل تعلمين أنه يحمل دوماً صفيحة من السمن العربي بين حاجيات سفره ؟!..

وإذ هدأتا من الضحك ، عادت ميساء للسؤال بلهجة عاتبة ..

ـ مالك أسأت التصرف ياقطر ؟.. وكيف تركت هذه المناسبة تفلت في استرجاعه ؟..

أجابتها قطر ، نزقه متبرمة ..

ـ وكيف تودين مني أن أقبل بمثل هذه الشروط ؟..

ـ لعله لم يكن جاداً فيها !..سنة.. أوسنتان .. وتعود الأمور إلى سابق عهدها ..

ـ بل أكد أن لارجعة لي إلى بلدي من دونه !.. واشترط علي أن أقبل العيش في بلاده .. وألا أخرج منها إلا برفقته !.. لم أستطع بالطبع أن أقبل هذه الشروط، وإن كانت ستنتهي بعد سنة أو سنتين !.. إني أعرف هلالاً جيداً .. إنه لايحترم الذين ينصاعون لمشيئته .. لايهتم إلا بالذين يواجهونه من فوق !..

ود فراس لو يذكرها بأشياء كثيرة ..

ود لو يذكرها بالدموع التي ذرفتها على فقدانها الزوج المحب في هلال !..

.. يذكرها بالرجل الذي اكتشفته فيه .. بعد فوات الأوان .. بغيرتها عليه من أم جوهر .. بحاجتها لأب لولدها !..

لكنه آثر الصمت ..

سألته قطر عن رأيه، فلزم السكوت ..

.. الحت عليه، فوضع المجلة جانباً، وقال .. مبدياً عدم الاهتمام ..

ـ .. وماذا فيما يطلبه هلال ؟.. أليس مايطلبه أي زوج من زوجته ؟.. أليس من الطبيعي للزوجة أن تقيم مع زوجها حيث يكون ؟!..

فتحت قطر عينيها متعجبة لقوله .. ثم قهقهت ..

ـ صحيح !.. كان هذا قبل أن يسيء إلي !..

ثم تابعت بلهجة مليئة بالمعاني ..

ـ .. قبل أن أتعرف بجعفر !..

شيء ما في صراحة قطر الندى كان يشفع لها ماتقول .. شيء في صوتها الأبح وضحكتها السريعة، كان يضفي على انفعالاتها ونزقها، مسحة من البراءة !..

رن جرس الهاتف، فقفزت ميساء من مقعدها ..

ـ .. لابد أنها مكالمة مدريد !.. سأعود بعد لحظات ..

دخلت غرفتها، وأقفلت الباب خلفها ..

سأل فراس قطراً ..

ـ ماذا تود من مدريد ؟..

ابتسمت قطر هازئة ..

ـ تريد أن تستوثق من وصول مراد إليها !.. طلبت الفندق لتسأل الإدارة عن الموعد الذي يتوقعون فيه قدومه !..

ـ .. ولماذا تلجأ إلى الفندق ؟.. ألم يخبرها هو عن موعد وصوله ؟..

ـ ألا تعلم دقة مواعيد مراد ؟!..

كان صوت ميساء يدوي من غرفتها ، وإذا بها تسكت فجأة ..

ترقب فراس وقطر الندى عودتها بالخبر الأكيد .. وإذ بها تبطىء ، ثم تفتح باب غرفتها ، وتقف وهي تنظر إليها ، شاحبة الوجه !..

نسي فراس عدد المرات التي رأى شحوبها فيها ، والتي رآها فيها تقف أمامه بهذا الوضع !..

ماذا تلقت من الضربات الآن ؟!..

سألتها قطر الندى محاولة إخفاء تلك الابتسامة الماكرة التي تراودها كلما أحست بأن الأمور لاتسير كما تشتهيه أختها !..

ـ ماذا سمعت .. ماذا قيل لك ؟!..

أجابت ميساء ، واجفة ..

ـ لم يصل بعد إلى مدريد !..

دهش فراس لقولها .. وسأل قطر هامساً ..

ـ .. ألم تقولي بأنها أرادت أن تستعلم عن موعد وصوله ؟.. هل آن الموعد ولم يحضر ؟..

سمعت ميساء قوله ، فأجابت بمرارة وأسى ..

ـ .. لقد آن الموعد منذ أربعة أيام !.. لم أشأ أن تكون في انتظاره !.. لقد تعودت التعثر وراءه والانتظار ، أردت لكم أنتم أن تأتيا بعده إلى موعد !.. أردت لو يسبقني ، ولو مرة واحدة ، إلى موعد !..

كادت تبكي وهي تتابع ..

ـ ليس هذا كل مافي الأمر !.. قيل لي أن لاعلم لأحد بهذه الزيارة !.. وأنه لو كان ينوي القدوم إلى مدريد ، لأخطرت السفارة إدارة الفندق عن موعد وصوله قبل ذلك بأسابيع !.. ماذا أفعل الآن ؟.. آه .. ماذا أفعل !؟..

تنبهت إلى أمر فتحت عينيها له ، وصاحت ..
- .. السفارة !.. السفارة في مدريد !..
وعادت تركض إلى غرفتها ، تطلب مكالمة السفير ..
سرعان ماجاء رد السفير بأن لاعلم له ، هو الآخر ، بزيارة الأمير مراد لمدريد!..

انهارت قوى ميساء ، ووجمت قطر الندى !..
ولأول مرة ، نسي فراس مايكنه لمراد من محبة ، واعترته نقمة على صديقه ، لما رآه من استخفافه بمشاعر الآخرين !..

أخذوا يتداولون الأمر .. ويتناوبون طرح الحلول ..
كبرت المشكلة في أعينهم ، ولأول مرة ، قبلت ميساء أن تناقش ماهي فيه، على أنها «مشكلة» يجب الوصول إلى حل لها ، بدل طريقتها المعتادة في اعتبارها مجرد طريق وعرة يجب اجتياز مصاعبها مهما كلف ذلك من مشقة !..

لم يكن من السهل الوصول إلى حل لاتتحطم فيه آمال ميساء !..
عجزت ميساء عن الوصول إلى مراد رغم جميع محاولاتها ، فماذا يمكنها أن تفعل الآن ؟!..
أتعود إلى بلدها ؟.. وتنتظر مايخبئه لها القدر ؟!..
أو تسعى إلى الخلاص من مراد بطريق تضمن فيها سمعتها ومصلحتها ؟!..

ما إن دار الحديث حول خير السبل لترك مراد ، وأخذ كل منهم يقترح عليها أسهل الطرق للطلاق ، حتى قطبت ، وزمت شفتيها على صمت أصم !..
زمجر الحقد والغضب في أعماقها !! لا !.. لن تكون هذه هي النهاية !.. لن ترمي بآمالها جانباً ليدوس عليها جميع من حولها بهذه السهولة !..
لن تتخلى عن مراد الآن !.. ليس الآن ، بعد أن أصبحت زوجته .. وبعد أن سُجل في جواز سفرها لقبها الجديد .. « صاحبة السمو الملكي ، الأميرة ميساء » !.. بعد أن حاكت في سرها كيف ستتخلص من أخيه ، فيتولى مراد الحكم بعد والده، وتصبح هي سيدة البلاد !..

اختلطت الأصوات عليها ، فلم تعد تصغى إلى مايوجه إليها من كلام !..

نظرت إلى من حولها جيداً .. فلم تر إلا خيالات !.. من هم هؤلاء الذين يكلمونها .. وما هذا النصح الذي يغدقون به عليها !؟..

أهذه قطر ؟.. أختها ؟.. لاريب أنها ، بعد أن فقدت آخر أمل برجوع هلال إليها ، تود لها أن تهيم حائرة ، نصف مطلقة ، مثلها !..

وفراس !.. أليس يشفي غليله منها الآن ؟!.. ألا يود لها في سره ألا تقع عيناها على مراد بعد اليوم ؟!..

وزوجة فراس ؟.. كيف تسمح في الأصل هذه البلهاء لنفسها أن تسدى النصح لهـــا ؟!..

— .. ميساء !.. ميساء !..

تنبهت إلى أنهم يصيحون بها كي تستفيق من شرودها .. فعادت تنظر إليهم بإمعان وقالت ..

— اسمعوا !.. أود منكم أمراً .. أرجو ألا تناقشوني به !..

وبعد صمت ، تابعت بتصميم ..

— إنه آخر ما أطلبه منكم بشأن مراد !..

وإذ أصغوا إلى ما ستقوله .. متعجبين لإرادتها المفاجئة .. قالت ..

— أود أن أذهب لوالده !.. لأتظلم إليه .. وأبثه مابي !..

— .. الباي ؟!..

وتناوبوا الأسئلة ..

— كيف تذهبين إلى الباي ؟!..

— أين ستجدينه ؟..

— .. ماذا سيقول ؟!..

لم تجبهم .. فعادوا إلى الصمت يستمعون إلى ما ستقول ..

ابتسمت ، وقالت بهدوء ..

— نذهب إلى جبل طارق غداً !.. ومن هناك ، أتدبر نفسي ، بنفسي !..

الفصل التاسع

أيام .. وكانت طائرتهم تحلق فوق جبل طارق ابن زياد ..

بدت الصخرة في غير موضعها .. قاتمة السواد مقيتة المنظر .. كأنما تنتظر أن ينشق البحر ليبتلعها !..

سر فراس حين هبطت طائرتهم .. وغاب عن ناظريه ذلك المنظر الكئيب ..

ما إن استقلوا عربة خيل أخذت تتسلق الجبل ، من سفحه الآخر ، عبر أشجاره وزهوره البرية نحو الفندق المرتفع ، حتى عاد الارتياح إلى نفسه ، وأحس بحاجة ملحة إلى ترك النساء في العربة ، والسير على الأقدام ..

قفز إلى الطريق .. وأخذ يعدو مبتعداً عن العربة ..

أجاب صياح قطر وزوجته قائلاً ..

ــ سنلتقي في الفندق !.. لن أتأخر .. سأوافيكم في الفندق !..

وابتعدت العربة ، فأخذ نقر حوافر جيادها يخف شيئاً فشيئاً إلى أن غاب ..

لم يبق سوى صوت الأجراس، كان يأتي بإيقاع منظم ، راح يخفت .. حتى اختفى هو الآخر ..

لم يعد من تلك النزهة إلا بعد المغيب ..

لم تجرؤ زوجته على تقريعه لتركهن يدخلن الفندق دون رجل .. كانت قد تعودت هروبه المفاجىء عنها .. وعزوفه المتكرر عن صحبتهن ..

كانت قطر وميساء في جناحهن منصرفتين إلى تحضير زينتهما ، فجلس وحيداً على الشرفة الكبيرة ، بين النزلاء المسنين ، يراقب الطبيعة الهادئة الممتدة نحو البحر ،باحثاً عن سواحل شمال افريقيا في الأفق البعيد ..

لم يضطر إلى الكلام إلا حين أقبلت قطر وميساء وزوجته ، قبيل العشاء ، ترتدي كل منهم من أجمل مالديها من حلي وثياب !..

عجب من زينتهن ، وتساءل عن سببها ..

أحس أنهن يخفين أمراً يتحرقن لإطلاعه عليه ..

نظر إليهن دهشاً .. فضحكت قطر وميساء تيهاً ، بينما تقدمت زوجته منه ، وهمست كأنها هي المعنية بالخبر ..

ــ .. لقد كلمت ميساء ولي العهد على الهاتف !.. نظن أنه سيأتي لزيارتها هــذه الليلة !..

هزأ من صيغه الجمع التي استعملتها زوجته ، وأشاح بوجهه عنها ..

توجه نحو ميساء ، مستغرباً ..

ــ هذه الليلة ؟!.. هل كلمته شخصياً .. كيف تم لك ذلك ؟..

أجابته وهي تضحك ، وتغلي فخاراً ..

ــ تم ذلك ياعزيزي ، بينما كنت تتلهى بين الأشجار .. تبحث عن قرود «تشرشل» على الصخور !..

ــ لاعليك بما كنت أفعله .. اخبريني عن المكالمة !..

ــ كلمت القصر !.. هذا كل مافي الأمر !..

ــ من الذي كلمك ؟.. وماذا قيل لك ؟..

ــ كلمت ولي العهــد بذاته !.. ماذا تود أكثر من ذلك ؟!.. وقـد يأتي هذه الليلة !..

ــ يأتي ؟.. إلى أين ؟!

ــ .. هنا !.. لزيارتي !!.. أيدهشك هذا ؟!..

أعدت مائدة الطعام ، فقاموا إليها .. تتقدمهم قطر الندى ..

اضطروا ، كي يصلوا إلى غرفة الطعام ، سلوك ممر طويل خرجوا منه إلى شرفــة جانبية تطل على الصخرة السوداء والمطار العسكري الذي يقع على سفحها ..

سطعت أنوار مدرج المطار فجأة ، ودونما سبب ظاهر .. فتعجبوا لذلك ، وما إن جلسوا إلى المائدة ، حتى أقبل مدير الفندق مسرعاً نحوهم ، وقال باحترام زائد ..

ـ .. سمو الأميرة !.. سمو الأميرة!.. إن صاحبة السمو مطلوبة على الهاتف!..

قال ذلك وهو ينقل ناظريه بـين قطر الندى وميساء .. لايدري أيها هي المعينة بكلامه !..

ساء قطر الندى في تلك اللحظة أن تكون هنالك أميرة سواها .. نظرت إلى أختها شزراً .. بينا وقفت ميساء وأسرعت إلى الهاتف ..

عادت بعد دقائق مضطربة ممتقعة الوجه ..

ـ فراس !.. أرجوك أن تأتي معي إلى المطار .. على الفور !..

بهت فراس ، وهب واقفاً ..

ـ .. ماذا حدث ؟.. قولي !..

ـ لا .. لا .. لاتخف !.. إن الأنوار التي شاهدناها مضاءة لطائرته !.. سيحط ولي العهد بين دقيقة وأخرى !..

وقفا في المطار ينتظران هبوط الطائرة الملكية ، بينا سُمع هدير بعض الآلات وسط دبيب العسكريين الذين هرعوا في تلك الساعة المتأخرة من الليل لإنجاز آخر الترتيبات لهذا الوصول المفاجىء !..

أقبل نحوهم أربعة حراس بزيهم البريطاني الأنيق ، متمنطقين أسلحتهم ، يمشون بوقع عسكري مهيب !..

وقفوا خلفها لحراستها في تأهب ، بعد أن قرعوا أكعابهم في تحية على الأرض وتسمروا على بعد أمتار منها !..

دوى أزيز المحركات النفاثة !.. وأسرع الجند يصطفون بين صالة الاستقبال ومكان الهبوط المتوقع !..

ما هي إلادقائق حتى سمعت الزمجرة إلتي تطلقها المحركات قبل توقفها ، ثم ساد صمت لايعكره سوى صيحة عسكرية حادة ، أعقبها صدى أقدام وبنادق ، تضرب على الارض ، معلنة التحية والتأهب !

كانت أنوار المدرج قد انطفت ، فخيم الظلام على جميع ما يحيط بالبهو الذي وقف فيه فراس وميساء !..

فتح الباب .. فبدا الأمير حسّان وكأن الليل قد لفظه من أحشائه !.. أسمر الوجه ، مقطب ، سريع الحركات .. أقبل نحو ميساء على عجل ، فخفت هذه للقائه ، بينما ظل فراس في مكانه ..

لم يطل حديثهما ..

أقبلا نحو فراس ، وبعد جمل التعارف .. نظرت ميساء إلى فراس ، وكانت على وشك أن تتكلم .. فصعق لغرابة نظراتها !..

بدت له كطفلة في العاشرة من عمرها تحدث أخاً كبيراً تهابه !..

رفعت يدها نحو وجهها ، واضعة رأس أصبعها الصغير بين شفتيها ، وقالت ..

— .. فراس !.. إن سمو ولي العهد قد دعاني إلى نزهة في طائرته !.. أتسمح لي بالذهاب معه ؟!.. نزهة قصيرة .. لاغير !..

تملك فراس إحساس غريب .. كأنه في حلم !..

مامعنى هذهالضراعة ؟.. وهذه النزهة ؟.. وما هذا الدور المفاجىء الذي فرضته ميساء عليه ؟!..

ود لو يستطيع أن يستوضحها هدفها !..

لاريب أنها فوجئت بهذه الدعوة مثله !..

لئن جاءت تستأذنه بهذا الشكل ، فلأنها أرادت أن تظهر أمام ولي العهد على أنها خفور مستضعفة .. فتاة شرقية ، محافظة ، لاتجرؤ على التصرف دون استشارة أولياء أمرها !..

ماذا تود منه أن يجيب ؟!..

سأل مستوضحاً ..

— .. نزهة ؟.. في هذه الساعة من الليل ؟..

سارعت ميساء للقول ، متوسلة ، مؤكدة ، متفائلة ..

ـ هي نزهة قصيرة .. نعدك بأننا لن نتأخر !..

فهم فراس أنها تود منه أن يسمح لها بالذهاب .. فتوجه نحو ولي العهد ، ليلعب أمامه دور القريب ، الحريص على ما اؤتمن عليه ..

ـ .. نصف ساعة فقط ، إذن ؟!..

ضحك حسان ، وقال هو الآخر بلهجة من يكلم قريباً له ، أكبر منه في السن ..

ـ نعدك أننا سنعود بعد نصف ساعة ، على أكثر تقدير !..

ـ حسناً !.. احرصا على سلامتكما .. ولا تتأخرا !..

لم يشهد فراس إقلاع الطائرة ..

عاد من فوره إلى الفندق ، ليخبر قطر بما جرى له ..

فوجئت هذه ، وصاحت ..

ـ وسمحت لهما بالذهاب ؟!.. هكذا دون مقدمات أو مؤخرات ؟!..

بهت فراس ..

ـ .. وماذا كان بوسعي أن أفعل لمنعها !.. وما شأني أنا لأمنعها ؟..

تبسمت قطر شاردة ، وكأنها لم تصغ إلى جوابه ..

ـ .. يالها من خبيثة فائقة الذكاء !.. ترى كيف رتبت الأمور كي تقنع حساناً بأن عليه أن يختطفها ؟!..

ـ .. يختطفها ؟!!..

ـ .. بالطبع !.. وهل تظن أنهما سيعودان من هذه النزهة ، الليلة ؟..

ـ لم أفهم !..

ـ ذهب بها إلى قصر أبيه !.. لابد أنها ستقابل الباي هذه الليلة !!.. لابد أنها أفهمت ولي العهد أن عائلتنا لا يمكن أن توافق على مثل هذه الزيارة ، قبل أن يتم حفل الزواج ، وأن عليه لذلك أن يختطفها !!..

صمت فراس برهة ، ثم سألها ..

ـ لكن لماذا أتى ولي العهد بالطائرة .. بدل مراد ؟!..

تبسمت هازئة ..

ـ لأن ميساء ادعت على الهاتف أنها لاتود أن تراه بعد اليوم !.. سمعتُهـــا بأذني تقول ذلك لحسان .. وسمعت أشياء أخرى لا أستطيـع البوح بها .. لذلك خفَّ ولي العهد مسرعاً لإصلاح الأمور .. قبل أن تحل الفضيحة !!..

لم تعد ميساء في تلك الليلة ..

ولأول مرة منذ زمن طويل .. سارت الأمور على ما تشتهيه !..

عادت ، في مساء اليوم التالي ، برفقة الأمير مراد .. ضاحكة مستبشرة ..

وفي أول مناسبة سنحت لها ، صرحت أمام الجميـع بأن مراداً سيرافقهم إلى مـدريد لقضاء أيام معها ..وأن موعد الزفاف قد تقرر ، وأن الحفل سيتم بعد أشهر معدودات ، في أول فصل الصيف المقبل ..

* * *

الفصل العاشر

كان لكل منهم سببه الخاص في محاولة خلق جو من المرح واللهو أعطى لهذه الرحلة طابعاً غريباً من الغموض ..

عادوا إلى أحداثهم الخاصة ، يغذونها ، ويخفونها عن الآخرين ، فشعروا وكأنهم قد اتفقوا على تغطية ما أزمعوا القيام به إثر انتهاء هذه الرحلة !..

هل أدركت قطر الندى ، وهي في طريقها إلى مدريد ، أن طلاقها بات على الأبواب ؟..

هل أدركت زوجة فراس أنها ، هي الأخرى ، قد فقدت زوجها إلى الأبد ؟!..

هل أدركتا أنهما بلغتا نهاية الطريق ، فراحتا تؤخران العودة إلى وطنهما ، تبحثان في اللهو المسرف عما يعوّضهما عن الذي فقدتاه ؟!..

وميساء ؟.. هل أدركت أن نصرها على مراد ضعيف ، واه ، وأن فترض موعد للزفاف لن يجمعها في النهاية سوى بزوج لم يكن يرغب بهذا اللقاء ؟..

ألهذا غضت الطرف عن تصرفات زوجها فيما بعد في مدريد ، وأخذت هي الأخرى تبحث ، في اللهو ، عما ينسيها هذا النصر الذي باتت تخشى اقترابه ، وتخاف عواقبه ؟!..

لن أجد الكلمات المناسبة لوصف ما اتسمت به تصرفاتهم ..

لازمت الابتسامات شفاههم ، ولم تعد تفارقها إلا لتنفرج عن ضحك عصبي مثير !..

ماذا كانت تغطي هذه الابتسامات ؟..

كيف يصف الإنسان ضحكا مبعثه اكتشافه أن المصيبة لابد ستحل به !.. ضحك من المصيبة ذاتها ، من حتمية حلولها ، وفي النهاية .. ضحك .. من ضحكه عليها !!..
لجؤوا إلى الضحك ، واللهو ، كمن يلجأ إلى المسكرات كي تنسيه الهموم .. هموماً يحملون عبأها ، ولا يفهمون معناها !..

كانت صحف إسبانيا قد بدأت تلاحق أخبارهم منذ وصولهم إلى جبل طارق .. فما إن هبطت طائرتهم في مدريد ، حتى اضطروا إلى مساعدة رجال الأمن للهرب من مضايقات الصحفيين الذين كانوا في انتظارهم !..

انتاب النسوة إحساس طاغ بالأهمية ، أشعرهن بأنهن أبطال مسرحية كبرى ، وأن الستار على وشك أن يرفع عنها !..
كأن أدواراً هيئت لهن في الخفاء .. حوارات كاملة .. ألبسة ، وأضواء مسلطة !.. فما كان عليهن سوى الوصول إلى مدريد ، ومشاهدة جمهور الصحفيين المصفق ، كي تنزلق كل منهن في دورها المجهز لها ، وكأنها لم تتعلم غيره .. بل كأنها لم تخلق سوى للقيام بتمثيل هذا الدور !..

قالت قطر الندى ، وهم في طريقهم إلى الفندق ..
— كم يسهل الموت على الإنسان ، لو يعلم أنه سيتم ضمن إطار فخم ، وبين جمهور راق من المشاهدين !..
قالت ذلك بلهجة غريبة رائعة ، وعلى شفتيها ابتسامة مرة .. ابتسامة راضية عما تحس به ..

أزاحت خصلة شعر كانت قد سقطت على جبينها .. أزاحتها بطرف مروحة يد إسبانية كانت قد ابتاعتها في المطار ..

لم تفتح المروحة .. راحت تنقر بها على زجاج نافذة الـ « كاديلاك » بنزق مرح ، وتبتسم .. كأنها تتأهب لمكيدة غرامية تحيكها في السر ..
بدت ، وقد افتتحت دورها ، كمن تنادي للآخرين كي يشتركوا في التمثيل !..

فاجأت زوجة فراس بنظرة محرّضة ، فأحست هذه بأن دورها في الكلام قد أتى .. وإذ لم تجد ما تقوله ، استلت هي الأخرى مروحتها ، وفتحتها بحركة نزقة ، وهي تقول بتبرم وتكبر ..

— .. هه !..

ثم أخذت تلوّح بمروحتها كمن أعجبها ما ظهر منها ..

وراحت تكرر ..

— .. هه !.. هه !!..

.. غير عابئة بأنها لاتدري في الواقع لماذا تتبرم !..

كان ذلك مطلعاً لدورين تابعت قطر وزوجة فراس تمثيلها حتى نهاية إقامتهما في مدريد !..

لم تأبه قطر الندى لجموع الصحفيين الذين كانوا بانتظارهم ..

توغلت بينهم ، وعبرت باب الفندق ضاحكة ، برفقة زوجة فراس ، بينما آثرت ميساء أن تتسلل إلى الجناح عبر سلم الخدم ..

لم تكترث ميساء لتقدم أختها تحت الأضواء ..

قطر الندى تودع الأضواء .. وميساء تستقبلها !..

ليكن لقطر ما تشاء من الأضواء قبل العودة إلى الوطن .. أما هي ، فعليها أن تحسن التصرف ، وتجيد تمثيل دور الأميرة التي تكره الشهرة ، وتمقت الصحفيين !..

ظن فراس أن حاجتهن إلى التمثيل ستنتهي حالما سيخلدن إلى أنفسهن ..

لكن شيئاً من تصرفاتهن لم يتبدل .. حتى حين خلون إلى بعضهن في ثياب النوم!..

دخلت ميساء ، متشاغلة ، وكأنها لاتجد الوقت الكافي لحثهم على الإسراع في التهيؤ لسهرة دعاهم إليها مراد ..

ما كادت تعود إلى غرفتها ، حتى سمعت قطر الندى تقول لها بلهجة متعالية غريبة ..

— ..وليمة مراد ؟..حسناً !..على أن تكون في مكان راق.. يليق بمجوهراتي!..

لقد سأمت ولائم مراد التي يستطيع المرء أن يذهب اليها بملابس النزهة !!..

كانت قطر تدرك ما يمكن أن يترك مثل هذا التعليق في نفس أختها !.. لكن بجوهراتها أوشكت أن تصبح سلاحها الوحيد ، فكان عليها أن تستعمل هذا السلاح ، لا بقصد الإساءة لأختها ، بل لتؤكد مكانتها ، ولتُظهر للجميع أنها لازالت تملك ما لا يملكه أحد !..

علقت زوجة فراس بصوت بدا على ميساء أنها لم تسمعه ..

قالت بلهجة تحاكي لهجة قطر الندى .. مثنية على كلامها ..

ـ طبعاً !..

تجاهلت ميساء ما سمعت .. تعامت عن الإهانة المبطنة ..

لم تكترث إلى الدور الذي قررت أختها أن تلعبه .. ولا همها أن تدور زوجة فراس في فلكها !..

لقد حُدد اليوم الذي ستصبح فيه « الأميرة » بحق ، ولن يمضي وقت طويل قبل أن تصبح « الأميرة » زوجة ولي العهد » .. ومن يدري ؟.. ألم تسمع بأن الشعب لن يرضى بحسان ملكاً بعد وفاة أبيه ؟..أليس من المحتمل إذن أن يصبح مراد أول ملك دستوري لبلاده ، وتصبح هي بذلك « صاحبة الجلالة » ؟!..

ماذا يهمها من تصرفات أختها !؟..

ماذا سيبقى لقطر سوى دور « من كانت » أميرة في يوم من الأيام ؟!..

وفي مثل هذا الدور ، ماذا يمنع أن يكون لها وصيفة مرائية مثل زوجة فراس؟..

خرجوا إلى ليل مدريد ، متسلحين بأدوار لايدرون شيئاً عن نهايتها !..

أخذوا يتنقلون بين أماكن السهر المشهورة ، فيجمعون الناس حولهم في مرح وإعجاب حيثما توقفوا ، تتبعهم جمهرة من الصحفيين ، قررت أن لا هم لها سوى التقاط الصور لهم ، وتدوين جميع مايقومون به !..

طغى التكلف على تصرفاتهم ، حتى أصبحوا لا يحدثون بعضهم سوى بتلك اللهجة التي كانوا قد أعدوها لمسامع الغرباء والصحفيين !..

تسلل بينهم شعور بالغربة وبالحاجة لمتابعة التمثيل ، حتى زال رابط الألفة الذي كان يربطهم ، فما أن أتموا عشاءهم ، ودخلوا الملهى الذي تقرر أن يختم سهرتهم ، حتى غدا كل منهم محوراً هائلاً ، منفرداً بذاته ، يكاد ، لو اقتضى الأمر ، أن يُنكرَ أن له أية معرفة أو علاقة بالآخرين !..

ملهى الـ « تمبرا » .. صالة ضيقة طويلة ، يحتل مسرحها ثلثها بأكمله !..

كان أول مالفت انتباه فراس هو كثرة المقاعد المصفوفـــة ، على شكل نصف دائرة ، فوق خشبة المسرح ، وعدد من الراقصـين والراقصات يجلسون على بعضهـا ، يتبادلون الحديث والنـكات ، غير عابئين بمن كان يدخل الملهى ، أو يخرج منه .

قال مراد ، وهم يجلسون إلى الصفوف الأولى الملاصقة بالمسرح ..

ـ قيل لي إننا سنشاهد هنا أجود فناني الأندلس !.. ما للمسرح خال إلا من هذا العدد الضئيل من الراقصات ؟!..

أجابه أحد أفراد حاشيته ، مشيراً إلى المقاعد الشاغرة ..

ـ سوف تمتلىء هذه المقاعد ، بعد حين ،بألمع فناني « الفلامنكو » .. يأتون إلى هذا المسرح ، ياسمو الأمير ،لا كمهنيين ، يؤدون عرضاً مقابل أجر ، بل كما قد يجلسون في دار أحد رفاقهم ، يتسامرون ، ويتحدثون ، إلى أن يبدو لأحدهم أن يبتدىء العزف أو الغناء ، فتنطلق الشرارة الأولى التي تلهب الآخرين ، والتي لامعنى لموسيقى الأندلس بدونها !..

ملأ الأعجاب وجه الأمير ..

ـ ومتى يحدث ذلك ؟..

ـ لو حُدد موعد انطلاقها ..لزال معناها ، ياصاحب السمو .. إنهم يتسامرون كما ترون .. غير عابئين بأحد !.. ويقال إنهم في بعض الليالي لايغنون أو يرقصون على الإطلاق !.. أو إن الطرب قد يأخذهم ، فيصلون الليل بالنهار !..

كان عدد الفنانين قد تزايد على المسرح ، حتى قارب أن يملأ مقاعده الثلاثين ..

سأل مراد فراساً ..

ـ هل تفهم ما يتحدثون به ؟..

هز فراس رأسه بالإيجاب ، وأخذ يراقب الأثواب الأندلسية الأنيقة ،ويصغي إلى ما كان يدور بينهم من حديث ..

جلس الراقصون ينظرون بدورهم إلى الرهط الملكي الذي كان مقابلهم ،يملؤون أعينهم بأناقته ، وجماله ..

ما إن اكتمل عددهم ، وأتموا نصف الدائرة التي كانت لهم على المسرح ،حتى اكتملت بدورها دائرة كبرى ، أتمها الصف الأول للمشاهدين ، الذين تصدرتهم قطر الندى وميساء ، وإلى جانبها مراد وفراس ، ثم زوجته ، ومن أتى برفقة الأمير من الحاشية الملكية ..

بدأ عازفو القيثارة الخمسة يداعبون أوتارهم بألحان متفرقة ، بينما جلست الراقصات الغجريات متأهبات على حافة مقاعدهن .. تتحسسن راحاتهن على بعض ، ثم تقرعهن بتصفيق عفوي حاد ، وتخفين شفاههن عن المشاهدين بين حين وآخر ، ليتبادلن الكلام أو التعليق على المشاهدين !..

سمع فراس أحداهن تصيح لزميلتها بلهجة الجنوب ، وكانت ترتدي زيا أحمر صارخاً ..

— .. بنيَّتي .. بنيَّتي !.. هل رأيت في حياتك مثل هذا الماس على عنق أحد!؟.

زاد تصفيق زميلاتها .. كمن يحاولن إخفاء جواب أتاها ..

— .. على عنق والدتي !.. يوم هجرها زوجها !..

ضحك الجميع ، وأثنت الراقصات على إجابتها بقرع من أقدامهن .. أحكمت حدة التصفيق ، وضوعفت سرعة إيقاع ما كان يعزف على القيثارات الخمس !..

عادت الأولى إلى السؤال ..

— ترى .. أهذه المجوهرات حقيقية ؟..

— .. حمقاء !..

— من يدري ؟! لعلهن ممثلات جميلات .. يتصنعن الثراء !..

— .. بلهاء ، بنت بلهاء !.. ألم تري صورهن في الجرائد ؟..

أجابها صوت آخر ..

— .. إنها لاتعرف القراءة !.. فكيف تفهم الصور ؟..

ضجّ الراقصون بالضحك ، والمرج ..

لم يقتصر التعليق على الراقصات فقط ..

كانت قطر الندى وزوجة فراس تتبادلان الآراء حول محاسن الراقصين الذين كانوا يجلسون أمامهم ، تتقاسمان من أعجبها منهم ، وتشركان ميساء ، من حين إلى آخر ، فيما تكتشفانه من مظاهر رجولتهم !..

لم يخف همس الأميرات على الراقصات ، ولا مقصدهن !..
صاحت إحدى الغجريات إلى زميل لها ..
ـ لقد أعجبن بـ « بيدرو » !.. إنهن يتهامسن عليه !..
التفت « بيدرو » وكان أوسم الراقصين ، وأقسام ملامح ..
صاح بالغجرية ، مقطباً ..
ـ اخرسي !.. كفّي عن هذا التعليق السمج !..
ضحكت الراقصة منه ..
ـ لماذا ؟.. لماذا أكف يا « بيدرو » ؟!..
وأشارت إلى زميلة .. بدت ساكنة .. تراقب مايجري دون حراك ..
ـ .. ألأنك تخاف منها ، أيها الشجاع ؟!.. ألأنك بت تخاف ؟!..
أجابها « بيدرو » بحنق ..
ـ أنا أخاف ؟.. ومن امرأة ؟!..

وكأن عازفي القيثارة كانوا على علم بما اعتمل في نفسه .. فبدأ أحدهم بأصابعه الخمسة هديراً متدفقاً على أوتاره ، مالبث أن اشترك به بقية العازفين ، حتى علا كالموج الصاخب فوق الحاضرين ..
وإذا بـ « بيدرو » يصيح فوق الهدير ..
ـ أنا أخاف ؟!.. أنا ؟!.. « بيدرو » ؟!..

وكأن العازفين كانوا بانتظار هذه الكلمات ليضربوا أوتارهم بعنف ، وليقرعوا على خشب آلاتهم بضربات ثلاث مدويات .. فوجىء الحاضرون لها !..

قفز « بيدرو » إلى وسط الحلبة ، ضارباً كعبيه على أرضها ، بقرع ، أسكت جميع الحاضرين !..

تسمر واقفاً .. صدره إلى الأمام ، وذراعاه فوق رأسه ، مشنجاً أصابعه ، كمن يود اقتلاع أحشاء أحد !..

كانت هذه هي اللحظة التي ترقبها الجميع !..

انبرى خمس شبان بثيابهم السود المشدودة على خصورهم النحيلة ، يتصبب الغضب من نظراتهم ، وقفوا خلفه ، وأحكموا مع الإيقاع تصفيقاً حاداً ، بينما قطب أحد المغنين .. أحنى رأسه إلى الأمام ينظر إلى كفيه اللتين مدهما كمن يتوسل إلى أحد ، وصعَّد من أعماقه آهة متضرعة اقشعرت لها أبدان جميع من كان في الملهى !..

لم يعد فراس يدري ما إذا كان الشاب يرقص لحزن المغنّي ، أم إذا كان الغناء صدى لعذاب يتهدَّر من الشاب !..

أخذ رقص هذا ، وأنين ذاك ، ينفوران كالدم من عروقهما .. وراح صمت إسبانيا يحدق بهما بعيون رفاقهما ، يحضهما على المضي في العزف ، يصفق لحزنهما .. يصفق لألمهما .. يصفق لنزيفهما .. يصفق لموتهما !..

كان الشاب يقف في وسط الحلبة وجنبه للمتفرجين .. وإذا به يدور على نفسه عدداً من المرات ، ثم يندفع إلى الأمام .. ليسقط راكعاً أمام قدمي قطر الندى ، فاتحاً ساقيه لها بوضع مثير .. شرع يقف منه رويداً رويداً ، بينما راح يحدجها بنظرة مخيفة ، وذراعاه تتشنجان أمامه .. بضراعة وحشية .. وغضب !..

غاصت أحشاء قطر الندى !!..

شهقت بعمق !! ..

ورغم أن الابتسامة لم تفارق شفتيها ، إلا أن صدرها الأبيض العارم أخذ يرتفع وينخفض بتنفس عصبي .. وما لبثت شفتاها أن افترقتا ، وتهدل جفناها .. فلم تعد عيناها تفارقان ذلك الجسد المسعور أمامها .. وكأنما ارتبطتا باعضائه إلى الأبد !..

وقع جميـع من في الصالة تحت سحر ما مرّ أمامهم !..

تجسد جميـع الرجـال في ذلك الشاب ، وتمنت جميـع النساء لو أنهن في جسد قطر الندى .. لتتقبلن نظراته .. ولمس أصابعه المسعورة !..

إلا فتاة كانت تجلس ساكنة بين الراقصات !.. أطلقت صيحة مروعة ، وقفزت كاللبوة المجروحة ، مشمّرة ثوبها العريض عن ساقيها المتوترتين ، تلوي عنقها كالفرس ، وتنفض رأسها . حتى طار مشطها العريض الذي كان يجمع شعرها الأسود الطويل بوزدة حمراء قانية ، سقطت على الأرض ، فراحت تدوس عليها ، تمزّقها ، وتمعن سحقهـــا بكعبيها حتى بدت و كأنها ترقص فوق بقعة من الدم !..

لم يفهم أحد سبب غضب « كونشيتا » .. حتى علا صراخ الراقصات ..

ــ لتعش والدتك يا « كونشيتا » !!..

ــ لتحيَ من علمتك الرقص !!..

ــ .. قامت إليه !!.. انظروا كيف قامت تحاسبه !!..

ــ قامت تلقنه درساً لن ينساه !..

ــ .. إيه يا بيدرو !!.. أتظن فتاتك كانت نائمة !؟..

قُلنَ هذا .. وقمن وراء كونشيتا !..

قمن إلى نجدتها .. يقرعن الأرض بأقدامهن صفاً واحداً ، يتحدين الشباب ، يصفقن وأذرعتهن عالية في الهواء فوق رؤوسهن ، يضربن الأرض بأقدامهن بإصرار وجنون ، فاستدار الشاب نحوها ، وبدأ معها مقارعة طويلة عنيفة أجهدته ، أذعن في نهايتهـــا لغضبتها ، فراح يرقص ، ويصفق هو الآخر لفتاته التي كانت خصلاتها السود المبللة بالعرق قد غطت وجهها ، والتي أخذت تضيق عليه الخناق برقص لا مثيل لدقتـه !.. فركع أمامها ، بينما أخذت تنتفض وتدور حوله ، حتى بدت و كأنها تستطيـع أن تطبـــق عليه في أية لحظة ، وترديه ، إن شاءت ، جثة هامدة تحت قدميها المجنونتين !..

ساعات محمومة ارتقت خلالها قطر الندى أدراج عالم كان غريباً عليها !..

لم تكن حتى تلك الليلة قد أصغت إلى نداءات الإعجاب العابرة التي تعودت أن تتلقاها من الغرباء !..

لئن بدت حوادث تلك الليلة للبعض على أنها مشهد طريف أسدل الستار عليه باسترجاع الفتاة لرجلها ، إلا أن مبادرة بيدرو حركت مفتاح باب جديد في نفس قطر .. باب المغامرة العابرة، وما يمكن لنظرات إنسان مجهول أن تبعثه في نفسها من إحساسات غريبة !..

لماذا على المرأة ألا تعرف من الرجال سوى الذين صيغوا بقالب العرف ؟..
لماذا عليها ، إن شذت عن العرف ، أن تفعل ذلك ضمن قواعد لها أحكامها المسبقة ؟!..

ماقيمة هذه القواعد ؟..
ماذا أعطاها زوجها من أحاسيس .. غير الملل والألم ؟!..
ومحاولات جعفر البدائية !.. أيمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار ؟!..
أيمكن أن تحاسَب على علاقتها برجل .. لاتكاد تشعر برجولته؟!..
لقد أصابها وَقدُ عيني هذا الراقص في مكمن لم تكن تعلم بوجوده في نفسها !..
ماقيمة جسدها إن لم يطلق المجال لهذه الأحاسيس ؟!..

انتهى الرقص ..

عادت إلى الفندق وعيناها شاردتان .. تبحثان عن شيء أفلت منها !..

ليتها لم تأت إلى مدريد !.. ليتها لم ترتد ثوبها الأسود هذا الذي يكشف عن صدرها الوارف !!..

تمددت في فراشها ..

ليت صدرها لم يكن ذلك الصدر الحقود !..

ضمت ذراعها على نهديها ، وتمنت لو كان لها نهدان ضامران مسطحان.. لايعرفان الأحاسيس !..

بئس حياة المرأة !..

بئس جبن الرجال الذين لايقتحمون مخادع النساء .. فيدخلونها عنوة ، ويوسعونهن ضرباً ، وشتما ، ثم ينهالون عليهن بأجسادهم المديدة القوية ، ويغرقونهن في اللذة حتى الموت !..

تشابكت في رأسها صور جميع من عرفتهم من الرجال ..

لم تستسلم للنوم حتى أوصدت أبواب خيالها دون نظرات هلال الحاقدة ..

داست على جسد جعفر .. ثم ركلته ..

مزقت ابتسامات فراس الساخرة ..

ولما لم يبق في ذهنها سوى خصلات شعر « بيدرو » السوداء ، ونظراته الغاضبة ..

لفّت خصره النحيل إلى خصرها .. وضمت وجهه إلى وجهها ..

أخذت تقبل حاجبيه المقطبين بنهم ..

وتبلل شفتيها بعرق وجهه وعنقه المشدود ، حتى أسكرها الخيال !..

وما كادت تطلق آخر آهات اللذة .. حتى غطّت في نوم عميق !..

* * *

القسم السادس

الفصل الأول

كانت برقية فراس مفاجئة لم أتوقعها !..

صحيح أني تعلمت توقع أي شيء من عالمه ، وتعودت ألا أرفع حاجبيّ عجباً أمام أغرب المفاجآت .. لكن للأحداث إيقاعاً ألفته ُ .. وددت في سري لو أنها لا تشتط في البعد عنه .. نهج ، كان ينذرني بوقوعها ، فيهيئني لتحمل شدة غرابتها ..

عالم فراس .. غريب ، حتى في غرابته !..

قرأت برقيته على عجل ، وهيأت نفسي لموافاته على الفور ..

« ألا تود أن تستودع صديقك قبل أن يغوص، مرة أخرى، في أعماق المجهول ؟!.. إنه هذه المرة مجهول قد ألاقي حتفي فيه !.. تعال .. أسرع !..»

أي مجهول تراه يعني ؟..

ألا نهاية لهذا التيه الذي يعيش فيه ؟.. أما زالت فيه عوالم مجهولة تذكر ؟..

أسرعت إليه كعادتي ، وتملكني ، وأنا في طريقي إليه ، شعور ملح بأن رذاذ ذلك الخضم سوف يصيبني أنا الآخر ..

فقدتُ لذّتي بمتابعة حوادث ذلك العالم !..

لكني .. لم أقو على إشاحة وجهي عنه .. كي أنساه!..

كان علي أن اقتلع فراساً منه .. أحسست أن فراساً جزء مني ، وأن هذا الجزء يغوص .. لا في المجهول ، بل في الرمال المتحركة!..

ومرة أخرى .. جلست إلى فراس على شرفة كوخه البحري ، ساهمين ، نراقب السابحين يمرون أمامنا كأطياف عالم من عالم آخر ..

هزأت من نفسي إذ جال في خاطري وأنا أنظر إلى صديقي الممدّد تحت أشعة الشمس ، كيف يبدو هادئاً .. لا يكترث بالدوامة التي يعيش فيها ، بينا اضطرب أنا، رغم بعدي عن هذه الأحداث !..

عجبت كيف تتعاقب سني حياتي في بطء ورتابة ، تودع بعضها بعضاً ، حاملة حقائبها الفارغة ، أو تنطوي أحياناً في تلافيف النسيان ، دونما حقائب !..

نهض فراس ببطء ، وكان قد ضاق من الحر ..
— .. سأذهب للسباحة قليلا .. أتأتي معي ؟..
أجبته بالنفي، فابتعد عني يمشي الهوينى .. إلى أن وصل الشاطىء ، فخاض بين الأمواج ، وغاب في الماء ، بين جمهرة السابحين حتى لم أعد أميّزه ..

لم أكن قد صحوت تماماً بعد من دهشتي لما رواه لي عما جرى له بعد عودته من مدريد ..

اغتنمت فرصة غيابه في البحر .. أخذت حقيبة يدي التي لاتفارقني لأدّون ماسمعته منه على أوراقي .. دون تعليق ..
سؤال واحد حزين ، تراءى لي قبل أن أشرع في الكتابة ..
ألهذا المصير التعيس تؤول هذه الصداقة ؟.. أعلى مثل هذه النهاية تنتهي ؟!..
أهكذا ينفرط العقد ؟!..

لم تكن قد مرت أيام بعد على عودة الأختين إلى بلادهما حتى بدأت تصلها أصداء مما يتناقله الناس حولها من أخبار !..
سرعان ما اكتشفتا أن جميع من يحيطون بجعفر على علم بعلاقته بقطر الندى ..
.. وكيف لايعلمون ذلك !..
ألم يوكل إلى مكتبه أمر شراء تذاكر السفر للأميرتين ؟..
ألم يكلف مدير مكتبه في جنيف بحجز الأجنحة الفخمة لها في فنادق الغرب ؟!..
ألم ينهب وكيل أعماله خصيصاً لدفع تكاليف أقامتها فيها !؟..
وكأن الدعوة الأولى لم تكن كافية لإثبات هذه العلاقة أمام الجميع ، فجاءت الرحلة الثانية ، برهاناً قاطعاً ، وقرينة دامغة للمشككين.. صرح جعفر عن مراحلها لأصدقائه من ذوي الشأن ، ولآخرين منهم من رجال الأعمال في بلاد قطر الندى ،

وتحدى الجميع أن يسبقوه إلى باريس ، إن كان يراودهم شك فيما يقول ، فيرونه برفقة قطر الندى ، أو يرونها بأم عينيهم تدخل غرفته في الفندق المجاور لفندقها ، لتخرج منها في صباح اليوم التالي !..

تسربت هذه الأنباء من دائرة جعفر إلى ما للأختين في بلادهما من دائرة كبيرة .. تسللت رويداً رويداً إلى معارفها ، ثم إلى المقربين من هؤلاء ، إلى أن وصلت في النهاية إلى أحد المقرّبين من العائلة .. صحفي ، وصديق قديم لوالدهما ، ثم صديق لهلال .. كهل متصاب ، طيب الطباع ، ينتمي إلى جيل ليس في جعبته سوى الخمر والنساء وطريقة عشائرية في حب الوطن ..

أنيسة ، زوجة هذا الصديق ، امرأة أمية ، لا اسم لها تفخر به .. ولا مال .. اختيرت شريكة لحياة زوجها ، حين كان هذا لايزال يعمل أجيراً عند أحد الحرفيين .. خاضت معه صعاب الحياة ، وفشلت في ارتقاء سلم النجاح والشهرة وراءه ، فأصبحت في النهاية « زوجة الصحفي » .. امرأة باهتة .. لامعنى لوجودها ، ولا طعم !..

عرفت أنيسة ميساء وقطر الندى منذ حداثتها ، حين كانت تتردد على والدتها .. فما إن زفت قطر الندى إلى هلال ، وأصبحت بذلك « أميرة » ، حتى دأبت على التردد عليها .. تفرط في مدحها ، وفي إطراء زوجها ، وقصرها ، ومجوهراتها ، وثيابها ، وكل مايحيط بها ، حتى اعتبرت أنها بذلك أصبحت من المقربات إلى قطر ، وأن ليس في تلك المدينة من يدانيها في الحظوة لديها !..

زادت معرفتها بميساء ، منذ أن جاءت هذه لتقيم في قصر أختها .. أحبت أنيسة خصلات ميساء الشقر ، وعينيها الزرقاوين .. ذكرتها ثقافتها بمن عرفتهن في الماضي من نساء إفرنسيات .. حين كانت ، وزوجها الصحفي الناشىء ، يجلسان ساعات بينهن ، لايفهمان شيئاً من الأحاديث التي كانت تدور حولهما بتلك اللغة الجميلة الصعبة .. فيلعنان فرنسا والإفرنسيين في سرهما !..

كانت أنيسة ، كما قلت ، تتردد باستمرار على قصر قطر الندى .. ترى ميساء حائرة فيه .. فتراودها بشأنها خيالات غريبة ..

أخذت تحرض ابنها الشاب لدعوة ميساء ، بين الفينة والأخرى ، كي يظهر برفقتها في الأماكن العامة .. فيغمرها الفخار حين تراهما معاً ، وتتحسر في سرها على أنهما من منهجين مختلفين ، وإلا لما تركت ميساء تفلت منها !..

فمن غير ميساء تليق بابنها الشاب !؟.. وما ضر لو صاهر ابنها عائلة ميساء العريقة وأصبح بذلك عديل الأمير هلال ؟!.. و « عديل الأمير » .. « أمير » تقريباً !!..

أضغاث أحلام !..

أماني .. كانت تعرف أن لاسبيل إلى تحقيقها .. لكنها أمنيات تركت أثرها على علاقتها بالأختين .. طبعتها بطابع القربى ، حتى باتت تشاركهما حياتهما اليومية كأنها منهما ، وتظن أن الأختين تكنان لها نفس الشعور !..

سكتت قطر وميساء في البدء عن هذه الصداقة ..

لئن ملأت أنيسة فراغهما بالبلادة ، فما ضرهما ، إنه خير من لاشيء !..

وما المانع في أن يحيطهما زوج أنيسة بعاطفته الأبوية ؟.. معارفه كثر ، وصحفه مقروءة ،وصداقته بهلال ،وإن كانت قد بدأت عن طريق قطر الندى ، إلا أنها قويت بازدياد اهتمام هلال بالصحافة .. وتوثقت بازدياد ما بات يتقاضاه زوج أنيسة من مال عن طريق هلال وعائلته .. فأصبحت هذه الصداقة ، في النهاية ، عنصراً أكيداً.. قد يعود بالنفع على قطر الندى فيما لو لزم الأمر !..

لم ترض أنيسة عن صداقة قطر بفراس وزوجته .. منذ البدء !..

ما إن عادت قطر من بلاد زوجها ،وأعلنت ميساء خطبتها على البدر ، حتى خفّت لتهنئتها ، واثقـــة أن زواج ميساء بابن السلطان سيفتح لزوجها وأولادها مجالا جديداً للصداقات المثمرة .. والنفع الأكيد !..

صدمها قرار ميساء بترك الأمير البدر وعقد قرانها الصوري على الأمير مراد !..

كرهت مراد قبل أن تعرفه .. كيف لا .. وهل من نفع من أمير لن تعرف وزوجها حتى الكلام إليه بالإفرنسية ؟!..

لم تكن تدري أن صداقتها بالأختين وحيدة الطرف !..

ظنت أنهـا مؤهلة لإبداء النصح لهما .. والانتقاد أيضاً .. فلما جاءها رد ميساء ، بارداً ، لاذعاً ، عادت إلى قواعدها ، وآثرت أن تتحاشى الإهانة على أن تواجهها ، كي لاتضطر إلى مقاطعة الأختين .. وفقدان صداقتها الثمينة !..

تلا ذلك فترة شغلت الأختان عنها بقضية جعفر ..

لم تكن تدري بالطبع بوجود جعفر .. فلم تجد تعليلاً آخر لتجنب الأختين لهـا سوى صداقتها الجديدة بفراس وزوجته .. وأكدت لنفسها أن فراس يهيء لهما من وسـائل التسلية ما لاتودان أطلاعها عليها ..

كانت رحلة الأختين الأولى إلى الغرب مفاجئة لم تستطع أنيسة تفسيرها !..

لم يترك هلال لقطر من المال ما يسمح لها التجول بين عواصم الغرب ، فكيف تدبرت نفسها ؟.. وميساء ؟.. وفراس وزوجته ؟.. من أين حصل هؤلاء على المال؟..

وإزاء أسئلتها المبطنة .. أشارت قطر مرة أمامها إلى أنها اضطرت لبيـع أحد قلائدها الثمينة كي تحصل على تكاليف هذه الرحلة !.. فما كان من أنيسة إلا أن هزت رأسها بصمت .. ثم سألت بعد فترة ..

ــ حسناً .. وميساء ؟.. ألم تكلفها هذه الرحلة الكثير ؟..

أجابتها قطر الندى بلا اكتراث ..

ــ في الواقع .. لست أدري !.. لقـد حصلت ميساء من والدتي على النقود قبل السفر !..

هزئت أنيسة بما سمعت .. ورددت في نفسها .. « أمن والدتها الشحيحة » ؟!..

نظرت إلى قطر الندى بإمعان.. ثم أشاحت بعينيها عنها، وبدلت موضوع الحديث !..

تلت ذلك مناسبات عديدة آثرت أنيسة فيها الصمت على التعليق ..

سكتت عما لاحظته من عديد الحلي التي عادت بهـا قطر الندى من الغرب ، بعـد رحلتها الأولى !..

صمتت عن الملابس الفاخرة ، وعدم اكتراث قطر المفاجيء بالمال !..

عادت إلى الإكثار من زيارة الأختين كسابق عهدها ، علها تسترجع علاقتها القديمة بها .. لكنها أحست بشدة تبرمها منها حتى في سكوتها ، فكرهتها في سرها، وغضبت ، ولم تعد تدري كيف تخفي غيرتها من الألفة الزائدة وعدم التكلف الظاهر على علاقتها بفراس ، لاسيا وأنها لم تأت يوماً لزيارة قطر إلا ووجدته مع زوجته في قصرها !..

صبرت شهوراً طويلة ..تقاوم رغبتها في النيل من أحد !..

أقضّ مضجعها شوق للانتقام .. حتى باتت لاتدري ممن عليها أن تنتقم !..

صبرت ، حتى أتتها المناسبة التي كانت تسعى إليها في اليوم الذي تلا عودة الأختين من مدريد ..

أخذت سماعة الهاتف لترحب بها بعبارات اللياقة المألوفة ، مضمرة أن تفاجئهما بجميع ما كانت قد سمعته من إشاعات حولهما ..

قالت بشيء من التكلف ..

ـ أود .. وزوجي ، زيارتكما بمناسبة عودتكما .. فمتى تودان أن نجتمع ؟..

تبرمت قطر بشكل ملحوظ ، وأجابت ..

ـ في الوقت الذي يناسبكما !.. إنما.. أفضل أن نجتمع على سهرة طويلة.. كعادتنا في الماضي ، فما رأيك بإرجاء ذلك إلى وقت آخر .. سأتصل بك عن قريب لنعين موعد لهذه السهرة !..

صمتت أنيسة برهة ، وكأنها صفعت على وجهها !..

تمالكت نفسها .. وأجابت بتصميم ..

ـ ليكن !.. نحن في انتظار إشارتكما ..

لم تنقض أيام حتى كانت الأختان قد أطلعتا ، عن طريق من جئن للترحيب بهما ، أن الشائعات التي بدأت تدور حولهما، عقب رحلتها الأولى ، قد بلغت اليوم ذروتها ، وأنها باتت حديث المجتمعات الوحيد منذ سفرهما الأخير إلى مدريد !..

إلى أن جاءت إحدى قريباتها تطلعها على أن أنيسة كانت في زيارتها ، وأن هذه ذكرت أمامها أن هلالاً يتصل بزوجها الصحفي بين حين وآخر ليسأله عن أخبار قطر ، وزوج أنيسة حائر فيما يجيب هلالاً به ، نظراً لما وصل إلى مسامعه من شائعات حول

قطر ، علماً بأن هذه الشائعات ليست سوى جزءاً ضئيلاً مما يتناقله الناس !..

ما إن خلت الأختان إلى بعضها ، حتى صاحت قطر الندى غاضبة ..

ــ .. يالها من أفعى !.. إنها تهددني بما سيقوله زوجها لهلال !..

كانت ميساء تقلم أظافرها ، فضحكت من أختها هازئة ..

ــ .. كان عليك أن تسكتيها بهدية ما !.. إحدى ساعات جعفر الماسيـــة التي توزعينها على جميع الأقارب !..

صاحت بها قطر متأففة ..

ــ .. كفاك بالله !.. ماذا نفعل الآن ؟.. هذه الشائعات .. وجميع مايقال !.. لابد أن جعفراً وراء كل هذا !.. ماذا نفعل ؟!..

ــ جعفر ؟..

ــ .. طبعاً !.. يود طلاقي كي أتزوجه !..

ــ ألم يفكر بما ستلحقه هذه االشائعات بك من سوء ؟!..

هزئت قطر ..

ــ جعفر لايفكر بغير نفسه !!..

نظرت ميساء إليها ملياً ، وسألت ..

ــ .. ماذا تودين بالضبط ياقطر ؟..

ــ أود الخلاص من هذه الورطة .. أود الخلاص بأي ثمن !..

ــ أحقاً .. لن يهمك الثمن لو توفر لك سبيل الخلاص !؟..

بهتت قطر الندى ، وقالت متعجبة ..

ــ .. ومتى رأيتني التفت إلى الثمن .. مهما كان ؟!..

نهضت ميساء بحزم .. واتجهت بخطا ثابتة نحو الهاتف ..

ــ حسناً !.. علينا أن نتلافى الشر .. اليوم .. الآن .. قبل استفحاله !..

هرعت قطر الندى إلى الهاتف .. تمنع أختها من الكلام ..

ــ من الذي ستكلمين ؟!.. أطلعيني!.. ماذا تنوين القيام به !؟..

رفعت ميساء يد أختها عن الهاتف بهدوء ، وقالت ..

— .. لاعليك !.. سوف ترين ..

لحظات ، وكانت تكلم فراساً ..

استحلفته أن يأتيها على الفور لأمر هام .. وما إن وصل ، بعد دقائق ، حتى انزوت معه في غرفة منعزلة ، وبادرته ، والأسى يملأ وجهها ، أنها علمت من توها أن مراداً في روما .. وأن له عشيقة هناك !..

طلبت إليه أن يذهب من فوره إلى روما .. ليستجلي حقيقة ماقيل لها ..

توسلت إليه .. واستعطفته ، حتى سالت دموعها ..

لم يكن باستطاعتها أن تعود إلى الغرب ، ولم يمض على وصولها من مدريد سوى أيام !..

من الذي يمكنها أن تسر إليه بفجيعتها ..سوى فراس؟!.. ومن الذي يستطيع ، إن عثر على مراد ، أن يناقشه في أموره الخاصة .. غير فراس ؟!..

عادت إلى الضراعة والتوسل ، حتى لم يجد فراس مخرجاً إلاّ القبول !..

ما إن علمت ميساء أن فراساً بات في الطائرة ، في طريقه إلى روما ، حتى عادت إلى الهاتف تطلب أنيسة ، وتدعوها مع زوجها إلى العشاء في تلك الليلة ..

بدت الأختان واجمتان شاردتان .. على غير ماعهدت منها أنيسة وزوجها من مرح وحسن ضيافة ..

فوجيء الضيفان بمظهرهما !..

جاءا متسلحين بما سمعا من شائعات ، مزمعين على مواجهة الأختين بذلك مهما كانت النتائج ..

تحضرا لمواجهة الأختين العنيدتين المتشامختين اللتين عرفا .. وإذا بخطة هجومهما تتعثر أمام ماشاهداه فيها من حزن وضياع !..

توقعا وجود فراس وزوجته في قصر ، فلما انقضى وقت دون أن يُشـــار إلى قدومها ، اغتبطت أنيسة في سرها ، وسألت بتهكم مشجعة سكون الأختين وابتساماتها ..

ــ .. ظننت أننا سنجد الصديقين العزيزين !.. أين فراس وزوجتـــه .. ألا تنتظرانها ؟..

زادت دهشة أنيسة حين لم تلق رداً على تهكمها ..

كررت السؤال .. ولما لم تجبها ميساء سوى بإشارة من يدها ، كأنها تطلب إليها أن تغير موضوع الحديث .. تعجبت ، وسألت جادة ،مصرة ..

ــ .. ماذا ؟.. أهنالك أمر؟..

هزت ميساء رأسها في ضياع وحيرة ..

ــ أمور كثيرة .. كثيرة ياأنيسة !.. لكن .. ليس في اليد حيلة !..

كان في لهجتها ما أنبأ الزائرين على أنها وأختها في مأزق لاتجرآن على التحدث عنه ..

تذكر زوج أنيسة ماجاء من أجله .. لعله آثر أن يفتح الموضوع كمنقذ لهما من ورطتها .. لا كمصحح لاعوجاجها ..

لم يدر أن ميساء هيأت له الدرب كي يدخل إليها من هذا الباب بالذات .. جلس في مقعده ، وقال مقطباً ..

ــ حقاً .. إن هنالك أموراً كثيرة !.. اسمعي ياميساء، وأنت ياقطر .. إني أمامكما تجاه مسؤولية ليس بوسعي أن أتغاضى عنها !.. لن أذكر هلالاً وما تربطني بـــه من صداقة !.. بل لن أذكر حتى صداقتي الشخصية بكما أنتما !.. حسبي أن أذكر والدك ياميساء .. لأجد الدافع إلى مواجهتكما بصراحة !.. أمور كثيرة تحدث في الخفاء .. أو يقال إنها تحدث .. أمور في غير مصلحتكما !.. أظن أن الوقت قد حان لـكي تحدثاني عنها بصراحة ووضوح !.. ما هذا الذي أسمعه ؟.. وما هذا الذي تردده جميـع الألسن عن علاقتكما بـ .. ما اسمه ؟..

وتوجه نحو زوجته حائراً متبرماً ، فأنجدته على الفور ،هامسة ..

ــ جعفر ..

فتابـع بصوت صارم ..

ــ نعم جعفر !.. من هذا .. جعفر ؟.. وما صحة هذه الشائعات ؟!..

لم يبد على ميساء أنها فوجئت بذاك السؤال ..
عادت إلى هز رأسها وقالت بصوت هادىء..
ـ ألم أقل لكما إن هنالك أموراً كثيرة .. وصعبة ..
قاطعها ، قائلا ..
ـ كان ذلك حين كنت تتكلمين عن فراس !.. وأنا أسألك عن الشائعات ، وجعفر !.. فما علاقة فراس بها !؟..
ـ .. في الظاهر .. يبدو كمن لاعلاقة له البتة بشيء !.. أما في السر .. آه .. آه لو كنت تعلم !..
نفضت رأسها .. وتابعت بحزم ..
ـ ومع ذلك .. لا أظن أن ذلك صحيح !.. لا .. لايمكن أن يكون ذلك صحيحاً !..
ـ .. ماذا تعنين ؟.. وما هذه الأسرار .. قولي بالله !..
أجابت كمن تحدث نفسها ..
ـ أيمكن لفراس أن يكون على مثل هذا الدهاء .. ومثل هذه الخسة ؟!..
ثم جلست في مقعدها ببطء .. ونسجت لأنيسة وزوجها قصة صعقا لها !..

حدثتها عن دور مزدوج رهيب .. لم تعلم إلا أمس أن فراساً يقوم بتمثيله !..
فبينا يُظهر لها ولقطر الندى أخلص الصداقة والتفاني في خدمتها ، لاتحدوه بذلك سوى الشهامة والغيرية، إذ بها تعلم أن صداقته كاذبة مزيفة ، يستغلها لابتزاز المال من جعفر،دون أن يكون لهذا علم بمآربه .. ، فيضحي بسمعتها ، بل بزواج ميساء الذي بات على الأبواب ، كي يبتز المزيد من المال !..

حملقت أنيسة بها فاغرة فاها ، بينما اكفهر وجه زوجها ثم .. أربد ..
ـ فراس يقوم بذلك ؟.. كيف يفعل ؟!.. ماهذه القصة ؟!..
ـ الأمر بسيط جداً ..

نظرت إلى الأرض ، ثم تابعت ..

ـ جعفر شغوف بي !.. وفراس يعده أنه سيحول دون زواجي بمراد .. يبيعه الوعود !.. ويؤكد له أنه يسعى أمامي كي أقبل بالزواج منه .. من جعفر !..

بدت أنيسة كالمسحورة .. وزوجها ، وكأنه ضاع عن فهم ماسمع ..

ـ .. شغوف بك ؟.. أنت ياميساء ؟!..

ثم نظر إلى زوجته متسائلاً ، فلم تسعفه هذه سوى بالصمت !..

نظرت إليه ميساء .. ووجهها يملؤه العجب ..

ـ بي أنا طبعاً !.. ومن غيري ؟!.. لقد حاول مراراً ملاحقتي بسيارته !.. ولا أخفي عنكما أنه أرسل في الماضي وسطاء كثراً يطلبون رأيي في الزواج به !.. نهرتهم جميعاً بالطبع ، حتى ظننت أنه يئس !.. لم ألتفت إلى الموضوع حتى علمت البارحة.. البارحة فقط ، بأن مرجع سكوته هو ما دأب فراس على تغذيته به من آمال !.. مشاريع كانت تدور بينهما في الخفاء ، يقبض فراس ثمنها من ضحيته غالياً !..

وافقت قطر قائلة ..

ـ لكم تساءلت في الماضي ، حين طلب فراس منا مرافقتنا إلى الغرب .. لكم ساءلت نفسي.. كيف سيتمكن من تحمل مصاريف تلك الرحلة إن كان يود مرافقتنا.. كنت في حرج من أن أقول له إننا لاننزل إلا في الفنادق الفخمة .. أقسم لك ياأنيسة أنه كان يبعثر الدراهم وكأنه هلال نفسه !.. من أين أتى بهذه الدراهم لو لم يكن جعفر وراءه ، يمده بها !؟..

سألت أنيسة ببلاهة ، متوجهة نحو ميساء ..

ـ ولماذا يمد جعفر فراساً بالدراهم ، وهو لم يجتمع بك ؟!..

ـ الأمر بسيط .. يقول لجعفر بأن عليه أن يسافر معنا لمراقبتنا .. كي يمنع مراداً عني !.. يعطيه تأخير زواجي دليلاً قاطعاً على نجاح مساعيه !.. ويظن جعفر أنني فعلاً تحت تأثير فراس !.. ثم هنالك أمر آخر .. آه ، ماذا أقول ؟!.. قضية لا أدري ماذا أفعل إزاءها !..

أمسكت رأسها بيديها.. وكأنها تود شد شعرها ، ثم رفعته ، وأنزلت قبضتيها تدق ساقيها بهما دقاً !..

ـ أتعلمان كيف كشفت أمره ؟!..

نظروا إليها .. حتى قطر ، نظرت إليها مشدوهة ، تتلهف لسماع ما سيتفتق خيال أختها عنه !..

ـ .. هاتف من جعفر !.. من جعفر نفسه !.. أتعجبون إن إراد جعفر أن يستوثق من وعود فراس ؟!.. طلبني على الهاتف ليسألني ما إذا كانت قد أعجبتني ساعات الماس !.. صحتُ في وجهه « .. ساعات الماس ؟.. أية ساعات تعني ؟.. » فأجابني بتخاذل .. « الهدية التي طلبتها بواسطة فراس ، ياميساء !.. » ثم سألني .. « ألم تطلبي من فراس أن أبعث لك بها » ؟!..

صعقت قطر الندى لما سمعته من أختها ، وتابع الزوجان النظر إليها فاغري الفم..

أردفت ميساء لاهثة ..

ـ ..أتذكرين ياقطر .. حين طلبنا من فراس شراء بعض الحلي ؟.. أتدرين ماذا فعل ؟.. أخذ دراهمنا وذهب إلى جعفر يقول له إني أطلب هذه الحلي هدية منه !.. وهذه الساعة .. هذه الساعة التي تلبسين !.. هل يخطر ببالك أنها ساعة جعفر بالذات !؟.. ألم يذكر فراس بأنه حين شاهدها في جنيف قال بأنها لاتليق إلا بك؟!.. وأنه يود منك أن تبتاعي مثلها لنفسك ؟.. ألم تعطه نقوداً لشرائها لحسابك؟..وماذا فعل بهذه النقود ؟.. أخذها لنفسه .. وحصل على الساعة من جعفر ،على أنها هدية لي .. لي أنا !!.. لا لك أنت !!..

سكتت ميساء .. جثم على الغرفة صمت لم يعد يسمع فيه سوى لهاثها .. نفضت رأسها فجأة كالملسوعة ، وصاحت ، وهي تكاد تبكي ..

ـ .. إن جميع ما طلبنا من فراس شراءه لحسابنا .. جميع ما ابتاعه لنا منذ عامين .. جميعه هدايا من جعفر !!.. يظن جعفر أنه غمرنا بهداياه ، في حين أننا ندفع ثمنها لفراس !!.. سيارة الفراري .. الحاجيات التي سخّرتُه بشرائها تهيئة لعرسي .. حتى الهدايا التي كنت أرسلها لمراد ، والتي كان يختارها فراس ، بدلا عني ، جميعها أشياء كنا ندفع ثمنها له ، فيضعه في جيبه ،ثم يطلبها من جعفر على أنها هدايا لي !!..

نهض زوج أنيسة وهو لايدري كيف يكبح جماح غضبه ، وسأل بصوت كأنه جاء من بئر عميق ..

ـ وأين فراس الآن ؟.. أين هو ؟!.. أين ؟!!..

قالت ميساء هازئة ..

ـ عاد البارحة إلى روما !.. لابد وأن هنالك صفقة جديدة دبرها مع جعفر !.. هدايا جديدة ادعى أننا طلبناها منه !..

لم ينطل كذب ميساء على أنيسة !..

« الفيراري »!.. المجوهرات !.. وألبسة « ديور »!.. والرحلات !.. من الذي تكفل إذن بدفع هذه الأموال الطائلة ؟!!.. أهلال الذي لم يترك لقطر حتى إدارة شؤون قصرها المالية ؟!.. أم أمها التي تود لو تمنع عن نفسها الطعام لشحّها ؟!..

لكنها صمتت !..

أخفت في نفسها إعجاباً بميساء لاحدود له !..

دار رأسها أمام هذه البهلوانية !..

سرها أن تبتدع الأختان هذا المخرج !..

سرها إنهما تطلبان موافقتها لاختيار ضحية !..

سرها أن قطر وميساء باتتا بحاجة إليها !..

بدت و كأنها متفرجة رومانية ، في حلبة مصارعة ، تنظر إلى من يمسك برمح مسلط فوق عنق خصم مستسلم ، مصارع ينتظر إشارة الجمهور.. فأشارت بإبهامها إلى الأسفل ، ووافقت نشوى على القتل !!..

اقترحت أنيسة وسائل جـــذرية للانتقام أخافت حتى ميساء ، فعارضتها ، على أنها ستُخرج هذه القضية إلى الملأ ، وأن في ذلك مايسيء لزواجها ..

لم يجد الجميع في النهاية حلاً خيراً من أبعاد فراس عن البلاد !.. فهو دمشقي الأصل ، وما على السلطات سوى منعه من الدخول لدى عـــودته من أوروبا .. وبذلك يلقى جزاءه ، وتموت هذه القضية في المهد !..

لم يخرج الزوجان من تلك السهرة إلا بعد أن أقسم الصحفي المتنفّذ أن يسعى أمام جميع من يعرفهم من المسؤولين لتحقيق هذا الغرض !..

سارع الضيفان إلى الرحيل لتنفيذ اتصالاتهما .. وتنفست الأختان الصعداء .. عادتا إلى الشرفة المطلة على العاصمة ، وجلستا ترتشفان القهوة بسرور ..

ضحكت ميساء بمرح ، وقالت لأختها متفاخرة ..

ـ أتدرين كم عصفوراً أصبت بحجر واحد ؟..

ـ .. كم ؟.. اثنين ؟..

ـ بل ثلاثة !.. الأول..هو تبرئتنا كلياً من هذه القضية بإلقائها على عاتق فراس !.. والثاني .. بادعائي أن جعفراً يسعى ورائي أنا ، لاوراءك ، وأن فراساً يعده بالوصول إلي ، أكون قد أزحت الأضواء عنك أمام الجميع ، فيما لو بقي هنالك من سيصر على إشراكنا في هذه التهمة .. وفي هذا ضمان لتبرئتك أمام هلال ، فيما لو وصله الخبر !..

بدا السرور واضحاً على وجه قطر ، فسألت أختها ، مدهوشة لذكائها ..

ـ .. والثالث ؟..

ـ والثالث ياعزيزتي ، وهو الأهم في نظري .. فبقولي إننا كنا ندفع ثمن الحلي نقداً لفراس، أكون قد قتلت البرهان المادي الوحيد الذي قد يثبت علاقتنا بجعفر !.. فما الذي يثبت علاقتنا به سوى حيازتنا على هـــداياه ؟.. إن لجميع الساعات التي أهدانا إياها أرقام متسلسلة ، يمكن إثبات أن جعفراً هو الذي ابتاعها من الشركة !.. حتى الساعة الماسية التي أهديتُها لمراد .. والسيارة الفراري التي في حيازتك .. جميع هذه الأشياء قرائن ضدنا .. فما رأيك بهذا المخرج الذي ابتكرت !؟..

ـ وفراس ياميساء .. ألا تظنين أننا قسونا عليه بهذه التهمة ؟..

تبسمت ميساء ، وأجابت ..

ـ من الجائز .. إلا أن فراساً لن يأبه لهـا !.. بل أظن أنه سيمتن لنا هـــذه الفرصة التي أتحناها له بالبعد عن زوجته التي يمقتها ، وعن هذه البلاد !..

عاد فراس من البحر يقطر بللا .. ووقف أمامي يجفف صـدره ثم رأسه ، يهزه ، ويقفز ذات اليمين وذات اليسار ليخرج ماعلق في أذنيه من ماء ..

سألني مبتسماً ..

ـ .. مالك تعجب مني ؟..

ـ .. أعجب من قدَرك الغريب !.. لكن .. لم تخبرني عما حدث لك حين عـدت من روما .. بعد مؤامرة ميساء ..

ـ .. جرت الأمور ببساطة مدهشة !.. أطلع عميد عائلة قطر على خطة الصحفي ، وسعى الاثنان لدى مصادر عليا .. فاستصدروا أمراً بعدم السماح لي بدخول البلاد !..

ـ وماذا فعلت ؟..

ـ ما إن أخبرت عن ذلك في المطار ، حتى عدت أدراجي إلى روما ، فرحاً بتلك المناسبة التي أتاحت لي الابتعاد نهائياً عن هذه الأجواء ..

ضحك ، وهز رأسه آسفاً ..

ـ لكن هذا الحلم لم يدم !.. إذ تبرعت عائـلة زوجتي ، ولها هي الأخرى عميـد يزاول السياسة ، فاستقصت خفايا هذه القضية من نفس جهات الأمن التي نفـذت هذا القرار !.. أتعلم ماذا قيل لنصيري ؟.. قيل له .. « فراس »؟.. إن صهركم هذا يسيء إلى العلاقات الدولية للبلاد !.. يوقع بين شرقها وغربها .. وعلى مستويات ولا أعلى !.. فما كان من نصيري إلا أن اجتمع بعميد عائلة قطر ، وهدده ، إن هو لم يسع لإلغـاء أمر الإبعاد لدى نفس الجهات التي أصدرته ، فإنه سيعقد مؤتمراً صحفياً يدلي فيه بجميـع تفاصيل هذه القصة ، من بدايتها ، بما في ذلك جميـع مايدور بين قطر الندى وجعفر !..

ـ ومن أين لنصيرك بهذه التفاصيل ؟..

ـ من زوجتي التي جن جنونها لما رأتني طليقاً في أوروبا !..

ـ وماذا كان جواب عميد عائلة قطر ؟..

ـ أذعن على الفور !.. وألغى منع الدخول بأقل من أربـع وعشرين ساعة !..

ـ .. وبعد ؟..

ـ وبعد .. عدت !.. وها نحن في العاصمة .. نسبح على شواطىء بحرها !!..

أثارني بروده ، وعدم اكتراثه بما كان يرويه لي ..

ثرت لخيانة صديقتيه له في مجال تجاوز حيز المغامرات العاطفية !..
صحت به أستحث أبسط الانفعالات الطبيعية فيه ..
ـ .. كيف تغضب لما حدث!.. كيف لم تثر عليها ؟!..
ـ وماذا يجدي أن أقوم بذلك ؟..
نظرت إليه متعجباً .. ثم هازئاً ، وقلت ..
ـ لاتقل ، أرجوك ، إنك لم تجد غرابة في كل ماحدث ؟!..
ضحك من ثورتي وأجاب ..
ـ بالضبط !.. بل كنت أتوقع !..
ـ ...!
ـ لاتعجب !.. حدث أثناء رحلتنا الأولى أن تحدثنا طويلا عن الخير والشر .. أذكر أنني هزئت من هذه المفاهيم أمامها ، وفندتها حتى أقنعتهما بمحاكماتي !.. ثم تحدثنا عن تدارك عواقب مالحقهما من شائعات ، إلى أن اقترحت بنفسي عليهما أن يوقعا علي باللوم فيما لو افتضح أمرهما ، واضطرتا إلى إيجاد من يحمل الشائعات عنهما !..
صحت به ، وقد زاد كلامه من انفعالي ..
ـ .. وتجد من الطبيعي لهما أن تعملا بهذه النصيحة ؟.. أن تحاولا الإيقاع بك فعلا ، متجاوزتين ما أظهرته لهما من محبة في عرضك التضحية بنفسك من أجلهما ؟..
ـ إنهما لاتفهمان سوى مصلحتهما الشخصية !..
كدت أصيح به نزقاً .. لكنني تمالكت نفسي ..
ـ حسناً !.. لكن .. ألا يهزك استهتارهما هذا ؟!.. أفهمُ أنك لن تقوم بشيء حيال خيانتهما ، لكن .. ألم تشمئز لذلك ؟!.. ألا ترى إلام أوصلهما استخفافهما بالأخلاق !.. ومعنى أن تقوما بتطبيق مفاهيمك ؟!..
تبسم طويلا .. ثم قال ساهماً ..
ـ اشمئز ؟.. لا .. أهزأ إذ أراهما تحلقان نحو الحضيض !..
ـ وأنت ؟.. ألمفاهيمك معنى آخر ؟.. أتظن أنك أقوى من الخير والشر ؟..

هز رأسه نافياً .. ثم تابع والابتسامة نفسها على شفتيه ..

ـ .. لا أخاف إلا من شيء واحد ..

ـ أنت ؟.. تخاف ؟!..

هز رأسه بالإيجاب ..

ـ أخاف يوماً .. أن أسقط إلى أعلى !..

انقضت برهة قبل أن أسأله ..

ـ وبرقيتك التي حيرتني .. استدعاؤك لي ..

ـ .. سأخبرك عن ذلك في حينه .. تمهل ياصديقي ، تمهل .. لاتزال أمامك مفاجآت كثيرة !..

كنت أدرك أن برقيته تتعلق بشيء خطير بالنسبة له ، وإلا لما صاغها بذلك الشكل !..

كان علي ألا أستعجله بشأنها .. لكني أتيت من جنيف خصيصاً لاستوضحه أمرها ، فلم أستطع السكوت طويلا ..

عدت إلى الحديث .. طارقاً باباً مجاوراً لذلك الموضوع ..

ـ ومتى عدت من أوروبا بالضبط ؟..

ـ منذ شهر ونصف تقريباً ..

ـ هل رأيت قطر أو ميساء ، خلالها ؟..

ـ لا .. ولم أحاول ذلك ..

ـ وهما ؟.. كيف تصرفتا ؟..

ـ تظاهرتا بالعجب أمام زوجتي من انقطاعي عنها .. لا أكثر ولا أقل !..

ـ كيف ؟.. أتذهب زوجتك لزيارتها .. بعد الذي بدر منها ؟..

ضحك ..

ـ تدعيان أن لاعلاقة لهما البتة في كل ماحدث !.. وتصبّان كل اللوم في أمر منعي من دخول البلاد .. على صديقهما الصحفي !..

ـ حقاً !؟..

ـ تقولان إنه استنتج تلك الرواية دون عون منهما ، واتفق مع عميد عائلتها على القيام بتلك الخطوة ضدي .. دون علم منهما !..

ـ إذن .. ستنقضي زيارتي ، مرة أخرى ، دون التعرف إليهما !..

عاد فراس إلى الضحك ..

ـ .. من حسن حظك !.. وإلا فمن يدريك أنهما لن توقعا بك في مأزق ، أنت الآخر ؟!..

أطرق قليلا ، ثم قال بلهجة جادة ..

ـ أظن أن دور البرقية قد أتى .. أتدري أين هما الآن ؟..

ـ أين ؟..

ـ .. أقلعت طائرتها إلى بلاد مراد منذ أسبوع !.. سيتم زفاف ميساء هناك بعد خمسة أيام !..

ـ .. وأنت ؟.. ألن تحضر الزفاف ؟.. زفاف مراد !.. كيف لم تصرا على دعوتك ؟.. هل نسيتا ما يربطك بها ؟..

تبسم هازئاً ..

ـ بالضبط !.. لم تنسيا ذلك !.. كيف تودان لي حضور هذا الزفاف ، بعد الذي قامتا به ضدي ؟.. وهل من المعقول أن تحضر ميساء « سيف ديموكليس » معها إلى زفافها ؟.. لابد أنها حضَّرت مراد لغيابي .. أظن أنها روت له نفس ما روته لصديقها الصحفي عن دوري المزعوم هذا في محاولتي إحباط زواجها ، أملاً مني في إرضاء جعفر ، والحصول على المال منه !..

نظرتُ إليه ملياً .. محاولاً فهم حقيقة شعوره إزاء ما يرويه لي..إزاءتطور علاقته بالأختين على ذلك الشكل..

أحسست أنه يفكر بأمر آخر .. كأنه لايابه لكل ما جرى ، أمر آخر يخفيه عني !..

سألت عن ذلك.. وألححت عليه ، إلى أن أفاق من شروده ..

قال ، ساهماً ..

ـ إنها البرقية ياصديقي .. البرقية !.. أما المجهول الذي حدثتك عنه ،فلم أعـد أدري ما إذا كنت أخاف منه على نفسي ، أم أخافه ، لما سيُفتّق في نفسي !..

ـ أي مجهول هذا ؟.. ألم يؤن الأوان بعد كي توضح لي هذا الأمر ؟.. بالله عليك تكلم !..

ـ حسناً .. إليك ماحدث !..

أطرق برهة يسترجع ذاكرته ..

جلس إلى الظل ، على حافة شرفة الكوخ .. وقال ..

ـ .. رن جرس الهاتف في اليوم الذي تلا سفر ميساء وقطر ، وإذا بسفير بـلاد مراد على الهاتف ، يعجب من عدم مرافقتي ميساء لحضور عرس أميره !.. ويُبلغني دعوة الأمير مراد لي لحضور زفافه ، والسفر إلى بلاده في أقرب وقت ممكن !..ماذا كان بإمكاني أن أقول ؟!.. ادعيت أن توعكاً ألم بي ، وأنني لن أستطيع حضـور الزفاف ، ثم رجوته أن يبلغ اعتـذاري وامتناني للأمير !.. وإذابالسفير ، في اليوم التالي ، يأتي لزيارتي ، ويخبرني أنه ُطلب إليه أن يصر علي دعوتي ، وأن يستوثق من صحة ما ادعيت !.. ولما لم يعد بإمكاني إدعاء المرض أمامه ، لم أجد بداً من اطلاعـه على أن مشادات قد حصلت بيني وبين ميساء ، يستحيل علي ازاءها أن أحضر زفافها!.

صمت فراس .. دخل الكوخ ، ثم صاح من داخله ..

ـ .. ظننت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد !..

ولما خرج وبيده زجاجة شراب بارد ، عاد إلى الجلوس..ونظر إلى البحر طويلاً ، ثم قال ..

ـ .. عاد السفير إلى زيارتي بعد أيام.. والاضطراب باد على وجهه ..حار في البدء فيما يقول .. ثم استحلفني أن أتفهم موقفه ، وقال « .. أرجوك .. لقد أتتني أوامر مشددة لأبذل المستحيل في إرسالك إلى بلادي !.. خفية ، هذه المرة !..» لم أفهم ماذا عناه ، ولما استوضحته ، أجاب متلعثماً .. « إنها الأميرة نائلة .. وليس الأمير مراد!.

إنها تطلب إليك الحضور ، تستحلفك بكل ماهو عزيز لديك !.. تقول إنه إن كان للأمير أخيها معزة عندك ، إذ أن القضيـــة تتعلق بسعادة مراد ، فإنهـا تطلب منك الحضور خفية إلى بلادهـا ، ولو اقتضى الأمر أن تستقل طائرة خاصة تضعهـــا تحت تصرفك متى شئت !.. » ثم أنهى حديثـــه ، فقال : « على أن تصل قبل الزفاف ، وتتصل بها من خارج القصر إلى هذا الرقم » .. ثم مد لي بورقة عليها رقم هاتف في عاصمة بلاده !..

أجبته بعد تردد طويل ..

ـ لقد اختلط علي الأمر يافراس !.. القضية لم تعد دعوة لحضور زفاف مراد!.. وما علاقة نائلة بهذا كله !.. ولم التخفي ..؟.. لم أعد أفهم !!..

ـ .. ولا أنا !.. لذا أبرقت إليك بالحضور !.. لقد أبرقت لـــك أثر خروج السفير من داري ..

ـ وهل تنوي الذهاب ؟..

ـ بمَ تنصحني ؟..

ـ لئن أبرقت لي بذلك النص .. فلأنك ذاهب !.. مافائدة النصح إن جـاء مخالفاً لما قررت ؟!.. لكن .. ألم تقل لي أن الزفاف بعد خمسة أيام ؟..

ـ نعم !..

ـ ومتى تسافر ؟..

ـ قل .. متى نسافر ؟!..

ـ .. ماذا ؟!..

ـ سنسافر سوية ياصديقي .. بعد غد !..

* * *

الفصل الثاني

لست في قرارتي من الذين تستهويهم المغامرة ، ولا طاقة لي على تحمل توترها سوى على الورق !.. ومع ذلك وجدتني أنصاع لندائها شبه مرغم ، أستقل الطائرة مع فراس ، يخفق قلبي ، تارة خوفاً ، وتارة تحفزاً لما سأشارك فيه من قدر مجهول ..

لم أعد أذكر كيف مرت ساعات تلك الرحلة الطويلة ..

رحت ، في توثبي ، أمطره بأسئلة لا طائل من ورائها ، أحاول أن أحضّر نفسي لما قد ألقاه في بلاد لا أعرف عنها سوى النـــزر اليسير ، فأستزيده الإيضاح عن مراد وصحبه ، ثم عن نائلة ، وما حل بها طيلة السنوات التي غابت عنها ميساء ..

.. لم أحصل منه سوى على إجابات مقتضبة ، أو ابتسامات مهذبة !..

أخذتُ أقلّب في رأسي كيف تقبّلت نائلة إهمال ميساء لها ، منذ ظنت أنها قـد حصلت على مراد ، وأنها لم تعد بحاجة إلى مساعدة أخته ..

ترى هل حرضت نائلة أخاها على إهمال ميساء ..حنقاً عليها ، أم ضنّاً من أن تراها في سريره ؟..

أم كان ذلك لقناعة منها بأن ميساء لاتصلح بالفعل لأن تكون زوجة له ؟!..

كنت قد رأيت نائلة مرة في جنيف، فاسترعى انتباهي شموخها ، وطلتها الأبية !.. سحرتني نظراتها الباحثة المنقبة ، ثم أعجبتُ بطلاقة لسانها واتزان كلامها .. لا ، ليس عنـــد نائلة حلول أميرات الشرق المرتجلة ، ولا تهوى اندفاعهن وراء انفعالاتهن المفاجئة ونزقهن !..

لماذا استدعت فراساً بهذا الإلحاح ؟.. ما الذي هيأته ؟..

هل أخطأت في مصاحبتي صديقي ؟.. ألم يجدر بي أن أبقى خلف الستار ، بعيداً عن الأخطار حتى النهاية ؟!..

لكن ، لا .. كان علي أن أعيش عن كثب ، ولو مرحلة قصيرة من هذه الأسطورة .. كان علي أن أرى بنفسي ، لكي أصدق !..

لم يطل ترقبي !..

ما إن حطت الطائرة ، حتى تكشف الظلام عن سيارة سوداء أقبلت مسرعة نحو السلم لتتلقف فراساً ، ولم تكن قدماه بعد قد وطأتا أرض المطار !..

صُعقت لما حدث !..

وقفتُ وحيداً كالمشدوه لا أدري ماذا أفعل .. أو إلى أين أتجه !..

كيف اختفى فراس ؟.. لابد أنها أحدى سيارات القصر !..

أين ذهبت به ؟.. ماذا سيحل بي أنا ؟!..

تلكأ بعض المسافرين يتعجبون لما شاهدوا !.. لحظات ، وإذا بالسيارة تتوقف بعيداً ، وسائقها يخرج منها مشيراً إلي أن أتقدم بسرعة !..

كرر إشارته .. وأصر على استعجالي حتى كدت أركض نحوه ، وما إن اقتربت منه ، حتى دعاني إلى الصعود ، والجلوس في المقعد الأمامي إلى جانبه .. ثم انطلق بنا مسرعاً ، خارج المطار !..

سلك درباً جانبياً يحرسه رجلان ، انتصبا بالتحية الرسمية إذ مررنا إزاءهما ، ثم استقل طريقا عريضة تكاد تكون مظلمة ، بدت وكأنها تطوق المدينة ..

جلست لا أجرؤ على الحركة ..

مرت دقائق .. عاد السائق بعدها إلى القيادة على مهل..

قلت في نفسي .. « لو أن فراساً قصّ عليّ ذلك ، لصحت به متعجباً .. كيف دخل سيارة لايعرف أصحابها .. كيف نسي متاعه .. وكيف خرج من المطار دون أن يطالب به » .. لكني صمتّ !!.. صمتّ رغم أصوات باهتة في داخلي راحت تصيح إن مثل هذه الأمور لايمكن أن تحدث لي أنا ، وإن علي أن أرفضها !..

أحسست فجأة بالسكون الذي يحيط بي .. ولم أجرؤ على الالتفات إلى الوراء ..
تململت في النهاية في مقعدي ، وإذا بي أسمع فحيحاً يأتي من زجاج خلفي كنت قد أسندت رأسي إليه ..
استدرت أبحث عن مصدر الصوت لأرى يداً سمراء نزقة نحيلة ، تخرج من الظلام ، لتزيح زجاجاً مانعاً للصوت يفصل المقاعد الأمامية عما يجري في الخلف ..

أتاني صوت ، أدركت أنه صوت الأميرة نائلة ..
ـ أرجو المعذرة لهذه الهفوة .. لم نكن نعلم بأن فراساً جاء بصحبة صديق !..
أدرت رأسي بعض الشيء لألمح طيفها في الظلام ، وتمتمتُ بعبارات لا أذكر معناها ..
هممت أن أستدير كلية لأرى محدثتي ، أو فراساً ، أو مايجرى بينها ، وإذا بالفحيح يعود على عجل .. وباليد السمراء تغلق الزجاج الفاصل بيننا من جديد ..

عدت إلى الصمت ، إلى أن توقفت السيارة بعد فترة على مفترق طرق ناءٍ ..
لم يكن السائق قد أوقف المحرك ، فلم أكد أترجل منها ، تلبية لإشارته ، حتى انطلق مرة أخرى ، بعيداً عني .. وتركني وحيداً في الظلام !..
نظرت حولي ، وإذ بفراس واقفاً أمامي ..
كان قد ترجل هو الآخر ، وراح ينظر إلى سيارة أخرى كانت تقف في انتظارنا ، على مقربة منا ، تحمل متاعنا ، وسائقها ينتظر منا الإشارة ..
هممت بالكلام .. فاستمهلني بحركة تنم عن شرود لايود الخروج منه ..

أقلتنا تلك السيارة إلى فندق دخلته ساهما ، واجماً ، أنا الآخر !..
جلست على طرف سريري أنظر إلى صديقي الذي جلس يحدق بصمت إلى الهاتف الذي قربه ..
قلت في النهاية بنزق ..
ـ ألن تحدثني عما جرى بينكما ؟..
ـ بلى .. بلى ..
لكنه لم يتكلم ..

مضت فترة طويلة وأنا أتابع التحديق إليه ، وهو ساهم عني ، يحدق بالهاتف !..

لم يعد باستطاعتي الصبر على صمته ، فعلا صوتي ..

ـ أنا معك في هذه القضية !.. هل نسيتني ؟!.. ألا يحق لي ..

اسكتني جرس الهاتف الذي راح يدق بالحاح لم ينقطع حتى رفع فراس السماعة إلى أذنه ..

ـ ألو !.. نعم ، نعم .. نعم .. نعم .. متى ؟.. حسناً .. وهو كذلك .. إلى اللقاء ..

ثم أعاد السماعة إلى مكانها ..

أحسست ، وهو ينظر إلي ، كأن قوة قد أفرغت من عينيه الضوء والحياة !..

ـ مالك يافراس ؟!.. أرجوك !.. حدثني !!..

أشعل لفافة ..

ـ مراد سيأتي .. في الواحدة صباحاً ، ليقلني إلى قصره الصيفي !..

ـ مراد ؟.. ماذا تقول !.. أليست هـذه الليلة حفلة زفافه ؟!.. ومن أين كلمك ؟..

ـ من القصر ..

ـ والحفل ؟.. قل !.. أليس حفل زفافه اليوم ؟!.

ـ بل هذه الليلة بالذات !..

ـ إذن ؟!.. وهل أرجىء الموعد ؟!..

ـ .. على العكس .. الحفل قائم !..

التبس علي الأمر !..

راودني شعور ملح بالغربة كدت إزاءه أحمل حقيبتي وأخرج من الفندق إلى غير عودة ، بعيداً عن فراس ، عما يجري حولي ، عما يحيطني ، ولا أفهم منه شيئاً !..

وإذا بفراس يتنهد طويلا ..

ـ .. كيف كان لي أن أتوقع ذلك ؟..

كان في لهجته من الاستسلام ، والضياع ، ما أعادني إليه ..

سألته بهدوء ، ومحبة ..

ـ أرجوك .. أطلعني ..

ـ .. لم يكن مراد على علم بقدومنا ، ولا بما دبرته أخته !.. لقد هيأت نائلة الأمر بمفردها ، ثم تسللت من الحفل إلى المطار ، كي تستوثق من وصولي ، وتطلعني على خطتها !.. أطلعتني على كل شيء حين كنا في السيارة منذ فترة !.. ماذا كان بإمكاني أن أجيبها ؟.. سألتها ما إذا كان مراد يحبذ حقاً ذلك .. فقالت « مراد ؟.. إنه سيطير فرحاً حين أخبره بما هيأته له » .. وها هو مراد يؤكد لي كلامها !.. سيأتي في الواحدة صباحاً ليقلني معه إلى قصره الصيفي !..

كان ينظر بعيداً .. ينفث الدخان باستسلام تحول شيئاً فشيئاً إلى توتر وتصميم !.. أخذ ينقر لفافته على طرف المنفضة ، وهو يقول ..

ـ لابد أنك تذكر .. دعاني في الماضي إلى ذلك القصر ..

ـ أذكر !.. لكن وقتاً طويلا قد مضى على تلك الدعوة !.. ثم .. إن هذه ليلة زفافه !..

ـ إنها ليلة انتقام نائلة !..

ـ انتقام نائلة ؟!..

هز فراس رأسه بالإيجاب ، وقال ..

ـ .. سيترك مراد الحفلة دون أن يشعر بذلك أحد .. ولن تجد ميساء من يأوي معها هذه الليلة .. ستأوي إلى فراش زفافها وحيدة !..

سكت برهة ، ثم تابع واجما ..

ـ .. بينما أكون مع مراد .. بصحبة ثلاث فتيات .. غانيات، ينتظروننا في قصره الصيفي !..

كان فراس قد استعاد هدوءه ، واسترجعت أنا أنفاسي .. فرحنا نحدق ببعضنا بصمت ، يشعر كل منا أن الآخر يفهم جميع مايدور في رأسه من هواجس !..

لست أدري كيف يتقبل الشرق هذه الوقائع ، ولن أقف ، كما تعودت ، لأناقشه فيها .. أو لأحاول فهمه !.. أحسست في تلك اللحظة أنني ، فيما خلا المحبة التي تربطني بفراس ، فلا رابط آخر يجمعني به ، ولا من حب يمكن أن يقوم بيني وبين هذا العالم الذي ينتمي صديقي إليه !..

لست أطاق الأحكام على مايجري في عالمه .. ولم أشأ ، حتى ذلك الحين ، أن أستحث فراساً على القيام بذلك .. رأيت في عينيه الفاغرتين ، الشاردتين ، أنه يعلم حق العلم مايجول في خاطري ..

رأيت في عينيه الغرب ، يدرك معنى ماهو مقبل عليه .. والشرق ، ينزلق مع مايسوقه إليه القدر ، غير آبه لما سيحل به !..

نظرت إلى ساعتي ، وهممت أن أذكر فراساً بموعد وصول مراد الذي اقترب .. فإذا بجرس الهاتف يعود إلى الرنين ..

تحدث فراس إلى مراد ، ثم أعاد السماعة وقال على عجل ..

ـ سيصل مراد بين لحظة وأخرى !..

فوجئت بسرعة قدومه .. فوجدتني أنسى حيرتي ، وأقول مرغماً ، مرتبكاً ..

ـ .. كيف تذهب ؟!.. والعرس القائم !.. وميساء ، وجميع أفراد العائلة ، والمدعوون ؟!.. لابد أن أحداً سيشعر باختفائه .. بربك قل لي .. ماذا سيحدث؟!. .. مابك يافراس ؟.. ستكون فضيحة مابعدها فضيحة !..

هز رأسه ..

ـ لقد أطلعني مراد الآن أنه انسحب من توه أمام الجميع.. مع ميساء ..على أنهما سيأويان إلى النوم .. فهلل المدعوون لذلك !.. أدخل زوجته غرفتها ، على أن يعود إليها بعد دقائق ، وخرج خفية من القصر !.. إنه في طريقه إلينا !..

تنبهت إلى أنني سأبقى وحيداً بعد ذهابه ، فهوّم علي إحساس مقيت ..
صحت لاهثاً ..
ـ ليس لي من شاغل هنا سوى انتظارك .. متى ستعود ؟..
ـ غداً ..
ـ .. ومن يدريك ما إذا كان مراد سيأذن لك بالعودة غداً ؟!.. ستكون رهن إشارته في ذلك القصر البعيد .. هل نسيت ذلك ؟..
ـ لا ، لم أنس !.. لذلك اشترطت على نائلة ، قبل أن أقبل الذهاب ، أن تضمن عودتي غداً من ذلك القصر !.. إنها تعرف أخاها حق المعرفة ، لذلك أمرت سائقها، واثنين من أتباعها ، أن يكونوا غداً ، في انتظاري .. خفية ، خارج القصر .. فيما لو اضطررت إلى تركه دون موافقة مراد !..
ـ أتظن أن الأمور قد تصل إلى هذا الحد ؟..
ـ .. من يدري !..

لم يكد ينهي قوله حتى سمعنا بوق سيارة مراد ..
أسرع فراس نحو الباب ، ثم توقف .. واستدار نحوي ..
نظر إلي بإمعان ، وقال مبتسماً بحزن ..
ـ .. لقد أخطأت في حكمك علي !..
باغتني قوله ..
ـ أخطأت ؟.. فيم ؟.. وهل قلت شيئاً لأخطىء ؟..
ـ عيناك قالتا الكثير !.. ليس فيما أنا مقدم عليه مغامرة عابرة استهوتني طرافتها أو غرابتها !.. لست مسؤولاً في هذا الكون سوى أمام نفسي !.. هنالك أمور أبحث عنها أنا الآخر !.. أمور أود أن أعرفها عن نفسي !..

خفّ وقع أقدامه وراء الباب الذي أغلقه خلفه .. ثم اختفى ...

* * *

الفصل الثالث

مضت ساعات لم أعد أذكر شيئاً مما جال في خاطري فيها ..

ساعات قضيتها بين المقعد ، والنافذة ، والسرير .. أتنقل بينها ، أقوم إلى النافذة هارباً من ضيقي ومن توجسي ، فيزيد الظلام من تطيري وتشاؤمي ، وتمعن الأصوات الخارجية الغريبة في تعذيبي !.. أصوات لم آلفها ، تذكرني بأنني على بعد ألوف الأميال من بلدي ، بعيد عن أناس أستطيع التحدث إليهم .. أو الاستنجاد بهم !..

حاولت النوم .. أطفأت النور أستدعي أفكاراً تحملني عادة على النعاس ، دون جدوى !..

لجأت في النهاية إلى أقراصي المنومة ، فلم تفلح هذه سوى في حث أعضاء جسدي على الاسترخاء ، بينما بقيت عيناي مفتوحتين .. تحدقان في الظلام إلى صور ودوائر ورسوم ذات ألوان غريبة ، كان خيالي يحركها ، فتتراءى لي وكأنها مرسومة على الجدران المظلمة !..

لست أذكر كيف تسلم لاشعوري القياد ، فانزلقت في تلافيف حلم سرعان ما انقلب إلى كابوس مفزع تهت بين تضاريسه !..

انتابني ذعر ماعرفت مثله حتى ذلك اليوم ..

أردت الصراخ والبكاء .. بل أظنني بكيت دون وعي .. أحاول عبثاً أن أتخلص منه !..

لم يجدني هاتف كان يذكرني أن ما أراه لايمكن أن يكون واقعاً .. وأنني لابد أحلم !..

رأيت .. في ليل بهيم، جسد فراس عارياً .. مشدوداً بحبل غليظ إلى عامود شاهق الطول ، تدور حوله أفعى رقطاء مروعة ، لفت حول ساقيه وجذعه ، وأخذت تنهش من صدره ومن كتفيه .. لحماً ، ترميه إلى مخلوقات مفزعة .. تجمعت حول أسفل العامود ، تتسابق لتتلقفها.. تأكلها بنهم عجيب ، بينما يسيل الدم على شفاهها .. وينفر من عيونها وآذانها كلعاب غزير !..

رأيت نفسي محلقاً ، أسبح في الهواء ،أطير حول العامود وألف.. دون أن أقترب منه ، أخاف الأفعى ، فلا أقوى على فك أسر صديقي .. ولا أجرؤ على منع تلك المخلوقات عنه ،خوفاً من أن تربطني إلى ذلك العامود ..

رحت أتوسل إليها !.. أصيح بملء صوتي ، وبمجامع أحشائي ، فلا يند عني سوى أنين لايسمعه غيري !..

أحصي فجأة عدد تلك المخلوقات ، فأتبين أنها خمس ، وأدرك أن وراء وجوهها المشوهة السوداء تكمن نفوس خمس نساء أعرفهن حق المعرفة !..

.. تصيح إحداهن بي ، بصوت مخيف ، ألا أخبر أحداً عما أراه .. وإلا نابني نفس المصير ، فأدرك من صوتها أنها نائلة ، وأن اللواتي حولها لسن سوى قطر الندى ، وميساء ، ودرة ،وزوجة فراس، تصحن بي.. صوتاً واحداً ألا أفتح فمي ، أن أمزق رواياتي التي أكتب.. أن أسكت إلى الأبد .. وإلا !!..

أطير هلعاً .. وأذكر نبوءة الساحرات لـ « مكبث » !..

أنظر إلى فراس ..فأذكر القديس « سيباستيان » ، فأنهر نفسي ، كيف تجول في خاطري مثل هذه الصور ، بينما الأفعى تمزق صديقي إربا !..

يأتيني خاطر بأني أحلم .. فأعود إلى البكاء ، وأصيح إنني لم أشأ هذا الكابوس ، ولا أود لفراس هذا المصير في لاشعوري !..

أسترحم المخلوقات !.. أقترب منهن ، فيبعدنني بأيديهن، يقفزن في الهواء محاولات الإمساك بي ، ثم يضربنني بقطع من لحم فراس ، تصيبني واحدة منها على صدري ، فتلتصق بي !..

أشعر بلسعها .. فأصاب بغثيان .. وأدرك أنني أنا الآخر عار ، وأن قطع اللحم هذه بدأت تتسع وتمتد على جسدي فتحيط به .. وتصبح جزءاً منه !..

أرى الأفعى ، فأنتبه إلى أنها قد بدأت تتمطّط وتتمطّط .. محاولة اللحاق بي في الجو محاولة افتراسي !.. فأطير عالياً مبتعداً عن شهيقها وفحيحها اللذين بدأا يجذبانني نحوها !..

أبكي .. وأنتحب من الخوف والهلع !!..

تتعب ذراعي من الجهد ، وتضعف مقدرتي على الطيران .. الأفعى .. رأس الأفعى !.. زعيق المخلوقات !!.. أصواتهن المدوية !!.. ووعيدهن لي إن تكلمت أو تفوهت بشيء !!.. تفتح الأفعى فكيها عن نابين هائلتين وتضربني بلسانها على وجهي .. فتفقأ عيني .. وتسيل دمائي في كل مكان !..

تتكلم الأفعى .. فأسمع صوت مراد ، وهلال .. ثم صوت البدر والسلطان !.. أصوات تنبع من أعماق جهنم .. تصيح بي .. « ويلك إن تكلمت .. ويلك إن بحت بما تعرفه لأحد » !!..

أهيم في الظلمة الدامسة .. أضرب ذراعيّ في الهواء بلا وعي محاولا التحليق بعيداً ، أحس بنابيّ الأفعى وقد انقضتا على كتفي الأيمن ، تمنعاني من الابتعاد .. تنهشان كتفي الأيسر .. وتهزاني هزاً عنيفاً !..

أكف عن الطيران ، أو أفقد مقدرتي عليه ، فأهوي وأهوي ، مع الأفعى ، في فوهة بركان سحيق ، لاقاع له !..

أسمع أصواتاً تناديني من بعيد .. نابا الأفعى لاتتركان كتفي .. صوتٌ أعرفه يناديني من بعد سحيق .. يعلو .. ثم يعلو .. ويدوي ..

ـ .. قم !.. أرجوك !.. استيقظ !..

فتحت عيني مـــذعوراً ، ورحت أضرب جسداً أمامي ، إلى أن رأيت فراساً ، ثم أدركت أنني أضرب جسده ..

كان يهزني من كتفي ، محاولاً إيقاظي من هذا الكابوس !..

ـ لابأس عليك .. قم .. حلم مزعج .. لابأس عليك ..

مسحت بللاً عن خدي ، وقلت ..

ـ أنت هنا ؟.. متى عدت ؟.. كم الساعة الآن ..

.. وضممته إلى صدري طويلاً ..

ساعدني على الاستواء في فراشي ، بينما رحت أمسح دموعي التي ملأت وجهي ، وأكرر السؤال ، فأجاب ..

ـ منذ برهة .. منذ فترة وجيزة !.. إنه الصباح .. قم ، لاعليك ..

نظر إلي معتذراً عما بوده قوله ، ثم استجمع قواه ..

ـ .. أرجوك أن تعذرني لما سأطلبه منك .. لكن ، علينا أن نغادر المدينة بأسرع وقت !..

كدت أقفز من فراشي ، ولم أكن بعد قد نسيت رعب الحلم ..

ـ لماذا ؟.. هل حل مكروه بأحد ؟.. قل !..

ـ .. لا .. لقد عدت من القصر دون علم مراد ، وأود ترك المدينة قبل أن يصحو من نومه !..

كانت ساعتي تشير إلى الواحدة بعد الظهر ، نظرت إليه مستغرباً ، فأجاب ..

ــ لقد استغرقت عودتي ساعتين .. لا أظن أننا هجعنا إلى النوم قبل السادسة أو السابعة من صباح هذا اليوم ، لذلك لا أظن أن مراداً سيصحو من نومه قبل المساء .. لكن .. هل كنت تود البقاء هنا أياماً ؟..

قفزت هذه المرة من فراشي بالفعل ، قلت ، وأنا أجمع ثيابي ..

ــ ليس مايسعدني أكثر من الرحيل ، الآن !..

ــ لنتهيأ إذن .. سأطلب من نائلة أن تترك لنا سائقها ليقودنا إلى المطار ..

وقام إلى الهاتف يكلم القصر ..

* * *

لا أذكر من طريق العودة سوى ألوان زاهية رائعة ، أقحمت على صخب أفكاري شعوراً بالأسف على تركي ذلك البلد الجميل ، ولم أر بعد من سحره شيئاً ..

جهدت في إخفاء تطيري عن فراس .. كنت أتحين التفاته إلى البيوت الناصعة البياض ، لأنظر في المرآة الخلفية ، متبيناً ما إذا كان هنالك من يتبعنا .. فأهدأ حين لا أرى أحداً .. وأود لو استحث السائق على الإسراع كأني لن أنجو من كارثة محققة إلا بإقلاع الطائرة نحو الغرب ، نحو بلادي ، ونحو باريس بالذات !..

ورغم قلقي .. وجدتني أسأل فراساً ..

ــ .. ألن تحدثني عما مر بك البارحة ؟..

ــ الآن ؟.. لا .. فيما بعد !.. سأخبرك متى هدأت أعصابك .. في باريس !..

ــ .. ولا أدري متى ستعود إلى باريس !..

ــ .. من قال لك إني سأبرحها ؟..

أدرت وجهي إليه ، أنظر إلى عينيه مستوثقاً مما يقول .. أيقنت أنه جاد في قوله ، فسألته متعجباً ..

ـ وهل ستطيل الإقامة في باريس ؟.. متى ستعود إلى بلادك ؟..
تلكأ ، ثم قال مبتسماً ..
ـ لا أظن أنني سأعود !.. سوى فيما يتعلق بإنهاء علاقاتي المالية فيها !..

صمت .. أدركت أن فراساً قد اتخذ قراراً حاسماً ، فلم أشأ أن أناقشه فيه .. أرجأت ذلك إلى وقت أكون فيه قد جمعت هدوئي وسكينتي ..

لم أشأ حتى النظر إلى وجه السائق وهو يودعنا .. أليس سائق نائلة ؟.. أحد من يدورون في فلك الأمراء والأميرات ؟..

وارتقيت سلم الطائرة مسرعاً .. وإذ جلست أشد حزام مقعدي ، أكثر من أي وقت مضى ، كأني أخاف أن تقلع الطائرة بدوني ، دوى هدير النفاثات الأربع ، فأفعم نفسي شعور ارتحت إليه ، كمن يأنس لسماع صوت من طفولته ..

لابد أن مظهري أنبأ فراساً عن غبطتي بالرحيل ، فقال مازحاً ..
ـ هلا تحسست أعضاءك .. لترى ما إذا كانت جميعها سالمة ؟..
قلت وأنا أتنهد ..
ـ جميعها سالم .. والحمد لله !..
ـ هل لك بكأس ؟..
وإذ عادت المضيفة لنا بما طلبناه ، رفع فراس كأسه ، وقال مازحاً ..
ـ لابأس إن قلدنا الرعاع ، ولو مرة واحدة ، في شرب الأنخاب !.. أود أن أشرب نخب حريتي !..
ضحكنا طويلا .. وشربنا أكثر من نخب ..

مرت الساعات في أحاديث شتى .. لا أذكر منها سوى أني فوجئت بقوله ، وكنا قد أشرفنا على باريس ..
ـ أتدري بماذا أخبرتني نائلة هذا الصباح .. على الهاتف ؟..
ـ بماذا ؟.. لقد سهوتُ أن أسألك عن ذلك !..

ـ لم تسهب في وصف ماحدث بعد ذهاب مراد .. قالت « .. بعـــد أن طال انتظار ميساء ، أدركت أن مراداً لن يأت إلى غرفتها ، فقامت .. في الثالثة صباحاً ، تقرع بابي أنا » !!..

سألته ، أكاد لا أصدق ماسمعت ..

ـ باب نائلة !؟ ليلة زفافها ؟!.. وهل تركتها تدخل ؟..

ـ من يدري !.. نائلة تقول إنها تركتها تقرع طويلاً ، بينما وقفت هي ، إلى طرف الباب الآخر ، تبتسم .. متشفية بهزيمة ميساء !.. لكن .. من يدري !؟..

* * *

وفي تلك المدينة التي احتفلت أمس بزفاف أمـــيرها .. وفي ذلك القصر الأبيض النائي المحاط بأمواج من الزنبق والبنفسج والورد والصنوبر .. تمددت ميساء على سريرها جاحظة العينين .. كمومياء جميلة لا أحشاء لها ..

جلست في العاشرة صباحاً أمام المرآة تسوي زينتها ، ثم خرجت إلى ضيوفها وقـد أسدلت على وجهها سدولاً من الإرادة والتصنـع ، فلم يبـد عليه سوى وهن بسيط ، أخفت وراءه ما قاسته البارحة من إهانة لأنوثتها ، وامتهان قاتل لكرامتها !..

كان على أقربائها العودة إلى بلادهم .. فصاحبتهم إلى المطار ، معتذرة ، لغيـــاب مراد ، تعب مفاجىء ادعت أنه منعه من مغادرة الفراش ..

تبسم لها هلال ابتسامة ذات مغزى ، وهو يستقل الطائرة التي أقلته إلى بلاده !..

وإذ اقترب موعد رحيل طائرة قطر الندى نحو بلادها ، ادعت ميساء الإعياء ، هرباً من الإجابة على أسئلة أختها الملحة حول ليلة الزفاف !..

ما كاد آخر المدعوين يترك المطار ، واستقلت سيارتها عائـــدة إلى القصر ، حتى أحست ،وهي تقترب منه ،وكأن خنجراً مثلّماً يغوص في صدرها ببطء وإمعان !..

أدركت ، لأول مرة ، أنها باتت في منفى وليس في وطن جديد ..

وأحست أنها تعود إلى سجن رهيب .. لا إلى قصر ، وزوج ، طالما حلمت بها..

أين اختفى مراد ؟.. ماسر اختفائه ؟.. متى سيعود ؟.. لماذا لم تستغرب نائلة اختفاءه ؟!..

رغبت في البكاء .. ولسبب لم تدركه ، ومضت صورة هلال في ذهنها !..أهكذا أحس هلال ، حين كان يتيه فيما يدور حوله من مكائد !؟..

أهكذا أحس ، حين لم يعد يرى غير عيون محدقة به ، لايدري ، أيها تملك زمام قدره ؟!..

* * *

الفصل الرابع

عادت قطر إلى بلادها تحس و كأنها تحمل جميع هموم الدنيا على صدرها ..

ولأول مرة ، وقفت وحيدة ، تجابه ثورة جعفر الذي جن لسماع نبأ اجتماعها بزوجها أثناء حفل زواج ميساء !..

أين أختها تستأنس بنصحها ، وتستفيد من دهائها ؟..

أين فراس ، تتذمر أمامه من تصرفات جعفر وطيشه ، فتفرغ ما في صدرها من ضيق وغضب ؟..

عادت وحيدة ، واجمة ، إلى قصرها .. لتمضي فيه ليلًا طويلًا لايطاق !.. ليلًا تقلّب فيه مشكلاتها ، وتحار فيما يحسن صنعه إزاء ثورة جعفر وتمرده ..

لم يجدها شرحها له أن هلالاً قد قرر طلاقها ، وأنه ، إن لم ينفذ قراره بعد ،فذلك تلبية لتوسلات ميساء له بالتمهل إلى ما بعد حفل زفافها ..

حارت كيف تفهمه أن عليه أن يلجم لسانه ، وأن يحتاط لما يعلنه أمام الناس عن علاقته بها ، وإلا فإن هلالاً لن يتوانى عن حرمانها من رؤية ولدها ، بعد الطلاق، فيما لو ثبت له أنها على علاقه به ..

و كأن القدر لم يشأ أن يطيل حيرتها .. لم تنقض أسابيع على تلك الحال ، حتى أتاها ساعي البريد يحمل لها الإشعار الشرعي بأن طلاقها قد تم .. وأنها أصبحت ،ابتداء من ذلك التاريخ ، حرة في أمرها ، لاعلاقة لها من قريب أو بعيد بأبي وحيدها !..

ليس في الكون مثل المرأة الشرقية تعرف مرارة ذلك الطعم الغريب من الذل والمهانة حين تقرأ ذات صباح في بريدها ..أنها طالق !.. وأن ذلك الذي فتحت له يوماً قلبها وجسدها ، قد بصق عليها ، وركلها ، فهز كيانها ، وصدع ثقتها بنفسها ، وأعادها إلى ما كانت عليه قبل الزواج ، بمراحل ..

كان زواج قطر ، رغم تصدعه ، الخيط الواهي الذي يشد كيانها إلى بعضه .. يعطيه الشكل الذي تتناقله نساء مجتمعها من جيل إلى جيل ، غير عابئات بتفاهة معنى هذا الزواج ، أو بضحالة بنيانه !..

انقطع الخيط الواهي .. وانهار الكيان المتصدع !.. ورغم أن قطراً هي نفسها التي هرعت عائدة إلى غرفتها لتجلس على فراشها وتعيد قراءة تلك الورقة المرة بعد المرة ، ورغم أنها استجمعت قواها ، وراحت تذكر نفسها بأنها طالما ترقبت تلك النتيجة ، وأنها ستنعم الآن بحريتها .. وستتفنن في إنفاق ما جمعته من ثروة مفاجئة .. وبأن الف من يتمنى الزواج بها .. وبأن .. وبأن .. حتى أغرقت نص تلك الورقة في ذاكرتها ، فكادت أن تنساه لتوها .. إلا أنها أدركت ، رغم تعاميها ، بأنها لم تعد تلك المرأة التي تمشّت نحو ساعي البريد منذ ساعة من الزمن لتتسلم ذلك الإشعار .. وأن أثمن جزء من كيانها قد مات !.. دفنه ذلك الطلاق إلى الأبد !!..

هرعت نحو الهاتف .. وعمدت إلى الاتصال بمكتب زوجها .. زوجها السابق .. لتستفسر عن مخصصات ولدها ، وخدم قصرها .. فقيل لها ببرود إن تلك المخصصات مازالت سارية ..

لم تستهدف المال وحده من وراء ذلك ..

كان ما أغدقه جعفر عليها ، حتى ذلك الحين ، يوازي أضعاف ما نالته من هلال !..

أرادت أن تعرف مصير ابنها ، ومقدار سخط هلال عليها .. فهدأت حين سمعت جواب مدير المكتب ، وقررت على الفور إخفاء أمر طلاقها عن الناس ..

تراءى لها ، أول ما تراءى ، ما سيقدم جعفر عليه فيما لو علم بالطلاق ، تصورت جرأته ، وأمراً لن يتوانى عن طلبه منها من الوفاء بالوعد الذي قطعته له على نفسها !..

اقشعرت لتصورها طلب جعفر الزواج منها على الفور !..

صعقت حين دوى جرس الهاتف ، وسمعت صوت جعفر يهنئها بالطلاق !..

كادت تصيح غاضبة ، لكنها استدركت نفسها ، وسألته باللهجة المناسبة ..
ــ .. وكيف عرفت بالأمر ؟..
أجابها هازئاً .. منتصراً ..
ــ وهل يخفى عني شيء مما يتعلق بك ؟!..

أحست وكأن انتصاره كان عليها هي ، لا على هلال .. وأن هزأه كان من مراوغتها ، وليس مما تدعيه أمامه من ضعف ..

جاءها صوته سليطاً ، متحفزاً ..
ــ مالك تصمتين ؟.. ألن نحتفل بهذه المناسبة ؟.. متى أراك ؟..
ــ اليوم .. أو غداً ، في المكان المعهود .. سأتصل بك مساء .. لنعين الساعة ..
سمعت ضحكة طويلة ، وتراءى لها وجهه يغشى من الضحك ..
ــ كنت أعلم أنك ستقولين ذلك !.. لقد راهنت نفسي على أنك ستقولين ما قلت !!..
تصورت جعفراً وهو يمسح طرف عينه برأس أصبعه الصغير المدجج بالخاتم الماسي .. فأجابت ..
ــ وما الغرابة فيما أقول ؟..
ــ أبدا ، أبدا !.. « المكان المعهود » !.. « الساعة الفلانية » !..
ثم جاءها صوته خشناً ، متوعدا ..
ــ .. لمَ التخفّي بعد اليوم ياقطر ؟!.. ألستِ الآن حرة ؟..ماذا تخشين !؟.. سآتي لزيارتك في دارك .. بعد قليل !..
صرخت قطر عالياً ..
ــ .. في داري ؟!.. هل جننت ؟!.. وحجّاب هلال ؟!.. هل نسيت أنهم لايزالون عندي ؟!.. وعبده سرور ؟.. هل نسيت أنه لايزال يخدم ابنه ؟!.. ماذا سيقولون ؟.. سيؤكد ذلك للجميع كل ما قيل عن علاقتنا !.. مالك لايهمك أمري .. ولا تأبه لسمعتي ؟!..

أخذ جعفر نفساً طويلاً ، سمعته على الهاتف .. ثم أجاب كمن يضبط نفسه ويتمالك غضبه ..

ــ أما آن لهــــذه الأغنية أن تنتهي ؟!.. ممَّ الحذر ياقطر ؟.. وممن تخافين بعد اليوم !؟.. أتظلين تحت رحمة هلال ، حتى بعد الطلاق ؟!.. وما قصة ابنك هذه ؟.. أفي نيتك أن تبقي تحت رحمته .. إلى الأبد ؟!..

كان صوته قد بدأ يرتفع ، حتي اضطرت إلى إبعاد سماعة الهاتف عن أذنها ..

ماذا تفعل .. و كيف تمنع غضب جعفر من الانفجار ؟..
نسيت الضربة التي تلقتها حين أنبئت بأنها طالق ..

أحست أن عليها أن تفلت من براثن هذا الذي جاء يطالب بها كجزية استحقت على خصم مغلوب على أمره !..

لم يعد جعفر ذلك العاشق الذي يسعى إلى حظوة عندها ، ترضيه الوعود ، ويعيش ، لا يحسب من أيامه سوى التي تحييها خلوة معها !..
سيطالب بعقد زواجه عليها ، اليوم ، لو أمكنه ذلك !..

أحست بحبيبات العرق تتجمع على جبينها وعلى شفتيها .. « زوجة لجعفر » !!.. أتهوي إلى هذا الدرك .. من « أميرة » إلى « زوجة حاجب لأحد الأمراء » ؟!..
وأقوال الناس ؟.. وأصدقاؤها ؟.. وعائلتها ؟.. ألم تنكر أمام الجميع أنها على صلة بجعفر !؟..
ألم تتهم ، وأختها ، فراساً بحياكة هذه العلاقة ؟!.. ألم تدعيا أنه كان يسعى وراء ميساء ؟!.. كيف تتزوج به اليوم فتؤكد للجميع أنها على علاقة سابقة به ، وتعرض نفسها لنقمة هلال ، وحرمانه لهــــا من ولدها ؟!..

سيطبق جعفر عليها لامحالة .. وليس في الكون ما سيمنعه اليوم من دخول دارها فيحل بها ما تخشاه !..

كان عليها أن تجد حلا يرضيه ، ويمنعه في الوقت ذاته ، من زيارتها .. مخرجاً ، تتابع منه الأمور مجراها السابق ..

ــ قطر .. أراك لاتجيبينني ياقطر .. مابك ؟!..

ومضت في رأسها فكرة .. قالت بحزم وهدوء ..

ــ .. لا !.. لن أبقى تحت رحمة هلال إلى الأبد .. لقد وعدتك بالزواج ، وسأبر بوعدي !..

لم يكن جعفر قد أقدم على ذكر الزواج بعد ..

صوت من أعماقه كان يحدثه بأنها لن تقبل به زوجاً .. فخشي رفضها له .. ولم تكن نقمته ، وثورته عليها ، سوى نتيجة لذلك الشعور الخفي !..

أما وقد سمعها تتفوه بتلك الكلمات ، تبشره من تلقاء نفسها بالزواج ، فطار لبه ! وعاد قلب العاشق يدق في صدره ، حتى ليكاد ينفجر فرحاً وسعادة لما أنبأته كلماتها عن حب صادق له !..

تابعت قطر كلامها ، بحزم ودلال ..

ــ إنما هنالك أمر أطلبه منك .. شرط مؤقت ، لابد منه ..

ــ .. أي أمر تطلبين ياقطر لا أنفذه في اللحظة ذاتها .. قولي !.. ماذا تريدين؟..

ــ أن نعقد زواجنا في السر ، ويبقى أمره سراً بيننا .. نبقى كل في داره أمام الناس ، للفترة الأولى على الأقل !.. أبرهن لك عن إخلاصي .. وأتجنب نقمة هلال ، فأحتفظ بولدي ..

ــ حسناً !.. لنلتق إذن هذه الليلة في المكان المعهود ، ونتدبر الأمر !..

وبعد أيام .. تم زواجها سراً على جعفر !..

أدارت قطر الندى قرص الهاتف على رقم دار فراس ..

كان هذا في باريس ، فخرجت زوجته لها ..

ـ ألو .. ألو .. أهذه أنت ياعزيزتي ؟.. اسمعي ، لدي نبأ مفاجىء يجب أن أطلعك عليه ..

ضحكت زوجة فراس ..

ـ ماذا ؟.. حكاية عشق جديد ؟!..

ـ بل نهاية جعفر !.. يود الزواج مني .. آه صحيح .. لقد نسيت أن أخبرك .. لقد تم طلاقي منذ أيام !..

شهقت زوجة فراس ، ثم ضحكت ..

ـ حقاً ؟.. سآتي لزيارتك حالاً !.. لكن .. اسمعي ، لدي أنا الأخرى مفاجأة لك !..

وبعد أن أطلعت قطر صديقتها على تفاصيل الطلاق ، ثم على الحاح جعفر عليها بالزواج .. أخفت عنها نبأ زواجها السري ، وسألتها ..

ـ لكن .. ما المفاجأة التي تخفينها عني ؟..

قالت زوجة فراس ..

ـ سأصبح أنا الأخرى حرة مثلك .. بعد أشهر قليلة !..

قالت ذلك ضاحكة ، فبهتت قطر الندى ، وعادت إلى السؤال ..

ـ .. فراس ؟!.. هل حدثك عن الطلاق ؟..

ـ بل أنا التي سأطالبه بذلك !..

أخفضت صوتها .. وتابعت ..

ـ .. مجبرة ياعزيزتي .. مجبرة !.. فهو لم يعد من أوروبا منذ أن مضى إليها ، قبيل زواج ميساء من مراد !..

تعجبت قطر ..

ـ ولماذا تطلبين الطلاق ؟!..

سرّت هذه لاهتمام قطر بقضيتها ، فبدأت تشرح لها وضعها وكأنه على غاية من التعقيد .. إلى أن أنهت حديثها قائلة ..

– لقد قضي على زواجنا منذ أمد بعيد .. أظن إن كان في نية فراس الطلاق منذ أن اكتشف أمر زيارتك وجعفر لدارنا أثناء غيابه في مصر .. وأمر السيارة التي أهداني إياها جعفر .. والتي ادعينا أنها هدية منك !.. ثم أتت قصة صديقته « لورا » .. أتذكرين ؟.. عندما حكمنا أن تلك العجوز لابد قد أطلعته على مكالمتنا الهاتفية ، وتهديد ميساء لها ؟!..

ضحكتا طويلاً لذكرى تلك المكالمة ، ثم تابعت زوجة فراس ..

– .. لقد تجنبني منذ ذلك الحين !.. كاد يهجر الدار كلياً .. ولم نعد نحدث بعضاً إلا فيما ندر !.. فماذا تريدين مني أن أفعل ؟.. أقضي بقية حياتي أنتظر عودته ؟!..

وجمت قطر ، وقالت ..

– ألم أنتظر أنا الأمل في عودة هلال ؟!..

قهقهت زوجة فراس متسلية ..

– لقد آنس جعفر وحدتك !.. ثم .. كنتِ أميرة على الأقل، أثناء الانتظار !.. أما أنا .. فأية فائدة أرتجي من الانتظار ؟!..

ضحكت قطر موافقة ..

– لكن .. هل نسيت الشرع ؟.. كيف تحصلين على الطلاق ؟..

– .. ولا أسهل من ذلك ياعزيزتي ؟.. عميد عائلتنا متمرس في تلافيف القضاء ، قاض سابق ، ألا تذكرين ؟.. فما علينا سوى استحضار أربعة يشهدون بأن فراساً رمى بيمين الطلاق علي ثلاث مرات .. وتنتهي القضية .. وأنال « متأخري » كاملاً !..

– ومن أين لك بمن يقبلون أن يقوموا بهذا القسم ؟!..

– .. ومن الذي لايقسم يميناً كاذباً من عائلتي ، إذا طلب منه والدي ذلك؟!..

صمتت قطر .. أطرقت متعجبة ، ثم قالت ..

– وهل يقتنع القاضي بذلك ؟!..

ـ إنها مسألة نفوذ ياعزيزتي ، وأنت أخبر الناس بذلك !.. قناعة القاضي رهن النفوذ ، أليس كذلك ؟!..

عادت الصديقتان إلى الضحك ..

أخيراً ، صار لزوجة فراس وضع يشابه وضع صديقتها ، ومثالها الأعلى .. قطر الندى !..

لئن هبطت مرتبة قطر بطلاقها وفقدانها ذلك الزوج الأمير،فإن طلاق زوجةفراس رفع ، على حد ظنها ، من مرتبتها !..

ستصبح حرة ، مثل قطر ، وستتمكن أخيراً من إظهار ما أخفته من مال،وهدايا أغدقها عليها جعفر في السر ، ثمناً لما أسدته له من خدمات .. أثناء غياب فراس !..

قالت قطر متحمسة ..

ـ يجب أن نحتفل بهذه المناسبة !..

صفقت زوجة فراس طرباً وأثنت ..

ـ .. أتعرفين كيف ؟.. نذهب إلى شقة نجوى..هل تذكرين صديقتي نجوى؟. إن لها ولعشيقها شقة فخمة في أحد أحياء المدينة المستورة !.. نأخذ المفتاح منها،ونحتفل هناك ، حتى الصباح !..

وجمت قطر ..

ـ وما معنى أن نحتفل .. إن كنا بأنفسنا هناك ؟..

ـ .. لوحدنا ؟.. مسكينة ياقطر !..

ـ ماذا تعنين ؟.. هل لديك أحد ؟!..

ـ أكثر من واحد !.. وهل عدمت الرجال !؟.. يلاحقني في هذه الأيام مهندس متزوج ، يكفي أن أطلبه على الهاتف كي يهرع إلي ، حيث كنت .. ليس له وسامة فؤاد .. لكنه .. لابأس !..

ضحكت متسلية ، وتابعت ..

ـ رأى مجوهراتي .. فهو يظنني ثرية ، ولن يرفض الزواج مني إن شئت ذلـك ، حالما أتخلص من فراس .. ويتخلص هو الآخر من زوجته !..

ـ وأنا ؟.. لا أخالك ستقترحين علي أن أحتفل مع جعفر ؟!..

ـ مسكينة !.. إن جعفراً الآن في عـداد الأزواج !.. لا .. أنسيت حبك القديم .. قبل الزواج ؟!..

قطبت قطر ، وقالت بضيق ..

ـ لكن هذا باع رسائلي إلى هلال !.. هل نسيت ؟!..

ـ لا ، لم أنس !.. لكني أظن أنك ما زلت تحنّين إلى قبله .. وعناقه !..

ضحكت قطر ، ووافقت .. فتابعت زوجة فراس ..

ـ إذن .. ماعليكسوى أن تتجاهلي الرسائل و كأن هلالاً لم يطلعك على أمرها !..

فتحت قطر عينيها الواسعتين وهي تتبسم لنفسها ..

ـ ولم لا ؟.. لم لا !..

أقفلت الهاتف عن مكالمة زوجة فراس .. وأدارت رقماً مازالت تحمله في ذاكرتها منذ سنين ..

لم يأت المساء حتى اجتمعت قطر الندى وزوجة فراس بعشيقيها ، في شقةنجوى ، ليقضي فيها الجميع ليلة ليلاء .. كانت فاتحة لليال تبعتها !..

مالبثت أن انضمت إليهم في تلك الليالي نجوى ، صاحبة الشقة ، وعشيقها ، فأصبح الذهاب إلى ذلك الوكر أمر طبيعي .. يلجأن إليه مجتمعات ، أو متفرقات ، كلما تحركت في عروقهن همسات الجسد !..

في إحدى تلك الليالي ، وبينما قطر وزوجة فراس في تلك الشقة ،تنتظران وصول عشيقيهما ، تهيئان لهما الخمر والمأكولات الخفيفة ، تنبهت زوجة فراس إلى أمـــر ، فقالت ..

ـ أتدرين من التي جاءت تقضي الصيف هنا ؟..

ـ .. لا ، من ؟..

ـ درة ياعزيزتي ، درة !..

هزئت قطر من سماع هذا الاسم ، وقالت ..

ـ ألا تزال هذه على قيد الحياة ؟.. ظننتك ستقولين إن الآغا خان قد أتى !..

ـ .. كيف لم تتساءلي عن مصيرها بعد أن تخلى والدها عن السلطنة !؟..

نظرت إليها قطر متعجبة ..

ـ حقاً ، ماذا حل بها ؟.. أتعلمين ؟.. كدت أنسى وجودها !.. لكن ، كيف تأتي إلى هنا ؟.. كيف سمح لها بمغادرة البلاد ؟..

ـ إنه السلطان الجديد .. يالها من ماكرة !.. عرفت كيف تتدبر أمورها معه !.

ـ حقاً ؟.. كيف تدبرت ذلك ، وهي ابنة السلطان المعزول ؟..

ـ ستدركين مكرها حين أخبرك عما فعلت !..

كانت حال درة قد ساءت بعد فشل خطتها في زواج أخيها من ميساء !..

هجرها أخوها البـــدر وصحبه ، ونقم والدها السلطان عليها ، إلى أن باتت تخشى الظهور أمام أي جمع يضم أفراداً من عائلتها ، لما كان ذلك يثير بينهم من نقمة وحقد على ما ألحقه فشلها عليهم من إهانه وعار ..

لجأت إلى السكر ، وعادت ، كعادتها .. للعربدة ، والمجون ..

زادت من ذلك حتى أسرفت .. ليلة علمت بزفاف ميساء !..

اضطروا في تلك الليلة لنقلها إلى المشفى لمعالجتها ، لفرط ما تناولته من خمر ، فما إن شفيت ، وجاءها عقاب والدها ، بالحد من مخصصاتها الشهرية ، حتى بيتت الانتقام منه ،ومن كل من لف حوله !..

سنحت لها الفرصة المناسبة حين علمت من أختها الكبرى أن هنـالك من أخـــبر

السلطان عن مؤامرة يدبرها له عدد من أخوته المتمردين على سلطته .. مؤامرة ينوون فيها الإطاحة بعرشه ، ونفيه من البلاد !..

علمت درة من أختها أن السلطان قد نصب لأخوته هؤلاء كميناً ينوي إيقاعهم به ، والانتقام منهم شر انتقام !..

كانت أختها هذه من المقربات إلى والدهما ، فدأبت درة عليها حتى علمت منهـــا تفاصيل الكمين، مؤكدة لها أنها ستعمل جاهدة لإيقاع المتآمرين فيه !.. كيف لا؟.. وهي أولاً وآخراً ابنـة السلطان .. وأي ضرر قد يحيق بسلطته ، سيلحق بجميـــع أبنائه ، لامحالة !..

ما كان منها ، في الليلة ذاتها ، إلا أن تسللت نحو قصر عمها ، رأس هؤلاء الإخـوة المتمردين ، فأنبأته عن تفاصيل الكمين ، مدعية أنها تخون والدها ، لا كرهاً به ، بـل درءاً بسمعة العائلة من أن تصل إلى الحضيض ، وأجلالاً لأواصر القربى !.. ثم ،خوفاً من أن يصل الجنون بوالدها إلى تنفيذ خطته بقتل إخـوته ، وذلك ليس جرماً لا يغتفر فحسب ، بل نهاية ملك العائلة برمّتها !..

سألت قطر متعجبة ..

ــ أدرة أذن هي التي حرضت أعمامها على الانقلاب على والدها ؟..

ــ بل كانوا قد عزموا على ذلك من قبل .. إلا أنهم كانوا قـلة مترددين في بادىء الأمر ، فلما أتتهم درة بنبأ الكمين ،وأكدت أن والدها ينوي قتل المتآمرين منهم، ثارت ثائرة جميـع الإخوة !.. فالتف المترددون حول أكبر إخوانهم ، وأطاحوا بالسلطـان بأقل من ومضة عين !..

ــ ومن أخبرك بهذه التفاصيل ؟..

قريبتي سعاد .. وصيفة أم جوهر ، هل نسيتها ؟!.. كانت من بين اللواتي ركبن طائرة السلطان ، مع سيدتها ، إلى منفاه !..

ــ ودرة ؟.. أتنوي قضاء الصيف هنا ؟.. أين ؟

ـ لقد ضاعف السلطان الجديد من مخصصاتها ، ثناء لها على ما قامت به !.. وما عليك سوى النزول في فنادق المصايف الكبرى لتتلقّفي فضائحها !.. تسمعين أخبار لياليها الماجنة على ألسن الندال ، يتناقلونها وكأنها قصص الزير !..

ـ يالها من فاجرة !.. ألا تستحي ؟!..

ضحكت زوجة فراس ، وقالت ..

ـ لولا نقمتها علينا لما فعلته ميساء بها .. لجال في خاطري أن ندعوها للانضمام إلى شلتنا اللطيفة !..

قُرع الباب ، فقامت زوجة فراس تستقبل القادمين شاردة ، خلافاً لعادتها ..

سألها عشيقها ..

ـ مالكما على هذا الشرود ؟..

تنبهت قطر الندى .. قالت ، وهي تغمز بعينها إلى صديقتها ..

ـ ولِمَ تأخرتما ؟!.. ليس في صداقتكما هذه ما يسرّ أحداً !.. والله إن عدتما إلى التأخر بعد اليوم ، فلن تلوما سوى نفسيكما !..

هزأ عشيقها منها ، وقال مازحاً ..

ـ وما الذي تستطيعان فعله ؟..

ـ نستبدلكما بغيركما .. على الفور !..

علّق الآخر ضاحكاً ..

ـ ومن أين لكما من كان على مثل رجولتنا !..

ـ ها .. الرجولة في هذه الأيام تشترى بالمال !.. ولا يخفاك أني لست فقيرة !..

في ليلة أخرى ، أمسكت قطر الندى بالهاتف تطلب صديقتها ..

وبعد حوار قصير ، قالت ..

ـ هل الشقة شاغرة هذه الليلة ؟..

ـ طبعاً .. إنما موعدنا بعد غد !..

ـ أعلم ذلك .. أرجوك أن تخبري نجوى أني سأقصد الشقة هذه الليلة .. وأود أن أكون بمفردي فيها !..

ـ برفقة الحبيب طبعاً !..

لم تجبها قطر ، قهقهت زوجة فراس وهي تسأل ..

ـ ألم يعد يكتفي بلقائين في الأسبوع ؟!.. يالك من محظوظة !.. لابد أنه يخاف أن تستبدليه بغيره !..

صمتت قطر الندى برهة ، وقالت ..

ـ أتعلمين أن ولدي لم يعد من زيارة هلال ؟..

ـ كيف ؟.. ألم يعدك هلال بأنه لن يستبقيه عنده أكثر من أسبوعين !؟..

ـ بلى !.. قال ذلك ليضمن أنني سأبعث به إليه !.. ها قد مضت ستة أسابيع على ذلك !..

ضحكت بمرارة .. وتابعت ..

ـ لا أظن أنه سيسمح له بالعودة إلي بعد اليوم !.. كانت حيلة منه .. وانطلت علي !.. لن أراه بعد اليوم ..

وفي تلك الليلة .. تركت قطر سيارتها الفخمة ، لتستقل أقدم سيارتها ، وأبخسها ثمناً !..

خلعت مجوهراتها ، وراحت تجوب شوارع المدينة النائية ، متزودة بمفتاح الشقة الخالية ، وفي مخيلتها صورة واحدة .. « بيدرو » .. وفي رأسها فكرة واحدة .. المغامرة العابرة !..

* * *

الفصل الخامس

ـ أتدري .. أني أكاد أنهي روايتي عنكم ؟..

ـ تكاد ؟.. ألم تنتهِ بعد ؟..

ـ لا .. ليس بعد .. أنتظر أمرين ..

وإذ أخذت أقلب رزمة الأوراق الكثيفة التي بين يدي ، تابعت ..

ـ الأول .. هو أن تطلعني على تفاصيل تلك الليلة في قصر مراد الصيفي .. أما الثاني .. آه لو أدري ما هو بالضبط !.. لعله إبهام ، يحيط بجميع الأشخاص الذين كتبت عنهم ..قلق، أودّ لو أخترقه فأمسك بالمفتاح المحرك .. باللغز الكامن وراءه!..

ـ إبهام ؟.. وهل أخفيت شيئاً عنك ؟..

ـ لا .. لست أقصد هذا النوع من الإبهام بل نوعاً آخر .. أتذكر قول « ميترلينك » عن خلاصة الغموض ، ذلك الغموض الذي لايتجلّى إلا ابتداء من سقوط آخر الأقنعة عن الأشخاص ؟!

ـ مالك ولهذا التعقيد !.. ألا يكفيك ما ذكرته في قصتك من حوادث ؟!..

ـ لا .. لايكفيني ذلك !.. ظننت ، وأنا أتعرف إلى أصدقائك ، أنني لن ألبث أن أجد لكل منهم إطاره الخاص .. مكانه التقليدي في مجتمعاتكم ، أتبعه فيه ، أتفحصه ، أسبقه أو يسبقني !.. وإذا بهم .. وإذا بجميع من كتبت عنهم .. يفلتون مني .. الواحد تلو الآخر ؟.. فلا هم يعيشون في مجتمع واضح المعالم والخطوط ، حتى أقيدهم بمفاهيمه ، ولا أكاد أمسك بمقودٍ ما من نفوسهم ، كي أحاول فهم بيئتهم من خلاله ، حتى يفلت هذا المقود مني .. وأعود إلى حيث بدأت !..

تبسم فراس مني ..

ـ .. أليست هذه نتيجة بحد ذاتها ؟!..

لم أنتبه إلى معنى جوابه في البدء .. ثم لم ألبث أن أصغيت إلى صداه في نفسي فأخذت بقوله !.. إنها النتيجة التي لم أكن أتوقع !..

.. لم يكن قد راودني ذلك الخاطر من قبل ..

أطرقت ، أستعيد تلك الفكرة ، وأوسّعها في ذهني ، فتزداد قناعتي كلما أمعنت التفكير بها ..

حقاً !.. ما الذي غشي بصيرتي ؟.. لاريب أن عالم الأسطورة كان في الواقع عذراً سعيت من خلاله للوصول إلى نتائج ، كان رفضي لغيرها ، إثباتاً لي أني لا شك أعرفها حق المعرفة ..

حلم.. أردته واقعاً !.. سراب ، أعرف استحالة بلوغه ، ثم أتلذذ بتعذيب نفسي في ملاحقته !..

وجدتني أقول لفراس ..

ـ حقاً .. كنت أنظم التيه .. ثم أعلّق الآمال على الخروج منـــه !.. أنظم الأحاجي .. ثم أطرحها على نفسي !..

ضحك صديقي برفق ..

ـ وهل باستطاعتك الآن أن تنهي قصتك ؟..

لم ألتفت إلى سؤاله ، بل عدت أقول ، كمن يسوقني دفع من أفكاري السابقة ..

ـ لكن هنالك أمراً سيبقى ، رغم كل شيء، أحجية بالنسبة لي !.. تمهل أرجوك.. أود أن أطلعك عليه ، ولو أنني غير قادر على التعبير عنه بالوضوح الذي أريده ..

عاد فراس إلى الابتسام ..

ـ تفضل !..

ـ .. إنه بنيان هؤلاء الأشخاص .. بل بنيان جميع من احتككت بهم أثناء زياراتي لك ، وتتبّعي لقصتك وأجوائها !.. إنه التباعد الهائل بين .. لا !.. لن أقول « تناقضات » .. فهل من مجتمع أو فرد لايحمل تناقضات ؟.. إنها الفوارق الحادة بين صفاتهم .. مزيج غريب من الصلابة والميوعة .. كأن كلاً منهم قادر على القيام ، في الوقت ذاته ، بأنبل الأفعال ، وأنذلها !.. غريب ألاّ تكون الثقافة ،والفوارق

الاجتماعية والطبيعية قد حددت بعد أقانيم للحياة والتفكير تمنع هذه الاختلاطات !..

لم أشأ العودة إلى الكلام عن «الغرب» و «الشرق».. إنما، في بلادي مثلاً، ترى للعامل نهجاً في الحياة والتفكير مخالفاً لنهج الفنان أو السياسي، أو الكاتب، أو رجل الدين، أو اللص المحترف !..

قد يتفق هؤلاء جميعاً على هدف واحد، ومع ذلك، يبقى لكل منهم عالمه الخاص، يكفيك أن يفتح أحدهم فمه أمامك كي تستدل من طريقة كلامه على ذلك !..

تابعت كلامي .. على مهل ..

ـ إن ما لا أفهمه يافراس عن عالمكم، هو هذا الحيز الحياتي الموحَّد، المترامي الأطراف، الذي يكاد يعيش جميع أفراد مجتمعكم ضمنه !.. طينة واحدة .. حيز واحد للجميع .. يخرج منه الفنان، والأديب، والورع، والسياسي، والأمير، واللص !..

ـ .. هل تقصد بذلك البيئة الاجتماعية ؟..

ـ بل الخلفيّة الموحدة لمعظم البيئات، وهي في حياة كل فرد «الحيز الحياتي» .. أي جملة الأبعاد النفسية التي يعيش ضمنها كل من هؤلاء .. العوالم، التي يكفي للفرد أن يمد أطراف نفسه .. كي يحتويها !..

أطرقت قليلاً ثم أردفت ..

ـ أكلم الأديب، أو الفنان، في الشرق، فأشعر بأن الأدب أو الفن ليس سوى رأس الهرم في حياة كل منها، وأن تحت تلك القمة يرقد التاجر، والتقي، واللص، والمومس !.. كذلك جميع الذين ذكرت .. لاتكاد تنزع القشرة عن نفس أحدهم، حتى تفاجأ بأطباق فوق أطباق من جميع الاتجاهات .. وتصفع أنفك جميع الروائح !.. وفي كل ذلك، تنضح من الجميع رائحة واحدة .. عبق واحد .. كأنهم شربوا من بئر واحدة، أو كأنهم يشكون من علة مشتركة !..

هز فراس رأسه كمن يود أن يقول شيئاً، لكني سارعت إلى الكلام، فقلت ..

ـ هل أبدو كمن يتحرّق للوعظ أو لإلقاء محاضرة ؟.. لاتخف !.. ليس في نيتي أن أفعل ذلك !.. لكم رددت في نفسي أنها قضية تطور فحسب .. أراني قد أدركت

الآن أن الأمر ليس كذلك !.. أن يزول هذا التأخر ؟.. كان معنى ذلك في اعتقادي أن يقترب مجتمعكم من طريقتنا في الحياة .. أن ينصهر التخلف في حضارتنا الغربية وتصنيعنا !.. أكاد أجزم اليوم أن هنالك ثغرة ستظــل ماثلة بيننا .. ثغرة لن أفهم كنهها !..

— أراك تعود إلى « كيبلينغ » .. « الشرق شرق ، والغرب غرب » !..

— .. لا .. ثق أنه ليس شيئاً من هذا !..

نظر إذ ذاك إلي طويلاً .. وقال ..

— لابد أنك نسيت حديثنا يوماً عن اللغة ، ومشكلة التعبير في الشرق ..

— لا ، لم أنس !.. لكن ، أتظن جاداً أن للغة صلة فيما أتحدث عنه ؟..

— وكيف لا ؟!.. ألم تقل « أكاتيم الفنان » فأشعر بكذا !؟.. وهل هنالك احتكاك عن غير طريق التعبير ؟!.. كيف تنسى ارتباط التعبير بالفكر ؟.. اللغة بالفكر ؟!.. لكن ..

وأشار بيده إشارة يائسة ..

— كيف لك أن تفهمني ، وأنت غربي ، لم تفكر يوماً إلا بما تستطيع أن تتداوله من كلام ، أن تعيشه أثناء يومك !؟..

— ها قد عدت إلى الأحاجي !..

— بل إلى الواقع ، كل الواقع !.. إن ما لا تعلمه عنا ، عن مأساة الفصحى والعامية في حياة الشرقي ، هو تأثير هذا الازدواج على تطوره ، وعلى غنى حياته النفسية !.. إن وجود هذين النقيضين يجري عملية استقطاب في نفسه ، تستنزف تطوره ، التطور الذي تبحث عنه أنت ، يتجه الفكر عامة ، والمركَّز منه خاصة ، نحو الفصحى ، التي لايتداولها الشرقي أثنــاء يومه ، بينما يجفّ واقعه ، ويتحول إلى ماهو عليه من مد وجزر .. تارجح بين ما أسميته بالشدة والمبالغة ، من جهة ، والميوعة ، من جهة أخرى !.. بين الأبداع .. والرتابة والتفاهة !!..

— لم أفهم !..

— ولن تفهم ذلك مالم تتكلم لغتنا ، إلى جانب عدد من اللغات الأخرى ، فتحس بالفرق الشاسع بين طريقتك وطريقة الشرقي في التعبير ، فتدرك الفقر الذي يعانيه في

التعبير أثناء حياته اليومية .. فقرأ يصبح ، هو نفسه ، حياته اليومية !.. عالم ضحل تعوّده ، ركاكة .. لايجد مايجتر غيرها ، تنساب مع دمه ، تؤكد في نفسه حب الاجترار ، حتى تصبح في النهاية الجزء الأكبر من كيانه !..

ضقت بما سمعت ..

ـ وكيف تستسلمون لهذا الواقع ؟!.. عليكم ببتر أحد هذين القطبين !!.. أو دمجها !!..

ـ رأي .. قوله أسهل من تطبيقه !..

ـ أجبني ، من الوجهة النظرية على الأقل ، لئن تعذّر فرض الفصحى على الشرقيين ، أليس في استعمال العامية ، مثلا ، مع محاولة إغنائها ، حل لهذه المشكلة ؟.. أليست هنالك محاولات تجري في هذا الاتجاه ؟..

ـ بلى .. مع الأسف ، هنالك محاولات ينادي بها بعض الأدباء .. كأنها مسألة قواميس ، وكتب قواعد !.. إنهم جهلة .. جهلة ومتطفلون !!.. يظنون أن العامية لاتنقصها سوى القواعد والمفردات !.. كأن اللغة هي جمع أو طرح للمفردات .. أو حتى صياغة لها !.. اللغة ، ياصديقي ، هي واقع .. وفكر !!.. والفكر هو لغة و واقع !!.. ورغم أن الإنسان يعبر عفوياً عن هذا الترابط الدائري برموز تبدو بسيطة ، تُلفظ ، أو تُرسم بأشكال نسميها «حروفاً» «وكلمات» ، إلا أن وراء مختلف طرق التعبير التي تبدو عفوية للجاهل ، وراء هذه الطرق ، بناء ميكانيكياً معقداً ، يولد الطفل مزوداً باستعداد هائل لتنميته .. تطوره الأجيال والحضارات ، حتى يصبح في النهاية مانلقبه اليوم « لغة » !.. صرح هائل !.. ما أبعد الأدباء عن فهم مقوماته !!..

ـ ومن يفهم مقومات اللغة إن لم يفهمها الأدباء المتمكنون من لغتهم ؟!..

هز رأسه ساخراً ..

ـ إن هذه هي مشكلتنا بالذات !.. كلما جاء ذكر اللغة ، تنطّح إلى بحثها الأدباء !.. أنا لا أتكلم عن هذا النوع من الفهم !.. ولا يهمني الإبداع الفردي في مجال الصياغة ، ولا فهم الأدباء لعدد لاحصر له من المفردات ، أو سعة تمكنهم من القواعد !..

إني، ياصديقي ، أتكلم عن « علم اللغة » .. أي علـــم « السيانتيك الحديث » والـ«سيميوتيك». .والـ «سنتاكس»المنطقي ، والرياضي ، الكامنين وراء أية لغة !..

راح ينظر إلي ملياً ويتابع كلامه ببطء وهدوء ..

ــ إن أية جملة تقال ، أكانت بليغة أم ركيكة ، أكانت فصحى أم عاميـة .. إن هي إلا معادلة رياضية !.. نعم، معادلة رياضية !.. وهذاليس وصفاً أو تشبيهاً!.. أرجوك أن تفهم ذلك !.. بل معادلة رياضيـــة حقيقيـة ذات رموز جبرية !.. والـ « سنتاكس » ، هو بناء العلاقات بين رموز هـذه المعادلة ، والتي لايمكن للإنسان أن يعي جملته ما لم يرتكز تركيبها ، ويتقمص هذا الشكل الرياضي!.. إن غنى اللغـة ياصديقي ليس في كثرة مفرداتهـــا ، أو تعقيد قواعدها .. بل في غنى هذا الـ « سنتاكس » المنطقي الرياضي ، والذي لا وجود لأية لغة أصلاً بدونه !..

ــ حسناً .. وأين هي المشكلة في العامية عندكم ؟..

ــ العامية لاتفتقر إلى « سنتاكس » اللغة الناضجة فحسب .. بل إن ما تتبعه من « سانتاكس » ، هو بالذات نتاج أقسى ماعرفه الشرق من عصور الانحطاط !.. إن العامية تتقمص هيكلا تمخض عنه عصر الخنوع والذل .. برّص ، نتـوارثه !.. فكيف لاتود للشرقي اليوم أن يعكس هذا العالم في تفكيره ، وهو لا يعرف غـــير مقوماته ومصطلحاته منفرجاً لفعاليته الذهنية اليومية !!..

بدا الانفعال على وجه فراس ، فضحكت..

ــ لم أدر أنك عالم لغات ، إلى جانب عديد هواياتك !..

ــ وكيف أدعي أني كذلك .. وهو علم حديث ، والخبراء فيه قلة في العالم ؟!..

ــ قل لي !.. هل ينطبق قولك هذا على جميـع اللهجات العامية ؟..

ــ لا طبعاً !.. الـ « أرغو » في فرنسا مثلا ، قضية اختلاف مفردات .. أو فقر فيها !..إذ أنه يعتمد «سنتاكس» اللغة الإفرنسية الناضج .. ولست أقول الكامل!..

ـ لحظة أرجوك !.. كيف أطبق قولك هذا على أصـدقائك ؟! .. فأنا لم أسمعكم يوماً تتكلمون سوى الإفرنسية !.. قطر .. ميساء .. وزوجتك ..

ـ .. صحيح .. ولا بد أنك لاحظت أنها إفرنسية من نوع خــاص! إفرنسية مترجمة .. لايتكلمها الإفرنسيون !.. قطر وميساء وزوجتي لايتكلمن أية لغـة بحد ذاتها ..رؤوسهن ليست سوى سلال تحتوي مفردات من كل حدب وصوب!.. كلمات تتأرجح بين صور ركيكة عن بنيان العامية والإفرنسية والفصحى !!..

ـ لئن خرجتَ لأهل بلدك بهذا التفسير اضياعهم .. أفلا تظن أنهم سيرفضونه .. ويهزؤون منك !؟..

ـ .. طبعاً !.. وهل يمكن للمتخلف إلا وأن يهزأ ممن يشرح له أحـد أسباب تخلفه ؟!!..

صمتنا برهة .. وإذ عدت أنظر إلى صديقي ، قلت ..

ـ مالك تبتسم ؟..

ـ صورة جالت في ذهني .. لاعلاقة لها بالعلم ..

ـ وهل لي أن أعرفها ؟..

ـ إنها تتعلق بالفصحى .. فالفصحى ماثلة عندنا في رؤوس الشرقيين كـ « غرف الضيوف » .. كصالونات طبقتهم المتوسطة !.. لاتفتح أبوابها إلا للوجهــاء .. وفي المناسبات الخاصة !.. أرى الكلمات الرنانة كالصور البرّاقة ، والأواني المذهبـة ، التي يزينون بها هذه الصالونات ، من غير ما ذوق !!..

قطع ضحكي كلامه ، فتوقف ، ثم سألني ..

ـ هل أتابـع ؟..

ـ أرجوك !!..

وإذا به يردف ساخراً حزيناً ..

ـ أما العامية .. فهي كغرف جلوسهم .. تعكس حياتهم اليومية !.. يعيشون فيها في جو أفقر من واقعهم .. لايستقبلون فيها سوى الأقارب والبسطاء !..

ـ فقراء ؟!..

ــإن شئت !.. لكنهم فقراء يظنون أن لديهم ثروة مخبأة في طريقة تعبير فصحى أنتجها عالم لانعرف عنه سوى ما تسرب إلينا عنه عبر رقابة لاتقبل النقـد !!.. سمك مجفف ، نُجري عليه محاولات لا آخر لها كي يبدو وكأنه طازج !..

ــ هل يفهم من ذلك أن غرفة الجلوس هي واقعهم الحقيقي ؟..

ــ بل الدار بأجمعها !.. بغرفة الضيوف.. العديمـــة الذوق والقليلة النفع .. وكذلك بغرفة الجلوس .. البسيطة .. المهلهلة !..

ــ ألا مجال للفصل إذن ؟..

ــ وهل تعرف شرقياً يقبل طائعاً الاستغناء عن غرفة الضيوف في داره ؟!.. أو يقبل أن يجعل منها غرفة جلوس له ؟!.. غرفة لحياته اليومية ؟!..

حدقت فيه ..

ــ أنت يافراس !.. وهل أنسى دارك الواسعة الأرجاء ، التي أزحت جدرانها ، حتى باتت غرفة شاسعة واحدة ؟!..

ضحك ..

ــ مالك ولداري ؟.. دعني وشأني !..

ــ ألن تعود إلى دارك ؟!..

ــ بل سأعود !..

ــ إلى دمشق إذن !..

ــ إلى داري في دمشق !.. لا إلى دمشق بحد ذاتها ، ولا إلى داري ، منفصلة عمـا يحيط بها !.. إلى ، « داري في دمشق » ..

ــ أدرك ماتعني !.. إنما .. أليست دارك ، وما فيها من نفسك ، جـــزءاً من دمشق ؟.. من دمشق التي تحب ؟!..

ــ بالله عليك !.. ألم تمل محاولات الربط هذه ؟..

أجبت كمن يدفع تهمة عنه ..

ــ ولم أمله ؟..

ــ إلام تهدف ؟.. وما طائلة هذا الربط ؟..

ـ أحب أن أرى الأشخاص والأحداث ضمن خلفيتها الواسعة.. من منظار مكبر..
قاطعني قائلاً ..
ـ أراك.. وقد استرحت من أمر أصدقائي ،تعود لتلقي بشباكك حولي ؟.. ألست الآن تبحث عن إطار تحيطني به ؟!..
ـ من الجائز !.. لكنه ليس إطاراً بالمعنى السطحي للكلمة !..

أحسست بأن الحجب قد سقطت .. وأنه لن ينفعني اللف ولا الدوران !.. فتابعت على الفور ..
ـ إنك تعرف أنني أبحث عن أمر فيك ، لست أدري ما إذا كنت أدرك كنهه حق الإدراك !.. فراس !.. لم أعد أدري ما هو الشرقي ، وما هو الغربي فيك !.. ولم أعد أدري أي الأصلين هو الأقوى في نفسك ، أو إذا كنت حصيلة هذين الينبوعين معاً !.. حصيلة مبهمة غريبة .. أم أول برعم لنبتة لن يلبث عالمكم أن يمتلىء بالملايين من أمثالها !.. ولست أمدحك بهذا القول أو أذمك !.. إنما أنا أبحث .. وأود أن أعرفك !.. ليس نفس الشيء أن أقول « نصف كأسي فارغ » أو أقول « نصفه ممتلىء » !.. أتذكر شجرة « ريلكة » و « فاليري » ؟.. أتذكر كيف يمكن لأغصانها أن تبدو لسكان القمر كجذور تقترب منهم ، بينما تبدو لهم جذورها كأغصان تبتعد عنهم نحو أحشاء الأرض .. تسعى نحو مركزها ؟!..
أطرقت لحظة ، ثم تابعت لاهثاً ..
ـ .. أود أن أعرف الأغصان منك من الجذور !.. أود أن أعرف من أنت !.. أين تقف ؟!.. نحو أي بعد تمتد ؟!.. وفي أي اتجاه !.. ثم ..
تبسم فراس .. ثم انفجر ضاحكاً ..
ـ هون عليك ياصديقي !.. هون عليك !.. لم هذه الحدة والتطرّف؟.. شرق !. غرب !.. يخال لمن يسمعك أنك مؤتمن على مهمة ولا أخطر !.. ماذا وراءك ؟.. وهل أنت مبعوث من جحافل الغرب تستطلع ما يخبىء لكم الشرق من مقارعين ؟..

هززت برأسي يائساً ..

ـ أعرف أنك لن تجيبني عن نفسك !.. بل لم أعد أدري ما إذا كان بإمكانك أن تجيبني أصلاً !.. سيبقى ما أبحث عنه سراً إلى أن يأتي اليوم الذي سأفهم لغتك فيه، لغتك أنت ، فأسخر من نفسي كيف لم أستبق الجواب !.. جواباً ، لابد أنه الآن ماثل أمام عيني .. ولا أراه !..

تبسم وقال ..

ـ قل لي بربك .. ألن تمل هذه الحرب ؟!..

ـ لقد أنهكتني !.. لكنها أصبحت جزءاً من كياني!..

ـ يالك من « دون كيشوته » !..

نظر إلى ساعته ثم قال ..

ـ لقد قارب الوقت من الثامنة !.. ألا يحسن بنا أن نبدل ملابسنا ، ونسرع إلى الحفل لنصل في الوقت المناسب !.. دعنا من هذا الحديث .. قم .. هيا !..

وفي طريقنا نحو الأوبرا ، وسط زحام المارة وتطاحن سيارات تحركها أيد متصلبة ونظرات جامدة ، أو حاقدة ، أو متوثبة ، نبهني صوت فراس من شرودي ..

ـ تود أن أطلعك على ما جرى أثناء تلك الليلة .. في القصر الصيفي .. أليس كذلك ؟!..

ـ هنا ؟.. في السيارة ؟.. وليس أمامنا سوى دقائق معدودات لنصل إلى دار الأوبرا ؟!..

ـ .. وما المانع ؟.. أتظنها قصة طويلة ؟..

ـ لكن .. المرور !.. وهذا الصخب !؟..

ـ .. لم لا ؟.. ألم تبدأ تلك الليلة في مثل هذا الصخب النفسي ؟!..

زاد الحاحه من توتر أعصابي الذي قادني إليه نقاشنا قبل أن نترك الدار .. لزمت الصمت .. ورحت أتابع حركة المرور ، ألتفت ألى المارة بانتظار الإشارة الخضراء ، وأترقب كلامه ، متوجساً مما سيقصه علي ..

كان شارداً يراقب المارة مثلي .. وفجأة قال ..

ـ كنت في سيارة مراد ، ونحن في طريقنا إلى قصره الصيفي ، أنظر إلى الطريق الجبلي .. فلا أرى سوى الظلام !.. ألتفتُ بطرف عيني بين الفينة والأخرى إلى مراد ، فأراه واجماً .. يقود سيارته بسرعته الجنونية المعتادة ، لاتغير من وجومه تلك الابتسامة المبهمة التي ارتسمت على شفتيه .. إلى أن مد لي يده بلفافة تبغ .. وطلب مني أن أشعل له واحدة ، هو الآخر ..

صمت فراس ..

كنا قد اقتربنا من دار الأوبرا .. فأخذت أبحث عن مكان أترك سيارتي فيه ..

طال بي البحث ..

عاد فراس إلى الكلام ..

ـ .. قلت لمراد إنني لا أميل إلى هذا النوع من التبغ .. فضحك ، وسألني ما إذا كنت قد دخنت مثله من قبل !.. فقلت متردداً .. « بلى » .. لكن طعم هذه اللفافة غريب .. ثم تنبهت إلى ابتسامته العريضة ، فسألته ما إذا كانت تلك اللفافة تحوي شيئاً آخر غير التبغ .. فضحك ، وسألني ما إذا كان لدي من مانع ، فيما لو كان ذلك صحيحاً !.. فسمعت ضربات قلبي وأنا أقول له .. « لا » .. مصطنعاً عدم الاكتراث ..

وبعد جهد ، وجدت لسيارتي بقعة شاغرة من مكان قصي ..

رحت أزجها فيه بعصبية لم ينتبه فراس إليها .. كان شارد العينين ، وكأن الزمن قد عاد به إلى تلك الليلة التي اتجه فيها ، مع مراد ، نحو قصره الصيفي ..

سمعت صوته يقول ..

ـ ... كفّ مراد عن السرعة ، وراح يقود بهدوء وينفخ لفافته بتلذذ ... هدأت ضربات قلبي بعد قليل .. وأحسست براحة وهدوء داخليين لم أعرف مثلهما من قبل .. فأسندت رأسي إلى المقعد إلى أن سمعت مراداً يقول .. « كدنا نصل » ..

لم ألتفت إلى فراس ..
أوقفت محرك سيارتي ، وترجلنا منها ...
رفعت معصمي أنظر إلى ساعتي مستنيراً بمصباح الطريق الخافت ..
تنبهت بعد قليل إلى أنني كنت أسرع الخطا رغم ما أنبأتني ساعتي به من أن أمامنا عشر دقائق بعد على ابتداء الحفل ..
لمحت وجه فراس بطرف عيني،فوخزني هدوؤه وسكينته ، رغم خطواته السريعة التي كنت أحضه عليها ..
لاحت لنا دار الأوبرا من بعيد ..

تابع فراس قائلا ..
ــ .. وأطل علينا القصر .. شرخا قاتما ، ينبعث نور وهاج من بعض نوافذه العليا ..
أوقف مراد السيارة في الحديقة المظلمة .. ثم سمعت صرير مزلاج السور ، يقفله الحارس وراءنا .. أوقفني مراد برهة أمام درج المدخل العريض .. ثم مد لي بلفافة أخرى ، أخذتها ، هذه المرة ، وأنا أضحك في نفسي ، وابتسم منه .. ثم ، أظن أنني قلت .. « ولم لا » !..

أسرعت مع فراس نصعد درج الأوبرا .. واتجهنا نحو مقصورتنا دون أن ننظر إلى حيث كنا نسير ..
كنت أعرف الدرب ..
الدور الثاني .. مقصورة الانحناءة الجانبية .. المقاعد المنفردة التي يُرى منها المسرح ، وبقية المقاصير ، في الوقت ذاته ، بنفس الوضوح ..
أغلقت باب المقصورة خلفي ..

.. قال فراس ..
ــ .. صرف مراد الخدم الذين خفوا إلى استقباله .. ثم أطلت علينا ثلاث فتيات ضاحكات ، كن قد بدأن السمر قبل وصولنا ..

جلست واجماً أنظر أمامي دون هدف ..
بدأ العازفون يحضرون آلاتهم ..
أسرع المشاهدون يحتلون أماكنهم مستبشرين متفائلين ، مفعمين حبوراً بالقائد الشهير الذي جاء ليقود أمامهم تحفة « فاكنر » الرائعة ..
جلس فراس في مقعده دون أن يخلع رداءه الأسود الفضفاض .. فغاص رأسه في ياقته المخملية العريضة ، حتى غطت أذنيه ..
حاذت فمه السلسلة الفضية التي تجمع الياقة ، فغطت حلقاتها العريضة شفتيه ، وبدا صوته لي وكأنه يخرج من عينيه الشاردتين ..
خفتت الأنوار ..

همس فراس ..
ـ ... لا أذكر سوى حوادث الساعة الأولى ، أو ما يقارب ذلك .. ثم غرقت في تأثير اللفائف !.. أذكر خيالات مبهمــة ، تلمع وتنطفىء في ذهني ، بين حين وآخر !.. أذكر البهو الفسيح .. والمقاعد الوثيرة العالية .. أذكر الأضواء المشعشعة التي سارع مراد إلى إطفائها .. فلم يُبقِ إلا على بعض مصابيح خافتة ، مبعثرة هنـا وهنـاك .. أذكر أني رأيت « بيانو » في زاوية منعزلة .. فأقبلت عليه ضاحكاً ، باكياً ، أود أن أقبله .. جلست إلى « شومان » ثم إلى « شوبان » .. أذكر مراداً يشعل لي اللفافات ، فأتناولها منه ، مغرقاً في الضحك ، ثم أعود إلى الموسيقى ..
ولا أذكر أني عزفت من قبل قط بمثل تلقائية تلك الليلة ، وعمق عاطفتها .. أظن أني بكيت !.. لا أذكر متى توقفت عن العزف .. أحسست بلمس رخص ناعم خلف عنقي ، وأذني .. أظن أنه كان نهدي أحدى الفتيات ..

كنت أنظر إلى فراس وأحس بضيق يكاد يفطر قلبي ..
دخل « فون كاريان » القاعة ، فعلا تصفيق حاد غمرني ، لم أسمع منه سوى أصدائه تتكسر فوقي كالأمواج .. ثم صوت فراس ، إذ توقف الدويّ ، وتصلبت يدا القائد في الجو ..
ـ .. لا أذكر بعد نهدي تلك الفتاة شيئاً .. اختلطت علي الوجوه ، ولم تختلط !..

وتحركت يدا القائد ، فانبثقت الألحان حبيبات رقراقة من نبع حزين ، تتحدث عن « تريستان » !.. « تريستان » .. المحكوم عليه ، لأنه ، واسمه ، وحـــدة لا تنفصل .. لأن هذه الوحدة تدعى « تريستان » !..

تجمعت الحبيبات في جداول ، انهمرت تلهث بذكرى ما عرفه « تريستان » في الماضي من مقدرة « إيزولت » على السحر ، والحب .. معرفة أحبها ، وخشيها ، فتجنبها ، حتى إذا أعادته الظروف إلى بلاط عمه الملك « مارك » ، نسيها ، أو تناساها !..

هاهو « مارك » يجمع الجداول في نهر خضم ، يطلب هديره من « تريستان » أن يذهب إلى أقاصي الأرض ليأتيه بالمرأة التي أزمع أن يتزوجها .. ومن هي هـــذه المرأة ؟..

« إيزولت » نفسها ، من دون نساء الأرض جميعاً !..

فيركب « تريستان » البحر حذراً ، متطيراً ، مصمماً أن يواجه قدره !!..

وتوقفت الموسيقى ، تأخذ أنفاسها ، استعداداً لما كنت أعلم أنها ستجلبه من مأساة في الفصل الثاني !..

نظرت إلى فراس ، فرأيت الحزن في عينيه .. وعلى جبينه ..

أزاح السلسلة الفضية عن شفتيه ، وقال كمن كان يعيش كل اهتزازة سمعناها ..

ــ .. لم أكن أنا الآخر على علم بما هيأته نائلة !.. ثم .. من أين لي أن أعلم بما كانت تحتويه اللفافه الأولى ؟!..

وعاد الصمت بيننا من جديد ..

عادت الموسيقى تهمس عن عاطفة لا مهرب منها ، ولا قاع لأغوارها !..

عاطفة .. تفجّرها الطلاسم .. ليس لها من ند يقارعها سوى الموت .. فتمتزج به منذ البداية !..

المركب العائد يضمها ..

همس ، راح يعلو ويمتد حتى صار شهيقاً يدوي بتشاؤم « تريستان » .. وبتعاسة « إيزولت » .. برادع يذكر « تريستان » بعمه الملك «مارك» ، فيكبل قلبه ويديه !..

من أين كان له أن يعلم أن الكأس الـــتي ستقدمها له « إيزولت » تحوي طلسم الحب ؟!..

« وإيزولت » نفسها !..ألم تطلب أمها منها أن تشرب الكأس ظناً منها أن السحر سيدفع بها إلى حب « مارك » ؟!..

ويشرب الاثنان من الكأس !..

وتتجمّع الأنهر في سيل جارف ، ينحدر من بعيد فيذري كل شيء يقف أمامه !..

سيل من التعاسة ، والحب ، والألم ، والموت .. يغمر الكون بمن فيه ، فيضيع « تريستان » و « إيزولت » في أجوافه !..

لم يشأ فراس أن يترك مقعده أثناء السكون الذي أعلن الاستراحة ..

قال ، ورأسه مسند إلى كفيه المغلقتين ..

ــ .. أذكر أني فتحت عيني في ذلك القصر لأدرك أنني في فراش وسيع ، وأن مراداً يغط كالطفل في نوم عميق ورأسه على ذراعي الممدودة .. أظن أني نظرت إلى عينيه المغمضتين طويلاً !.. لست أدري لماذا برق في ذهني المتخدر أنه « تيلماك » !.. طفـــل .. يبحث عن والده !.. سحبت ذراعي برفق ، فأحس مراد بذلك .. مال باتجاهي ، لافاً صدري بذراعه .. فعدت إلى التملص بينما شد على كتفي .. إلى أن ضممته برفق ، وهمست في أذنه أنني سأعود بعد لحظات.. فارتخت ذراعه ، واستويت بهدوء .. أنظر حولي !..

كان العازفون قد عادوا إلى أماكنهم يتحضرون لأداء لحن الحب .. والموت ..

تابع فراس كلامه هامساً ..

ـ .. استويت في ذلك الفراش .. ونظرت حولي لا أفهم ما أرى .. كانت اثنتان من الفتيات متعانقتين إلى جانبي ، تغطان في نوم هـادىء .. تسللت من الفراش .. واتجهت نحو نور كان ينبعث من الحمام ، وإذا بالفتاة الثالثة تظهر أمامي عارية من خلف الباب ، وتشير لي أن أتقـدم منها .. سألتني هامسة مبتسمة .. « هل تبحث عن ثيابك » ؟.. ثم تابعت « لاتتعب .. إنها في بهو الدور الأرضي ، قرب البيانو .. حيث تركتها » .. سألتها ، وكان الأمر على غاية من البساطة .. « وهل تركنا جميعاً ثيابنا تحت » ؟.. فأجابتني مبتسمة ، مازحـة .. « كدت أستعمل العنف معك كي تتعرى ، أيهـــا الـ « أبولو » !.. » .. ثم أقبلت نحوي تقبلني بنهم مفتعل ، وتقول بتحدٍّ .. « لاتخف !.. لم تقدم على شيء لم تكن لترضى القيام به .. وأنت على كامل وعيك » !.. ألصقت جسدها العاري بجسدي .. وإذ حاولت أن تعيدني إلى الفراش ، تملصتُ منها بشقة ، ثم نزلت إلى البهو ، أرتدي ثيابي ..وأدعو أن يكون سائق نائلة في انتظاري .. كما وعدَت..

صمت فراس ..

لم أعد أذكر كيف انتهى ذلك الحفل !..

أذكر شيئاً واحداً جال في خاطري ، وأنا أشاهد موت « إيزولت » .. ثم موت « تريستان » .. وهو أن تلك الموسيقى لم تكتب لأمثالي .. وأن « فاكنر » ما كان ليستطيع أن يتحدث عن تلك القمم لو لم يرْقَها ، ولم يعشها .. ويغبّ من أثيرها القاتل الشفاف !..

أحسست بأنني مستمع .. مشاهد .. في هذه الحياة .. فكرهت فراس، وكرهت نفسي ..

* * *

يصدر للمؤلف..

- مسافر بلا حقائب
- رحلة النيلوفر

تتنازعان فتاة "طموحا"، تلهو وتعبث بعاطفتيهما،

مال "وبذخ" ومؤامرات" لا آخر لها. أغرب

أن تتخبط طبيعة الرادي "الكارتيزية" في

تناقضات، قد لا يرى الشرقي" في ظاهرها

سوى أحداث مسلية" ؟!..

"فراس".. شاب يطفو بين مرحلتين،

وهو، كما يبدو لك في "السقوط إلى

أعلى" صورة إنسان كما يراه كاتب

عربي"، لعله متحيز!.. لكن أراد القارئ

مزيداً من ملامح ذلك الإنسان.. فما

عليه سوى أن يبدأ الرحلة معه *

في "مس فربا حقائب" لينهيها

في "رحلة التيلوفر".

المؤلف

ليس الراوي في هذه القصة ستاراً يختبئ
وراءه المؤلف ، بل شخصية مستقلة بذاتها
.. كاتب فرنسي يبحث عن حلول لأسئلة
خاصة به .. دخل الشرق عبر صديق له ،
أحد أبطال هذه الرواية ، وضاع في
تلافيف طبقة متفسخة ، حاول عبثاً فهم
مقوماتها !

إنها صفحة من حكاية طبقة ، يسمع عنها
الناس .. سلاطين وملوك .. أميرتان